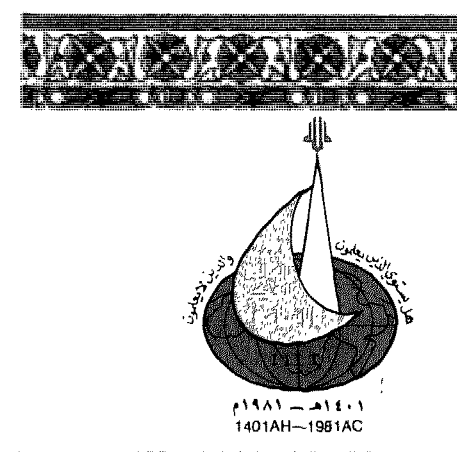
المعهد العالمي للفكر الإسلامي

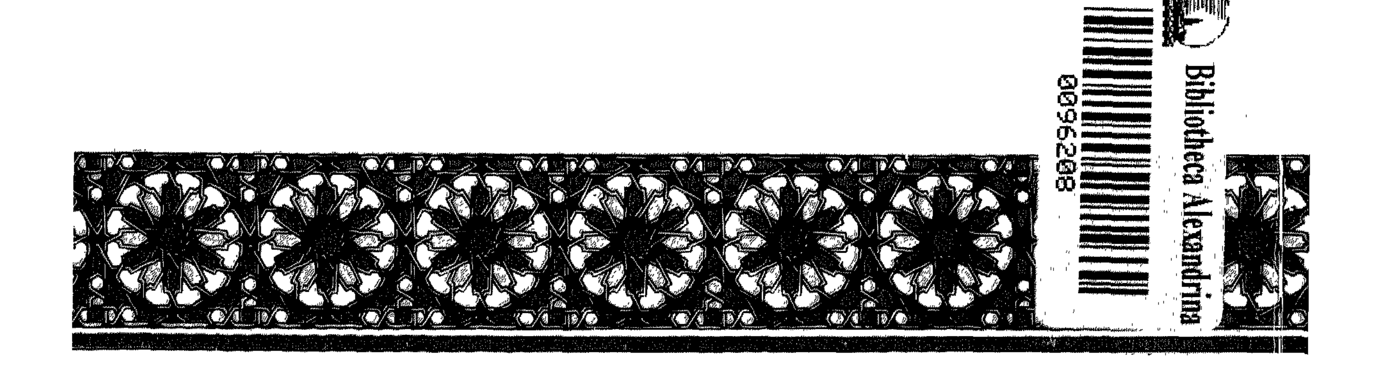


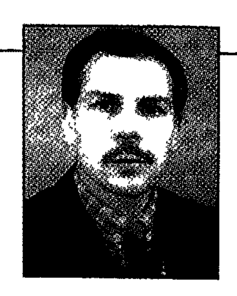
سلسلة قضايا الفكر الإسلامي (١٧)

منهج النبي ﷺ في حماية الدعوة

والمحافظة على منجزاتها خلال الفترة المكية

الطيب برغوث





الطيّب برغوث

* من مواليد ١٨ رجب ١٣٧٠هـ / ٢٥ إبريل ١٩٥١م برأس العين - الجزائر .
* حصل على بكالوريوس العلوم الإسلامية سنة ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م ، وعلى ليسانس في علم الاجتماع سنة ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م .
* درس علم الاجتماع الثقافي وأنجز فيه بحثا عن «نظرية مالك بن نبي في الثقافة» سنة ١٤٠٢هـ/١٩٩٨٢م .
* تحصل على الماجستير في مناهج الدعوة سنة ١٤١٢هـ/١٩٩٢م .
* يباشر أطروحته لنيل شهادة الدكتوراه في العلوم الإسلامية .
* عمل مدرسًا لمناهج الدعوة وفقه السيرة بجامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية بقسنطينة الجزائر ، ويشغل نائب مدير مركز الأبحاث بالجامعة .
* اختير رئيسًا للجمعية الإسلامية للبناء الحضاري .
* يطرح مشروعًا فكريًا يهدف إلى صياغة النظرية الإسلامية للبناء الحضاري ، مركزًا فيه على الأبعاد المعرفية والمنهجية والفكرية والثقافية والحضارية التي تساهم في إحداث النقلة الحضارية الضرورية للوعي المعرفي والروحي والسلوكي والعمراني الإسلامي ، ودفعه باتجاه التوافق مع سنن الهداية وسنن الآفاق وسنن الأنفس . كما يرى ضرورة بناء منهج لصناعة الفقه الدعوي الحضاري ، ومن مؤلفاته :
  - إشكالية المنهج في جهدنا التجديدي المعاصر .
  - الأبعاد المنهجية لإشكالية التغيير الحضاري وضرورة المنهج .
  - التغيير الإسلامي - خصائصه وضوابطه .
  - التوازن الكوني ورسالة المعلم .
  - القدوة الإسلامية .
  - معالم هادية على طريق الدعوة .
  - الحركة الإسلامية ومشكلة النموذج .
  - موقع المسألة الثقافية من استراتيجية التجديد الحضاري عند مالك بن نبي .
  - الأبعاد المنهجية للفعل الدعوي في الحركة النبوية .
  - الدعوة الإسلامية والسعادة الاجتماعية .
  - لمحات من الفقه الحضاري في الحركات الرسالية للأنبياء .
* له دراسات ومقالات وبحوث أخرى منشورة في العديد من الصحف والمجلات ، ويعمل محاضرًا في شؤون الحركة الإسلامية وقضايا المنهج بالجامعات الجزائرية وخارجها .

مَنْهَجُ النَّبِي ﷺ
فِي حِمَايَةِ الدَّعوَة
وَالمحَافَظَة عَلى مُنجزَاتِهَا
خِلَال الفَترَة المكيَّة

الطبعة الأولى

(١٤١٦هـ / ١٩٩٦م)

مَنْهَجُ النَّبيّ ﷺ

في حِمايَةِ الدَّعوَةِ

والمحافظة على منجزاتها خلال الفترة المكيّة

الطيّب برغوث

المعهد العالمي للفكر الإسلامي

١٤١٦هـ / ١٩٩٦م

سلسلة الرسائل الجامعية (١٧)
(المنهجية الإسلامية)

Library of Congress Cataloging-in-Publication Data

Burghūth, al Ṭayyib (1370 AH/1950 AC) —
Manhaj al Nabī ṣallá Allāh 'alayhi wa sallama fi ḥimāyat al da'wah wa al muḥāfaẓah 'alá munjazātihā khilāla al fatrah al Makkīyah / al Ṭayyib Burghūth.
p. 536 cm. 15 x 22 1/2 (*Silsilat al Rasā'il al Jāmi'īyah* ; 17)
Thesis (master's)--Jāmi'at al Amīr 'Abd al Qādir lil 'Ulūm al Islāmīyah, Qusanṭinah, al Jazā'ir, 1991.
Includes bibliographical references (p. 13) and indexes (p. 36).
ISBN 1-56564-223.6. -- ISBN 1-56564-224-4 (pkb.)
1. Muḥammad, Prophet, d. 632--Contributions in Da'wah. 2. Da'wah (Islam)--History. I. Title. II. Series: *Silsilat al Rasā'il al Jāmi'īyah* (Herndon, Va.) ; 17.

BP77.69.B874 1995
297'.63--dc20

95-202
CIP
NE

Printed in the United States of America by International Graphics
10710 Tucker Street, Beltsville, Maryland 20705-2223 USA
Tel. (301) 595-5999 Fax (301) 595-5888

المحتويات

الباب الأول
غاية الدعوة الإسلامية وخصائصها المبدئية الكبرى

الفصل الأول:

الفصل الثاني:

الباب الثاني
طبعة المرحلة المكية وأهداف الدعوة فيها

الفصل الثاني:

الفصل الثالث:

الفهارس العامة

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

إلى طلائع «البناء الحضاري الجديد» التي أَخذتْ تشقّ طريقها في ظلمات ليل الانحطاط الذي يلفّ الأُمة والإنسانية منذ قرون...

إلى هذه الطلائع المؤمنة الواعية المجاهدة للعودة بالأمة إلى قيادة ركب الحضارة الإنسانية من جديد... إلى والدَيّ الكريمين الصبورين المجاهدين...

أهدي هذا العمل المتواضع

تصدير

طه جابر العلواني

الحمد لله نستغفره ونستعينه ونستهديه ونعوذ به من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا.

الحمد لله الذي خلق السموات والأرض، وجعل الظلمات والنور، وبعث رسوله محمدًا صلى الله عليه وآله وسلم بالحق على حين فترة من الرسل وضلالة في السبل، وغفلة من الناس. بعثه والناس صنفان:

أحدهما: أهل كتاب، بدلوا من أحكامه، وكفروا بوحدانيته، وأشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا، فافتعلوا كذبًا صاغوه بألسنتهم، فخلطوه بحق الله الذي أنزل إليهم.

أنواع الضلالات التي ابتلي هذا الصنف بها:

فذكر تبارك وتعالى لنبيه من كفرهم، فقال: ﴿ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (آل عمران: ٧٨).

ثم قال: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ (البقرة: ٧٩).

وقال تبارك وتعالى: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (التوبة: ٣٠ - ٣١).

وقال تبارك وتعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴾ (النساء: ٥١-٥٢).

الصنف الثاني وضلالاته:

وصنف كفروا بالله فابتدعوا ما لم يأذن به الله، ونصبوا بأيديهم حجارة وخشبا وصورا استحسنوها، ونبزوا أسماء افتعلوها، ودعوها آلهة عبدوها، فإذا استحسنوا غير ما عبدوا منها ألقوه ونصبوا بأيديهم غيره فعبدوه: فأولئك العرب.

وسلكت طائفة من العجم سبيلهم في هذا، وفي عبادة ما استحسنوا من حوت ودابة ونجم ونار وغيره.

فذكر الله لنبيّه جوابا من جواب بعض من عبد غيره من هذا الصنف، فحكى جل ثناؤه عنهم قولهم: ﴿ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾ (الزخرف: ٢٣).

وحكى تبارك وتعالى عنهم: ﴿ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا۟ كَثِيرًا ...... ﴾ (نوح: ٢٣ - ٢٤).

وقال تبارك وتعالى ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴾ (مريم: ٤١ -٤٢).

وقال: ﴿ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ إِبۡرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَا تَعۡبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُواْ نَعۡبُدُ أَصۡنَامٗا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلۡ يَسۡمَعُونَكُمۡ إِذۡ تَدۡعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوۡ يَنفَعُونَكُمۡ أَوۡ يَضُرُّونَ ﴾ (الشعراء: ٦٩ - ٧٣).

نعمة الله ومنته عليهم:

وقال في جماعتهم، يذكرهم من نعمه، ويخبرهم ضلالتهم عامة، ومنّه على من آمن منهم: ﴿ ... وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴾ (آل عمران: ١٠٣).

فكانوا قبل إنقاذه إياهم بمحمد صلى الله عليه وسلم أهل كفر في تفرقهم واجتماعهم، يجمعهم أعظم الأمور: الكفر بالله، وابتداع ما لم يأذن به الله، تعالى عما يقولون علوًا كبيرًا، لا إله غيره، وسبحانه وبحمده، رب كل شيء وخالقه.

مَن حيَّ منهم فكما وصف حاله حيا: عاملاً قائلاً بسخط ربه، مزدادًا من معصيته، ومن مات فكما وصف قوله وعمله: صار إلى عذابه.

ظهور الإسلام ودائرة انتشاره الأولى:

فلما بلغ الكتاب أجله فحق قضاء الله بإظهار دينه الذي اصطفى، بعد استعلاء معصيته التي لم يرض: فتح أبواب سماواته برحمته، كما لم يزل يجري - في سابق علمه عند نزول قضائه في القرون الخالية - قضاؤه.

فإنه تبارك وتعالى يقول: ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ... ﴾ (البقرة: ٢١٣).

فكان خيرته المصطفى لوحيه، المنتخب لرسالته، المفضل على جميع خلقه، بفتح رحمته، وختم نبوته، وتلقى أعمَّ ما أرسل به مرسل قبله محمدًا عبده ورسوله فكانت رسالته إلى الناس كافة، ولكن لها مراحل ودوائر وبدايات وخواتيم.

فقال تعالى: ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (التوبة: ١٢٨).

مراحل الدعوة:

وقال: ﴿.. لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا.. ﴾ (الشورى: ٧) وأم القرى: مكة، وفيها قومه.

وقال تعالى: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ (الشعراء: ٢١٤).

وقال تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴾ (الزخرف: ٤٤).

فخص جل ثناؤه قومه وعشيرته الأقربين في النذارة بادئ ذي بدء وعمَّ الخلق بها بعدهم، ورفع بالقرآن ذكر رسول الله، ثم خص قومه بالنذارة إذ بعثه فقال: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ (الشعراء: ٢١٤).

تبليغ الكتاب وتبيينه جماع مهمة رسول الله صلى الله عليه وسلم:

قال الشافعي: فليست تنزل بأحد من أهل دين الله نازلة إلا وفي كتاب الله الدليل على سبيل الهدى فيها.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿ الٓر كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾ (إبراهيم: ١).

وقال: ﴿... وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (النحل: ٤٤).

وقال: ﴿...... وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ (النحل: ٨٩).

وقال: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَـٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَـٰنُ وَلَـٰكِن جَعَلْنَـٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (الشورى: ٥٢).

السنّة والبيان:

أما تبليغ الكتاب فإيصاله إلى الناس نصًا، كما أنزل دون زيادة حرف أو نقصان حرف، فعلّم الله - تبارك وتعالى - رسوله صلى الله وسلم - منهج تلقيه، ومنهج تلاوته على الناس وتبليغه لهم نصًا. وحدّد جل شأنه بنفسه كيفية إنزاله عليه، ونجومه. فنزل به الروح الأمين على قلبه - صلى الله عليه وآله وسلم -كما أراد له الله أن ينزل فقال تبارك وتعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ﴾ (الشعراء: ١٩٢-١٩٥).

فأعمال رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - مع القرآن المجيد تكاد تنحصر بخطوات أربعة:

١ - الوعي والمتابعة؛ ليستقر القرآن في قلبه ووعيه.

٢ - التلاوة والإبلاغ؛ ليصل إلى عقول وقلوب المنذَرين.

٣ - البيان والتفسير بحسب ما يحتاجه النصّ القرآني.

٤ - التطبيق العمليّ والتنفيذ الفعليّ، والربط بين النصّ القرآني المطلق والواقع النسبيّ.

والقرآن المجيد ذاته يؤكد انحصار دوره عليه الصلاة والسلام فيه بذلك، بل حتى حفظ القرآن واستقرار نصّه في وعيه صلى الله عليه وآله وسلم - تكفل الله تبارك وتعالى به فقال: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾ (الأعلى: ٦).

﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾ (القيامة: ١٧) أي جمعه في صدرك وإقراره فيه ولذلك قال له سبحانه: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ (القيامة: ١٦-١٩)

وقال له: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ﴾ (طه: ١١٤)، أي خوفًا من أن يتفلت عليك أو تنسى بعضه .

الوحي وأثره في بناء الوعي:

وأنزل عليه كتابه فقال: ﴿... وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ (فصلت: ٤١-٤٢). فنقلهم من الكفر والعمى، إلى الضياء والهدى، وبيَّن فيه ما أحل منّا بالتوسعة على خلقه، وما حرَّم: لما هو أعلم به من حظهم في الكفِّ عنه في الآخرة والأولى، وابتلى طاعتهم بأن تعبَّدهم بقول وعمل، وإمساك عن محارم، وأثابهم على طاعته من الخلود في جنته، والنجاة من نقمته: ما عظمت به نعمته، جل ثناؤه. وأعلمهم ما أوجب على أهل معصيته من خلاف ما أوجب لأهل طاعته ووعظهم بالأخبار عمن كان قبلهم، ممن كان أكثر منهم أموالاً وأولادًا، وأطول أعمارًا، وأحمد آثارًا. فاستمتعوا بخلاقهم في حياة جناهم، فأذاقهم عند نزول قضائه مناياهم دون آمالهم، ونزلت بهم عقوبته عند انقضاء آجالهم، ليعتبروا في أُنف الأوان، ويتفهموا بجلية التبيان، ويتنبهوا قبل رين الغفلة، ويعملوا قبل انقطاع المدة، حين لا يعتب مذنب، ولا تؤخذ فدية، ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ (آل عمران: ٣٠) ليجعل من جملة رسالة الإسلام الأولين أمة مخرجة للناس، وسطًا فيهم، وشهيدةً بعده عليهم وقطبًا تستقطب أمم الأرض حول الهدى ودين الحق. وما غادرهم صلى الله عليه وآله وسلم - إلا وهم على المحجة البيضاء والكلمة السواء.

الوحي والمعرفة:

فكل ما أنزل في كتابه - جل ثناؤه - رحمةً وحجَّةً، عَلِمَهُ مَنْ عَلِمَهُ، وجَهِلَهُ من جَهِلَه، لا يعلم من جَهِلَه ولا يجهل من عَلِمَه.

والناس في العلم طبقات، موقعهم من العلم بقدر درجاتهم في العلم به.

فحق على طلبة العلم والساعين إلى المعرفة بلوغ غالية جهدهم في الاستكثار من علم الكتاب، والصبر على كل عارض دون طلبه، وإخلاص النية لله في استدراك علمه: نصًا واستنباطًا، والرغبة إلى الله في العون عليه، فإنه لا

يدرك خير إلا بعونه. فإن من أدرك علم أحكام الله في كتابه نصًا واستدلالاً، ووفقه الله للقول والعمل بما علم منه: فاز بالفضيلة في دينه ودنياه، وانتفت عنه الريب، ونوّرت في قلبه الحكمة، واستوجب في الدين موضع الإمامة.

فالقرآن المجيد يؤكد أنّه لا تدخل لرسول الله – صلى الله عليه وآله وسلم فيه، ولا صنعة، وأنّه منزل عليه بلفظه ومعناه وحتى أوقات نزوله عليه ومقادير نجومه لا يعلمها عليه الصلاة والسلام قبل نزولها عليه. ﴿ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِن ...﴾ (الأعراف: ٢٠٣). وبعد أن ينزل عليه ليس له صلى الله عليه وآله وسلم – إدخال أي تعديل أو تبديل ﴿ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ ۖ ﴾ (يونس: ١٥)، ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴾ (الحاقة: ٤٤-٤٦). وبعد أن يتم نزول النجم يأتي دور قراءته على أمة القراءة، وتلاوته، وترتيله ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ (العلق: ١-٥).

﴿ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ ۖ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴾ (النمل: ٩١-٩٢).

وكانت تنزل به أو بأصحابه نوازل، وقد توجه إليه أسئلة مّا، فينتظر الوحي أيامًا لا يجيب من عنده حتى ينزل عليه وأي شيء أشد على النفس من أن يوجه المنافقون الإفك إلى زوجه، ويخوضوا في عرضه شهرًا كاملاً، ويظل صابرًا محتسبًا لا يألو جهدًا في التحري والسؤال، والجواب دائمًا (ما علمنا عليها من سوء)، ثم يقول لزوجه الصابرة في نهاية الأمر وبعد ذلك الزمن الطويل (يا عائشة، أما إنّه بلغني كذا وكذا فإن كنتِ بريئة فسيبرئك الله، وإن كُنتِ ألممت بذنب فاستغفري الله) (أخرجه البخاري) فيفرج الله الغم فما أن فرغ من قوله ذلك حتى أنزل الله عليه براءتها في أوائل سورة (النور).

وكثيرًا ما كانت تنزل عليه آيات تصويب أو عتاب يشتد أو يخف.

وهذا - كلّه - يؤكد الفرق الكبير الذي يكاد يضيع أو يضعف لدى كثير، بيْنَ القرآن المجيد والسنّة من خلال التأكيد الدائم على التسوية بينهما في الحجّية.

فإذا تبين ذلك فإنّ السنن - تختلف عن القرآن اختلافًا كبيرًا، فإنّها إما أن تكون بيانًا للقرآن دائرًا حوله، ليس لأحد أن يبحث عن بيان لذلك الجزء من القرآن في غيرها وهذا توقيفيّ تلقى رسول الله مضمونه على أنّه بيان للقرآن يجب تبليغه بألفاظِ وأفعال الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم؛ فألفاظه وإن نسبت إلى رسول الله أو تصرفاته، لكنّه وحي يوحى ينسب في معانيه وحقيقته الموحاة إلى الله تعالى.

وقسم يستنبطه رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم بفهمه واجتهاده، وتأمّله في حقائق الكون أو أحداث الواقع أو في تأمله في الوحي ذاته، وذلك من سنته - صلى الله عليه وآله وسلم - ولا شك، لكنه ليس من النوع المبيَّن على سبيل الإلزام، وينسب إليه صلى الله عليه وآله وسلم.

والنوع الأول هو (الحكمة) المقرون تعليمها بتعليم الكتاب فقال في كتابه: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (البقرة: ١٢٩).

وقال جل ثناؤه: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: ١٥١).

وقال: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (آل عمران: ١٦٤).

وقال جل ثناؤه: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (الجمعة: ٢).

وقال: ﴿ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ ﴾ (البقرة: ٢٣١).

وقال: ﴿ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ (النساء: ١١٣).

وقال: ﴿ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴾ (الأحزاب: ٣٤).

يقول الإمام الشافعي في رسالته (٢٩٨): (... وسنن رسول الله مع كتاب الله وجهان: أحدهما نصّ كتاب فاتبعه رسول الله كما أنزل الله. (ويريد الإمام الشافعي بالنصّ: ما حرّم الله وأحل نصًّا: حرّم الأمهات والجدات والعمّات والخالات ومن ذكر معهنّ، وأباح من سواهنّ. كما في الأم (٧/٢٧١).

ثم يستطرد في رسالته في الموضع نفسه، فيقول: (...والآخر جملة بيّن رسول الله فيه عن الله معنى ما أراد بالجملة، وأوضح كيف فرضها عامًا أو خاصًا وكيف أراد أن يأتي به العباد، وكلاهما اتبع فيه كتاب الله).

ويقول الإمام الشافعيُّ كذلك:

فذكر الله الكتاب، وهو القُران، وذكر الحكمة، فسمعت من أرضى من أهل العلم بالقران يقول: الحكمة: سُنة رسولِ الله.

وهذا يشبه ما قال، والله أعلم.

- لأن القران ذكر وأتبعته الحكمة، وذكر الله منّه على خلقه بتعليمهم الكتاب والحكمة، فلم يجز - والله أعلم - أن يقال الحكمة هاهنا إلاّ سنّة رسول الله.

وذلك أنها مقرونة مع كتاب الله، وأن الله افترض طاعة رسوله، وحتّم على الناس اتباع أمره - فلا يجوزُ أن يقال لقولٍ: فرض إلا لكتاب الله ثم سنّة رسوله.

لما وصفنا، من أنّ الله جعل الإيمان برسوله مقرونًا بالإيمان به.

- وسنةُ رسول الله مبينّة عن الله معنى ما أرادَ: دليلاً على خاصّه وعامّه. ثم قَرَن الحكمة بها بكتابه فأتبعها إياه، و لم يجعل هذا لأحدٍ من خلقه غير رسوله صلى الله عليه وآله وسلم.

ونقل الشافعي - رحمه الله - إجماع الأمة على قبول النوعين والعمل بهما. كما نقل الاختلاف في النوع الثالث؛ وهو ما روى عنه عليه الصلاة والسلام أنهّ سنّة مما ليس فيه نص كتاب، وليس هو من قبيل البيان للكتاب بالشكل الذي ذكرنا.

وقد نقل الإمام الاختلاف في هذا النوع، وبيّن الأقوال فيما ملخصه:

١ - القول الأول وهو الذي ينصره الإمام ويتبنّاه أنّ لرسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - بما افترض الله من طاعته على الناس أن يسن فيما ليس فيه نص كتاب.

٢ - أنّه عليه الصلاة والسلام لم يسن سنّة قط إلا ولها أصل في الكتاب كالسنن المتعلّقة ببيان الصلاة والحج والبيوع وغيرها.

٣ - والقول الثالث: أن هذه السنن التي ليس فيها نصّ كتاب إنّما هي وحي آخر هو ثابت بفرض الله تعالى. وهذا عائد إلى القول الأول ومعضد له، أو أن الأول يقوم عليه.

وهؤلاء ذهب بعضهم إلى أنّ هذه السنن التي لا نص في الكتاب عليها ألقاها الله - تعالى - في روعه عليه الصلاة والسلام؛ يقول الإمام الشافعي: (فكان مما ألقى في روعه سنته، وهي الحكمة التي ذكر الله...) كما في الرسالة (٣٠٧).

وعند التحقيق نجد أن هذه الأقوال بالنسبة لهذا القسم تتعلق بطرق نقل هذا النوع من السنن، وإلا فإنّ ما ثبت نقله عنه عليه الصلاة والسلام لا يختلف أحد من أهل القبلة على اعتباره والأخذ به على تفاصيل كثيرة بين أهل العلم في هذا الباب، كثيرًا ما تفرق بين القول والفعل وبين ما صدر عنه عليه الصلاة والسلام عن اجتهاد، وما صدر عن وحي. وبين ما صدر لتشريع أو لغيره في بحوث وأقوال ودراسات تفصيليّة لم يخل من شيء منها كتاب من كتب (أصول الفقه).

لقد حرصت على بيان ذلك كله، وإثارته في هذه المقدمة بالذات؛ لأنَّ الرسالة التي بين أيدينا رسالة تتحدث عن منهج النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - فموضوعها في غاية الأهميَّة إذ لو أنّها تحدثت عن سنن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم - في ذلك لعرف الموقف الواجب على المسلم فيما استنبطه المؤلف الفاضل من خلال أقوال العلماء في أنواع السنن. ولو أنّها عنونت بـ (سيرة رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - في هذا الموضوع) لعرف الموقف المطلوب في تلك الأمور؛ أما أن تجمع كل هذه الأمور تحت مفهوم (منهج) فإنَّ ذلك يعطيها أهمّية خاصة تستدعي الالتفات الجاد نحو هذا الأمر للنظر فيما إذا كانت النتائج التي توصل إليها الباحث، والسياسات التي اعتبرها حفظه الله (منهجًا) أمورًا ملزمة بحيث لا ينبغي تجاوزها أو هي أمور مشروعة فقط تدل على أن من حق الداعية أن يتبعها أو يجدد في البحث ليجد غيرها بحسب الزمان والمكان. ثم إذا اعتبرت هذه منهجًا، فالمنهج ضابط صارم لا مندوحة لأحد يريد ذات النتائج إلا أنه يستخدمه، ولا يمكن للمنهج إذا استعمل كما ينبغي أن يتخلف عن إعطاء ذات النتائج، وبالتالي فيتحتم - آنذاك -أن تحقق حماية الدعوة ومنجزاتها بذات المنهج.

لقد استعمل السلف مصطلح (السنّة) و (السيرة) كما استعملوا مصطلح (الشمائل) واقتصروا فيما نعلم - على هذه المصطلحات فيما يتعلق بأقوال وأفعال وتقريرات وصفات رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم - وقد كان ذلك توفيقًا من الله - تعالى - لهم من ناحية، وفي الوقت نفسه كانت الحكمة في ذلك واضحة، فبعد فترة من شيوع استعمال هذه المصطلحات فيما يتعلق برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم - صارت بمثابة الخواص له فكل منها يستوعب جانبًا مما يتعلق به عليه الصلاة والسلام بحيث إذا اطلقت انصرفت إليه صلى الله عليه وآله وسلم.

فالسنّة: أقواله وأفعاله وتقريراته - على الجملة إذا أطلقت بقطع النظر عن الاختلافات الداخلية الدقيقة بين الأصوليين والفقهاء والمحدِّثين حيث يُطلق الأولون على ما تقدم مصطلح (السنّة) من حيث كونها دليلاً مبيِّنًا لأحكام

الكتاب بوصفه الدليل المنشئ لتلك الأحكام. ويُطلق الفقهاء مصطلح (السنّة) ويريدون به جانب متابعة المكلفين له عليه الصلاة والسلام بذلك من حيث كون المكلفين يثابون على ذلك الأتباع ولا يعاقبون على الترك خلافًا للواجب أو الفرض.

ويُطلقها المحدثون ويريدون بها ما رُويَ من أقواله عليه الصلاة والسلام وأفعاله وتقريراته من حيث هي أقواله وأفعاله وتقريراته التي رواها الناس عنه.

أما كلمة (منهج) فلم ترد في استعمالاتهم أو تشع شيوع ما ذكرنا، وإن رويت عن حبر الأمة في تفسير (منهاج) في قوله تعالى: ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ (المائدة: ٤٨).

حيث إنّ (المنهج) يُستعمل أكثر في جملة من الطرق والمحددات المنهجيَّة التي تستعمل لإنتاج معرفي موحَّد لا يتغيَّر ذلك الناتج مهما تغير الزمان أو المكان أو الإنسان الذي يستخدم ذلك المنهج.

وما تركه لنا رسول الله صلى الله – عليه وآله وسلم – لا شك محجة بيضاء ليلها كنهارها تصلح للاتباع لكن هل يمكن أن تنتج ذات الوسائل والتصرفات والأدوات التي استعملها رسول الله – صلى الله عليه وآله وسلم – نفس النتائج إذا استعملها سواه؟!

فيما نراه – والله أعلم – أنّ الأمر يختلف باختلاف رسول الله بالوحي وخصائصه عن بقيّة البشر وهذه مساحة كثيرًا ما تجاهلها الدعاة المعاصرون بصفة خاصة؛ ولذلك فإنّ كثيرًا من فضلائهم وقعوا في خطأ القياس مع عدم ملاحظة الفارق بين البشر البشر والبشر الرسول الذي يوحى إليه.

فكيف شاع مصطلح (منهج) بديلاً عن السنن والسير والشمائل، أو ليكون مفهومًا شاملاً لها دون تفريق؟

منهج النبي صلى الله عليه وآله وسلم:

"منهج النبي – صلى الله عليه وآله وسلم – في الدعوة" أو في الحكم، أو في القيادة، أو في المعاملات، أو في القضاء، أو في الجهاد أو في التعليم مصطلح شاع في العقود الأخيرة فقلَّ أن يُذكر وجه من وجوه العمل والنشاط أو القول

وينسب إلى رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - إلا صُدِّر بكلمة (منهج) أو أضيفت إليه بشكل أو بآخر. ربما كان شيوع هذا التعبير أكثر في فترة الخمسينيات وبعض السنوات التي تلتها حين أكثرت بعض الفئات الإسلامية من استعمال هذا المصطلح وتداوله للتعبير عن وضوح طريقتها في العمل، وحجيته وارتباطه بسنة المصطفى - صلى الله عليه وآله وسلم - والتوكيد على حتميَّة نجاح تلك الحركات في مساعيها مادامت تنهج نفس منهج الحبيب عليه الصلاة والسلام أو مثله، بل لقد جاوز بعض الدعاة المدى حين أخذوا يُعيدون إطلاق عناوين فترات السيرة النبوية والحياة النبوية الشريفة من جديد على الزمن الذي يعيشون فيه: فكثيرًا ما ردد البعض: أن الفترة التي هم فيها تعتبر فترة مكية، ولابد أن تعقبها فترة مدنية.

والذين قدموا هذه الأطروحة ربما كانوا يبحثون عن أزرار محركات التغيير والدافعية والفاعلية الحضارية لدى الإنسان المسلم بعد ن أفزعهم هذا التراجع المستمر أو التوقف المألوف لحركات التغيير والإصلاح الإسلامية عند نقطة معينة: فمعظم حركات الإصلاح عبر تاريخنا، وبخاصة في القرون الأخيرة كانت تنشط وتمتد أفقيًا، وينتشر أتباعها، وقد تمْسك بالحكم، وتقوم بعمليات غزو أو فتح هنا أو هناك، ثم تبدأ مرحلة تراجع تعيدها إلى نقطة الصفر أو البداية لأسباب كثيرة، فظنت تلك الفئات أنها قد اكتشفت ما لم يكتشفه أحد قبلها حين ربطت بين الأوامر العديدة باتباعه - صلى الله عليه وآله وسلم - وبين ما اعتبرته اكتشافًا اختصت به من تتبع لسيرته - صلى الله عليه وآله وسلم - وإسقاط أفكار ومناهج ومراحل حركات التغيير الاجتماعي عليها بذات الطريقة التي تعاملت بها مع سائر المقارنات: فهناك طريقة المقاربات ثم المقارنات: ولذلك بدأ البعض بفكرة تكوين لتكتل يقوم على بناء "الخلايا الأولى" ثم يلي مرحلة "التكوين" مرحلة "التفاعل" وتجاوز مرحلة "السرية"، ثم تليها مرحلة "انتشار الأفكار" وإيجاد حالة "صراع فكري" بين ما تقدمه، وبين ما هو موجود في البيئة، وتلك أبرز مراحل الصراع ضد الكفر، في "العهد المكي" ثم "إقامة الدولة في الموقع ذاته أو في موقع مهاجر إليه ابتغاء النصرة

لإعادة تمثيل دور "العهد المدني" ثم بَدْء "الفتح والغـزو" مـن دار الإسـلام لـدار الحرب وتلك خصائص العهد المدني في نَظر القوم.

وفي ذلك تبسيط شديد للأمـور مـن ناحيـة، وتجـاوز لتحليـل ومعرفـة أهـم الأبعاد التي غابت عن محاولات التغيـير، وأدت إلى تراجعهـا، ولسـنا - في هـذا التصدير - في معرض الحديث عن تلك الأسباب أو الأبعاد الغائبـة - بتفصيـل، بل إننا نحاول الإشارة بإيجاز إلى ما يرتبط بقضية الكتاب الذي نقدمه وما تحاول المقدمة أن توضحه كإطار لقراءة الكتاب وتناوله.

أما أهم الأبعاد الغائبـة فلعـل مـن الممكـن مراجعتهـا لمـن أراد التوسـع -في الكتيب الخاص بهذا الموضوع "الأبعاد الغائبـة عـن فكـر وممارسـات الحركـات الإسلامية" لكاتب هذا التصدير.

وقد تكفي الإشارة - هنا - إلى أمور منهـا: أنهـا تتعـامل - أحيانًا - مـع "إمكانات الوعي" لدى الإنسان المسلم على أنها "قوانين وعي" يمكن "للمنهج" عند اكتشافه (وهذه الفئات لا ترى المنهج إلا على طرف الثمام، أو أنهـا قـراءة بديهية في مصادر التنظـير الإسـلامية) أن يضبـط قواعـد التعـامل معهـا وبالتـالي يستطيع أن يحقق الداعية فردًا أو جماعة أو حزبًا ثوريًا أو إصلاحيًا مثل ما حققه رسول الله - صلى الله عليه وآلـه وسـلم - وأنجـزه. كمـا حققـه عليـه الصـلاة والسلام وأنجزه سواءً بسواء. وفي هذا التصور من المجازفة ما فيـه. وقـد يكـون من أهم ما يلاحظ عليه: تجاهلـه للفـرق الكبـير جـدًا بـين "إمكانـات الوعـي" و"قوانـين الوعـي"؛ "فإمكانـات الوعـي" طاقـات وقابليّـات كامنـة في الإنسـان تأتلف وتختلف مع "الخصائص الذاتية" للأمة، وهي الخصائص الـتي أشـارت إلى بعضها آية التعارف ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴾ (الحجرات: ١٣)، حـين تربـط بقولـه تعـالى: ﴿ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ خَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفُ أَلۡسِنَتِكُمۡ وَأَلۡوَٰنِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡعَٰلِمِينَ ﴾ (الروم: ٢٢). ثم نبهت آية التآلف في قوله تعالى: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم

بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ (آل عمران: ١٠٣) إلى ما يتوقع من نتائج عند ربط تلك الإمكانات "بقوانين الوعي" بالدقة اللازمة.

إن تلك الإمكانات كامنة - كما أشرنا - في الفرد وفي الجماعة، وتستطيع قوى الوعي الثلاث "السمع والبصر والفؤاد" الإبقاء عليها، بل وإنمائها - أيضًا - لأنها مصادرها الأساسية، لكنَّ إطلاق تلك الإمكانات الكامنة يتوقف على الربط بينها، أعني بين "إمكانات الوعي الكامنة" و"قوى الوعي" السمع والبصر والفؤاد من جهة، و"قوانين الوعي" من جهة أخرى، مع الخصائص الذاتيَّة للأمة. و"قوانين الوعي" - هذه - تتعامل مع "الإنسان" في بادئ الأمر باعتباره إنسانًا، ودون أي وصف لاحق لإنسانيته، وأنه مدعو لبناء ركنه ومنطلقه الأول في الوقت ذاته ألا وهو "الأسرة" بمفهومها الخلْقي الأول ﴿... خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ...﴾ (النساء: ١) لينطلق إلى ما بُث من طريق الأسرة من رجال ونساء كوَّنوا أسرًا أخرى كثيرة أو سيكوّنون وذلك لتأليف مجتمع نواة أو "أمة قطب" ذات انفتاح تام على أمم وشعوب الأرض كافة بحيث تكون سائر "خصائصها الذاتية" ومقوماتها - كلها - حاملة في تكوينها وحقيقتها وماهيتها عناصر الانفتاح هذه، مع قابليَّة الاستيعاب.

ولا يتحقق هذا بدون رؤية كلية شاملة لخالق الإنسان والحياة والكون - جل شأنه -، والإيمان بكونه في ذاته وفي صفاته وأفعاله واحدًا منزَّهًا منفصلاً عن الإنسان والكون، متصفًا بسائر صفات الكمال التي وصف بها نفسه، منزهًا عن سائر صفات النقصان التي نزَّه عنها نفسه، له الخلق وله الأمر.

فهو مصدر الحياة، ومصدر القيم التي لا قوام للحياة بدونها، وأن الناس أكْفاء لبعضهم متساوون في إنسانيتهم وعلاقاتهم، وقربهم أو بعدهم منه - تبارك وتعالى يخضعون لفرص كسبية متكافئة، متوافرة بقدر واحد للجميع.

كما أن الحقائق - كلها - المتصلة بالمادة أو بما وراءها هي في متناول فهم ووعي هذا الإنسان المستخلف يستطيع أن يتوصل إليها الإنسان بمداركه العديدة المدرجة، أو الكامنة فيه، المستند بعضها إلى بعض، في غير تنافر، ولا

تداير، ولا تناشز فالمدركات الغريزية، وراءها المدركات الحسية، ثم المدركات الحسية، وراءها المدركات العقلية... ثم المدركات العقلية تؤدي إلى المقدمات المفضية إلى تلقي المدركات الغيبية، الآتية من طريق الوحي، وإلى التسليم بها، والإذعان لها.

وتبقى هذه المدركات كذلك متعاونة متساندة، لا يمكن أن يحصل بطريق واحد منها ما يتناقض مع الحاصل من طريق مدرك آخر، إلا أن بعض ما يقصر عن الإحاطة به أحد هاتيك الطرق يمكن أن يتصل به طريق آخر منها، حتى تنتهي إلى الإذعان للمدركات الحاصلة بالطريق الخارق للعادة، وهو طريق الوحي الذي خُتِمَ بمحمد، صلى الله عليه وآله وسلم.

فتوجيه هذا الخطاب على الشكل الذي وُجِّهَ به إلى الإنسان في مطلق إنسانيته هو الكفيل بأن يبرز الطاقة الإنسانية بكل استعداداتها، وأن يمكن لها التصرف في قواها بدون تحديد. ويطلق إمكانات الوعي إلى أقصى طاقاتها.

وأساس الإدراك الذي شيدت عليه هو الكفيل بأن يذود عن كل طريق من طرق الإدراك ما عسى أن يحصل بينه وبين طريق آخر، من التعاكس أو التعاضد حتى تنبعث كلها طلقًا إلى الغاية التي تحتمها قابليتها، لا تتحجر دونها، ولا تتعثر في طريق الوصول إليها.

ومن توجيه الخطاب على تلك الصورة، وتأسيسه على ذلك الأساس، تتكون في المستجيبين إليه، والعاملين في تشييده، حالة من الأمن الداخلي، والتحرر الوجداني، والاستقرار الذاتي، تجعله يطمئن إلى معالم إنسانيته كلها، على نسبة واحدة... فعقله، وعقيدته، وحسه المادي، وعواطفه الغريزية، كلها متجانسة متعاونة، لا يخشى بعضها بعضًا، ولا يقطع أحدها سبيل الآخر.. وعمله ليس على تخطيط من فكر بشري.. وسلوكه ينبثق من عقيدته. فكان ذلك مظهر الكمال الإنساني الحق، بكمال الإنسان، وتوفره في ذاته، لا بكمال وسائله، وتوفر مصانعه.. وكان ذلك الوضع الإنساني الجديد هو المنبع والأصل في كل ما ظهر من الأفكار، والمعارف، والفنون، والآداب والصنائع ونظم

الاجتماع، وأصول الحكم، وكل ما جعل مصطلح "الأمة الإسلامية" و"الحضارة الإسلامية" عنوانًا له.

فقوانين الوعي حين تلامس إمكانات الوعي في الإنسان توقظ فيه تلك الكوامن وتطلقها بترشيد الوحي الهادي إلى أفضل سبل "الجمع بين القراءتين" مع جميع الإمكانات المعرفية التي يتيحها الوحي عن الكون والتاريخ والحياة والغيب والإنسان فتنطلق إمكانات الوعي لتصبح تلك الطاقة ما يعرف فلسفيًا "بالنظر" وهو ترتيب المقدمات على اختلافها للوصول إلى النتائج وشيوع "النظر" واحد من قوانين الوعي: فعمليات "النظر" أو ترتيب المقدمات للوصول إلى النتائج تعتبر هي الناتج الحقيقي لاتصال "إمكانات الوعي" بقوانين الوعي وتوليد هذا القانون. وهي التي تجسد ما يمكن تسميته -بعد ذلك - "بالدمج بين القراءتين" وحين يقوم "النظر" على "الدمج بين القراءتين" آنذاك لن يشعر الإنسان بضرورة البحث عن "الدليل الجزئي المنفصل" إلا في مسائل فنية محدودة، ولعل الذين ذهبوا إلى "حجية العُرْف" الإسلامي و "تحكيم العادة" الإسلامية و "عصمة مجموع الأمة" واعتبار ذلك دليلاً على "حجية الإجماع" والاحتجاج بنحو "عمل أهل المدينة" أو "أهل المصرين" أو نحو ذلك قامت في أذهانهم بعض هذه الأمور فعبروا عنها بذلك على مستوى السقف المعرفي السائد آنذاك ليجعلوا منها قاعدة أصولية، أو فقهية أو ما شابه ذلك.

الفكر:

وإذا كانت وظيفة "النظر" ترتيب المقدمات فإن "الفكر" عبارة عن حركة الذهن وجولاته فيما هيأه "النظر" من المقدمات المدركة حسية كانت أم شرعية، أم عقلية أم عُرْفية أم لغوية لتحصل من خلال ذلك على معقول أو مدرك لا تجده بذاته بارزًا أو ظاهرًا في أية مقدمة من تلك المقدمات، لكن تَوَلَّد عن تلك الجولات الذهنية التي أُطلق عليها "الفكر".

وهذا "الفكر" هو قوام "ناطقية الإنسان" وهي أهم مظاهر وخواص إنسانيته، وهي القوة القادرة على الإجابات السليمة عن سائر الأسئلة التي تواجه الإنسان مثل "لماذا، وبماذا، وعلى ماذا، وكيف كان، وإلى أين يكون"

وعليها تقوم أول معارفه ألا وهـي معرفتـه لذاتـه ثـم معرفتـه لربـه. و "بـالفكر" يربط العاقل بين النص ودلالته، والمرئي والمحسـوس، ومـا يعقـل عـن ربـه، وبـه يُرجع الجزئي إلى الكلي، والكثرة إلى الوحدة، ويصل الإنسان المادة بما وراءهـا، ويدرك تناسب المتناسبات، وتناقض المتناقضات؛ و "بالفكر" يفرق الإنسان بـين المطلق والنسبي، وبين الخالق والخلق، ويدرك الفوارق بينهما فيفرق بـين وجـود العالم ووجود صانعه – أي بـين الوجـود الممكـن المسـتند إلى سـواه، والوجـود الواجب المستند إليه كل ماعداه.

ولـو لم يـرزق الإنسـان قابليتـا "النظـر والفكـر" لاضطربـت خطواتـه بـين المدركات ومراتبها ونتائجها، ولاختل توازنه في النظر فيها.

وحين تجـد الحديـث عـن العقـل والوحـي أو العلـم والإيمـان أو بـين النظـر والفكر من ناحية والعقيدة والشريعة أو الدين من ناحيـة أخـرى قـد تمـايز ونحـا منحى الثنائيَّة والصراع فاعلم أن الفطرة قد فسدت، والعلاقة قد اختلت ولابـد من العمل على التجديد "بالجمع بين القراءتين" وتسليط "قوانِين الوعـي" علـى "إمكانات الوعي"، وجعل الموجودات المجردة والمحسوسـة ميدانـا لحركـة فكريـة شاملة تحاول معرفة خصائص كل منهـا، وتبحـث في عللهـا الذاتيـة والتكوينيـة والسببية والغائية، في عمليات تحليل وتفكيك عميقة، ثـم تعود للتأليف بينها مـن جديد، فإن وجدت خللاً أعادت التفكيك من جديـد غـير متبرمـة أو متضايقـة حتـى يتـم التوصـل إلى نـاتج "الدمـج بـين القراءتـين" ألا وهـو: العلـم الجـامع لأصناف المعلوم – كلـه – المتنـاول للوجـود مـن حيـث هـو بقطـع النظـر عـن مظاهره المتباينة، وعناصره المختلفة. وهذه هي الوسيلة الفعالـة في القضـاء علـى المعارك التي توجدها الثنائيات – عادة – كثنائيـة الصـراع بـين الديـن والعقـل، وبين الدنيا والآخرة، وبين العلم والنص، وبين المدنية والثقافـة والحضـارة وبـين التمتع بما خلق الله وسخر، وبين التدين وطلب الآخرة.

العقيدة السليمة:

العقيدة وسلامتها تمثل القانون الثاني من قوانـين الوعـي لـدى هـذه الأمـة، ومن خصائص هذه الأمة الذاتية أن يقوم بناؤها على "رؤيـة كليـة" ثـم "عقيـدة

دينية". فعقيدتها تشكل القاعدة الفكرية لها: فعن هذه العقيدة تنبثق أفكارها، وعليها يقوم نموذجها الكلي، وكل ما يتفرع عنه من نماذج جزئية، وإليها تستند منهجيتها، وشريعتها، وعلى دعائمها تنهض حضارتها، وتبني ثقافتها وتقدم مفاهيمها وتنشأ علاقاتها، ويستقيم سلوكها، وتعتدل نظمها وروابطها، وبالانحراف فيها يبدأ خط الانحراف، وبالاستقامة فيها تعود إلى جادة الاستقامة. الأفراد والشعوب والأمة في هذا سواء.

القراءتان:

القانون الثالث من قوانين الوعي لدى هذه الأمة "الجمع بين قراءتين" إحداهما في الوحي والثانية في الكون تظم كل منهما إلى الأخرى في واحد من مستويات ثلاثة:

التأليف، التوحيد، الدمج بين القراءتين.

فالجمع بين القراءتين بمستوياته الثلاثة يكشف عن قوانين الحركة الاجتماعية والتاريخية والسنن الإلهية في الكون والإنسان، في الأفراد والجماعات، في النظم والعلاقات، في الثقافات والحضارات، وذلك لأن "الجمع بين القراءتين" يعتمد اعتمادًا تامًا على الربط المنهجي بين القرآن المجيد "باعتباره الكتاب المطلق المتضمن للوعي المعادل المستوعب للوجود الكوني وحركته، وكذلك ما يتمثل في هذا الوجود من أشياء ودلالات لها. فالقرآن المنزل والكون المنشأ يكمل كل منهما الآخر في الكشف عن دلالات الوجود الكوني وقوانينه وسننه، يحقق القرآن ذلك بالوحي المقروء المنطوق، ويحقق الكون ذلك بحركته القائمة على قوانينه وسننه، وبذلك تصبح القراءة في كل منهما متممة للقراءة في الآخر، ومبيِّنة لدلالاتها، وتتضافر تلاوة آيات الكون وقوانينه وسننه مع تلاوة آيات الكتاب وسوره للكشف المشترك عن "منهجيَّة معرفيَّة كونيَّة" لا يمكن الكشف عنها إلا بذلك.

منهجية ترد الإنسان إلى أصله مخلوقٍ من نفس واحدة خلق منها زوجها، ومستخلف في كون يعمره، ويتخذه بيتًا يحقق فيه ومعه العبادة والسجود، وتتابع هذه المنهجيَّة آثارها البناءة في رد الكثرة إلى الأصل، ورد الأجزاء إلى

الكل، والجزئي إلى الكلي، كما ترد الإنسانَ لآدم وآدم من تراب حتى تُحقق ظهور الهدى والدين الذي جعل من الحق دينًا على الدين كله ليلتقي بنو آدم على قيم مشتركة ودين قيِّم فيتحقق - في ظلها - الائتلاف وينتهي ويتلاشى الاختلاف لتتحول كل أسبابه ومقوماته إلى مظاهر تنوع، وأسباب تعارف وتآلف بين البشر؛ لا أسباب صراع واختلاف.

فالجمع بين القراءتين - بمستوياته المذكورة - وما يؤدي إليه من "منهجيَّة معرفيَّة كونيَّة" هو ما يمكن أن يعالج سائر إشكاليات العلاقة بين الغيب والإنسان والطبيعة، ويؤدي إلى فهم الإنسان لهذه العلاقة فهمًا لا عوج فيه ولا تناقض ولا تضاد ولا تعاند.

كما يعالج في الوقت نفسه إشكاليات العلاقة بين الإنسان والكون، فيعطي الوجود معناه الإنسانيّ باعتباره مسخرًا له، فينتمي الكون للإنسان، كما ينتمي الإنسان إليه، فيتجاوز كل تراث أفكار الصراع بين الإنسان والكون، وينتفي عنه التصور الأحيائي والتصور المادي للكون. فيدرك الإنسان - آنذاك - أن السنن والقوانين والعلوم الكاشفة عنها ما هي إلا أدوات وضعها الله جل شأنه بين يديه ليمارس فعل التسخير للكون الذي هو بيته، ولسائر موجوداته التي هي بمثابة أثاثه ورياشه وحاجات منزله وفق غاية الحق من الخلق تبارك وتعالى.

وفي إطار الجمع بين القراءتين يستطيع الإنسان المستخلف أن يعي العلاقات المتنوعة بين الزمان والمكان والإنسان فينتفي مفهوم "المصادفة" كما ينتفي مفهوم الاستسلام للمجهول بحجة كونه غيبًا أو فوق إدراك العقول ليحل محل ذلك كله إدراك واعٍ للسببية والصيرورة الظاهرة أو الكامنة في متغيرات الزمان والمكان والواقع والتاريخ. فما كان الله ليضع قوانينَ وسننًا ثم يخرقها إذ أن من سننه - جل شأنه - أن لا تبديل لسننه ولا خرق لقوانينه، وفي إطار "الجمع بين القراءتين" تفهم سائر الوقائع التي قد لا يدرك معناها المستعجلون كفَهْمِ العبد الصالح للوقائع الثلاثة؛ واقعة خرق السفينة وقتل الغلام وإقامة الجدار، فتلك الوقائع الثلاثة حين نظر إليها موسى عليه الصلاة والسلام مجردة عن زمانها ومكانها استنكرها، لكن العبد الصالح فعلها وهو مدرك للزمان والمكان، وحين

فسرها لموسى لم يعد تفسيره لكل منها حالة الجمع بين قراءتي الزمان والمكان ليتضح معناها وتظهر معقوليتها، ولتذكر موسى بتجارب ثلاثة مماثلة في حياته لا تفهم إلا في إطار ترابط الظواهر ببعضها في نسق هذا الكون في دائرة الزمان والمكان لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل.

إنَّ "الجمع بين القراءتين" بمستوياته الثلاثة وبالمنهجية الكونية المنبثقة عنه، وبالمعرفية المترتبة عليه – هو البعد الغائب الذي لابد من استحضاره لتحقيق النقلة الإدراكية الضرورية التي تتوقف عليها "النقلة المعرفية" فالشهود العمراني".

إنَّ أغلب الظن أن ذلك الإسراف الذي نشهده في استعمال كلمة "منهج" في كتابات الإسلاميين خاصة وبالشكل الذي أشرنا إليه ناجم عن الوعي على المعنى اللغوي لكلمة "منهج" وهو السبيل أو الطريق لا عن المعنى الاصطلاحي، والبون بينهما شاسع وبعيد.

ولقد كان ابن عباس – رضي الله عنهما – عميق الفهم بعيد النظر حين فسَّر "المنهج" بالسنة النبويَّة بجملتها و "الشريعة" بالقرآن في قوله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ...﴾ (المائدة: ٤٨).

فالسنة – بمجموعها –القولية والفعلية والتقريرية تجسيد لمنهج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، في فهم القرآن المجيد، وربط الواقع به، وهذا المنهج النبوي – بمجموعه وجملته – محجة بيضاء ليلها كنهارها، على العالم الذي أودعت فيه كل مقومات الهداية أن يهتدي إليه وان يرتقي إلى مستواه، وأن يلم بمعالمه. وأبرز حكم نزول القرآن الحكيم منجمًا بيانه وتوضيح منهجه: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾ (الفرقان: ٣٢)، وقال جل شأنه: ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلًا﴾ (الإسراء: ١٠٦). لقد أخذ بناء هذا المنهج النبوي من حياة رسول الله – صلى الله عليه وآله وسلم – اثنتي عشرة سنة وخمسة أشهر وثلاثة عشر يومًا من السابع عشر من رمضان سنة إحدى وأربعين من

مولده صلى الله عليه وآله وسلم حتى سنة خمسين وأربع منه. وذلك مجمل ما عرف بالعهد المكي.

وأما "العهد المدني" فقد استغرق تسع سنوات وتسعة أشهر وتسعة أيام من أول ربيع الأول سنة ٥٤ من مولده – صلى الله عليه وآله وسلم – حتى التاسع من ذي الحجة للسنة العاشرة من هجرته، الثالثة والستين من مولده صلى الله عليه وآله وسلم. وما عاش عليه الصلاة والسلام بعد ذلك إلا واحدًا وثمانين يومًا. كان يُعيد ويُراجع القرآن فيها، ويُؤكد ويذكر بالمعالم الأساسية لرسالته ومنهجيته – صلى الله عليه وآله وسلم – : ﴿ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (النمل: ٩١–٩٣).

لقد وهم البعض حين ظنوا أن "المنهج النبوي" على طرف الثمام، وأن نظرة عَجلى على السيرة العطرة، أو أجزاء من السنة المطهرة أو انتقاء مقاطع من هنا أو هناك كافية للإحاطة بهذا المنهج الفذ، وبناء حتميات تاريخية على تلك الأفهام العَجلة. وتصوَّر البعض أن بالإمكان إعادة إنتاج العهدين المكي والمدني، أو تمثيلهما في أي واقع يُعدُّ مجازفة كبيرة تصادم كل ما ذكرنا.

إنَّ "المنهج" حين يطلق في إطار معرفي إنما يُراد به قانون ناظم ضابط يقنن الفكر ويضبط المعرفة، التي إن لم يضبطها المنهج فقد تتحول إلى مجرد خطرات انتقائية مهما كانت أهميتها لا يمكن تحويلها إلى ضوابط فكرية وقوانين معرفية تنتج الأفكار وتولد المعارف وتضبط حركاتها وتميز بينها؛ فبالمنهج يمكن أن تحدد طبيعة المعرفة وقيمتها وحقل عملها واتجاهها وكيفية البناء عليها والتوليد منها.

ولكل توجه فكري – منهجه – ولكل وجهة هو موليِّها. فالمنهج المادي لا ينتج إلا معرفة مادية، والمنهج اللاهوتي لا ينتج إلا معرفة لاهوتية وغيبية جبرية.

وكذلك الحال بالنسبة للمنهج الإسلامي، والمنهج لا يتقبل الأطر التلفيقية والتوفيقية والانتقائية فهو كالقانون في السنن الطبيعية.

كما أن المنهج لا يقبل التفكير "الأيديولوجي" الذي لا يُقنع إلا حامل تلك الأيديولوجية - وحدها - لأنه في هذه الحالة لا يعني سلامة معرفية لما هو مطروح بقدر ما يحقق ثقة قائمة على "الأيديولوجية" وحدها كما تصحح المطروح على المستوى الذهني لا على مستوى الوجود الخارجي. وتؤكد صحته بالاستعلاء الأيديولوجي، لا بالصحة العلمية.

إن من خصائص المنهج أن يرد الكثرة الفروعية إلى القلة الأصولية، والأجزاء الكثيرة المتنوعة إلى الكليات المحددة.

وينفي التعارض والتناقض والتضاد والتنافي والتعاند بين المدركات بالمنهج الذي أوضحناه سابقًا، والذي يقوم بجملته على الاستيعاب والتجاوز لا على التلفيق والتوفيق أو التأويل.

إن أي فكر تتضارب مقولاته وتتناقض يعتبر فكرًا لا منهجيًّا حتى لو تمكن أصحابه من تقديم مختلف التأويلات التوفيقية: كالتأويل والمقاربة والتلفيق وغيرها. ولذلك فإن إطلاق مصطلح "منهج النبيّ - صلى الله عليه وآله وسلم - و "المنهج الإسلامي" على ما يصل الباحثون إليه باجتهاد شخصيّ أو فردي لابد أن يُحتاط فيه، كأن يقال: على ما نراه، أو على ما توصلنا إليه....إلخ.

الكتاب والمؤلف:

إن المؤلف الفاضل وهو من أبناء الجزائر ومن حملة الهم الإسلامي في ذلك البلد الكريم ينتمي إلى ذلك الفصيل الذي تبنى توجهات فكر العمران والبناء الحضاري وعالمية الإسلام وأسلمة المعرفة، وذلك كلّه جعله من القلائل الذين يدركون أبعادًا قد لا يدركها ولا يلتفت إليها سواهم ممن لم يتعرضوا لمثل الخبرات التي تعرَّض لها أخونا الأستاذ الطيب برغوث. فكان من الواضح لديه أن من أهم القضايا التي تشغل أذهان الشباب المسلم والمنتمين إلى التيار الإسلامي بصفة خاصة هي كيفية المحافظة علي ما يحملون وسط ظروف تنظر لتبنّي الإسلام بأيّ معنى من المعاني على أنه تبنى للإرهاب والأصولية والتطرُّف

والجمود والرجعية والتحجُّر إلى آخر سلسلة الأوصاف التي تُطلق على فصائل هذا التيار. ولذلك فإن الآلاف منهم يعانون من مخافتين: الأولى يشتركون فيها مع بقية فصائل الأمة وهي معروفة ومعروفة عواملها والثانية يكادون ينفردون فيها وهي خوفهم على أنفسهم ومستقبلهم ومصائر أسرهم وأساتذتهم ومن يحبون. وهو خوف مشروع في ظل أوضاع معروفة، وهو في الوقت نفسه خوف على ما يؤمنون به وعلى ما يحملونه، إضافة إلى خوف لا ينقطع من الاتهامات المختلفة والاضطهادات المتنوعة.

ففكرة "حماية الدعوة" فكرة متأصِّلة في نفوس هؤلاء أصَّلتها أوضاع مختلفة وأسباب كثيرة بعضها له ما يبرره وبعضها موضع مناقشة، لكن مدخل المؤامرة ومدخل الحماية والدفاع والهجوم والصراع على الدوام من المداخل الحاضرة في أذهان هؤلاء. فكان الكتاب دراسة حاول أخونا الأستاذ الطيب برغوث محاولة جادة أن يكرسها للتعامل مع هذه المداخل في نفوس عاشرها الأخ الطيب وخبرها وتربَّى على يديه كثير منها، وبالتالي فقد كان يريد أن يقدم في هذه الدراسة الهامة الجادة لهذه الشريحة الهامة من مجتمعه بل والمجتمعات الإسلامية الأخرى بدائل عن سائر الوسائل التي سقط بها البعض أو أُسقط بعد ذلك لأنه ظن أو توهَّم أنه لا بديل ولا وسيلة للتغلب على المؤامرة وأفكار المؤامرة وتحقيق حماية الدعوة وحملتها إلاّ بردِّ العنف بالعنف والغلوِّ بالغلوّ والتطرُّف بمثله والبادئ أظلم. فكانت تلك المصائب والانحرافات الهائلة التي شهدتها أقطار عربية وإسلامية كثيرة. إنَّ الطيب، حفظه الله، حاول أن يقدم سياسات النبي – صلى الله عليه وآله وسلم – في حماية الدعوة وحملتها في أهم وأخطر فترتيها ألا وهي الفترة المكية ليلفت النظر إلى الجهود العمرانية والحضارية وسياسات البناء وليوضح كيف حوَّل رسول الله – صلى الله عليه وآله وسلم – عمليات البناء والعمران وخدمة المجتمع وتبني قضاياه ورفع مستواه وسائل حماية بحيث تصبح مهمة الحماية للدعوة وحملتها لا مهمة هذه الطليعة الصغيرة التي تمثل مجرَّد "رأس نفيضة" لأمَّتهم فحسب، بل أراد أن ينبههم إلى أن هذه المهمة ستنتقل إلى الأمة والمجتمع الذي يعيشون فيه بعد أن تستيقن الأمة ويتأكد مجتمعهم أنهم حملة راية

العمران وأنهم وحدهم البنّاؤون الأحرار فإن لم يتمكّن من الانضمام الكلي إليهم والانحياز التام لجانبهم فلا أقل من أن يحبط هذا المجتمع الذي يشكّل العمق بالنسبة لهم المؤامرات ضدهم ويحاول حمايتهم ويصبح المجتمع آنذاك هو العمق الحضاري الحقيقي لحملة الدعوة والذي يستحيل آنذاك أن يفرّط بهم أو يسمع بفصلهم أو عزلهم عن جسمه، أو أن يخذلهم فيما يدعون هم إليه. وكان الأستاذ الطيب يحاول أن يوضح لهؤلاء الدعاة كيف يمكنهم التأسّي برسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - في هذا المجال والتزام سنّته وطريقته في المحافظة على منجزات الدعوة بدلاً من استحياء مناهج حماية ودفاع وهجوم من أية حركات اجتماعية أو تيارات معاصرة. والأخ الطيب برغوث من أفضل من تؤهلهم خبراتهم في العمل الإسلامي إلى كتابة هذا النوع من البحوث، فله كتيّب صغير سبق له نشره أيام الطلب والدراسة بعنوان "القدوة الإسلامية" كان ذلك الكتيّب على لطافة حجمه كبير الدلالة على إمكانات الرجل وقدراته في دراسة السيرة والسنة دراسة قائمة على منظور حضاري متصل الحلقات.

لقد كان الكتاب ماثلاً للصدور حين بلغني أن الأخ الطيب يريد أن يقدّم بعض الإضافات أو التعديلات ويرجو لو تأخّر نشر الكتاب لكنّ الكتاب كان في آخر مراحل النشر ولذلك لم أتردد في أن أقول فلتمض هذه الطبعة كما هي وليعدّل الأخ الطيب ما يشاء لطبعة ثانية لعلمي بأهمية الكتاب وأنّه لن يقف الأمر في طلبه عند طبعة أو إثنتين. كما أن الكتاب مهما كانت قوّته في مقاربة هذه القضية الخطيرة فإنه لن يمكن أن يشتمل على الكلمة الأخيرة في هذا الموضوع بل لابد من دراسات عديدة تتناول هذا الأمر من جوانبه المختلفة وتكشف عن جميع نواحي الكلمة التي تجتاح نفوس وعقول الشباب المسلم وتدفعهم في بعض الأحيان إلى فتنة تذر الحليم حيران واضطراب في المواقف يصعب فهمه على من لم يخالط هؤلاء الشباب. هذا: والكتاب الآن بين أيدي الشباب. المعهد سعيد بان يقدّم للشباب المسلم في كل مكان وللدعاة خاصة هذه الدراسة، والمعهد والمؤلف الفاضل مستعدان معًا لتقبُّل أي مقترحات أو ملاحظات أو تعديلات أو انتقادات يمكن أن تعود على الكتاب أو على القضية

التي يعالجها أو استهدف أن يعالجها بأيٍّ تعديل. نسأل الله العظيم رب العرش الكريم أن ينفع بهذا الكتاب المعهد والمؤلف والشباب المسلم في كل كان وأن يضعه في ميزان حسنات جميع أولئك الذين ساعدوا على إنجازه ونشره وحرصوا على نفع الناس به، إنه سميع مجيب، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

بسم الله الرحمن الرحيم

بين يدي الرسالة

فقد كان من البواعث التي دفعتني لاختيار هذا الموضوع، والاهتمام به: العجز ـ شبه المزمن ـ عن حماية المحتوى الرسالي للعمل والمحافظة على منجزاته، والاستفادة من مكتسباته في الجهد النهضوي الحديث للأمة.

البواعث الجَنيْنيّة لاختيار الموضوع

فكنت أتساءل دائماً:

ـ ما سر اتسام الجهد النهضوي للأمة عمومًا «بالاستئنافية وعدم التواصل» مما طبع مسيرتها باللافعالية، وأحيانًا باللاجدوى، وحكم عليها ـ أي الأُمة ـ بالمزيد من التخلّف والتبعية؟.

ـ لماذا لا نجد هناك تناسبًا معقولاً بين هذا الجهد ونتيجته على صعيد حماية الفكرة أو المشروع، والمحافظة على منجزات التفاعل معه؟

مع أن الله سبحانه وتعالى قضت حكمته بمباركة جهد المؤمن، وتعهّده بالرعاية والحفظ، كما يؤكد ذلك القرآن الكريم صراحة في مثل قوله تعالى:

﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝٦٩ ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

وقوله سبحانه:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ [النحل: ١٢٨].

وقوله عز وجل:

﴿ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [الأعراف: ١٢٨].

ومن خلال محاولات تقصّي أسباب هذه الظاهرة، وتتبّع امتداداتها في مسيرة الأُمة، رأيت أن الأمر يتجاوز الإطار الزماني لحركة النهضة الإسلامية الحديثة، ليمتد في أعماق التاريخ الإسلامي، بل والإنساني عمومًا.

لأن القضية ـ كما بدا لي بعد ذلك ـ تتصل بجوهر المشكلة الحضارية في نهاية المطاف وهي: أن الحركة أو الأمة التي تعرف كيف تمارس عملية البناء الحضاري، وكيف تحافظ على منجزات هذا البناء، وتحمي مرجعيته المذهبية، تنفتح أمامها آفاق الحياة، ويستحكم أمرها في الأرض.

بينما يأخذ غيرها ـ ممن لم يحسن عملية البناء الحضاري، ولم يتمكّن من المحافظة على منجزات عمله، وحماية مرجعيته المذهبية ـ طريقه نحو الضعف والتقهقر والتبعية.

وقد ظهر لي وأنا أتأمل هذه الظاهرة ـ على مستوى الجهد النهضوي للحركة الإسلامية خصوصًا، والجهد التاريخي للأمة والإنسانية عمومًا ـ في ضوء وحي الله الأعلى وسُنته في خلقه ـ أن الاهتمام المحوري للكتاب والسُّنة كان منصبًّا حول حلّ هذه الإشكالية الحضارية الكبرى. أي تمكين الإنسان من إتقان عملية البناء الحضاري من جهة، وتمكينه من آليات المحافظة على منجزات هذا البناء، وشروط حماية المرجعية المذهبية التي يصدر عنها وينبثق منها، من جهة أخرى.

وهو ما جعلني أزداد إحساسًا بأهمية هذا الموضع وجدارته بالبحث واهتديت بعد مخاض طويل إلى اختيار:

«منهج النبي ﷺ في حماية الدعوة والمحافظة على منجزاتها خلال الفترة المكيّة» ليكون منطلقًا للمساهمة المتواضعة في مواجهة هذه الظاهرة الخطيرة، وإنارة سبيل السعي للتغلب عليها.

لماذا هذا الموضوع بالذات؟

هذا عن السبب الرئيسي العام الذي دفعني إلى الاهتمام بموضوع: المحافظة على منجزات العمل وحماية إطاره المرجعي بصفة عامة، باعتبار ذلك مشكلة جوهرية من مشكلات البناء الحضاري.

أما الدوافع الخاصة باختيار موضوع: «منهج النبي ﷺ في حماية الدعوة والمحافظة على منجزاتها خلال الفترة المكية» بالذات، فيمكن إجمالها في ما يلي:

١ ـ الطابع «النموذجي الفذ» الذي تكتسبه الحركة النبوية المعصومة، بالنسبة لغيرها من التجارب البشرية الأخرى غير المعصومة.

فهي ـ أي الحركة النبوية ـ الجهد الحضاري «النموذجي»، الذي تكاملت فيه قدرات البناء مع قدرات المحافظة على منجزات هذا البناء وحماية مرجعيته المذهبية بشكل فذّ لا نظير له. مما جعل منها فعلاً «الإطار المرجعي» الإلزامي الأمثل للاقتداء والتأسّي، كما يؤكد ذلك القرآن صراحة في مثل قوله تعالى:

﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾ [الأحزاب: ٢١].

وقوله سبحانه:

﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ ﴾ [النور: ٦٣]، الذي يؤكد ضرورة استيحاء المنهج النبوي في مواجهة أعباء البناء وتحدّياته، والحذر من الزيغ عنه، كشرط أساسي لاستقامة الوجهة، وانتظام السير، ومباركة الجهد، وأمن مزالق الطريق.

وكمساهمة في مواجهة ظاهرة العجز عن حماية المحتوى الرسالي للعمل، والمحافظة على منجزاته، رأيت أن أقوم بمحاولة تقديم قراءة أخرى للسيرة النبوية في هذا الاتجاه، بغية التأكيد على أحد جوانب العظمة في حياته الرسالية ﷺ، والوقوف على العوامل التي أعانته على ذلك، لتكون محل الاقتداء والتأسّي والاستلهام والاستيحاء، لكل جهد إسلامي يريد الإفلات من قبضة هذه الظاهرة الخطيرة، التي كلّفت الأُمة الكثير من الجهود والتضحيات.

٢ ـ والدافع الأساسي الثاني الذي حفزني للاهتمام بهذا الموضوع بالذات، هو محاولة تبديد بعض الضباب الذي قد يغشى على ساحة الكتاب والسُّنة من جرّاء ظلال ظاهرة العجز السابق ذكرها، ولفت الأنظار إلى الاتّباع الأصوب لرسول الله ﷺ، والتأسّي الأمثل به.

ذلك لأن كثيرًا من الجهود المبذولة منذ قرون للنهوض بالأُمة، وتمكينها من الاضطلاع بدورها الحضاري من جديد، كانت ـ ولا زالت ـ تتمّ تحت شعار: العودة إلى الكتاب والسُّنة، والالتزام بهما في التفكير والممارسة. ويُخشى أن يتسرب إلى أذهان بعض الناس بسبب الإخفاقات المتكررة، في المحافظة على منجزات العمل وحماية إطاره المرجعي، ما قد يسيء إليها، بالاعتقاد بأن ذلك يعود إلى «المرجعية المذهبية» ذاتها، التي لم تعد تفي بالاحتياجات المتجددة للحياة الإنسانية المعاصرة، ويدفع العاملين أنفسهم إلى ركوب موجة تبرير العجز وتسويغ الأخطاء، وعَزْو ذلك كله إلى قضاء الله وقدره وسُننه في خلقه!

وهو ما يؤدي إلى تكريس الاعتقاد السابق، ويساعد على استمرار مغالطة النفس، والتنكّب عن المنهج الصحيح في الاقتداء والتأسّي والبناء.

ومن أجل المساهمة في دفع هذا الالتباس، وقطع الطريق أمام عواقبه الخطيرة، جاءت هذه المحاولة لبيان كيف بلغ الجهد النبوي درجة الإعجاز في حماية الدعوة والمحافظة على منجزاتها، وهو ما يلزم دعاة المشروع الإسلامي بالعمل على الارتقاء بفهمهم وأدائهم الرسالي إلى مستوى التأسي الحقيقي،

الذي يرفع قدرهم وينصف نبيَّهم ويشرّف رسالتهم.

٣ ـ والدافع الأساسي الثالث الذي شجعني على تناول هذا الموضوع هو: عدم اهتمام الدراسات السابقة في السيرة النبوية به، بشكل يليق بمكانته البارزة في الجهاد النبويّ، وأهميته الخاصة في عملية البناء الحضاري بصفة عامة.

حيث يلاحظ المتأمل لمناهج دراسة السيرة النبوية والمحاور التي تم الاهتمام بها والتركيز عليها، كيف غلب على قسم كبير منها الطابع التسجيلي السردي، الذي يحاول إثبات الوقائع، ووصف تطور أحداث الحركة النبوية، وتقرير نتائجها، دون الالتفات إلى مقدماتها، ومحاولة اكتشاف ما كان وراءها من منهج محكم في الدعوة والبناء والمواجهة، تم بواسطته صنع هذه الأحداث، وتحريكها نحو هذه النتائج.

ومع أن محاور اهتمام هذا القسم من الدراسات كانت شاملة لجوانب كثيرة من حياته عليه الصلاة والسلام الذاتية والرسالية، بحيث امتد إلى أدقّ التفاصيل، حتى شمل الحديث عن خَدَمِه ومماليكه، وأجداده وجدّاته، ومرضعاته، وملابسه، ونعاله، وبغاله وحميره وأسمائها. . إلا أنها لم تخرج من دائرة الوصف وتقرير الحال بأسلوب لا يخلو أحياناً من المبالغة والانسياق وراء الخرافة، والاستغراق في الحديث عن المؤيدات الغيبية ـ أو المعجزات ـ على حساب الاهتمام بالحديث عن سنن عالم الشهادة التي كان عليه الصلاة والسلام يتحرك في إطارها، ويصنع الأحداث، ويحقق النتائج ـ التي وقفت هذه الدراسات عند ظاهرها ـ من خلال إجادة التعامل معها، وتلافي الاصطدام بها.

أما القسم الآخر من الدراسات التي حاولتْ تجاوز المنهج التسجيلي السردي، إلى توظيف «المنهج التحليلي» فإنها لم تهتم كذلك بهذا «البعد المحوريّ» في الحركة النبوية بصورة مباشرة ودقيقة، واتجه جزء كبير منها إلى محاولة إثبات نبّوته عليه السلام وصدق ما جاء به عن ربّه، وإبراز تفوّقه على ما

عداه من الأديان والمذاهب والاتجاهات والأنظمة.

وقد يكون لذلك مبرّره الظرفي، لأن أوضاع الاستلاب الحضاري التي كانت تمر بها الأمة الإسلامية كانت تستدعي توجيه جزء من أسلحة المواجهة الحضارية إلى هذه الجبهة، للمحافظة على الهوية، ودعم دوافع العودة إلى الذات.

وانصبت اهتمامات جزء آخر حول محاولة استخراج ما أمكن من الأحكام الفقهية وبعض التوجيهات التربوية والعملية من وقائع السيرة.

وتوجهت عناية آخرين إلى «التفسير الحركي» لأحداث السيرة، ومحاولة إسقاطها على واقع الحركة الإسلامية المعاصرة تبريرًا لمواقفها في أغلب الأحيان.

ورغم هذا التعدّد الخصب في زوايا الرؤية لأحداث الحركة النبوية، وتنوع اتجاهات تحليل وتفسير وقائعها، ظلت العناية المركزة بموضوع «المنهج» قليلة، مع أنه بإمكان النظرة الشمُولية المتكاملة لهذه الجهود العلمية الضخمة أن تستخلص البنية الهيكلية العامة للمنهج النبوي في الدعوة والبناء والمحافظة على منجزات هذا البناء وحماية مرجعيته المذهبية.

وهو ما دفعني إلى محاولة تقديم قراءة أخرى للحركة النبوية في اتجاه البحث عن هذا المنهج، الذي أنتج هذه الحركة الحضارية الفذّة، وحافظ عليها، وحمى مضمونها الرسالي.

أهداف الدراسة

وبالإضافة إلى ما سبق، وزيادة على بعض الدوافع الذاتية، فإنه يمكن تلخيص الأهداف الأساسية للدراسة في:

١ ـ محاولة بيان أهمية «المنهج» ودوره في نجاح العمل، وخطر غيابه، أو عدم الالتزام به على منجزات هذا العمل ومرجعيته المذهبية.

٢ ـ والتنبيه إلى ما يستلزمه ذلك من ضرورة:

أ ـ الاستيعاب الواعي العميق والشامل للمضمون المرجعي للمشروع الباعث على العمل والموجِّه له من جهة.

ب ـ والإحاطة التامّة بالواقع الذي يراد تغييره لينسجم مع منطلقات هذا المشروع، وينضبط بأهدافه وموازينه من جهة ثانية.

جـ ـ وامتلاك خطة الإنجاز المنهجية التي تتم بواسطتها عملية تحريك الواقع القائم، والدفع به تدريجيًا نحو الاقتراب من الأهداف المرسومة من جهة ثالثة.

٣ ـ محاولة بيان معالم المنهج النبوي في حماية الدعوة والمحافظة على منجزاتها خلال الفترة المكّية، والوقوف على الأسباب الكامنة وراء هذا النجاح العظيم، والدلالة على وجه التحقق بالاقتداء والتأسي الأمثل برسول الله ﷺ.

الصعوبات التي واجهت الدراسة

وقد واجهتني صعوبات عديدة في إعداد هذا البحث أذكر أبرزها:

ـ قلة المصادر التي اهتمت بقراءة الحركة النبويّة من هذه الزاوية، الأمر الذي جعلني أعاني من خوف الوقوع في القراءة الذاتية للأحداث، والانزلاق نحو التحكّم في تفسيرها، وبالتالي عدم التوفيق في الاستفادة منها في محاولة استخلاص البنية الهيكليّة العامة لمنهجه عليه الصلاة والسلام في حماية الدعوة والمحافظة على منجزاتها، وهو الهدف الرئيسي للدراسة.

فبالرغم من حرصي الشديد على قراءة كل ما وصلت إليه يدي ـ وهو كثير ـ مما له صلة بالموضوع، إلاّ أنني مع ذلك كنت أحسّ بأن هذا الهاجس يلاحقني باستمرار، ويحدّ من محاولة انطلاقي.

ـ قلة المعلومات المتعلقة بالفترة المكّيّة عمومًا، سواء في الدراسات القديمة أو الحديثة، إذا ما قورنت بالفترة المدنيّة، زيادة على اضطراب بعض

الروايات، وعدم توفر المعطيات التاريخية التي تُعِيْن الباحث على معرفة تواريخ أسباب نزول الآيات القرآنية، وورود الأحاديث النبوية، لتتبع تطور الدعوة، ورصد خطوات منهج البناء والمواجهة.

ولا شك أن بحثًا كهذا ـ يطمح إلى استخلاص معالم المنهج النبوي في حماية الدعوة والمحافظة على منجزاتها ـ يحتاج إلى معلومات وافية ودقيقة عن تطور سَير العمل على مستوى البناء الذاتي لقاعدة الدعوة والمجتمع من جهة، ومواجهة التحدّيات الداخلية والخارجية لهذا البناء من جهة أخرى.

فإذا وضعنا هذا في حسابنا أمكننا أن نتصوّر حجم الصعوبة التي واجهها البحث فعلاً.

خطة البحث ومبرراتها المنهجية

ومن أجل دراسة منهجية مستوعبة للموضوع، رأيت أن أقسمه إلى تمهيد وثلاثة أبواب، وثمانية فصول وخاتمة بنتائج البحث وآفاق الاستفادة منها اليوم.

ـ تناولت في التمهيد ما أسميته بـ «المفاهيم المفتاحية للدراسة».

حيث حاولت فيه تحديد المفاهيم الاصطلاحية الأساسية الواردة في عنوان البحث، باعتبارها مفاتيح للدراسة، تمكن القارِئ من فهم مراد الكاتب بدِقّة، وهو ما يساعد طبعًا على الإفادة منها في حال الموافقة، وإفادتها عند المخالفة.

ـ وتناولت في الباب الأول الذي قسمته إلى فصلين: «غاية الدعوة الإسلامية وخصائصها المبدئية الكبرى».

حيث خصصت الفصل الأول للحديث عن «غاية الدعوة وآفاقها الرساليّة الكبرى» في عالمي الشهادة والغيب. لما في ذلك من أهمية منهجية كبرى، لأنه من غير المعقول أن نتحدث عن «منهج النبي ﷺ في حماية الدعوة والمحافظة

على منجزاتها خلال الفترة المكية» دون أن نحيط علمًا بغاية هذه الدعوة ومضامينها الرسالية الكبرى التي يسعى البحث إلى معرفة كيفية حماية النبي ﷺ لها من التحريف والتشويه والاختزال.

وخصصت الفصل الثاني للحديث عن:

«الخصائص المبدئية الكبرى للدعوة الإسلامية» باعتبارها الأسس القاعدية الثابتة، التي تعطي للدعوة ـ كمضمون رسالي ـ ذاتيتها المتميزة، وتشدّ حركة التبليغ والبناء والمواجهة إلى أهدافها الاستراتيجية الكبرى، وآفاقها الرسالية البعيدة، فلا تزيغ عنها، ولا تنحرف بها، ولا تتجمّد عند الأهداف الوسيطة أو المرحلية، من جراء كثافة التحديات وضراوتها من جهة، وطول آماد المواجهة وقساوتها من جهة أخرى.

فهذا الباب بفصليه يشكِّل الإطار المرجعي للدراسة، لتضمنه ثوابت الدعوة وأهدافها الكلية التي يُرجع إليها في تقييم المسيرة، ومعرفة حجم النجاح الذي حقّقه العمل.

ـ وتناولتُ في الباب الثاني: الذي قسمتُه إلى ثلاثة فصول: «طبيعةَ المرحلة المكية وأهداف الدعوة فيها».

حيث خصصت الفصل الأول للحديث عن «بيئة الدعوة في المرحلة المكية» من ناحية الأوضاع العقدية والفكرية والاجتماعية والسياسية، السائدة في أُمّ القرى وما حولها، والتي ستتحرك الدعوة في إطارها، وتعمل على تغييرها.

وهو أمر ضروري من الناحية المنهجية، يساعدنا على الإحاطة بخلفية الكثير من المواقف النبوية، وفهم الملابسات الواقعية التي كانت تحيط بها مـ جهة، وإدراك حجم التأثير والتغيير الذي أحدثه عمله ﷺ في المجتمع مـ ـة ثانية، وضخامة الجهود التي بُذِلت لهدم النظام الجاهلي وبناء النظام الإسـ البديل من جهة ثالثة.

وخصصت الفصل الثاني للحديث عن «التكليف الرسالي للنبي ﷺ وبداية الدعوة».

وهو أمر رأيت أنه من تمام التناسق المنهجي لموضوع الدراسة، وتكامل حلقاته، الحديث عنه.

لأنه بدا لي أن من غير المستساغ منهجيًا، الدخول مباشرة في الحديث عن منهج النبي ﷺ في حماية الدعوة والمحافظة عل منجزاتها دون الكلام على التأهيل الرسالي للشخصية النبوية، لما في ذلك من صلة مباشرة بموضوع البحث، وأهميته في فهم الأبعاد الخلفية للنجاح العظيم الذي حققه عليه الصلاة والسلام في الدعوة والبناء والمواجهة.

لذلك ومن أجل تلافي أية ثغرة في البنية المنهجية للدراسة، تحدثتُ عن التأهيل الرسالي للشخصية النبوية، على الصعيد الفطري والاكتسابي والتأييدي قبل البعثة.

وهو ما أفضى بي مباشرة إلى الحديث عن التكليف الرسالي له عليه الصلاة والسلام، والانطلاق في بدء الدعوة والبناء.

وخصصت الفصل الثالث للحديث عن: «أهداف الدعوة في المرحلة المكية»، لما لها من أهمية منهجية كبيرة كذلك بالنسبة للبحث بكامله لأنها هي التي تحدد لنا إطار التقييم للحركة النبوية في هذه الفترة، ومعرفة حجم النجاح الذي حققته، ومدى فعالية مناهج العمل التي اعتمدها عليه الصلاة والسلام في الدعوة والبناء والمواجهة.

ـ وتناولت في الباب الثالث والأخير، الذي قسمته كذلك إلى ثلاثة فصول: «التحديات التي واجهتها الدعوة في المرحلة المكية ومنهاج مواجهتها».

وقد ارتأيت أن أقسم المرحلة المكّية ـ موضوع البحث ـ إلى ثلاث مراحل تأسيسية كبرى، خصصت كل مرحلة منها بفصل مستقل، تناولت فيه

التحديات التي واجهتها الدعوة في تلك المرحلة ومنهج مواجهتها.

واعتمدت خطة منهجية مشتركة، أو موحدة، أعتقد أنها تستوعب الموضوع بشكل شامل كما تصورتُه، حيث تناولت في كل فصل من الفصول الثلاثة المحاور التالية:

١ ـ الإطار الزماني والمكاني للمرحلة.

٢ ـ أهداف الدعوة في هذه المرحلة «أي المرحلة التي يتناولها الفصل».

٣ ـ التحديات التي واجهتها الدعوة في هذه المرحلة على مستوى:

- الدعوة وقيادتها.
- الدعوة وقاعدتها.
- الدعوة وقاعدة المجتمع.

٤ ـ منهج النبي ﷺ في مواجهة هذه التحديات:

- الخاصة بالدعوة وقيادتها.
- الدعوة وقاعدتها.
- الدعوة وقاعدة المجتمع.

٥ ـ منجزات الدعوة في هذه المرحلة.

أي منجزاتها على مستوى الأهداف المحورية للمرحلة التي يتناولها الفصل.

- موقع هذه المنجزات الخاصة بالمرحلة من الأهداف الكلية للمرحلة المكية عمومًا.

وختمت هذا البحث بخلاصة أجملت فيها النتائج التي توصلت إليها في ما يتعلق بـ:

- منجزات الدعوة في المرحلة المكية.
- موقع هذه المنجزات من الأهداف الاستراتيجية للدعوة، وآفاقها الرسالية البعيدة.

ـ معالم المنهج النبوي في حماية الدعوة والمحافظة على منجزاتها.
ـ آفاق الاستفادة من هذا المنهج اليوم في تحصين الإطار المرجعي لأعمالنا، وحمايته من التمييع وعمليات التحكّم التعسّفي فيه من جهة، وحماية حركة التبليغ والبناء من التوقّف والتعطّل... من جهة ثانية، والمحافظة على مكاسب هذه الأعمال وحسن الإفادة منها في دفع أوضاع الأمة إلى المزيد من التحسن والتأصل والعطاء الحضاري من جهة ثانية.

منهجية إنجاز البحث

وبالإضافة إلى ما سبق من الخطوات المنهجية المتصلة بخطة البحث، يمكن الإشارة كذلك إلى أمرين مهمين هما:

ـ مصادر البحث.

ـ ومنهاج الدراسة.

١ ـ ما يتعلّق بمصادر البحث

حاولت أن أستفيد من القرآن الكريم مباشرة، باعتباره المصدر الأساسي الأول للدعوة، سواء ما يتصل بتحديد مضامينها الرسالية: العقدية والفكرية والاجتماعية والسياسية.. أو ما يخص تطور عملية تطبيق مفاهيمها ومقولاتها على الواقع الإنساني المُعاش، وما واجه ذلك من مشكلات سجّلها القرآن مع حلولها اللازمة.

ـ ومع الاستفادة المباشرة من القرآن الكريم في تتبع وقائع سير عملية التبليغ والبناء والمواجهة، اعتمدت كذلك على التفاسير العديدة، لصلتها العضوية المباشرة بفهم القرآن، وتوجيه معانيه، وحاجة البحث إلى ذلك.

خاصة في معرفة أسباب نزول الآيات التي تعين على إدراك طبيعة التحديات التي واجهتها الدعوة، وحجم هذه التحديات، وكيفيّة التعامل معها، والقضايا التي كانت تركّز عليها، وطرق عرضها..

وقد انتفعت كثيرًا من بعض التحاليل والتوجيهات التي كنت أعثر عليها في خضم الآراء والأفكار العديدة التي يسوقها المفسرون ـ على عادة أغلبهم ـ لتوضيح النص ومحاولة كشف أسراره، وسبر أغواره.

وإن كنت ألاحظ غياب «النظرة السُّننية» المتكاملة، التي تحاول التعمّق في النص القرآني لاستخراج ما فيه من سُنن قيام الحضارات وقوانين سقوطها، في أغلب التفاسير، قديمها وحديثها، وهو ما كنت أبحث عنه وأتوق إليه، وأسعى للاستفادة منه في استخلاص معالم المنهج النبوي في الدعوة والبناء والمواجهة، فلا أعثر إلا على شيء يسير من بغيتي.

مع أنني كنت أراجع أكثر من عشرين تفسيرًا أحيانًا، وأَزْيَد من خمسةَ عشر باستمرار، في كل آية لها صلة بموضوع البحث.

ـ ويأتي بعد القرآن والتفسير كتبُ الحديث والسّيرة النبوية الشريفة، حيث كنت أقدّم الصحيحين على غيرهما عندما أجد الرواية فيهما، وإن ظهر أنني أكثرت من الاعتماد على كتب السّيْرة، وهو أمر طبيعي، لأن هذه الأخيرة فيها تفاصيل ضافية عن تطور الحركة النبوية وخاصة من الناحية الزمانية التي لا تهتم بها كتب الحديث لاختلاف منهجي التأليف بينهما.

ونظرًا لطبيعة البحث واختياراته المنهجية، فقد كنت أعود إلى كتب السيرة التي اهتمّتْ بالسرد التاريخي لأحداث الحركة النبوية قديمًا وحديثًا، وكذا كتب الحديث، في ما يتعلق بالوقائع التاريخية وتسلسل تطورها الزماني، في حين كنت أعتمد في عملية تحليل هذه الوقائع وتفسيرها وتوجيهها، ومحاولة استخلاص ما فيها من أبعاد ودلالات «منهجية» أو «سننية» على الدراسة التحليلية التي تعينني على التعرف على مفردات المنهجية النبوية التي أصل من خلال الربط بين عناصرها إلى الوقوف على ملامح المنهج النبوي في الدعوة والبناء والمواجهة.

ـ ثم تأتي بعد هذه المصادر مراجع عامة، كثيرة ومتنوعة، في اللغة

والتاريخ والعقيدة وأصول الفقه والدعوة، والوعي الإسلامي عمومًا.. استفدت منها في إثراء جوانب مختلفة من الموضوع.

٢ ـ ما يتعلق بمنهج الدراسة

وكما سبق أن أشرت فإني حرصت ـ انسجامًا مع طبيعة الموضوع وأهدافه ـ على أن أتجاوز منهج السرد التاريخي للأحداث الذي سيطر على قسم كبير من الدراسات السابقة، لأستفيد بالإضافة إلى ذلك من «المنهج التحليلي».

لأن غرضي ليس هو نسخ كتاب جديد في السيرة على طريقة التسجيل التاريخي لوقائع الحركة النبوية وأحداثها، بل هو محاولة البحث عما وراء هذه الحركة من قواعد منهجية متناسقة، أخرجتها ذلك الإخراج المحكم، الذي عمل على حماية المضمون الرسالي للدعوة، وحافظ على منجزاتها.

وهذا الأمر اقتضى مني الاستعانة «بالمنهج التحليلي» في تتبع المكونات المبدئية والواقعية لهذه الأحداث والوقائع والمواقف، ورصد الكيفيات الإجرائية التي تمّت بواسطتها الملاءمةُ بين النص أو الهدف من جهة، والواقع من جهة أخرى والإمكانات المتاحة من جهة ثالثة، وصولاً إلى الفعل المنهجي المكين، الذي وقف المنهج السردي التسجيلي عند تقرير صورته الظاهرية، دون أن ينفذ إلى عناصره ومكوّناته العديدة ومراحل التفاعل التي مرّ بها، والعوامل التي تحكّمت في ضبط نسبه قبل أن يستوي على ما هو عليه، ويحقق النتائج الكبيرة، على صعيد البناء الذاتي لقدرات الدعوة، والتمكّن من حماية محتواها الرسالي.

لقد بذلت قصارى جهدي في درس أحداث كل مرحلة من المراحل التأسيسية الثلاث الكبرى وتحليلها في ضوء الآفاق الرسالية للدعوة، وأهداف المرحلة المكّية، وحاولتُ الوقوفَ على أبعادها المنهجية، التي استخلصتُ منها بعد تأملها في سياقها الكلي التكاملي معالمَ المنهج النبوي في حماية

الدعوة والمحافظة على منجزاتها، كما هداني إليها اجتهادي، الذي أدعو الله سبحانه وتعالى أن يجعلني مصيبًا فيه، وأن يغفر لي إن قصّرت أو أخطأت.

وقبل أن أختم هذه المقدمة أتوجه بالشكر الجزيل، والتقدير الكبير إلى كل من مدّ لي يد المساعدة في إنجاز هذا العمل المتواضع، وأخص بالذكر أستاذي الفاضل الدكتور محمد الطاهر الجوابي الذي كان لتحريضه المتواصل، ورعايته الأبوية لي أكبر الأثر في تحفيزي على العمل ومغالبة الصعاب.

والحمد لله رب العالمين أولاً وأخيرًا.

قسنطينة في ٧ ذو الحجة ١٤١٢ هـ

الموافق لـ ٢٠ حزيران/ يونيو ١٩٩١ م

تمهيد في المفاهيم
المفتاحية للدراسة

- تمهيد في إشكالية البحث
- مفهوم الدعوة
- مفهوم المنهج
- مفهوم الحماية
- مفهوم المنجزات
- مفهوم المحافظة

تمهيد في إشكالية البحث

ما دام الإسلام، كما يعتقد المسلمون، هو كلمة الله إلى الإنسان وحبله المتين الذي تُشدّ به الحياة البشرية إلى سُنن الاستقامة والقوة والفعالية والتمكين في الأرض. فهو بالتالي قطاع من الناموس الإلهي العام[1] الذي يحكم حركة الوجود كلها، لا تتسق حياة الإنسان، ولا يستقيم أمرُها إلا بالتطابق مع ما جاء به من مبادئ وقيم، وأحكام وتوجيهات، كما قرر ذلك القرآن الكريم في مثل قوله تعالى:

﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَـٰمُ ﴾ [آل عمران: ١٩].

وقوله سبحانه وتعالى محذرًا من مخاطر الانحراف عنه:

﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَـٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [آل عمران: ٨٥].

وقوله عزّ وجلّ:

﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ

---

(١) سيد قطب، معالم في الطريق/ ٩٩.

أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾﴾ [طه: ١٢٤].

فالإسلام دون سواه هو المدخل الفطري للتحقق بالعبودية لله، وتحقيق الاستخلاف الأمثل في الأرض[٢].

وعليه فإن الدعوة إليه، وتعريف الناس به، وإقناعهم بالإقبال عليه، والتجاوب مع قِيَمه ومبادئه وتوجيهاته، وإبعادهم عن التناقض معه، والتصادم به، يصبح أمرًا محتومًا لا بديل عنه لاستقامة حياة الإنسان، وتناغم سعيه الإعماري مع سُنن الله في الآفاق والأنفس والكتاب.

وهو ما أكدته نصوص كثيرة في القرآن والسُّنّة، وارتقت به إلى قمة الأعمال الجليلة عند الله تعالى، لما يترتب عليه من الخير العظيم للناس الذين يعرفون الحق ويقبلون على الالتزام به كما قال تعالى:

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [فصّلت: ٣٣].

وكما قال عليه الصلاة والسلام لعلي رضي الله عنه: «**فوالله لإن يهدي اللّهُ بك رجلاً واحدًا خَيْرٌ لك من حُمْر النَّعَم**»[٣].

وهذه الدعوة التي تتوقّف عليها معرفة الناس للإسلام، وإقبالهم عليه والتزامهم به، وانتفاعهم مما جاءهم به من سُنن الهداية والحكمة والاستقامة، لا تؤتي ثمارها المرجوة، ولا تحقق مقاصدها في الخلق، إلا بمنهج محكم:

- يحقق نقل حقيقتها الحضارية كاملة شاملة حيّة آسرة إلى الضمير الإنساني.

- يحمي محتواها الرسالي من التحريف والتشويه والاختزال.

---

(٢) الطبطبائي: الميزان في تفسير القرآن ١٤/ ٢٢٤.

(٣) البخاري، في كتاب الجهاد: باب: دعاء الرسول ﷺ من فتح الباري ٦/ ٨٥.

ـ يرعى حركة تبليغ هذا المحتوى الرسالي ونقله إلى الضمير الإنساني من الإعاقة والتوقف والتراجع.

ـ ويحافظ على منجزات حركة التبليغ والبناء والمواجهة، ويصونها من التبديد والهدر والإتلاف، ويساعد على حسن الاستفادة منها في تأكيد مصداقية الدعوة، ودعم مسيرتها، ومضاعفة عطاءاتها.

هذا المنهج الذي يمنح نشاطنا الخاص والعام، وحركتنا الفردية والجماعية القدرة على التلاؤم والاستفادة الفعّالة من الإمكانات المتاحة، والظروف المحيطة، ويرتقي «بفعلنا الحضاري» إلى مستوى العطاء النموذجي الممكن في العصر الذي نعيش فيه، والمرحلة التي نمرّ بها، ونواجه تحدّياتها..

هذا المنهج الذي يمنحنا هذا الاقتدار على حسن التفاعل مع سُنن الآفاق والأنفس والهداية، هو الإشكال الكبير الذي تتصدى له هذه المحاولة، وتسعى إلى فكّ بعض عقَده، والمساهمة في رفع بعض التباساته، من خلال التجربة المرجعية النموذجية في البناء الحضاري، وهي التجربة النبوية المعصومة، التي تكاملت فيها قدرات الدعوة والبناء، مع قدرات حماية حركة هذه الدعوة والبناء والمحافظة على منجزاتها من الهدر والتبديد، وتوظيفها بشكل نموذجي في تعزيز قدرات الدعوة ومواقعها، وتمكينها من ترسيخ أقدام مشروعها الحضاري في الواقع الإنساني.

والمراجعة الفاحصة للتجربة التاريخية لكثير من الحركات الإنسانية تدلنا على أن أكبر تحدّ تواجهه الدعوات أو التجارب التغييرية هو:

ـ تعقّد عملية حماية المضمون الرسالي لهذه الدعوات من التحريف والتشويه والاختزال.

ـ صعوبة رعاية حركة التبليغ والبناء من الإعاقة أو التوقّف والتراجع.

ـ تعقّد عملية المحافظة على منجزات حركة التبليغ والبناء والمواجهة من

التبديد والهدر والإتلاف، والاستفادة المثلىٰ منها.

ولعل أقرب صورة إلينا عن هذه الإشكالية المعقدة، هي تجربة النهضة الإسلامية الحديثة، التي برزت فيها هذه المشكلة بقوّة، حيث لوحظ كيف تبدأ دعوات أو حركات بمحتوى ثم تنتهي بعد فترة من المكابدة بمحتوى آخر مناقض في العديد من جوانبه للمنطلقات المرجعية الأولى، كما هو الشأن ـ على سبيل المثال ـ بالنسبة لحركات أو ثورات التحرير الوطنية، التي قامت في العالم الإسلامي «باسم الله».

واستهدف جلّها ـ إن لم نقل كلّها ـ تحقيق التواصل الشامل المحكم مع مرجعيتها الحضارية من جديد، وبناء مجتمع معاصر يجسد مسلماتها العقدية، وقيمها الفكرية في منظومته التربوية والثقافية والتشريعية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية.

لقد أخفق العديد من الحركات على هذا المستوى، وعلى مستوى استمرار التجربة وتواصل السير، وصيانة منجزات العمل والمحافظة على مكاسبه.

ولا شك أن هذا الوضع يشكل خطرًا حقيقيًّا على مسيرة الأمة، لأنه يعرّض جهود البناء للتآكل والتبدّد، ويستنزف الإمكانات الحضارية للمجتمع، ويغرقه في أوحال التبعية، ويحكم عليه بالهامشية أو الغثائية.

لهذا تغدو الإجابة عن هذه الأسئلة المحورية، قضية حيويّة في غاية الأهمية بالنسبة لمسيرة أي مجتمع ومستقبله:

ـ كيف ولماذا يتسرّب الخلل إلى المضمون المرجعي لحركة الجماعة أو المجتمع، ويعرضها لانزلاقات خطيرة تفقدها روحها وخصوصيتها؟

ـ كيف تَتَمكّن الحركة من حماية مضمونها المرجعي من التشويه والتحريف والاختزال في كل مراحل الطريق ومنعطفاته؟

ـ كيف ولماذا تصاب حركة التبليغ أو الدعوة والبناء بالجمود أو التوقف أو التراجع؟

ـ وكيف تُصَان هذه الحركة أي حركة التبليغ والبناء ـ من هذه المعوقات، وتضمن لها أسباب الاستمرارية والتواصل بشكل مضطرد فعال؟

ـ وكيف ولماذا تتعرض منجزات حركة التبليغ والبناء والمواجهة للتبديد والهدر، ولا تستفيد منها الدعوة في تدعيم مواقعها وإخصاب كسبها؟

ـ وكيف تتمكن الحركة من المحافظة على هذه المنْجزات واستثمارها بفعالية في إنجاز المراحل التالية من استراتيجيتها في الدعوة والبناء والمواجهة؟

وفي هذه الدراسة حول «المنهج النبوي في حماية الدعوة والمحافظة على منجزاتها خلال الفترة المكية» محاولة لتقديم نموذج تطبيقي فذّ في تجاوز هذه الإشكاليات الكبرى.

ضبط المفاهيم المفتاحية للدراسة

ومن أجل تلافي الغموض، وتحقيق التواصل الأمثل بين القارئ والموضوع، أحاول تحديد مفاهيم المصطلاحات الواردة في عنوان البحث، باعتبارها مفاتيح أساسية لعملية الفهم والإفادة والاستفادة(٤).

وهذه المصطلحات هي:

ـ الدعوة
ـ المنهج
ـ الحماية
ـ المنجزات
ـ المحافظة

---

(٤) ابن خلدون، المقدمة ٢/٦٣٨. مالك بن نبي، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي /١٥٧. د. محمود صفر، دراسة في البناء الحضاري /٥٦.

أ ـ مفهوم الدّعوة

١ ـ المعنى اللغوي للكلمة

ومما جاء فيها وفي مشتقّاتها في القاموس المحيط:

الدعاء: الرغبة إلى الله تعالى.. ولهم الدعوة على غيرهم أي: يبدأ بهم في الدعاء، وتداعوا عليه: اجتمعوا.

ودعاه: ساقه، والنبي ﷺ داعي الله، ويطلق على المؤذّن.

وداعية اللبن: بقيته التي تدعو سائره[٥].

وجاء في معجم مقاييس اللغة:

أن: د. ع. و الحرف المعتل أصل واحد، ومعناه أن تميل الشيء إليك بصوت وكلام يكون منك تقول: دعوته أدعوه دعاء[٦].

وقال صاحب لسان العرب:

.. والدعاة قوم يدعون الناس إلى بيعة هدى أو ضلالة، واحدهم داعٍ، ورجل داعية: إذا كان يدعو الناس إلى بدعة أو دين.. والنبي ﷺ داعي الله وكذلك المؤذّن[٧].

وجاء في أساس البلاغة:

«.. دعوت فلانًا: ناديته وصحت به، والنبي داعي اللّه، وهم دُعاة الحق، ودعاة الباطل، ودعاة الضلالة»[٨].

وجاء في المعجم الوسيط:

«(دعا) بالشيء: دعوًا، ودعوة ودعاء ودعوى: طلب إحضاره..

---

(٥) الفيروز آبادي ٤/ ٣٢٩.
(٦) ابن فارس ٢/ ٢٩٣.
(٧) ابن منظور ١٤/ ٢٥٩.
(٨) الزمخشري ١/ ١٨٩.

ويقال: دعا الميت: ندبه ـ وفلانًا: استعان به . .

ويقال: دعا اللّه رجا منه الخير. و ـ لفلان طلب له الخير. ودعا على فلان طلب له الشر، بزيد وزيدًا: سماه به و ـ لفلان: نسبه إليه و ـ إلى الشيء: حثّه على قصده. يقال: دعاه إلى القتال، ودعاه إلى الصلاة، ودعاه إلى الدين، وإلى المذهب: حثّه على اعتقاده . .

الداعية: الذي يدعو إلى دين أو فكرة . . »[٩].

ومن كل ما سبق نرى أن كلمة الدعوة وما اشتق منها من معاني كثيرة متقاربة في مضمونها تدور في جملتها حول:

- الدعاء أو السؤال والطلب والرغبة إلى اللّه . .
- الحثّ.
- السوق من ساق.
- الآذان والنداء والإمالة.
- الانتساب.
- الزعم.
- الاجتماع.
- والصياح والنداء . . الخ.

وقد جاء في القرآن الكريم والسُّنّة النبوية الشريفة ما يدل على كل هذه المعاني وغيرها، نكتفي بإثبات عينات[١٠] مما يؤكد المعنى الأساسي والمحوري الذي تدور حوله هذه الدراسة وهو نداء الناس وإمالتهم إلى الإسلام، وحثّهم على الانتساب إليه. والالتزام به، والاجتماع عليه.

---

(٩) د. إبراهيم أنيس وآخرون ١/٢٨٦.
(١٠) المعاني الأخرى تنظر في: معجم مفردات ألفاظ القرآن ١٢٧، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن ٢٥٧.

مثل قوله تعالى:

﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ۝ ﴾ [الأحزاب: ٤٥، ٤٦]. أي داعيًا إلى توحيد الله وطاعته.

ومثل قوله سبحانه وتعالى على لسان الجن لما سمعوا القرآن فولّوا إلى قومهم منذرين:

﴿ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ ﴾ [الأحقاف: ٣١].. أي أطيعوا ما طلب منكم عمله، والتزموا ما جاء به الرسول ﷺ في الكتاب من الهداية.

ومثل قوله عز وجل:

﴿ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝ ﴾ [يونس: ٢٥] أي يوجّه الإنسان إلى ما به يدخل الجنة، ويحثه على ذلك ويدفعه إليه بكل وسيلة تحقق هدايته، فهو سبحانه لعلمه بضآلة الدنيا أمام دار السلام رغّب الناس في الاهتمام بالدائم، وجعل الزائل في خدمته وعدم الخطأ في التقدير[١١].

ومثل قوله تعالى:

﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل: ١٢٥].

وقوله كذلك.

﴿ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ۝ ﴾ [الحج: ٦٧].

وقوله عليه الصلاة والسلام:

«مَن دَعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور مَن تَبِعَه..»[١٢].

---

(١١) تفسير التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور ١١/ ١٤٥. تفسير المنار، لمحمد رشيد رضا ١١/ ٣٥٠.

(١٢) صحيح مسلم، كتاب العلم، باب: من دعا إلى هدى / ٤٩٢.

وقوله أيضًا جوابًا عن سؤال علي رضي الله عنه يوم خيبر عند تسليمه نه عليه السلام الراية فقال علي: علام أقاتل الناس؟ فقال ﷺ: «**على رسلك حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعُهم إلى الإسلام، واخبِرْهُم بما يجبُ عليهم**»[١٣].

وقوله ﷺ لمعاذ بن جبل حينما بعثه إلى اليمن:

«**إنّك تأتي قومًا من أهل الكتاب، فادعُهم إلى شهادةِ أن لا إلٰه إلاّ الله، وأني رسولُ اللّه . .**»[١٤].

فهذه النصوص كلها تؤكد كون كلمة الدعوة تعني في المقام الأول حث الناس على الالتزام بالإسلام، وترغيبهم فيه، ودفعهم إليه، وتوجيههم نحوه بكافة الوسائل الشرعية المتاحة، وشتى الأساليب الممكنة.

٢ ـ المعنى الاصطلاحي الذي نعتمده

وانطلاقًا من المعاني السابقة التي أمدّنا بها التحليل اللغوي للكلمة، واستنادًا إلى المحاولات العديدة السابقة[١٥]، وانسجامًا مع مقاصد الدراسة وأهدافها، فإنه يمكننا أن نعرّف الدعوة بأنها:

ذلك الجهد المنهجي المنظم، الهادف إلى:

تعريف الناس بحقيقة الإسلام.

إحداث تغيير جذري متوازن في حياتهم على طريق الوفاء بواجبات الاستخلاف، ابتغاء مرضاة الله تعالى، والفوز بما ادخره لعباده الصالحين في عالم الآخرة.

---

(١٣) البخاري، كتاب الجهاد، باب: دعاء النبي ﷺ (من فتح الباري ٦/ ٨٥).

(١٤) مختصر صحيح مسلم. كتاب الزكاة. باب: وجوب الزكاة/ ١٣٦.

(١٥) انظر: ابن تيمية، مجموع الفتاوي ١٥/١٥٧. علي محفوظ، هداية المرشدين /١٧. محمد الغزالي، مع الله /١٤. د. عبد الرؤوف شلبي، الدعوة الإسلامية في عهدها المكي /٣٦. همام سعيد، قواعد الدعوة /١٠. د. الديلمي، معالم الدعوة في قصص القرآن ١/ ٣٣. د. غلوش، الدعوة الإسلامية أصولها ووسائلها /١٠.. الخ.

وينبغي أن نؤكد هنا ملاحظة مهمة جدًّا هي: أن الدعوة التي نعنيها هنا: ويدور حولها مجمل البحث، تشمل كما هو واضح التعريف في أمرين أساسيين هما وجهان لحقيقة واحدة:

ـ الدعوة كمضمون رسالي، أي كدين يُبلَّغ ويُلتزَم.

ـ والدعوة كعملية تبليغ لهذا المضمون الرسالي ومحاولة لتعريف الناس به، وحركة جهاد من أجل البناء ومواجهة الهدم.

فالبحث على هذا الأساس يتمحور حول منهج النبي ﷺ في حماية الدعوة بهذا المفهوم، والمحافظة على منجزاتها البشرية والمادية والمعنوية.

ب ـ مفهوم المنهج:

١ ـ المعنى اللغوي للكلمة:

بالعودة إلى قواميس اللغة نجد أن المنهج أو المنهاج يعني: الطريق الواضح، ونَهَجَ الطريق: أي أبانه وأوضحه، ونَهَجَه أيضًا: سَلَكَه.

ونَهَجَ الطريقُ: وضُحَ واستبان، وصار نهجًا واضحًا بيّنًا[١٦].

وفي القرآن الكريم:

﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨] أي طريقًا واسعًا واضحًا في الدين[١٧]، والسُّنة أو السبيل التي تسهل على الإنسان السير نحو غايته دون زيغ أو انحراف[١٨].

والمنهاج الخطة المرسومة[١٩].

---

(١٦) الرازي، مختار الصحاح / ٦٨١. ابن منظور، لسان العرب ٢/ ٣٨٣.
(١٧) الألوسي، روح المعاني ٦/ ١٥٣. ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير ٧/ ٢٢٣.
(١٨) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم ٢/ ٥٨٨. رشيد رضا، تفسير المنار ٦/ ٤١٣.
(١٩) د. مجمع اللغة العربية، القاهرة، المعجم الوسيط ٢/ ٩٦٥.

وعلى هذا الأساس يلاحظ أن المنهج يدور حول معنى أساسي هو: الطريق أو السبيل أو الخطّة المحددة للوصول إلى غاية معيّنة[٢٠].

٢ ـ المعنى الاصطلاحي الذي نعتمده

استنادًا إلى هذه المعاني التي وضعها بين أيدينا التحليل اللغوي لكلمة المنهج، وتماشيًا مع أهداف البحث والتزاماته المنهجية يمكننا أن نعرّف المنهج النبوي:

بالكيفيات العملية المنظمة التي كان النبي ﷺ يَعرض بها الإسلام على الناس، ويواجه بها مشكلات الواقع والدعوة، ويحرك بواسطتها الأحداث من حوله بما يضمن حماية المحتوى الرسالي لدعوته، ويحافظ على منجزاتها، ويحقق أهدافها في الخلق.

ج ـ مفهوم الحماية

١ ـ المعنى اللغوي للكلمة

جاء في لسان العرب:

حمى الشيء حميًا وحِمى وحماية ومحمية: منعه ودفع عنه[٢١].

وقال صاحب مختار الصحاح:

حمى حماة يحميه حماية: دفع عنه، وهذا شيء حمى: أي محضور لا يقرب، أو أحميت المكان جعلته حمى.

وتحاماه الناس: أي توقّوه واجتنبوه[٢٢].

وجاء في المعجم الوسيط:

---

(٢٠) المعجم الفلسفي / ١٩٥. د. محمد زيان عمر، البحث العلمي / ٤٨.

(٢١) ابن منظور ١٠١٤٢.

(٢٢) الرازي / ١٥٨.

حَمَى الشيءُ فلانًا حَمْيًا وحِماية: منعه ودفع عنه.

ويقال: حماه من الشيء وحماه الشيء. ويقال حمي الوطيس: أي اشتدت الحرب.

كما يقال: حامى عنه محاماة وحماية: دافع و ـ على ضيفه احتفل به.
واحتمى بفلان: امتنع، ومنه: اتّقاه، وبه: لجأ إليه، وتحاماه: تجنّبه.

والحِمَى: الموضع فيه كلأ يحمى من الناس أن يرعى، وحِمى الله: محارمه.

والحمية: الأنفة والمحافظة على المحرم والدين من التهمة(٢٣).

٢ ـ المعنى الاصطلاحي الذي نعتمده

تأسيسًا على ما تضمنته كلمة الحماية من معاني: المنع والدفاع والوقاية والتجنّب.. وهي معاني منسجمة تمامًا مع أهداف البحث ومقاصده، يمكننا أن نحدد المقصود «بحماية الدعوة» في هذه الدراسة:

بأنه العمل على وقاية المضمون الرسالي للدعوة، وحمايته من أي تشويه أو تحريف أو اختزال من جهة، وتجنيب عملية التبليغ وحركة التغيير والبناء كل ما من شأنه أن يؤثر سلبًا على استمراريتها ومصداقيتها من جهة أخرى.

د ـ مفهوم المنجزات

١ ـ المعنى اللغوي للكلمة

مما جاء في لسان العرب:

نَجَزَ الحاجةَ وأنجزها: قضاها، ونَجَزَت الحاجةُ إذا قُضِيَتْ(٢٤).

---

(٢٣) المعجم الوسيط ١/ ١٩٩.
(٢٤) ابن منظور، مرجع سابق ٦/ ٤٣٥.

وقال صاحب مقاييس اللغة:

نجز: النون والجيم والزاي، أصل صحيح يدل على كمال الشيء في عجلة من غير بطء.

نَجَز الوعد: ينجزُه وأنجزه: أعجلته، وأعطيته ما عندي حتى نجز آخره، أي وصل إليه آخره[٢٥].

وجاء في أساس البلاغة:

نجز: أنجز وعده إنجازًا، نجز الوعدُ. وهو ناجز إذا حصل وتم، ومنه نجز الكتاب، ونجَزَتْ حاجته[٢٦].

وقال صاحب مختار الصحاح:

نجز الشيء: انقضى وفني، ونجز حاجته: قضاها.

واستنجز الرجل حاجته وتنجَّزَها: أي استنجزها[٢٧].

وجاء في المعجم الوسيط:

نجز الشيءُ نجزًا: تمَّ وقُضِيَ، وحصل، تنجَّزَ الشيءَ طلب إنجازَه[٢٨].

٢ ـ المعنى الاصطلاحي الذي نعتمده

من خلال المعاني السابقة، يمكننا أن نعرّف «منجزات الدعوة» بأنها:

حصيلة المكتسبات البشرية والمادية والمعنوية التي حققتها الدعوة من جراء حركة التبليغ والبناء والمواجهة.

---

(٢٥) ابن فارس، المرجع السابق ٥/ ٣٩٣.
(٢٦) الزمخشري / ٦١٩.
(٢٧) الرازي / ٦٤٨.
(٢٨) المعجم الوسيط ٢/ ٩٠٣.

هـ ـ مفهوم المحافظة

١ ـ المعنى اللغوي للكلمة

قال صاحب المقاييس:

ح. ف. ظ: أصلٌ واحدٌ يدلّ على مراعاة الشيء. والحفاظ: المحافظة على الأمور[٢٩].

وجاء في اللسان:

الحافظ والحفيظ: الموكل بشيء يحفظه، والمحافظة: المواظبة على الأمر. ويقال: حافظ على الأمر والعمل وثابر عليه وحارص وبارك إذا داوم عليه.

وحَفِظت الشيء حفظًا: أي حرسته.

والمحافظة والحفاظ: الذبّ عن المحارم والمنع لها عند الحروب. والحفاظ: المحافظة على العهد والمحاماة على الحرم ومنعها من العدو[٣٠].

وجاء في ترتيب القاموس:

حَفِظَه: حرسه. والمال رعاه فهو حفيظ.

والمحافظة: المواظبة والذبّ عن المحارم[٣١].

وقال صاحب مختار الصحاح:

حفظ الشيء: حرسه. والمحافظة: المراقبة ويقال احتفظْ بهذا الشيء أي احفظْه[٣٢].

وجاء في المعجم الوسيط:

(٢٩) ابن فارس، مرجع سابق ٢/ ٨٧.
(٣٠) ابن منظور، مرجع سابق ٢/ ٩٢٩.
(٣١) الزاوي، ترتيب القاموس المحيط ١/ ٦٧٣.
(٣٢) الرازي، مرجع سابق / ١٤٤.

حفِظ الشيءَ حِفْظًا: صانَه وحَرَسَه، ويقال: حَفِظَ المالَ وحَفِظَ العهدَ: لم يَخُنْه. وحفظ العلمَ والكلامَ: ضبطه ووعاه.

وحافظ على الشيء مُحافَظَةً وحِفاظًا: رعاه وذَبَّ عنه وواظب عليه.

واستحفظَه الشيءَ: سأله أن يحفظه له. وأتمنه عليه. والحافظ: الحارس(٣٣).

٢ ـ المعنى الاصطلاحي الذي نعتمده

ومن مجمل هذه المعاني التي يتسع لها مفهوم المحافظة كما نريد استعماله في هذه الدراسة نقول: إن المقصود «بالمحافظة على منجزات الدعوة» هو:

رعاية مكتسباتها البشرية والمادية والمعنوية، وصيانتها من كل ما يعرضها لتضاؤل فعاليتها، وحرمان مسيرة العمل من خدماتها.

ومن كل ما سبق يتضح لنا الغرض من هذه الدراسة، وهو محاولة البحث عن معالم المنهج النبوي في حماية الدعوة كمضمون حضاري: عقدي وفكري وسياسي واجتماعي وثقافي.. من جهة، والمحافظة على مكتسبات هذه الدعوة ومنجزاتها على صعيد القاعدة الجهادية التي بناها الرسول عليه الصلاة والسلام والرأي العام الذي أخذ يكوّنه ويهيئه للتجاوب مع الدعوة من جهة أخرى حيث يتخفف من الضغوط والإكراهات التي يفرضها عليه الواقع الجاهلي الموروث.

---

(٣٣) المعجم الوسيط، ١/ ١٨٥.

الباب الأول

غاية الدعوة الإسلامية
وخصائصها المبدئية الكبرى

الفصل الأول
غاية الدعوة الإسلامية وآفاقها الرسالية الكبرى

الفصل الثاني
الخصائص الكبرى للدعوة الإسلامية

الفصل الأول

غاية الدعوة الإسلاميّة وآفاقها الرساليّة الكبرى

أ ـ عناية الإسلام بالوجود الإنساني: وظيفة ومصيرًا.

١ ـ العناية بالوظيفة الوجودية للإنسان.

٢ ـ العناية بالمصير النهائي للوجود الإنساني.

٣ ـ العناية بوراثة الجنة كغاية نهائية للوجود الإنساني.

ب ـ عناية الإسلام بالاستخلاف كهدف استراتيجي للدعوة الإسلامية في عالم الشهادة

١ ـ مفهوم الاستخلاف وحقيقته.

٢ ـ العبادة قوام الاستخلاف.

٣ ـ الأبعاد الكبرى لمشروع الاستخلاف.

٤ ـ منهج الاستخلاف.

في البداية ونحن ننطلق للحديث عن غاية الدعوة الإسلامية وآفاقها الرسالية الكبرى، يحسن بنا أن نشير إلى المقصود بالغاية في بعديها اللغوي والاصطلاحي.

وبالعودة إلى المعاجم اللغوية[1] وتتبع دلالات الكلمة، يمكن القول بأنها تتمحور حول عدد من المعاني أبرزها:

- مدى الشيء وأقصاه ومنتهاه وآخره.
- علامة في جنسه لا نظير له، فهو منتهى هذا الجنس.
- الفائدة المقصودة من الأمر.

وهي معاني ليست متباعدة عن بعضها، بل يجمع بينها معنى أساسي هو: مدى الشيء وأقصاه ومنتهاه وآخره... الذي يغلب استعماله، وهو المعنى الذي يتطابق مع المفهوم الاصطلاحي للكلمة، الذي نريد استعماله هنا.

---

(١) ابن منظور لسان العرب ٥/ ٣٣٣١.
- الرازي، مختار الصحاح / ٤٨٨.
- الزاوي، ترتيب القاموس المحيط ٣/ ٤٣٨.
- المعجم الوسيط ٢/ ٦٦٩.

إذ نقصد بغاية الدعوة: مقاصدها العليا في الخلق عاجلاً وآجلاً، ومراميها البعيدة فيهم على مستوى عالَمَيْ الشهادة والغيب.

وانطلاقًا من هذا المفهوم نبادر إلى الحديث عن غاية الدعوة الإسلامية وآفاقها الرسالية الكبرى بحول الله تعالى، ومن خلال مبحثين أساسيين هما:

- عناية الإسلام بالوجود الإنساني: وظيفة ومصيرًا.

- عنايته كذلك بوظيفة الاستخلاف كهدف استراتيجي للدعوة الإسلامية في عالم الشهادة.

أ ـ عناية الإسلام بالوجود الإنساني: وظيفة ومصيرًا

إن النظرة الشمولية المتفحّصة لنصوص الوحي الإلٰهي، كما جاءت في كتاب الله وسُنّة رسوله ﷺ، تفضي بصاحبها لا محالة، إلى نتيجة أساسية كبرى وهي: أن الوظيفة الوجودية للإنسان، ومآله النهائي، تشكلان محور ارتكاز أساسي في اهتمامات الدعوة الإسلامية، بعد الاهتمام المركزي الأول لها وهو: توحيد الله سبحانه وتعالى في ربوبيته وأُلوهيته وأسمائه وصفاته[٢]. وهو ما سنحاول تأكيده في ما يلي من خلال المباحث الفرعية التالية:

١ ـ العناية بالوظيفة الوجودية للإنسان

تشكّل هذه الوظيفة محورًا كبيرًا في اهتمامات الدعوة الإسلامية، باعتبارها دعوة موجهة للإنسان، جاءت تحدّد رسالته في الحياة، وعلاقته بالله والكون[٣].

وهو ما يجعلنا نقرر آن غاية الدعوة الإسلامية على مستوى عالم الشهادة هي: تمكين الإنسان من تحقيق مستوى استخلافي راقٍ وفق ما تتيحه له ظروفه وإمكاناته في عصره.

---

(٢) ابن تيمية، العبودية/ ٩ ـ ١٢.

(٣) توفيق محمد سبع، قيم حضارية في القرآن الكريم ٢/ ٩٦.

ذلك لأن الاستخلاف هو الوظيفة الوجودية للإنسان، كما يؤكد ذلك القرآن صراحة في آيات عديدة يأتي في مقدمتها قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]، فالخلافة بمفهومها الحضاري الذي يعني: تحقيق العبودية لله تعالى، والسيادة في الأرض[٤] عبر التوافق والانسجام مع سنن الله الكونية والتشريعية والاستمتاع بخيرات الأرض طاعة وشكرًا. والاستعداد للقاء الله هو الوظيفة الوجودية للإنسان في عالم الشهادة التي سيتقرر على ضوئها مآل الإنسان ومصيره في العالم الآخر، الذي سيلجه عبر بوابة الموت، وما يليه من مراحل انتقال حتى يستقر في الجنة أو النار.

فالخلافة على هذا الأساس، تتضمن الابتلاء الشامل المتنوّع لإرادة الإنسان وحريته واختياره، كما يبين ذلك القرآن في قوله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝٢ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝٣﴾ [الإنسان: ٢، ٣] وقوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۝٧﴾ [الكهف: ٧].

وقوله عز وجل: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ﴾ [الأنعام: ١٦٥].

قال ابن كثير معلقًا على الآية:

«... أي جعلكم تعمرونها جيلاً بعد جيل وقرنًا بعد قرن وخلفًا بعد سلف»[٥] ليختبركم في الذي أنعم به عليكم من العلم والقوة والجاه والمال والسلطان... كيف تتصرفون فيه[٦]؟

ونظرًا لأهمية هذه الوظيفة الوجودية للإنسان في عالم الشهادة، وتوقّف مصيره الأخروي على الدور الذي يؤديه إزاءها جاءت الدعوة الإسلامية لِتَدُلَّه

(٤) د. فاروق أحمد الدسوقي. استخلاف الإنسان في الأرض / ١٢.

(٥) تفسير القرآن العظيم ٣/ ١٤٢.

(٦) القاسمي، محاسن التأويل ٤/ ٨١٣.

على ما به يعي رسالته في الحياة، ويتحرك لإنجازها بكفاءة واقتدار. وهو ما سنحاول تفصيل القول فيه في المبحث الأساسي الثاني.

٢ ـ العناية بالمصير النهائي للوجود الإنساني

وتأتي هذه العناية بالمآل النهائي للإنسان من النظرة الشمولية المتكاملة للوجود الإنساني في الإسلام، الذي تجاوز برؤيته المنفتحة على عالمي الشهادة والغيب، كلَّ الآراء الابتسارية المحدودة، التي عرّضت حياة الإنسان للشّطر والاختزال، وحاولت قطع صلته بالآخرة، وربطه بالدنيا كغاية نهائية لوجوده[٧].

فالوجود الإنساني في المنظور الإسلامي، وجود ممتد لا ينتهي بانقضاء أجل الإنسان في الدنيا، بل يعتبر ذلك إيذاناً ببداية مرحلة جديدة في حياته، ستفضي به بعد حين إلى مصيره النهائي في الجنة أو النار كما قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ﴿٧﴾ ﴾ [الشورى: ٧].

ونظرًا لأهمية هذا الأمر وخطورته في الوقت نفسه بالنسبة للإنسان، فقد أعطي عناية كبيرة جدًا سواء على مستوى الحجم أو النوع، حيث أفاض القرآن بالخصوص في التذكير به، والتحذير من الغفلة عنه، واسترسل في وصف الجنة والنّار وأحوال الناس فيهما بشكل ملفت للانتباه.

وفي هذا السياق يمكن التذكير ببعض الملاحظات المهمة ذات الدلالة الكبيرة على مكانة العناية بالمصير الإنساني في الإسلام.

ومنها على سبيل المثال اقتران الكلام في القرآن الكريم على اليوم الآخر، بالكلام عن الإيمان بالله، بصورة كثيفة، جعلت الدارسين المحققين يقررون أن: الحديث عن مصير الوجود الإنساني يأتي في الدرجة الثانية مباشرة بعد

---

(٧) محمد المبارك، نظام الإسلام: العقيدة والعبادة ١٣٥.

الركن الاعتقادي الأول وهو الإيمان بالله[8] والأمثلة كثيرة نقتصر على بعضها كقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ﴾ [التوبة: ١٨]، وقوله سبحانه: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [المجادلة: ٢٢].

وقوله عز وجل: ﴿لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [البقرة: ١٧٧].

كما تتجلى العناية بهذا المآل في التأكيد على ضآلة وضع الدنيا بالنسبة للآخرة حيث حفلت نصوص الكتاب والسُّنّة بمقارنات كثيرة بيّنت أهمية الآخرة ومنها مثلاً قوله تعالى: ﴿وَمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [العنكبوت: ٦٤] أي أن الحياة الحقيقية التي تستحق الاهتمام والتضحية، هي الحياة الآخرة التي لا زوال لها ولا انقضاء، ولا ينغّصها موت ولا مرض ولا همّ ولا غمّ[9].

وقوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾﴾ [التوبة: ٣٨].

وقوله ﷺ: «**والله ما الدنيا في الآخرة إلّا مثل ما يجعلُ أحدُكم إصبعَه هذه ـ وأشار بالسبابة ـ في اليَمّ، فلينظر بم يرجع**»[10].

والملاحظة الثالثة هي: كثرة الأسماء التي سمّى بها الله سبحانه وتعالى هذه المرحلة الأخيرة من حياة الإنسان، في سياق تأكيد العناية البالغة بها، حيث سماها: بيوم القيامة، ويوم البعث، ويوم الخروج، ويوم الدين، ويوم التغابن، ويوم الفصل، ويوم الجمع، ويوم الحشر، ويوم الحساب، ويوم الوعيد، ويوم الحسرة، ويوم الخلود.

---

(٨) عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، العقيدة الإسلامية وأسسها / ٦٢٢.

(٩) الشوكاني، فتح القدير ٤/ ٢١١.

(١٠) المنذري، مختصر صحيح مسلم (كتاب الزهد والرقائق. باب: ما الدنيا في الآخرة) / ٥٣٣.

كما أطلق عليها سبحانه: الغاشية، القارعة، الحاقّة، الواقعة، الطامّة، الآزفة، الصاخة، ودار الخلود، ودار القرار، ويوم التناد[11] إلى غير ذلك من الأسماء الموحية التي تبرز مدى عناية الإسلام بمصير الإنسان النهائي.

بالإضافة إلى الأهمية الذاتية للمصير الإنساني الذي جعل الدعوة الإسلامية تعطيه هذه الأهمية الكبيرة، هناك اعتباران مهمّان يؤكدان هذه العناية به وهما:

ـ طبيعة الإنسان ذاته، بما جبلت عليه من حب التكاثر، والميل إلى التفاخر بالأموال والأولاد والجاه، وشدة الجزع، وكثرة الغفلة والنسيان، وسهولة الاستدراج... كما تؤكد ذلك نصوص عديدة في القرآن والسُّنّة.

ـ وطبيعة الدنيا نفسها، المليئة بما يجذب الإنسان إليها، ويقعد به عن معالي الأمور، إذا هو سكن إليها وانساق وراءها، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ ﴾ [الكهف: ٧].

وقال سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٥﴾ ﴾ [فاطر: ٥].

وقال ﷺ: «... فو الله ما الفقر أخشى عليكم، ولكنّي أخشى عليكم أن تبسطَ الدّنيا عليكم كما بسطتْ على مَن كان مِن قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها وتهلككم كما أهلكتهم»[12].

كل هذه الاعتبارات جعلت الدعوة الإسلامية تولي عناية خاصة لقضية مآل الوجود الإنساني ومصيره، استنقاذًا للإنسان من مخاطر الغفلة والانسياق وراء رغائب نفسه الأمّارة بالسوء التي لا نهاية لها، حتى يعيش التوازن المطلوب في حياته لصالح المصير، ويتجه بكلّيّته نحوه في حركته وسكونه،

---

(١١) الميداني، مرجع سابق/ ٦٢٨.

(١٢) مختصر صحيح مسلم، كتاب الزهد والرقائق، باب: خشية بسط الدنيا/ ٥٥٢.

ومنشطه ومكرهه، كما دعا إلى ذلك القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ ﴾ [القصص: ٧٧].

أي أطلب بما وهبك الله من طاقات وإمكانات، وأتاحَهُ لك من فرص النجاة من النار والفوز بالجنة[١٣].

٣ ـ العناية بوراثة الجنة كغاية نهائية للوجود الإنساني

فالجنة كما يتضح من نصوص الوحي: هي المحور الرئيسي الذي يتحرك عليه الإنسان، والقطب الذي تتجه نحوه كل مساعيه في عالم الشهادة، خاصة إذا عاش في أجواء الإيمان، وتحررت حياته من أثقال الأهواء، وكوابح التقاليد والأعراف المنحرفة عن الفطرة التي فطر الله الناس عليها، حيث يغدو الفوز بوراثة الجنة أمله الأكبر، وشغله الشاغل، كما تدل على ذلك هذه النصوص على سبيل المثال، قال تعالى: ﴿ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾ ﴾ [آل عمران: ١٩٣، ١٩٤].

وقال سبحانه وتعالى على لسان إبراهيم عليه السلام وهو يفصح في ضراعة خاشعة عن تطلعاته في آفاقها الدنيوية والآخروية.

﴿ رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾ [الشعراء: ٨٣ ـ ٩٠].

وقال عز وجل على لسان من أُكرم بدخول الجنة، وصار يتقلب في أرضها، فأحس بعظمة الكرامة فصاح: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا

١٣) د. عبد الغني عبود، اليوم الآخر والحياة المعاصرة / ١٢٢.

﴿ ... الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿٧٤﴾﴾ [الزُّمَر: ٧٤] أي فنعم أجر العاملين: الجنة[١٤].

فالجنة هي جزاء الاستقامة في عالم الشهادة كما قال تعالى: ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾﴾ [مريم: ٦٣]، من الذين «عاشوا التقوى التزامًا في الفكر، ومعاناة في الروح، وصفاء في الشعور، وانضباطًا في الخطوات العملية في حركة المسؤولية في الحياة»[١٥].

فهؤلاء كما قال تعالى كذلك: ﴿هُمُ الْوَارِثُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١﴾﴾ [المؤمنون: ١٠، ١١].

وتتبع النصوص الكثيرة يؤكد لنا أن وراثة الجنة بكل ما تعنيه من تمليك وتمكين وإنعام على المؤمنين بالخلود[١٦] هي غاية الوجود الإنساني، وهو ما جاءت الدعوة الإسلامية تبيّنه للناس وتدعوهم إلى العناية به، وتوجيه نشاطهم في عالم الشهادة من أجله.

ومما سبق يتّضح لنا كيف يحتل الوجود الإنساني: وظيفة ومصيرًا، مكانة محورية في الدعوة الإسلامية حيث تشكل مهمةُ الإنسان في عالم الشهادة، ومآله في عالم الآخرة غاياتٍ أساسيةً، جاءت الدعوة من أجل توضيحها له، ومساعدته على الاضطلاع الأمثل بمهمته، لضمان مصيره في عالم الخلود.

ب ـ عناية الإسلام بالاستخلاف كهدف استراتيجي للدعوة الإسلامية في عالم الشهادة

تبين لنا من المبحث السابق أن المهمة الأساسية للإنسان في عالم الشهادة هي تحقيق الخلافة في الأرض بالتحقق قدر الإمكان بالعبودية لله، والسيادة في الأرض.

---

(١٤) الشوكاني، مرجع سابق ٥/٤٧٨.
(١٥) محمد حسين فضل الله، من وحي القرآن ١٥/ ٦٤.
(١٦) محمد الأمين الشنقيطي، أضواء البيان ٤/ ٣٤١.

كما تبين لنا أن نوع المصير النهائي للإنسان في عالم الآخرة، متوقف على مدى تجاوبه مع وظيفته الوجودية كما قال تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ۝ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ۝ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ۝ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ۝ ﴾ [طه: ٧٤ ـ ٧٧]. وهو ما يجعل العناية بالوظيفة الوجودية للإنسان أمرًا جوهريًّا: لأنه من صميم مهمة الدعوة.

وفي ما يلي محاولة لتسليط بعض الأضواء على هذه القضية المركزية في حياة الإنسان، التي ستقرر مصيره في عالم الآخرة.

١ ـ مفهوم الاستخلاف وحقيقته

سبقت الإشارة في الحديث عن «الوظيفة الوجودية للإنسان» إلى أن المهمة الأساسية التي من أجلها خلق وأنيط به إنجازها في عالم الشهادة هي: تحقيق الاستخلاف في الأرض.

فما معنى هذا الاستخلاف أو الخلافة؟ وما حقيقته؟

ودون انشغال بآراء المفسرين المتعددة والمتباينة أحيانًا، خاصة في ما يتعلق بوجهات نظرهم في مسألة: الخلافة وهل هي عن الله جلّ شأنه أم عن جنس آخر من الآدميين أو غيرهم[١٧]؟ نورد ما ذكره الراغب الأصفهاني في مادة «الخلافة» حيث قال:

«والخلافة النيابة عن الغير، إمّا لغيبة المنوب عنه، وإما لموته، وإما لعجزه، وإما لتشريف المستخلف»[١٨]، وكما هو معلوم فإن مفهوم الاستخلاف الذي تحدثتْ عنه الآيات، ينصرف مباشرة إلى المعنى الأخير،

(١٧) انظر التفاصيل في: الرازي، التفسير الكبير ٢/ ١٦٥. الألوسي، روح المعاني ١/ ٢٢٠. رشيد رضا، تفسير المنار ١/ ٢٥٧. ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير ١/ ٣٩٨.

(١٨) معجم مفردات ألفاظ القرآن/ ١٥٧.

حيث يعني تشريف الإنسان الخليفة، من خلال المهمة الجليلة التي أُسندت له، وأُنيطت به وحده من بين سائر مخلوقات الله تعالى على كثرتها وتنوعها، وهي إئتمانهُ على الخلافةُ في الأرض كما قال تعالى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ ﴾ [الأحزاب: ٧٢].

فالإنسان بما وهب من استعدادات تكريمية عظيمة: عقلية ونفسية وجسمانية وخلقية، تأهل ليكون خليفة في الأرض، كما قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [البقرة: ٣٠] وهو الإنسان، ليكون أمينًا على الأرض، ومسؤولاً عن إنجاز مشروع الاستخلاف، بكل ما يتضمّنه من تعمير، وانتفاع، وسيادة، وتناغم وانسجام مع سُنن الله في خلقه . . .

فالاستخلاف على هذا الأساس معناه أن الله عهد إلى الإنسان وأوكل إليه عمارة هذه الأرض، والانتفاع بها، بعد أن مكّنه منها بالتسخير، وجعل له سلطانًا عليها(١٩). كما تشير إلى ذلك آيات أُخرى حدد الله فيها مضمون هذا الاستخلاف وحقيقته مثل قوله سبحانه: ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ﴾ [هود: ٦١].

وقوله عزّ وجلّ ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٥﴾ ﴾ [الأنعام: ١٦٥].

وقوله كذلك: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [النور: ٥٥].

وبالإضافة إلى آيات عديدة تتحدث عن تسخير الله تعالى لكل ما في

(١٩) محمد المبارك، نظام الإسلام العقيدة والعبادة /٥٨.

الأرض للإنسان، مثل قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩].

وقوله سبحانه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾ [الملك: ١٥].

وقوله عز وجل: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَـٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: ٢٠].

وقوله كذلك: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَـٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾ [إبراهيم: ٣٢ ـ ٣٤].

فهذه الآيات الكثيرة، تصبّ كلها في اتجاه واحد، هو بيان كون الخلافة، بمضمونها الحضاري الشامل، هي الوظيفة الوجودية للإنسان في الأرض، من أجلها وجد وبها فضل على كثير من خلق الله تفضيلاً حسبما يشير إليه قوله تعالى: ﴿۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَـٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَـٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَفَضَّلْنَـٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾ [الإسراء: ٧٠].

كما يشهد على ذلك سجود الملائكة لآدم أبي البشرية عليه السلام، وهو إجراء رمزي دل على الاعتراف بأحقية الجماعة البشرية في التقدم على سائر المخلوقات للإشراف على رعاية شؤون عالم الشهادة وتدبير أمر الإنسان، والسير بالبشرية في الطريق المرسوم للخلافة الربانية[٢٠] الحقّة، التي تحفظ التوازن الكوني، وتضمن استقرار الحياة، وتهيّئ الاستمتاع بما فيها من متع مادية ومعنوية لا حدود لها، لكل مَن انضبطَ بقوانين الاستخلاف، والتزمَ بشروطه في فهمه وسلوكه وعمله ومواقفه، وحركته في الحياة.

(٢٠) محمد باقر الصدر، خلافة الإنسان وشهادة الأنبياء / ١٠.

٢ ـ العبادة قوام الاستخلاف

إذا كانت الخلافة هي المهمة الوجودية للإنسان، كما تبين ذلك النصوص السابقة بكل وضوح، في تأكيدها على كون الجماعة البشرية قد اختيرت من قبل الله عزّ وجلّ لوراثة الأرض والاستمتاع بما أودعه الله فيها من خير وجمال ومتاع إلى حين، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾﴾ [الأعراف: ١٢٨].

وقال كذلك: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٥].

إذا كان الأمر كذلك، فإن المتأمل في نصوص الكتاب والسُّنة، يجد أن الإسلام لم يتوقّف عند هذه الحدود، ولم يكتفِ بمجرد الإشارة الصريحة إلى كون الإنسان خليفة في الأرض، بل راح يعمّق الحديث ويوسّعه عن مضمون هذه الخلافة ومحتواها وجوهرها الحقيقي، الذي بدونه لا تتم، ولا يتحقق الغرض منها.

ويبدو ذلك جليًّا من خلال التركيز الشديد على إبراز دور «العبادة» وتحديد محتواها، وإلفات النظر إلى كونها قوام الاستخلاف وعماده، والمحور المركزي الذي تدور عليه أو حوله الحركة الاستخلافية برمّتها.

ذلك ما يستشعره الإنسان بقوة وهو يدرس القرآن والسُّنة، بسبب كثافة المادة التوجيهية على هذا المحور من النّاحيتين الكميّة والنوعيّة، ويكفي أن نتأمل على سبيل المثال بعض النصوص القرآنية المتصلة بدور العبادة في مهمة الاستخلاف لنرى كيف أنها تشكل قُطْبَ الرّحَى في العملية الاستخلافية ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦]. وكما هو معروف فإن النفي والاستثناء معًا أقوى صور الحصر والقصر، فالآية تقرر حقيقتين كبيرتين تتمثّل أُولاهما: في نفي أي غاية للوجود الإنساني غير العبادة، وتتمثل الأخرى في حصر غاية هذا الوجود كله في عبادة الله[٢١] وحده،

(٢١) محمد قطب، مفاهيم ينبغي أن تصحح / ١٧٤.

فالمقصود من إيجاد الإنسان: العبادة، بكل ما تتضمنه من التعظيم لأمر الله، والشفقة على خلقه[22] والسعي المرتّب الدؤوب، من أجل إحكام الصلة بالله، وتحقيق أعلى المستويات الممكنة والمستطاعة من الاستخلاف.

وتماشيًا مع هذه الحقيقة الضخمة، التي تُمحّض الإنسان لعبادة الله وحده، وتجعل العبادة هي لُبّ الخلافة وروحها، توالت التوجيهات والتنبيهات في نصوص الكتاب والسُّنة مذكرة ومنذرة مثل قوله تعالى: ﴿ ۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَـٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ ﴾ [يس: ٦٠، ٦١] وهو من جملة ما يقال تعقيبًا على مصير من ذهل عن حقيقة العبادة، وأساء فهم مهمة الاستخلاف في عالم الآخرة، حيث يذكر الله تعالى هذه الفئات من الجنس البشري، التي آل بها الأمر إلى الخسران بالميثاق الذي أخذه على الناس في مبدأ الخليقة، ثم تتابعت وصاياه لهم عن طريق الرسل والرسالات عبر القرون[23] وكما يتضح ذلك من الآيات التالية:

﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّـٰغُوتَ ۖ ﴾
[النحل: ٣٦].

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ ﴾
[الأنبياء: ٢٥].

﴿ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾
[الزخرف: ٤٥].

فالدعوة إلى عبادة الله وحده، والعمل على تجسيد ذلك في واقع الناس، كانت منطق كل الرسالات السماوية، ومقصدها الأول، من أجل تحرير ولاء الإنسان لله وحده، لما في ذلك من تحرير حقيقي لإرادة الكائن البشري وطاقته وقدراته، وتحريك لها في الاتجاه الصحيح المؤدي إلى تحقيق الغرض من وجوده وتكريمه وتفضيله.

---

(٢٢) الرازي، التفسير الكبير ٢٨/ ٢٣.

(٢٣) الشوكاني، فتح القدير ٤/ ٣٧٧.

والإسلام كمنهج استخلاف، جاء مستوعبًا لما في الرسالات السابقة من توجيهات كبرى، ومتضمنًا لما يكملها ويتممها مما لا بد منه لإنجاز مشروع الخلافة. كان اهتمامه بقضية العبادة وتحرير الإنسان من كابوس الجبت والطاغوت شديدًا وكبيرًا جدًّا، حيث شنعت آيات كثيرة بالشرك ومظاهره[٢٤]، وحملت على الخرافة، وكل ما هو غير معقول وغير منطقي من جهة، وركزت على تأصيل المفاهيم الإيمانية الصحيحة، والسلوكات الحضارية الراقية من جهة أخرى، وفق منهج «التخلية ثم التحلية».

كما أثر ذلك عن رسول الله ﷺ الذي كان يفرغ أتباعه من كل محتوى جاهلي متناقض مع قيم الإسلام وتوجيهاته وأحكامه، في الاعتقاد والفكر والسلوك والعمل والعلاقات، ثم يملؤهم بعد ذلك بعقيدة جديدة وفكر جديد، تنبثق منهما سلوكات وأعمال وعلاقات جديدة تنمي إنسانية الإنسان وتفتح أمامه آفاقًا واسعة للترقي في مدارج العبودية لله تعالى، التي تعني كمال الذل وكمال[٢٥] المحبة لله تعالى في كل شيء في حياة الإنسان كما يشير إلى ذلك قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣] الذي يجعل العبادة تستغرق كيان الإنسان كله، ووقته كله، وحركته كلها، ومواقفه في الحياة كلها، تناغمًا مع رسالته في عالم الشهادة وهي العبادة.

قال تعالى: ﴿ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ﴾ [يوسف: ٤٠] ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ ﴾ [البيّنة: ٥].

فالعبادة بمفهومها الإسلامي الأصيل كما يقول شيخ الإسلام ابن تيميّة: «اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة. فالصلاة والزكاة والصيام والحج، وصدق الحديث والأمانة وبِرّ الوالدين، وصلة الرحم والوفاء بالعهود والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والجهاد

(٢٤) مبارك الميلي، رسالة الشرك ومظاهره.
(٢٥) ابن تيمية، العبودية /٢٨.

للكفار والمنافقين، والإحسان للجار واليتيم والمسكين وابن السبيل والمملوك من الآدميين، والبهائم، والدعاء والذِّكر والقراءة، وأمثال ذلك من العبادة». ويضيف قائلاً:

«وكذلك حبّ الله ورسوله، وخشية الله والإنابة إليه وإخلاص الدين له، والشكر لنعمه والرضا بقضائه، والتوكّل عليه والرجاء لرحمته، والخوف من عذابه، وأمثال ذلك من العبادة لله»[٢٦].

فالنشاط الإنساني الفكري أو العملي، الذاتي أو الموجه إلى المجتمع من أجل تطوير آليات التسخير، وتصعيد عملية التفاعل مع الكون فهمًا وانتفاعًا، كله عبادة لله، داخلة في سياق إنجاز مهمة الاستخلاف، إذا استجمع هذا النشاط أمرين أساسيين هما:

- الإيمان الصحيح القوي.
- العمل السليم الفعّال.

بمعنى أن يكون هذا النشاط الإنساني منبعثًا عن رؤية إيمانية صحيحة، قوامها الفهم العميق الناضج للعلاقة بالله والكون والحياة من جهة، وتجسيد علمي سليم لمقتضيات هذا الإيمان في الواقع الإنساني الفكري والسلوكي والعملي من جهة أخرى، دون معاكسة لسنن الله الجارية عن وعي وسبق إصرار. لأن ذلك انحراف وخروج من دائرة العبادة لله إلى دائرة العبادة لغير الله.

والنصوص المؤكدة لهذا الأمر كثيرة نذكر منها على سبيل المثال قوله تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ۝١ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ﴾ [الملك: ١، ٢] وقوله سبحانه: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَا مَا عَلَى ٱلۡأَرۡضِ زِينَةٗ لَّهَا لِنَبۡلُوَهُمۡ أَيُّهُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗا ۝٧﴾ [الكهف: ٧].

---

(٢٦) ابن تيمية، المرجع السابق /٣٨.

وقوله عليه الصلاة والسلام: «إنّ الدّنيا حلوة خضرة وإن اللّه مستخلفُكم فيها فينظر كيف تعملون»[٢٧].

فالعمل العبادي المقبول هو الذي يستوفي شروط الإخلاص، وشروط الصواب، كما قال فضيل بن عياض في تعليقه على: «أيكم أحسن عملاً» أي أن يكون خالصًا صوابًا، فالعمل إن كان خالصًا ولم يكن صوابًا لم يُقبل، وإن كان صوابًا ولم يكن خالصًا لم يُقبل، ويُقبل عندما يكون خالصًا صوابًا، فقيل له: وما أخلصه وما أصوبه؟ فقال: أخلصه أن يكون لله، وأصوبه أن يكون على سُنة رسول الله ﷺ[٢٨]، وهو فهم دقيق عميق لأركان العبادة ومستلزماتها، حتى تكون فعلاً قوام الاستخلاف وعماده.

وتتبع محتوى الكتاب والسُّنة وما انبثق منهما من تراث علمي وعملي «راشد» يدلّنا على أن المحورين الأساسيين اللذين شكلا نقطة الارتكاز في الاهتمام الإسلامي، بعد محوري الخلافة والعبادة هما:

- إخلاص الوجهة لله وتنقية النية مما يعلق بها من شوائب الهوى والشهوات الخفية، التي تؤثر على دوافع العمل ونتائجه، مما حذر منه الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «إنّما الأعمالُ بالنيّاتِ وإنّما لكلِّ امرئٍ ما نَوَى...»[٢٩] وهو حديث قيل عنه أنه يمثل ثلث الدِّين ويدخل في سبعين بابًا من الفقه[٣٠]، لأنه يتصل بروح العمل ويضمن دخوله في دائرة العبادة.

- صواب العمل وفعاليته المنجِزة لمقاصده، وهو أمر بدونه يصبح الإخلاص غير مُجْدٍ، إن لم تترتب عليه نتائج سلبية متفاوتة الخطورة أحيانًا.

والإسلام باهتمامه الشديد بمقَوِّمَي العبادة: الإخلاص أو الإرادة، والصواب أو القدرة[٣١]، أنقذ النشاط الإنساني من التناقض والتآكل والضعف،

---

(٢٧) صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب الرقاق باب أكثر أهل الجنة ٥/ ٥٨٢.

(٢٨) ابن قيم الجوزية، تهذيب مدارج السالكين / ٣٢١. البغوي، معالم التنزيل ٤/ ٣٦٩.

(٢٩) البخاري، في كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي (من فتح الباري ١/ ٩).

(٣٠) ابن حجر، فتح الباري ١/ ٠٧

(٣١) جودت سعيد، العمل قدرة وإرادة / ١٢.

ووفر له أسباب التماسك والتكامل والقوة، وأدخله في منظومة العمل العبادي المؤهل لإنجاز مهمة الاستخلاف.

٣ ـ الأبعاد الكبرى لمشروع الاستخلاف

والسؤال المهم الذي يطرح نفسه الآن، بعد معرفة كون الخلافة هي الوظيفة الوجودية للإنسان في عالم الشهادة، وإدراك أن العبادة بمفهومها الشامل المستغرق لحياة الإنسان كلها، هي قوام الاستخلاف وعماده، والعلم بأن الإخلاص والصواب، أو الإرادة والقدرة هما ركنا العمل العبادي وعموده الفقري، الذي بدونه يفقد هويته العبادية، ويدخل في متاهات الشرك ومصادمة سُنن الحياة. .

السؤال المُلِحّ بعد كل هذا هو:

ما هي الأبعاد الكبرى لوظيفة الاستخلاف، كمشروع مفتوح على الحاضر والمستقبل بصفة دائمة؟

وهو سؤال تبدو أهميته في كون الإجابة عليه، تساهم إلى حد كبير في إبراز المحاور الكبرى للأهداف الفرعية للدعوة الإسلامية، المشَكِّلة للهدف الأساسي أو المركزي لها وهو: مساعدة الإنسان وتمكينه من تحقيق مستوى لا بأس به من الاستخلاف، في حدود ظروفه وإمكاناته، في زمان ومكان معينين.

ولا تخفى قيمة المحاور الأساسية للأهداف الفرعية وأهمية استيعابها في إنجاز هذه الأخيرة، وضمان نجاحها، بخلاف ما إذا اكتنفها الغموض، واضطربت رؤية الناس إليها، حيث سيؤثر ذلك حتمًا على مسيرة العمل ونتائجه، كما يلاحظ ذلك مثلاً في التوجّه المادي للفكر اليهودي الذي أعقبه التوجه الرهباني أو الروحاني للفكر المسيحي الذي أفرز بدوره موقفًا آخر متطرفًا، يعبر عنه التوجه المادي العنيف للحضارة الغربية المعاصرة[٣٢]. وعليه

(٣٢) محمد قطب، مفاهيم ينبغي أن تصحح / ٣٣٥.

جاءت الدعوة الإسلامية لاستدراك هذه النواقص، ورسم الطريق الصحيح لتحقيق خلافة إنسانية متوازنة تتكامل فيها أبعاد الشخصية الإنسانية للفرد والمجتمع، ويزول ـ أو يخفّ على الأقل ـ التناقض والاضطراب الذي تسببه المواقفُ الأُحادية المتشنّجة، التي تنظر إلى «الفعل الحضاري» نظرة تجزيئية مبعّضة، مع أن الواقع خلاف ذلك، حيث تؤكد الخبرات المعرفية المتراكمة، أن الفعل الحضاري السويّ المندرج في سياق تجسيد مشروع الاستخلاف على أرض الواقع، لا يمكن بأي حال من الأحوال أن يكون وليد عامل واحد من عوامل التغيير، أو بُعد واحد من أبعاده، بل هو حصيلة تفاعل تكاملي لعوامل وأبعاد متعددة، تشارك بنسب مختلفة في إنجازه.

وهذا ما سنحاول إبرازه باختصار، من خلال الحديث عن الأبعاد الكبرى لمشروع الاستخلاف، كما يرسم الإسلام معالمه، ويحدد آفاقه، ويحرك أحداث الحياة على المستوى الفردي والجماعي نحوه.

وسننطلق في تحديد أبعاد هذا المشروع الاستخلافي الذي جاءت الدعوة الإسلامية تبشّر به، وتعمل لتحقيقه في الأرض من تعريف الحضارة، على اعتبار أنها المقياس الموضوعي الذي نقيس به مستوى الاستخلاف أو درجته، ونقوّم به جهد كل جيل من أجيال الأمة، خاصة وأن هذا المصطلح أصيل في ثقافتنا من جهة ـ كما يبدو ذلك من المحاولة التأصيلية التي قام بها ابن خلدون لبلورة نظرية علم العمران البشري ـ[٣٣]، وأنه أخذ مكانته الراسخة في التفكير الإنساني مع التحولات الضخمة التي أحدثتها المدنية الغربية الحديثة من جهة أخرى، وأصبح موضوع دراسات وبحوث سننية جادة[٣٤].

ودون الدخول في تفاصيل الاختلاف القائم بين الدارسين لهذا الموضوع[٣٥]. نعمد مباشرة إلى استخلاص التعريف الذي نعتمده في هذه

---

(٣٣) انظر: المقدمة.

(٣٤) كما يشهد على ذلك التطور الضخم في العلوم الاجتماعية عمومًا.

(٣٥) المرجع في مصطلحات العلوم الاجتماعية، نخبة من الأساتذة /٥٨. الميداني. أسس الحضارة الإسلامية ووسائلها /١١ وما بعدها.

الدراسة الحريصة على إبراز وجهة النظر الإسلامية في مثل هذه القضايا قدر الإمكان.

والتعريف الذي نراه يتساوق مع أهداف الدعوة الإسلامية ومقاصدها، هو الذي يمكن صياغته كما يلي:

«الحضارة هي: حصيلة تفاعل الجهد الإنساني مع سُنن الله، وفق رؤية كونية محددة، من أجل الترقّي المعرفي، والترقّي الروحي، والترقّي الأخلاقي، والترقي المدني أو العمراني، إنجازًا لمهمة الاستخلاف، واستعدادًا لوراثة الجنة».

وهو تعريف يحدد أبعاد المشروع الاستخلافي في أربعة محاور أساسية، تستوعب الحركة العبادية للإنسان وتستغرقها كلها في منظومة كلية متكاملة، تفضي بالجهد الإنساني مع مرور الزمن إلى إنجاز مستوى لا بأس به من الاستخلاف، تناغمًا مع وعد الله الذي يبشر كل جهد بشري واعٍ، يحسن التفاعل مع سُنن الله الكونية والتشريعية، بالاستخلاف في الأرض والتمكين لأهله، وتحقيق الأمن والاستقرار في حياتهم، كما جاء ذلك في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [النور: ٥٥].

قبل المضي في الحديث عن أبعاد المشروع الاستخلافي، نشير إلى أن هذه الأبعاد الأربعة، لها وظيفة مزدوجة، فمن جهة يمكن اعتبارها أهدافًا محوريّة مفرّعة من الهدف المركزي الأكبر للدعوة الإسلامية، وهو تحقيق مهمة الاستخلاف هكذا بصورة مطلقة، ومن جهة أخرى فهي تعتبر ـ أو بعضها على الأقل ـ شروطًا ضرورية لا بد من توفرها لضمان النجاح في إنجاز هذه الأهداف الفرعية، التي تتكامل فيما بينها لدفع حركة الاستخلاف نحو تحقيق مستوى رفيع من التوافق والانسجام مع سنن الله، والترقي في مدارج الكمال الفردي والجماعي.

وبعد هذه الملاحظة، نشرع في رسم صورة عامة مركزة لكل بُعْد من الأبعاد الأربعة للمشروع الاستخلافي.

١و٣ ـ بُعْد الترقّي المعرفي

إن المتأمل في الكتاب والسُّنة يلاحظ مدى اتّساع المكانة التي تحتلها المسألة المعرفية في الإسلام، ويكفينا دليلٌ على ذلك أن كلمة «علم» بتصريفاتها المختلفة وردت في عدد من الآيات جاوز السبعمائة والخمسين[٣٦].

ولعل مما يُبرز بقوة ووضوح أهميةَ المسألة المعرفية في الدعوة الإسلامية، بالإضافة إلى ذلك، الآياتُ الأُولى التي أعلنت عن ميلاد هذه الدعوة، والتي جاءت تعلن عن بداية مرحلة جديدة في تاريخ الحضارة الإنسانية، قوامها المعرفة التي تضع حدًّا للخرافة واتباع الظن، وتهميش وظيفة العقل، وتعطيل دور الحواس. . . قال تعالى: ﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ۝٥ ﴾ [العلق: ١ ـ ٥].

قال الإمام القرطبي معقّبًا:

«فدلّ على كمال كرمه سبحانه، بأنه علّم عباده ما لم يعلموا، ونقلهم من ظلمة الجهل إلى نور العلم، ونبّه على فضل علم الكتابة، لما فيه من المنافع العظيمة التي لا يحيط بها إلاّ هو، وما دُوِّنت العلومُ، ولا قيدت الحكم، ولا ضبطت أخبار الأولين ومقالاتهم، ولا كتب الله المنزلة إلا بالكتابة، ولولا هي لما استقامت أمور الدنيا والدين»[٣٧].

ويبلغ احتفال الإسلام بأهمية العلم ذروته عندما يقرر قاعدة كلية عامة

---

(٣٦) د. عماد الدين خليل. مدخل إلى موقف القرآن الكريم من العلم / ١٠٤.
(٣٧) الجامع لأحكام القرآن ٢٠/ ١٢٠.

تحكم علاقة الإنسان بالله والكون والحياة، وتوجه نشاطه كله، ما كان منه نظريًّا، وما كان عمليًّا قوليًّا أو سلوكيًّا. . . كما يبدو ذلك جليًّا من قوله تعالى:

﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ ﴾ [الإسراء: ٣٦]. فالعلم وحده هو الإمام المتبع في الحياة(٣٨). في الأقوال والأفعال والمعتقدات. وهو إصلاح عقلي جليل، يجعل الإنسان يملك القدرة على التمييز بين ما هو علم وما هو ظن وما هو وهم(٣٩) عندما يمكّن أجهزته السمعية والبصرية والعقلية من أداء مهامها، وتدريبها على امتلاك الكفاءة اللازمة في البحث عن الحقيقة أو الصواب، أو العمل بهما.

وقد يكون من المفيد هنا، أن نعطي مثالاً تطبيقيًّا على هذه القاعدة الجليلة من القرآن نفسه وهي قوله تعالى:

﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾ ﴾ [محمد: ١٩] وهو ما لفت نظر الإمام البخاري فخصّص بابًا في كتاب العلم بعنوان «باب العلم قبل العمل» الذي علق عليه ابن المنير بقوله: «أراد به أن العلم شرط في صحة القول والعمل، فلا يعتبران إلّا به، فهو متقدم عليهما، لأنه مصحح للنية، المصححة للعمل. فنبه المصنف على ذلك حتى لا يسبق إلى الذهن عند قولهم إن العلم لا ينفع إلا بالعمل، تهوينُ أمر العلم والتساهل في طلبه»(٤٠).

والآيات والأحاديث المحرّضة على بناء المواقف والأحكام وتنفيذ الأعمال على العلم والمعرفة قدر الإمكان، والمشنّعة بكل ما هو خرافي وغير منضبط بالعلم في الأقوال والأفعال. . . كثيرة جدًّا لا يتسع المجال لذكرها.

ويرجع اهتمام الإسلام بالمسألة المعرفية هذا الاهتمام الخاص، إلى

---

(٣٨) تفسير ابن باديس / ١٥٤.
(٣٩) ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير ١٥/١٠١.
(٤٠) فتح الباري، ١/ ١٣٠.

كونها المنفذ الوحيد إلى أسرار الكون والحياة، وإلى معرفة مبدعهما ومدبّر أمرهما وما يجب على الإنسان تجاهه، ذلك لأن الله سبحانه خلق كل شيء وقدّره تقديرًا كما قال عزّ وجلّ: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ۝٢﴾ [الفرقان: ٢].

﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ ۝٨﴾ [الرعد: ٨]. فكل شيء في هذا الوجود وهذه الحياة محكوم بقوانين وسنن ماضية في الخلق، تنظم سيره وتنسقه، لتؤدي كل مفردة من مفرداته، أو جزئيّة من جزئياته، وظيفتَها في ضمان توازن الحياة واستمراريتها، وتدافعها نحو غايتها المرسومة وفق سُنن الله:

﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ۝٤٣﴾ [فاطر: ٤٣]، فهي ثابتة مركوزة في طبائع الأشياء والأنفس لا تقبل التبدل والتحول، ومشيئة الله تعالى في خلقه تمضي على سُنن حكيمة، وطرائف قويمة، فمن عرفها، واكتشف قوانين عملها، وانتظم أمره على ضوئها، استقامت حياته، وظفر بمراده، وإن كان ملحدًا أو وثنيًّا، ومن جهلها وتنكّبها، اضطربت حياته ووقع تحت طائلة غيره، وإن كان صديقًا أو نبيًّا، كما يقول رشيد رضا في سياق تعقيبه على أحداث غزوة أُحد(٤١).

وهو المعنى نفسه الذي يؤكده سيد قطب بقوله: «فالإنسان حين يعرض نفسه لسُنّة الله لا بد أن تنطبق عليه، مسلمًا كان أو مشركًا، ولا تنخرق محاباة له، فمن كمال إسلامه أن يوافق نفسه على مقتضى سُنّة الله ابتداءً»(٤٢). ولكي يتمكن من موافقة نفسه مع سنن الله الكونية والتشريعية، أو الآفاقية والأنفسية، لا بد أن يعرف هذه السنن، ويعلم طريقة عملها، وكل ذلك لا يحصل بدون معرفة وتعلّم وخبرة، وهو ما جعل الإسلام يعطي أولوية خاصة لقضية المعرفة منذ الانطلاقة الأُولى، كما سبقت الإشارة إلى ذلك.

فالإنسان يرتقي في مدارج الكمال الاستخلافي، بقدر معرفته بالسُّنن التي

---

(٤١) تفسير المنار، ٤/ ١٤١.
(٤٢) في ظلال القرآن ١/ ٥١٤.

تحكم الكون والحياة، لأنه بذلك يقف على قوانين التسخير التي تضع يديه على أسباب تحقيق مستويات متقدمة من التوافق والانسجام مع منظومة الوجود الكوني الواسع.

لهذا كان الترقي المعرفي هو البعد الأول في المشروع الاستخلافي، الذي يجب على الإنسان الخليفة الاهتمام به، وجعل الدعوة الإسلامية كمحتوى منهاجي ومنهجي لهذا المشروع تعتبره كهدف أساسي من أهدافها العامة التي ستؤثر بشكل عميق على بقية الأهداف الأخرى.

٢و٣ ـ بُعْد الترقّي الروحي

إذا كان بُعْد الترقّي المعرفي يشكل الهدف الأساسي الأول في المشروع الاستخلافي، فإن الترقّي الروحي يحتل المرتبة الثانية من حيث الأهمية، على اعتبار أنه من نتائجه المباشرة كما تشير إلى ذلك نصوص قرآنية كثيرة مثل قوله تعالى:

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ ﴾ [آل عمران: ١٩٠ ـ ١٩١]. إلى آخر الآيات التي تجعل الوقوف على سنن الله في الخليقة، والاهتداء إلى نواميس التسخير، سبيلاً إلى معرفة الله، والإحساس العميق بالقرب منه، والمبادرة الخاشعة إلى طاعته ومحبته وعبادته، وهو ما تؤكده آية أخرى جاء فيها:

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [فصّلت: ٥٣]، بمعنى أن الله سبحانه وتعالى يقيم الدليل القاطع على صحة ما يُدعى إليه الناس من الإسلام لله ربّ العالمين، من آيات الآفاق والأنفس[٤٣] التي سيكتشفها الإنسان، ويقف على أسرارها مع مرور الزمن، وتراكم

---

(٤٣) جودت سعيد، اقرأ وربك الأكرم/ ٢٢١.

المعرفة، الأمر الذي يدفع به إلى المزيد من الإيمان بالله، وحثّ الخطى للسير نحوه، وهو ما نلمس آثاره العميقة في واقع الناس الذين استطاعوا إعمال عقولهم في آيات الله، فزادهم هدى، وآتاهم تقواهم، كما يشير إلى ذلك قوله تعالى:

﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨]. قال ابن كثير: «أي إنما يخشاه حق خشيته العلماء العارفون به، لأنه كلما كانت المعرفة للعظيم العليم القدير العليم، الموصوف بصفات الكمال، المنعوت بالأسماء الحسنى، كلما كانت المعرفة به أتم، والعلم به أكمل، كانت الخشية له أعظم وأكثر»[٤٤]. وكما يشير إليه كذلك قوله عز وجل في نموذج تطبيقي:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا۩ ﴿١٠٩﴾﴾ [الإسراء: ١٠٧ ـ ١٠٩].

فالعلم بآيات الله سواء في الآفاق أو الأنفس أو الكتاب يشحذ الفعالية الروحية للإنسان، ويصعد من توثّبه الإيماني، الذي تزيده الممارسةُ العملية قوةً ورسوخًا وحرارة، كما يؤكد ذلك الحديثُ القدسي الذي جاء فيه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«إن اللّه تعالى قال: مَن عادى لي وليًا فقد آذنته بالحرب، وما تقرّب إلي عبدي بشيء أحبُّ إليّ مما افترضتُه عليه، ولا يزال عبدي يتقرّب إلي بالنوافل حتى أحبّه، فإذا أحببته كنتُ سمعه الذي يَسمعُ به وبصره الذي يُبصرُ به، ويده التي يبطشُ بها، ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأُعْطِيَنَّهُ، ولئن استعاذني لأعيذَنَّه»[٤٥].

والحديث واضح في دلالته على ترقّي الإنسان المؤمن في مدارج الكمال

---

(٤٤) تفسير القرآن العظيم ٥/ ٥٨٠.
(٤٥) رواه البخاري، كتاب الرقاق باب التواضع ١١/ ٣٤٠.

والقرب من الله تعالى، بواسطة الاجتهاد في الالتزام بتطبيق مفردات النظام الروحي، وتنمية الأشواق الإيمانية في كيان الإنسان، بدءً بأداء الفرائض، وارتقاءً إلى أداء النوافل، وانتقالاً إلى المشاركة في القيام بتغطية فروض الكفاية التي ترفع الحرج عن المجموع، وتساهم في نهوض الأُمة.

كل ذلك يؤدي إلى الارتقاء الروحي بالإنسان، والوصول به إلى مستويات رفيعة من الشفافية الروحية، التي يلمح إليها حديث **«الإسلام والإيمان والإحسان»**[٤٦] المشهور، الذي يشير بدوره إلى فكرة الترقي المؤسَّسة على الإيمان الواعي، المنبثق من العلم، والمفضي إلى العمل المبني بدوره على العلم والفقه، المؤدي في النهاية إلى الإحسان، حيث يعبد المؤمن ربه وهو يستشعر حضوره الدائم، المتنامي في حسه وشعوره وضميره وعقله ووجدانه، «فيحسن كل شيء صغيرًا كان أم كبيرًا، ويبدع في تنفيذ كل مهمة، جزئية كانت أو كبيرة، ويستنفر أقصى طاقات أمانته ومسؤوليته ويقظة ضميره، من أجل أن تجيء جلُّ ممارساته نقية، أصيلة، متسامية...»[٤٧] متقنة تدفع بالحياة داخل المجتمع نحو المزيد من التلاؤم والتناغم والعطاء.

ولأهمية هذا البعد في استقامة الإنسان وصلاح المجتمع أولاه الإسلام عناية كبيرة، بحيث اعتبره هدفًا أساسيًا وأصيلاً من أهداف المشروع الاستخلافي، كما يتضح ذلك من توجيهات القرآن والسُّنة التي ركزت بشكل بارز على تقوية صلة الإنسان بالله، معرفة وعبادة أو عقيدة وعبادة، عن طريق نظام عقدي وعبادي محكم، يحرر ولاء الإنسان المسلم لله وحده لا شريك له، ويرفع مستوى توتره الإيماني بصورة مستمرة، تُعِينه على تحقيق العبودية الخاشعة لربه، والاستعلاء على كل ما من شأنه أن يضعف هذه العلاقة الروحية الحميمة، مهما كانت أهميته وجاذبيته أو خطورته، وهو ما سنرى نماذج تطبيقية له في الباب الثالث بحول الله.

---

(٤٦) مختصر صحيح مسلم. كتاب الإيمان. باب أول الإيمان / ٧.
(٤٧) د. عماد الدين خليل، آفاق قرآنية / ١٧.

٣و٣ - بُعْد الترقّي الأخلاقي

ويعتبر هذا البعد انعكاسًا طبيعيًّا مباشرًا لمدى استيعاب الإنسان للبعدين السابقين وتحققه بهما، على اعتبار أن الاستقامة على الصراط المستقيم، في الفكر والسلوك والعمل... والانسجام مع سُنن الله في الآفاق والأنفس، من المقاصد الأساسية للترقي المعرفي والروحي، كما تؤكد ذلك نصوص عديدة، قرآنية وحديثية، تقرن العمل بالإيمان وتشنع بأي انحراف آخر عن هذه القاعدة، كما قال تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٣ ﴾ [الصف: ٢، ٣].

وكما قال رسول الله ﷺ:

«يؤتَى بالرجلِ يومَ القيامةِ، فيلقى في النّارِ، فتندلق أقتابُ بطنه، فيدور بها كما يدورُ الحِمارُ في الرحا، فيجتمعُ إليه أهلُ النَّار فيقولون: يا فلان، مالَك؟ ألم تكن تأمرُ بالمعروف وتنهى عن المنكر؟ فيقول: بلى كنتُ آمرُ بالمعروفِ ولا آتيه، وأنهى عن المنكرِ وآتيه»(٤٨).

والإسلام بهذا الحرص على جعل الإيمان يستتبع ثمراته العملية في واقع الحياة، يعمل على القضاء على الازدواجية والتناقض في شخصية الإنسان، سواء في ما يتعلق بعلاقته مع نفسه، أو في ما يتصل بعلاقته بالمجتمع عامة، وعليه فهو يرفض كل أشكال النفاق ومظاهره ويندّد بها، وهو ما نلمسه بقوة ووضوح في المساحة التي تحتلها النصوص القرآنية أو الحديثية المخصصة لرصد ظاهرة النفاق، وتحليل بنيتها النفسية والفكرية والاجتماعية وتقديم العلاج لها.

فالإنسان وهو يقف على آيات الله في الآفاق والأنفس والوحي، وينطلق

---

(٤٨) مسلم، المرجع السابق (كتاب: الإمارة. باب: في الذي يأمر بالمعروف ولا يفعله) / ٣٣٥.

على ضوء ذلك في عمل روحي، يصله بالله تعالى، ويقرّبه منه، ويشده إلى وعوده العليا شدًّا قويًّا، يجد نفسه مندفعًا للترقي في مدارج الكمال الأخلاقي والسلوكي، عبر أخذ نفسه بكل أنواع التربية، والتهذيب، التي تنمي فيه روح التعاون والاندماج في الجماعة، بكل ما يتطلبه ذلك من الإيثار، والتسامح، ونكران الذات، وحب العمل، واحترام الآخرين والتواضع، والصدق، والأمانة، والوفاء، وحب الخير للناس والإشفاق على الخلق، ومجانبة كل ما من شأنه أن يعوق استكمال نمو إنسانيته، كالاستكبار والكذب والغرور، والحسد، والطمع، والظلم، والهوى والأنانية، والبخل والرياء. . .

لعل من المفيد من الناحية التربوية التي تهم عملية التغيير، التأكيد على أن الارتقاء بسلوك الإنسان، وتنمية إنسانيته، يتم بشكل فعّال تبعًا لدرجة الترقّي المعرفي والروحي التي يتحقق بها، كما سبق التلميح إلى ذلك، لأن الإيمان بتنزيه جهة الأمر عن الخطأ والقصور، والثقة في قدرتها على إنجاز وعودها ووعيدها من شأنه أن يزيل حوافز الاعتراض، وييسّر عملية الاستجابة ويدفع بها قُدُمًا نحو آفاق جديدة على طريق تمثل أخلاق الكمال الإنساني، وهو ما جعل كثيرًا من العلماء المهتمين بدراسة السلوك الإنساني والبحث في بواعثه وأهدافه(٤٩) يلاحظون مدى الاختلاف العميق والشاسع بين الأخلاق في إطارها المدني البحت، والأخلاق في إطارها العقدي الإيماني كما يقول الكسيس كاريل:

«فالفكرة المجردة لا تصبح عاملاً فعّالاً، إلاّ إذا تضمنت عنصرًا دينيًّا، وهذا هو السبب في أن الأخلاق الدينية أقوى من الأخلاق المدنية إلى حدّ تستحيل معه المقارنة، ولذلك لا يتحمس الإنسان في الخضوع لقواعد السلوك القائم على المنطق، إلاّ إذا نظر إلى قوانين الحياة على أنها أوامر منزلة من الذات الإلٰهية»(٥٠).

---

(٤٩) د. أبو اليزيد العجمي، الأخلاق بين العقل والنقل/ ١٩٩.
(٥٠) تأملات في سلوك الإنسان/ ١٤٠.

والنماذج التطبيقية لهذه الحقيقة، سنراها في الباب الثالث عند الحديث عن التحديات التي واجهتها الدعوة الإسلامية في الفترة المكية ومنهج مواجهتها، واكتفى هنا بمثال عملي واحد، مما ورد في القرآن الكريم، عن رجل مؤمن تحرك لتعزيز عمل رسالي اضطلع به ثلاثة نفر من المُرسَلين، فكانت النتيجة أن قُتل[٥١] هذا المؤمن بعد حوار وصبر ومصابرة، فلما استقر في الجنة وعاين ما أعد الله لعباده الصالحين، تذكر قومه، وجاشت عواطفه الإيمانية فقال:

﴿يَٰلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ۝٢٦ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ۝٢٧﴾ [يس: ٢٦، ٢٧] متمنيًا لهم الهداية حتى يفوزوا بما فاز به، ولا يُحرموا من هذه الكرامة، رغم ما لحقه منهم من معاناة انتهت بإزهاق روحه. يقول الإمام القرطبي معلقًا على هذه الواقعة:

«... في هذه الآية تنبيه عظيم، ودلالة على وجوب كظم الغيظ، والحلم على أهل الجهل، والترؤف على من أدخل نفسه في غمار الأشرار وأهل البغي، والتشمر في تحصيله، والتلطف في افتدائه، والاشتغال بذلك عن الشماتة به والدعاء عليه، ألا ترى كيف تمنّى الخير لقتلته، والباغين له الغوائل، وهم كفرة، عبدة أصنام»[٥٢]، لأنه ترقى أخلاقيًا وسلوكيًا، ورسخت في أعماقه قيمُ الخير والمحبة والحق، فزكتْ نفسُه، وخرج من سجن ذاته الفردية والجماعية لينطلق محررًا النفس، من ضغوط الهوى والأنانية، وعلائق الدم والأرض والتراث التي غالبًا ما تأسر الإنسان وتقيد إرادته، وتجعل همومه واهتماماته صغيرة محدودة في الزمان والمكان.

وهكذا الإنسان دائمًا لديه قابلية عالية جدًا للترقي الأخلاقي والسلوكي، الذي يرفع من مستوى تفكيره وأدائه الاجتماعي، بشكل يجعل منه قوّةَ بناء وتأثير عجيبة، حتى بعد مماته، إذا ما تهيأت له الظروف، وتوفرت له الشروط

---

(٥١) الشوكاني، فتح القدير ٤/ ٣٦٥.
(٥٢) الجامع لأحكام القرآن ١٥/ ٢٠.

في مشروع تربوي متكامل، يغطي كل جوانب شخصيته.

ونظرًا لأهمية بُعد الترقي الأخلاقي والسلوكي في حياة الإنسان، وما يقيمه من نظم يستجيب بها لحاجاته المتجددة، كان هدفًا رئيسيًا كبيرًا من أهداف الدعوة الإسلامية، كما يصرح بذلك رسول الله ﷺ في قوله: «إنما بُعِثْتُ لأتمِّمَ صالحَ الأخلاق»[٥٣]، التي ظل الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام قرونًا متطاولة يبشرون الناس بها، ويجاهدون من أجل تثبيتها في النفوس، وتكريسها في الواقع، كما يشهد على ذلك أيضًا قوله تعالى:

﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ كَبُرَ عَلَى ٱلۡمُشۡرِكِينَ مَا تَدۡعُوهُمۡ إِلَيۡهِۚ ٱللَّهُ يَجۡتَبِيٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ ١٣﴾ [الشورى: ١٣].

والذي يتأمل القرآن والسُّنة يلاحظ مدى الاهتمام الكبير الذي أولياه للسمو بالسلوك الإنساني، والارتقاء بالحياة الاجتماعية إلى أعلى مستويات التوافق والانسجام والقوة والتماسك والاندماج، الذي تشير إليه نصوص عديدة، كتلك التي تحدثت عن صفات عباد الرحمن[٥٤] والمؤمنين المفلحين الذين يَرِثون الفردوس[٥٥]، والوصايا العشر التي حذّرت المؤمن من أسباب الاختلال وعوامل الضعف المفككة لشبكة علاقات المجتمع[٥٦] إلى غير ذلك من التوجيهات التي تصل بالحياة الإنسانية إلى درجة عظيمة من التكامل والتآلف والتناغم كما يبين ذلك قول رسول الله ﷺ:

«مَثَلُ المؤمنين في توادِّهم وتراحُمِهم وتعاطفِهم، مثلُ الجسدِ، إذا اشتكى منه عضوٌ تداعى له سائرُ الجسدِ بالسّهرِ والحُمّى»[٥٧].

---

(٥٣) موطأ الإمام مالك / ٦٥١ الحديث رقم ١٦٣٤. مسند الإمام أحمد ٢/ ٣٨١ واللفظ له.

(٥٤) سورة الفرقان، الآيات: ٦٣ ـ ٧٧.

(٥٥) سورة المؤمنون، الآيات: ١ ـ ١١.

(٥٦) سورة الأنعام، الآيات: ١٥١ ـ ١٥٣.

(٥٧) مختصر صحيح مسلم، كتاب: البر والصلاة. باب: المؤمنون كرجل واحد / ٤٧٢.

وقوله كذلك:

«المؤمنُ للمؤمنِ كالبنيانِ يشدُّ بعضهُ بعضًا»[58].

وهو ما يؤكده قوله تعالى:

﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾ ﴾ [الفتح: ٢٩].

ومن كل ما سبق، نخلص إلى تأكيد كون الترقي الأخلاقي والسلوكي بُعْدًا أصيلاً من أبعاد المشروع الاستخلافي، وهدفًا استراتيجيًا كبيرًا من أهداف الدعوة الإسلامية.

٤ و٣ ـ بُعد الترقي العمراني

ونقصد بالترقي العمراني ـ ابتداءً ـ ذلك التأثير الإيجابي المتصاعد، الذي يُحدثه الجهد الإنساني في الطبيعة المحيطة به، بواسطة إعمال قوانين التسخير فيها، بغية ترقية حياته المادية بشكل فعّال يتيح له الفرصة للاستمتاع بما أودعه الله تعالى في الكون من أسرار ونِعَم لا حصر لها، تزيد الإنسان ـ فردًا أو مجتمعًا ـ حبًّا لله، وطاعة له، واستعانة به، وشوقًا إليه.

فالترقي العمراني على هذا الأساس، هو كل جهد إيجابي يثري الحياة المادية للإنسان، ويطورها في اتجاه الاستغلال الأمثل لطاقاتها المذخورة، تحقيقًا لمقاصد الإسلام في الخلق بمستوياتها الثلاثة:

ـ الضرورية: وهي التي لا بد منها في قيام حياة الإنسان، بحيث إذا

(٥٨) البخاري، كتاب الأدب، باب: تعاون المؤمنين (من فتح الباري ١٠/٣٦٩).

فُقِدت لم تجرِ مصالح الدنيا على استقامة[٥٩] وهي خمسة أركان:

- حفظ الدين
- حفظ النفس
- حفظ العقل
- حفظ النسل أو العرض
- وحفظ المال.

فالجهد الإنساني ينصبّ في المرحلة الأولى على إقامة هذه الأركان، بفعل ما به قيامها وثباتها، ودرء ما فيه ضررها وانعدامها[٦٠] وكل هذا يستلزم سَنّ قوانين وأحكام وآداب، وإقامة خطط ونظم ميدانية تقيم هذه الأركان وتحافظ عليها.

- **الحاجية**: وهي كل فعل أو شيء لا تتوقف عليه صيانة الأركان الخمسة[٦١] ولكن يُفتقر إليه من حيث التوسعة ودفع الضيق المؤدي في الغالب إلى الحرج والمشقة اللاحقة بفوت المطلوب، فإذا لم تراعَ دخل على المكلفين ـ على الجملة ـ الحرج والمشقة، ولكنه لا يبلغ مبلغ الفساد العادي المتوقع في المصالح العامة[٦٢].

فالجهد الإنساني في هذه المرحلة التالية، ينصبّ حول إيجاد الظروف وتوفير الشروط التي تعمل على تحسين أوضاع الإنسان المادية والروحية، ودفع المشقة والحرج عنه، بتيسير سبل التمتع بالطيبات، والانتفاع بالخيرات، عن طريق ضمان الحريات والحقوق الأساسية للإنسان، لكي يعمل ويعبر عن إرادته ومواهبه وقدراته بكل طمأنينة وأمان ويسر، في إطار الضوابط الاجتماعية العامة التي تحكم المجتمع، وتقود حركته صوب المزيد من التماسك والانسجام والقوة والعطاء.

---

(٥٩) أبو إسحاق الشاطبي، الموافقات ٢/ ٨.
(٦٠) المرجع نفسه (الهامش ص ٨).
(٦١) مجلة المسلم المعاصر، ع: ١٦ س: ١٩٨٧ ص: ٤٢.
(٦٢) الموافقات ٢/ ١٠.

- التحسينية: أو التكميلية، وهو كلّ ما من شأنه أن يدفع مستوى الحياة إلى المزيد من اليسر والسهولة في نيل مطالب المعاش، المُعِينة على الاهتمام المتنامي بواجبات المعاد.

بمعنى أنها تشكل مرحلة أخرى متقدمة في الأخذ بمحاسن العادات، والتحقق بمكارم الأخلاق، التي ترتقي بالحياة الاجتماعية إلى مستويات رفيعة من التقدم الحضاري المحقق لإنسانية الإنسان من جهة، والمعبر عن الإمكانات الخيّرة المتوفرة لدى الإنسان عندما يهتدي إلى سواء السبيل من جهة أخرى.

ونظرًا لأهمية هذا البعد في المشروع الاستخلافي الذي جاءت الدعوة الإسلامية تدعو الناس إليه، وتعمل لتحقيقه في حياتهم عبر الزمن، نجد القرآن والسُّنة ينبهان إليه، وينوهان به في العديد من توجيهاتهما، كما يتضح ذلك من قوله تعالى:

﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: ٦١] قال ابن كثير: «أي جعلكم عمارًا تعمرونها وتستغلونها[٦٣] بالغرس والزرع والبناء، واتخاذ الصناعات اللازمة لتسخير خامات الأرض والانتفاع بها، وتحريك دواليب الحياة الاقتصادية لتكثر الأموال والموارد التي توجه لتشييد الأوابد[٦٤] كالمساجد والمدارس والجامعات والمستشفيات والجسور والسدود والمخابر العلمية، وبناء القوة العسكرية المكينة لحماية الدين والإنسان والأرض ومنجزات الجهد العمراني المبذول من أجل ترقية الحياة وتحقيق مستوى لائق من الاستخلاف.

وكما لا يخفى فإن عمارة الأرض المنوّه بها في الآية، هي الساحة التي تلتقي فيها كل أبعاد المشروع الاستخلافي في كتلة كلية متكاملة، ينتج عنها في النهاية ذلك الكل العمراني أو الحضاري المتناغم المنسجم، الذي يعبّر عن فهم الإنسان لمهمّته الاستخلافية، ومضمونها العبادي الشامل، الذي يمتد ليستوعب كافة أبعاد الفعل الحضاري المحقق لمقاصد الوجود الإنساني.

---

(٦٣) تفسير القرآن العظيم ٣/ ٥٦١. السيوطي، الدر المنثور ١٢/ ٤٤٥.
(٦٤) ابن الأزرق، بدائع السلك في طبائع الملك ١/ ٢٢٣، ٣٨٨.

يقول الله سبحانه وتعالى مشيرًا إلى هذه المسألة ومؤكدًا لها:

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [النور: ٥٥].

فالمجتمع الذي يحقق أفراده مستوى مهمًا من الإيمان بالله واليوم الآخر، والفهم الجيد لأمانة التكليف، والوعي العميق للدور الخطير المنوط بالإنسان في عالم الشهادة، ثم يتحققون بعد ذلك كله بالعمل الصالح المبني على العلم بسنن الله في الآفاق والأنفس، وينضبطون بالأخلاق الإنسانية العالية، في سلوكهم مع الله، ومع أنفسهم، ومع سائر الناس، وهم يسعون للتطابق مع منهج الله وسُننه في بناء حياتهم الاجتماعية.

هذا المجتمع المتحقق بالإيمان والعمل الصالح يضمن الله له التفوق والظهور في ميادين القيادة الحضارية، ويمكّنه من تحقيق مستويات متقدمة من الاستخلاف أشارت الآية إلى معالمها الكبرى المتمثلة في:

ـ **الاستخلاف**؛ بإيراثهم الأرض وملك من سبقهم ممن تنكبوا طريق الاستخلاف كما قال تعالى: ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُواْ يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾ ﴾ [القصص: ٥، ٦].

ـ **التمكين للدِّين**؛ بإظهاره على الدِّين كلّه، وجَعْل الهيمنة له في كل ميادين الحياة، كمًّا وكيفًا، كما قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الصف: ٦١].

ـ **تحقيق الأمن**؛ النفسي والاجتماعي الشامل، بإقرار العدل والمساواة والحرية، ورفع كل الضغوط المادية والمعنوية التي تسيء إلى إنسانية الإنسان، كما قال عليه الصلاة والسلام:

«. . . والله ليتمّنَ هذا الأمرُ حتى يسيرَ الراكبُ من صنعاءَ إلى حضرموتَ لا يخافُ إلاّ اللّهَ والذئبَ على غنمِه . . .»[٦٥].

هذه هي نتيجة التفاعل الواعي المستبصر للإنسان مع سنن الله، من أجل إنجاز مهمته الاستخلافية، تظهر في المستوى الحضاري الذي يتحقق من جراء سعيه الدؤوب للترقّي المعرفي والترقي الروحي والترقي الأخلاقي، والترقي العمراني أخيرًا الذي يساهم بدوره في دفع حركة الارتقاء إلى آفاق أوسع على طريق التحقق بأعلى مستويات العبودية لله تعالى، والاستعداد للقائه، وانتظار جزائه الذي ظل الإنسان طول عمره يكدح من أجله، ويراوده الأمل في الفوز بوراثة الجنة ونيل الرضوان.

٤ ـ منهج الاستخلاف

لقد تبين لنا من المباحث السابقة:

ـ إن الاستخلاف هو الهدف الاستراتيجي للوجود الإنساني في عالم الشهادة.

ـ إن العبادة هي قوام الاستخلاف وعموده، بها يحقق الإنسان خلافته في الأرض، عندما يضمن لنشاطه وحركته الإيمان الصحيح العميق، والعمل الصالح الفعّال.

ـ وأن الإنسان لكي يؤدّي مهمّته الاستخلافية، عبادة لله وسيادة على الأرض، زوده الله تعالى بمؤهلات مادية وروحية تمكّنه من فهم رسالته، ووعي ذاته، وأداء دوره كعبد لله تعالى من جهة. وسيد في الأرض من جهة أخرى.

ـ إن الأبعاد الكبرى لمشروع الاستخلاف الذي أنيطت مهمة إنجازه بالإنسان هي:

العمل على تحقيق الترقي المعرفي، والترقي الروحي، والترقي

---

(٦٥) البخاري في كتاب: الإكراه. باب: من اختار الضرب والقتل والهوان على الكفر (من فتح الباري ٢٦٦/١٢).

الأخلاقي، والترقي العمراني بصفة دائمة ومستمرة، تمكّن كل جيل من أجيال الإنسانية من تقديم عطائه الحضاري، في سياق القيام بواجبه العبادي الاستخلافي تحضيرًا لانتقاله إلى عالم الآخرة، حيث وعده الله سبحانه وتعالى بوراثة الجنة، إن هو وفّق في أداء أمانة التكليف بإخلاص وكفاءة في عالم الشهادة.

ويبقى التأكيد على كون الدعوة الإسلامية جاءت تستهدف تعريف الإنسان بهذه القضايا كلها، والأخذ بيده نحو المنهج الأمثل والأكمل لتحقيق دوره الرسالي في الحياة الدنيا الذي سيحدد مصيره في الحياة الآخرة.

وعلى هذا الأساس، فالإسلام هو منهج الاستخلاف الذي ارتضاه الله سبحانه وتعالى للإنسان، لكي ينظم حياته الإرادية تنظيمًا متناسقًا مع حياته الطبيعية، على اعتبار أن التعاليم التي جاء بها الإسلام «إن هي إلا قطاع من الناموس الإلٰهي العام الذي يحكم فطرة الإنسان، وفطرة الوجود العام، وينسقها كلها جملة واحدة»[٦٦] تحقيقًا للتوافق والانسجام في حركة الوجود الإنساني ومسيرته نحو أهدافه الدنيوية وغاياته الأخروية.

ونظرًا لأهمية المنهج في إنجاز مهمة الاستخلاف، وخطر غيابه أو عدم وفائه بالمقصود، نبه القرآن والسُّنة بشكل حاسم إلى ضرورة الأخذ بالمنهج وعدم التساهل فيه كما يتّضح ذلك من نصوص كثيرة جدًّا مثل قوله تعالى: ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ [طه: ١٢٣، ١٢٤].

وقوله سبحانه:

﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام: ١٥٣].

وقوله عز وجل:

﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩].

---

(٦٦) سيد قطب، معالم في الطريق/٩٩.

وقوله سبحانه:

﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ [المائدة: ٣].

وقوله كذلك:

﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [آل عمران: ٨٥].

وقوله عز من قائل:

﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

فكل هذه النصوص تؤكد كون الإسلام هو المنهج الأمثل والأكمل الذي ارتضاه الله تعالى لتحقيق مشروع الخلافة في الأرض لانسجامه واتساقه مع الفطرة التي فطر الناس عليها.

وهو ما يجعل أي خروج عن خَطّه أو تساهل في أمر من أموره يُربك حركة الإنسان، ويحدث خللاً في مسيرته، قد يؤدي بها بعد حين ـ إذا لم يتم تداركها بالإصلاح والتقويم ـ إلى انتهائها، لإنها تحركت على الخطوط المناقضة للفطرة، والمضادة لسنن التسخير، وهو ما نجد القرآن يحذر منه، ويدعو الإنسان للأخذ بأسباب الوقاية منه، عندما يكثر الحديث عن «التقوى» بمفهومها الوقائي، المرتكز على الحذر من مخالفة سنن الله التشريعية المودعة في دينه، وسننه في نظام خلقه(٦٧).

وفي الفصل التالي نلقي نظرة عامة على الخطوط العريضة لهذا المنهج، لكي نحدد الملامح الكبرى لخصائص الدعوة الإسلامية، وآفاقها الزمانية والمكانية والإنسانية.

---

(٦٧) محمد رشيد رضا، تفسير المنار ٢/ ١٢٥.

الفصل الثاني

الخصائص الكبرى للدعوة الإسلامية

أ ـ النزعة العلمية

١ ـ العلم بالسنن مفتاح التسخير

٢ ـ مظاهر اهتمام الإسلام بالمسألة العلمية كما تعرضها نصوص الوحي

ب ـ الصبغة التوحيدية

١ ـ مضمون الصبغة التوحيدية وأبعادها العقدية الكبرى

٢ ـ الصبغة التوحيدية في التاريخ الرسالي كما تعرضها نصوص الوحي

ج ـ الطبيعة الشمولية

١ ـ مفهوم الطبيعة الشمولية

٢ ـ مظاهر الشمولية في النصوص

د ـ النزعة الواقعية

١ ـ مفهوم النزعة الواقعية

٢ ـ مظاهر واقعية الدعوة من خلال النصوص

هـ ـ التوجه العالمي

١ ـ مفهوم التوجّه العالمي للدعوة

٢ ـ عالمية الدعوة من خلال نصوص الوحي

رأينا في خاتمة الفصل السابق في مبحث «منهج الاستخلاف» أن الله سبحانه بالإضافة إلى ما فطر عليه الإنسان من الاستعداد لمعرفة الحق، وتمييز الطيب من الخبيث من القول أو الفعل أو السلوك... وما زوّده به من ملكة التعقل التي تعينه على الإدراك. وتحصيل ما به يقوى على حفظ توازنه النفسي والاجتماعي في الحياة، كالعلم والذكاء، والكياسة والتدبير، وصحة الفكر، وسرعة الذكر[1]... إلى غير ذلك من ملكات القدرة...

بالإضافة إلى الاستعدادات الفطرية المركوزة في النفس الإنسانية، ومنحة العقل، وتسخير الطبيعة، أرفده الله تعالى بالهداية، عن طريق الوحي الأعلى، الذي رافق مسيرة الوجود الإنساني من بدايتها إلى أن ختمت سلسلة الرسالات على يد محمد ﷺ، بالإسلام، الذي أودع فيه الله سبحانه وتعالى خلاصة القوانين والسنن المِفْتَاحية التي بها يتناغم الإنسان مع الله والكون والحياة، وينسجم مع نفسه ومهمته، كما قال تعالى:

﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا ﴾ [المائدة: ٣] بحيث صار مجموع التشريع الحاصل بالقرآن والسنة، كافيًا لهدي

---

(١) الراغب الأصفهاني، الذريعة إلى مكارم الشريعة / ١٨٣.

الإنسان[٢] ـ فردًا وأمة ـ إلى ما به يرتقي معرفيًا وروحيًا وأخلاقيًا وعمرانيًا، ويحقق مستوى مهمًا من الاستخلاف في حياته الأُولى التي على ضوئها تكون صورة حياته الآخرة.

فالإسلام هو المنهج العملي المختار من الله، والمرقّي للإنسان، لكي ينجز به مهمته الاستخلافية في عالم الشهادة، فهو وحده التشريع الإلٰهي الحكيم الذي يستطيع به الإنسان تحقيق مضمون الخلافة وهو عبادة الله وحده.

وفي القرآن الكريم تأكيد قوي لهذه الحقيقة الكبرى في حياة الإنسان، حيث يدعو الله سبحانه ـ استنادًا إلى ما قررته الآية السابقة وأمثالها ـ إلى وجوب الاستقامة على الإسلام، والثبات على خطه في أداء المهمة العبادية، يقول تعالى:

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الروم: ٣٠].

وكرر الأمر بوجوب إقامة الوجه للدين القيم في نفس السورة، فقال سبحانه:

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [الروم: ٤٣].

قال الإمام القرطبي معقبًا: إقامة الوجه هو تقويم المقصد، والقوة على الجد في أعمال الدين، ولاحِظ أن الخطاب لا يختص بالنبي ﷺ وحده بل يشمل أمته باتفاق أهل التأويل[٣].

ولعل مما ينبغي تأمله جيدًا في هذا السياق، هو إيحاءات كلمة «فأقم وجهك» التي تتضمن معاني الإمالة والتقويم والتعديل والثبات وعدم الالتفات، وهي مقصودة كلها، لأن التوجيه الإلٰهي المؤسَّس على المعرفة المكينة بحقيقة

(٢) ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير ٦/١٠٣.
(٣) الجامع لأحكام القرآن ١٤/ ٢٤.

الإنسان، وحقيقة المهمة الموكلة إليه وحقيقة المنهج المدعا إليه، يريد أن يبث في روع الإنسان، أن الإسلام هو وحده المتسق مع فطرة الوجود، وفطرته هو كخليفة مسؤول في الأرض، مما يستوجب الإقبال الكلي عليه من غير التفات عنه إلى غيره من الأديان والمذاهب والأيديولوجيات، لأنها لا ترقى إلى مستواه، فلا داعي إطلاقًا لإضاعة الوقت والجهد معها.

والدعوة الإسلامية كجهد منهجي منظم، يستهدف تعريف الناس بحقيقة منهج الاستخلاف، وإحداث تغيير في حياتهم من أجل التطابق معه، لكي لا تنحرف عن خط سيرها، ومن أجل أن تظل مشدودة إلى أهدافها ووعودها العليا، لا بد أن تكون خصائصها المبدئية الكبرى واضحة بينة، حتى لا يتعرض الدين أو المنهج للزيادة أو الإنقاص، فيخرج عن طبيعته، ويضيِّع صبغته.

ذلك لأن نجاح أي دعوة أو فشلها هو بقدر ما تحتفظ بمحتواها أو تضيعه في الطريق، وهو ما يستدعي الاهتمام الشديد، بجعل المشرفين على تخطيط مسيرتها، وقيادة حركتها في الواقع، يستوعبون مقدماتها ومسلماتها[٤] استيعابًا شاملاً وعميقًا، يمكّنهم من حمايتها، والحفاظ على منجزاتها في كل مراحل العمل ومنعطفاته، وهو غرضنا الأساسي من هذه الدراسة، التي تتخذ من العمل النبوي الشريف حقلاً لها، باعتباره الجهد النموذجي الناجح، الذي استطاع أن يحقق أهدافه ووعوده التي أعلن عنها في بداية مسيرته وأثناءها.

في هذا الفصل سنحاول تحديد أهم هذه الخصائص، وأهمية كل واحدة منها في إبراز ذاتية الدعوة الإسلامية، والإفصاح عن آفاقها ووعودها المتصلة بعالم الشهادة، وكيفية عملها في حماية الدعوة من الانحراف، وتمكينها من أداء دورها في تجسيد مشروع الاستخلاف في واقع الحياة.

ونظرًا لتعدّد هذه الخصائص وكثرتها سأكتفي ببعضها مما أظن أنه يعتبر محوريًا وأساسيًا بالنسبة إلى غيره من الخصائص.

---

(٤) مالك بن نبي، بين الإرشاد والتيه / ١١.

أ ـ النزعة العلمية

النزعة العلمية هي أول خاصيّة من خصائص الدعوة الإسلامية، سواء اعتبرناها كدِين أو كمنهجية تبليغ، كما سبق الحديث عن ذلك في الفصل الأول عندما تعرضنا للبعد الأول من أبعاد المشروع الاستخلافي، حيث رأينا كيف يشكل الترقي المعرفي محور حركة الاستخلاف، وهو ما يجعلنا لا نطيل الكلام هنا، ولكن نكتفي فقط بما يبرز النزعة العلمية كخاصية أساسية للدعوة الإسلامية.

١ ـ العلم بالسنن مفتاح التسخير

والنزعة العلمية في الإسلام عمومًا منبثقة عن حقيقة أساسية، هي كون هذا الوجود العالمي محكومًا بقوانين وسنن في الخلق، لا تتبدل ولا تتحوّل، كما قال تعالى:

﴿ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾ ﴾ [الأحزاب: ٦٢]. فهي ماضية في ضبط حركة الوجود العالمي وتنسيقها بدقة، لضمان توازنها واستمرارية سيرها كما قدره الله وأراده.

فكل شيء في الوجود العالمي محسوب ومقدّر بدِقّة كما قال تعالى: ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾ ﴾ [الفرقان: ٢].

وقال كذلك:

﴿ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ﴾ [الملك: ٣].

وقال سبحانه:

﴿ سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَالشَّمْسُ تَجْرِي

﴿لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾﴾ [يس: ٣٦ـ٣٨].

فكل شيء في الوجود العالمي الذي يعد الإنسان جزءًا منه، تهيمن عليه سنن ثابتة[٥] تنظم أمره، وتدير حركته، وتنسق حركته بغيره من مكونات هذا الوجود، إمضاء لإرادة الله في خلقه.

والإنسان بحكم مهمته كخليفة في الأرض، محكوم في علاقاته كلها ـ سواء تعلق الأمر بذاته أو كينونته كفرد، أو تعلق بغيره من الناس والأحياء بهذه السنن والقوانين، لأنه جزء من هذا الكون لا ينفصل عنه، ولا يختلف عليه إلاّ في جانبه الإرادي الذي تحكمه وتنظمه قوانين وسُنن أخرى، نفسية واجتماعية . . . جاء الإسلام للدلالة عليها، والتنبيه إليها.

فاستقامة الإنسان وانتظام أمره في الحياة، كخليفة مدعو لعمارة الأرض، والاستمتاع بما فيها من خيرات، متوقف أصلاً على مدى معرفته بهذه السنن والقوانين، وقدرته بعد ذلك على الإفادة منها في تحسين ظروفه، ورفع مستوى حياته العلمية والروحية والأخلاقية والعمرانية كما سبق بيان ذلك.

فالعلم بسنن التسخير، وامتلاك المنهج العلمي للتعامل الإيجابي معها من أجل ترقية الحياة الإنسانية، هو الذي يحرر الإنسان، ويطلق قواه وطاقاته للتفاعل مع الحياة: اكتشافًا للمزيد من أسرارها، وإبداعًا للبدائل التي تثري المسار الاستخلافي، وتغنيه بتراكم الخبرات والتجارب المفيدة، التي تعزز مكانة الإنسان في حواره الدائم مع الكون، عبادة لله، واستشرافًا لغده المأمول وغايته من جهاده وكدحه المضني.

٢ ـ مظاهر اهتمام الإسلام بالمسألة العلميّة كما تعرضها نصوص الوحي

من هنا كان اهتمام الدعوة الإسلامية بالمسألة العلمية أمرًا من صميم مهمتها، باعتبارها وصية الله سبحانه للإنسان، من أجل أن تنسجم حياته،

---

(٥) جودت سعيد، إقرأ وربك الأكرم / ٩٣.

ويتوافق سيره مع حركة الكون، ويتناسق نشاطه مع مهمته الاستخلافية، كما أشارت إلى ذلك الآية الكريمة:

﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [البقرة: ٣٨] والمقصود بالهداية هنا، ما تعهد الله به الإنسان من التوجيه والتسديد والإرشاد بالوحي الذي جاءت زبدته في القرآن والسُّنة، فقال النبي ﷺ ملفتًا النظر إلى كون الإسلام قد جاء مستوعبًا لكل ما من شأنه أن يضمن تناغم الحياة الإنسانية واتساقها مع سنن الله في خلقه:

«تركتُ فيكم أمرين لن تضلُّوا ما تمسّكتُم بهما: كتاب الله وسُنّة نبيّه»[٦].

وهو المعنى نفسه الذي يؤكده القرآن في أكثر من آية بصيغة التحذير من الانحراف عنه، لما يترتب على ذلك من الوقوع في مصادمة سنن الله الغلّابة، كما ينبه إلى ذلك قوله تعالى:

﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ [النور: ٦٣].

قال من أعاد الضمير في قوله «عن أمره» إلى رسول الله ﷺ: أي فلْيَخَفْ من عواقب التنكّب عن سبيله ومنهاجه وطريقته وسُنَّته وشريعته[٧] لأنها تمثل جانبًا مهمًّا «من سنن الله التي لا تستقيم الحياة البشرية ـ إلّا بها، فكما أن الإنسان إذا لم يتنفس يختنق، وإذا لم يأكل يموت لمخالفته سنن الله، فإن أي انحراف عن أي جزء من أجزاء الإسلام يحمل في طيّاته عقوبته التي تحيق بالمنحرفين عنه[٨].

فالإسلام على هذا الأساس علم يقيني يكشف للإنسان جوانب مهمة من

---

(٦) مالك في الموطأ، حديث رقم: ١٢١٩/٤٦٨.

(٧) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم ٥/١٣١. الشوكاني، فتح القدير ٤/٥٩.

(٨) سعيد حوى، الإسلام ٤/٧.

سنن الله الثابتة، خاصة في ما يتعلق بالمجالات الغيبية، والقضايا العبادية البحتة، وما له صفة الدوام والاستقرار من النظم والعلاقات والأخلاق. . حتى لا يضل العقل الإنساني، ولا يتبدد الجهد البشري في ما لا طاقة له به، ويتجه إلى ما يدخل في نطاق قدراته وحدود أمانته، ودائرة رسالته الاستخلافية، فيبحث ويكشف ويبدع بحرية كاملة، وحماس كبير تبثّه في نفسه الحوافزُ الهائلة التي وضعها الإسلام عبر وعوده الدنيا والعليا، ليشحذ همم أتباعه ويدفعهم إلى مسابقة الخيرات، والتنافس في تحصيل أعلى المقامات.

وقد أشار القرآن الكريم إلى حقيقة كون الإسلام «علمًا» وضعه الله تعالى بين يدي من شاء من الناس ليعيش في وفاق مع نفسه، وانسجام مع محيطه الاجتماعي والطبيعي، فقال سبحانه:

﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [الأعراف: ٥٢] أي أن هذا القرآن الذي خاطب الله به البشرية، هو كتاب عظيم الشأن، أودع فيه الله ما يحتاجه المكلّفون من العلم والعمل لتزكية أنفسهم، وتكميل فطرتهم، وسعادتهم في معاشهم ومعادهم[٩] فهو كتاب علم: ﴿أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾﴾ [هود: ١] عالم بمواقع الأمور فصارت محكمة متقنة لا نقص فيها، ولا نقض لها فهي كالبنيان المحكم[١٠]، الأمر الذي يجعل الاستقامة عليها من تمام الرشد، وكمال الوعي. والغفلة عنها، والانصراف إلى ما سواها من علامات الجهل والظلم وسوء المنقلب في العاجل والآجل، وهو ما حذر منه القرآن الكريم في مواطن عدة نذكر منها قوله تعالى: ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٥﴾﴾ [البقرة: ١٤٥].

والدعوة الإسلامية كدعوة علمية، قائمة في مبناها وأصولها وكل قضاياها، على العلم الحقيقي المحيط بالإنسان والكون والحياة لصدورها من

---

(٩) تفسير الطبري، جامع البيان ٨/ ٢٠٣.

(١٠) الشوكاني، فتح القدير ٢/ ٤٨٠.

الله تعالى خالق الوجود العالمي والمدبر لأمره، تكرّس هذا النزوع العلمي في من تتوجه إليهم بالخطاب، كما يظهر ذلك جليًّا مما يلي:

١ ـ دعوة الإنسان إلى تأمل مظاهر الطبيعة في نفسه وفي الظواهر الكونية المحيطة به، حيث يلاحظ القارئ للقرآن الكريم مدى كثافة النصوص التي تلفت النظر إلى المعمار الكوني بما فيه خلقه الإنسان نفسه، ولا يسع المجال لذكر هذه النصوص هنا.

٢ ـ التشنيع الكبير بعدم إعمال الفكر، وتعطيل العقل عن تأمل مخلوقات الله، والانسياق وراء الخرافة والوفاء العاطفي الأصم لمواريث الآباء والأجداد، والفناء في الأشخاص، والاستسلام للظنون الكاذبة، وركوب الأهواء، كما قال تعالى:

﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾ [يونس: ١٠١].

وقال كذلك:

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾ [المؤمنون: ٨٠].

وقال أيضًا:

﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الجاثية: ٢٣].

وقال سبحانه:

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ ﴾ [محمد: ٢٣، ٢٤].

٣ ـ دعوته الصريحة للعلم والتعلم وإعلاؤه مقام العلماء العاملين الراسخين في معرفة آيات الله، كما يتضح ذلك من هذه الآيات والأحاديث:

﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ ﴾ [آل عمران: ١٨].

﴿ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [النحل: ٤٣].

﴿ رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾ ﴾ [طه: ١١٤].

﴿ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُوا۟ فَٱنشُزُوا۟ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ ﴾ [المجادلة: ١١].

وقال عليه الصلاة والسلام:

«طلبُ العلمِ فريضةٌ على كلّ مسلم»(١١).

«مَن يُرِدِ اللّهُ به خيرًا يفقهْهُ في الدِّين»(١٢).

«إنّ العلماءَ وَرَثَةُ الأنبياء»(١٣).

ومن هذه المعطيات جميعًا نصل إلى القول بأن «النزعة العلمية» خاصية أساسية وجوهرية في الدعوة الإسلامية، سواء في ذاتها كدِين، أو كجهد تبليغي يقوم به المسلمون من أجل تعريف الناس بحقيقة الإسلام، وإحداث تغيير مناسب في حياتهم.

فكل شيء في إطار الإسلام ينطلق من العلم ويتمّ بالعلم، سواء تعلق الأمر بفهم السنن النفسية والاجتماعية... المودَعة في الوحي نفسه أو تَعَلّق بفهم السنن الكونية، الأُخرى في الآفاق والأنفس، أو تعلّق بمنهجية التسخير توقعًا وتحكمًا أو استفادة.

وقد سبق أن أوردنا بعض النصوص الدالة على ذلك في الفصل الأول، كقوله تعالى:

---

(١١) سنن ابن ماجة، المقدمة، باب: فضل العلم ١/ ٨١، حديث رقم: ٢٢٤.

(١٢) البخاري، كتاب: فرض الخمس، باب قوله تعالى: فإن لله خمسه.. (من فتح الباري ٦/ ١٦٥).

(١٣) ابن ماجة، المرجع السابق، الجزء نفسه والصفحة نفسها حديث رقم ٢٢٣.

﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [محمد: ١٩] الذي جعل العلم أساس العقيدة، وهو ما حدا ببعض العلماء إلى عدم الاعتداد بالإيمان الوراثي[١٤]، والدعوة إلى تأسيس العقائد والأعمال والأقوال على العلم، انسجامًا مع روح «العلمية الإسلامية» التي ترفض البناء على الأهواء والظنون كما هو واضح في قوله تعالى:

﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ [الإسراء: ٣٦].

ويقول الإمام الجصاص معقبًا على الآية:

«لا تقل سمعتُ ولم تسمع، ولا رأيتُ ولم ترَ، ولا علمت ولم تعلم، وقد اقتضى ذلك نهي الإنسان عن أن يقول في أحكام الله ما لا علم له به على جهة الظن والحسبان، وأن لا يقول في الناس من السوء ما لا يعلم صحته، ودلّ على أنه إذا أخبر عن غير علم فهو آثم في خبره، كذبًا كان خبره أو صدقًا، لأنه قائل بغير علم وقد نهى الله عن ذلك»[١٥] لما فيه من مناقضة لسنن الله في خلقه، تنجر عنه مشكلات عديدة، تخلّ بالتوازن الاجتماعي وتؤثّر سلبًا على حركة الاستخلاف.

وتأكيدًا لهذه النزعة العلمية الراسخة في بنية الدعوة الإسلامية، نجد القرآن الكريم يؤصلها في واقع المسلمين، بدعوتهم إلى بناء حركتهم الدعوية على بصيرة، بكل ما تتضمنه هذه الكلمة من معاني العلم، وقوة الحجة، ووعي الموقف. . . كما يبدو ذلك من قوله تعالى:

﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ﴾ [يوسف: ١٠٨]. . أي أبلّغ دينَ الله وأعمل للتمكين له في الأرض، بمنهج مؤسّس على وعي عميق بالرسالة والواقع والناس. قال ابن كثير:

---

(١٤) تفسير ابن باديس، /١٥٧. كبرى اليقينيات الكونية للدكتور البوطي /٣٥.
(١٥) أحكام القرآن ٥/ ٢٩.

«يدعو إلى الله بها على بصيرة من ذلك ويقين وبرهان هو وكل من اتبعه، يدعو إلى ما دعي إليه الرسول ﷺ على بصيرة ويقين وبرهان عقلي وشرعي»[١٦]. وهو ما يؤكده ابن القيم في تعليق مهم على الآية جاء فيه:

«وإذا كانت الدعوة إلى الله أشرف مقامات العبد وأجلّها وأفضلها: فهي لا تحصل إلاّ بالعلم الذي يدعو به وإليه، بل لا بد في كمال الدعوة من البلوغ في العلم إلى حد أقصى ما يصل إليه السعي...»[١٧]، وهي كلمة حق، فالدعوة إلى الله تكون بالعلم إلى العلم، وبذلك تكون حركة استخلافية واعية، تثري الخبرة الإنسانية، وتعمّق فهمها لسنن الحياة، وتعزز قدرتها على تسخير مكونات الأرض في سياق تصعيد صلة الإنسان بالله تعالى.

ولعله من المفيد الإشارة هنا إلى ما ذكره أحد الكتّاب الماركسيين وهو «مكسيم رودنسون» بخصوص ما أسماه «بالعقلانية القرآنية»، فقد لَفَتَ نظره وهو يحاول «نقد» الإسلام، مدى بروز النزعة العلمية فيه، فقال: «القرآن كتاب مقدس، تحتل فيه العقلانية مكانًا جدّ كبير»[١٨].

وخلص بعد تأملات وجولات في مضمون الخطاب القرآني، ومنهجيته في عرض قضاياه والبرهنة على صحتها، مقارنة بالخطاب الديني للعهدين القديم والجديد: مضمونًا ومنهجية، إلى نتيجة حاسمة لا يملك إخفاءها فأعلنها بقوله: «في مقابل هذا تبدو العقلانية القرآنيّة صلبة كأنها الصخر»[١٩].

وهي حقيقة ماثلة، ونتيجة طبيعية لدين يرتقي بالتفكير إلى مستوى الفريضة[٢٠] وينزل بكل من يعطل طاقاته الفكرية والحسية إلى مستوى الأنعام

---

(١٦) تفسير القرآن العظيم، ٤/٥٨.
(١٧) التفسير القيم/٣١٩.
(١٨) الإسلام والرأسمالية/١٣٤، اقتبسه الدكتور القرضاوي في كتابه الإسلام والعلمانية وجهًا لوجه/٦٨.
(١٩) المرجع نفسه.
(٢٠) العقاد، التفكير فريضة إسلامية.

أو أدنى، كما قال تعالى:

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ [الأعراف: ١٧٩].

لهذه الاعتبارات الموضوعية أدرجت «النزعة العلمية» في خصائص الدعوة الإسلامية، بل وجعلتها «في مقدمة هذه الخصائص جميعًا، بما في ذلك خاصية «الصبغة التوحيدية» التي تعتبر بلا منازع أساس الدين وجوهره[٢١]، لاعتقادي أن العلم بمفهومه الإسلامي الشامل للسنن الدينية والطبيعية، أو الكونية العامة، هو المدخل الطبيعي الضروري لأي اعتقاد أو إيمان سليم، وعمل صحيح صالح، من شأنه أن يحقق مستوى لا بأس به من عمارة الأرض، بخلاف الاعتقاد أو النشاط الذي يفتقر إلى «العلمية» فإنه لا يأمن من الوقوع في الانحراف المفضي إلى الظلم والفتنة وذهاب الريح.

ب ـ الصبغة التوحيدية

نقصد بالصبغة التوحيدية ـ ابتداءً ـ أن توحيد الله سبحانه وتعالى هو جوهر الدعوة الإسلامية، وصبغتها الخاصة التي تمنحها طابعها المتميز، وتعطيها هويتها المستقلة.

قال تعالى:

﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ [البقرة: ١٣٨].

تصحيحًا للمواقف الصناعية الشكلية التي تورّط فيها اليهود والنصارى، في ما يتصل بإثبات عبوديتهم لله تعالى، التي وقفوا بها عند حدود الإجراءات الظاهرية من مثل المعمودية عند النصارى، الذين كانوا إذا وُلِد لهم ولد فأتى

---

(٢١) رشيد رضا، تفسير المنار ١٢/٣٠٩.

عليه سبعة أيام غمسوه في ماء لهم يقال له «ماء المعمودية»، زاعمين أن التعميد بهذه الصورة يكسب المعمَّد صفة النصرانية، ويلوّنه بلونها كما يلون الصبغ الثوب مصبوغًا[٢٢].

وقد أورد القرآن صورًا من هذه التشنجات التي كان اليهود والنصارى ينطلقون فيها من ادعاء احتكار العناية الإلٰهية، ومن ثم حق الوصاية على الآخرين من دون اليهود والنصارى، وهو ما نراه مثلاً في قوله تعالى:

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ [المائدة: ١٨].

وقوله سبحانه:

﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾ [البقرة: ١١١].

وقال عز وجل:

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [البقرة: ١١٣].

وقال عزّ من قائل:

﴿وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟﴾ [البقرة: ١٣٥].

فأوضح لهم القرآن بشكل حاسم، أن الانتساب إلى الإيمان والدين الحق، ليس بهذه الطريقة الصناعية الشكلية، إنما هو بما صبغ الله به الفطرة البشرية من الإخلاص وحب الخير والاعتدال والقصد في الأمور[٢٣] أي بالاستسلام لله وحده، والانقياد لشرعه، وعدم مناقضة سننه في خلقه ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ۝١٣٨﴾ [البقرة: ١٣٨].

وإذا كان الإسلام هو صبغة الله[٢٤] وفطرته التي فطر الناس عليها، كما

---

(٢٢) ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير ١/ ٧٤٣.

(٢٣) تفسير المنار ١/ ٤٨٦.

(٢٤) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن ٢/ ١٤٤.

جاء في حديث أبي هريرة: «ما مِن مولودٍ إلاّ ويولدُ على الفِطْرَةِ، فأبواه يُهَوِّدانه أو يُنَصِّرانه، أو يُمَجِّسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء»[25] كما جاء كذلك في قوله تعالى:

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الروم: ٣٠].

إذا كان الإسلام هكذا هو صبغة الله وفطرته، فإن «التوحيد» هو رأس هذه الصبغة وجوهرها وعنوانها، منه تستمدّ حقيقتها ولونها الذي يميزها عن غيرها، ويعطيها طابعها الخاص المستقل، وهو ما نلمسه بوضوح في القرآن والسُّنة والتراث العقدي للأمة، من خلال محاولة جرد أو إحصاء محاور الاهتمام الأساسية في كل منها.

فالتوحيد هو القضية الأساسية الكبرى، الأكثر تكرارًا[26] وبروزًا في الكتاب والسُّنة، والأكثر محورية في التراث العقدي للمسلمين، كما يؤشر على ذلك تسمية علم العقيدة «بالتوحيد» وهو مبحث من مباحث هذا العلم، للأهمية الخاصة التي يحتلّها «التوحيد» في الوجود الإنساني، وبنية الحضارة الإنسانية، فهو السلك الذي ينتظم حبّات أو فقرات هذا الوجود وهذه الحضارة، ويعطيها معناها، ويحدد لها وظيفتها، ويدعم فعاليتها ومصداقيتها، بدونه يفقد الوجود الإنساني معناه ويضيّع وظيفته، ويفقد فعاليته، ويتحول إلى فوضى وخراب، تمامًا مثل الجسم الذي يخرج من مدار حركته، فيختلّ نظامه وتتعطّل وظيفته.

فالتوحيد بالنسبة للوجود الإنساني ـ كما هو بالنسبة للوجود الكوني كله ـ هو الضابط الأساس في ضمان أداء الوظيفة الاستخلافية التي تعتبر المدار الطبيعي لحركة الوجود الإنساني، به تنشدّ إلى أصولها، وعبره تتّجه نحو مقاصدها ونهاية مطافها، بلا انحراف ولا توقف، وهو ما جعل العلماء يقررون

---

(٢٥) مختصر صحيح مسلم، كتاب: القدر، باب: كل مولود يولد على الفطرة / ٤٨٩.
(٢٦) تفسير المنار ١١/٢٠٨.

بحق: أنه أول ما يدخل به المرء الإسلام، وآخر يخرج به من الدنيا كما يقول ﷺ: «من ماتَ وهوَ يعلمُ أنّه لا إلٰهَ إلاّ الله: دخلَ الجنة»(٢٧) فهو أول واجب وآخر واجب(٢٨).

١ ـ مضمون الصبغة التوحيدية وأبعادها العقدية الكبرى

وإذا كان التوحيد يؤدي هذه الوظيفة الجوهرية في الوجود الإنساني، فما هو يا ترى مضمون هذا التوحيد؟ وما هي أبعاده العقدية؟

ومن غير إطالة نشير إلى أن مضمون الصّبغة التوحيدية كخاصية قاعدية للدعوة الإسلامية، ملخّص بكثافة معجزة في شعار الإسلام الخالد، «لا إلٰه إلاّ الله» الذي يختزن في داخله مكونات مشروع الاستخلاف، وضمانات إنجازه بكفاءة وفعالية، لذلك قال العلماء بحق «لا إلٰه إلاّ الله منهاج حياة»(٢٩) لأنها عبرت بجلاء عن قضية الإيمان المركزية، وهي: توحيد الله، وإفراده بالعبادة والاستعانة كما جاء في فاتحة الكتاب في قوله تعالى:

﴿ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥ ﴾ [الفاتحة: ٥] الذي علق عليه ابن القيم بقوله:

«سرّ الخلق والأمر والكتب والشرائع والثواب والعقاب، انتهى إلى هاتين الكلمتين، وعليهما مدار العبودية والتوحيد، حتى قيل: أنزل الله مائة كتاب وأربعة كتب: جمع معانيها في التوراة والإنجيل والقرآن، وجمع معاني هذه الكتب الثلاثة في القرآن، وجمع معاني القرآن في المفصل، وجمع معاني المفصل في الفاتحة، ومعاني الفاتحة في ﴿إياك نعبد وإياك نستعين. . .﴾(٣٠).

وفصّل علماءُ العقيدة هذا المضمون الذي احتوتْه كلمةُ التوحيد، في

---

(٢٧) مختصر صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب: من لقي الله تعالى بالإيمان / ١٠.
(٢٨) أصول العقيدة الإسلامية التي قررها الإمام الطحاوي / ١٤.
(٢٩) سيد قطب، معالم في الطريق / ٨٣.
(٣٠) التفسير القيم / ٦٥.

سياق تحديدهم للأبعاد العقدية الكبرى لخاصية «الصبغة التوحيدية» فذكروا أن منظومة التوحيد تتضمن ثلاثة أبعاد بتكاملها في ما بينها، نظرية وممارسة، في حياة الفرد والمجتمع أو الأُمة، يتحقق المقصد الشرعي من الوجود الإنساني لخصته الآية السابقة، وأشارت إليه آية أخرى جامعة في قوله تعالى:

﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾ [الذاريات: ٥٦] أي إلاّ ليعبدوني وحدي، لا يشركون بي غيري في العبادة[٣١].

وتتمثل هذه الأبعاد في:

توحيد الربوبيّة: أي الاعتقاد الجازم الراسخ بأن الله سبحانه خالق كل شيء، ورازقه ومدبر شؤونه، ومالك أمره، لا يشاركه في ذلك أحد من مخلوقاته، فهو وحده المحيي والمميت، والنافع والضار، والمعزّ والمذلّ والمعطي والمانع... كما قال سبحانه:

﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾ [الأعراف: ٥٤] وحده الفاعل المطلق في الكون: بالخلق والتدبير والتغيير، والتسيير والزيادة والنقص[٣٢].

وقد أفاض القرآن الكريم بالخصوص في تأكيد هذا البعد وترسيخه بأساليب شتى، اتساقًا مع منهجيته في مخاطبة الكينونة الإنسانية، وتهيئتها لتلقّي الأمر والتفاعل معه بحيوية وحماس وثقة بعد ذلك، أكتفي بذكر عينات على سبيل المثال.

قال تعالى في سياق جملة من الاستفهامات التقريرية، التي تطرح السؤال على السامع وتبادر بالإجابة ليكون الأمر أوقع في النفس، وأشد تحريكًا للذهن وتنبيهًا له، وإثارة لاهتمامه:

﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ

---

(٣١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن ١٧/ ٥٤. الطاهر ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير ٢٧/ ٢٦.

(٣٢) محمد نعيم ياسين، الإيمان / ١٤.

﴿ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ﴾ [يونس: ٣١].

وقال كذلك:

﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ [المؤمنون: ٨٦، ٨٧].

وقال سبحانه في حوار طويل يقود السامع إلى استيقان حقيقة توحيد الربوبية ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [النمل: ٦٠ ـ ٦٤].

توحيد الأسماء والصفات:

بالاعتقاد والإقرار بأنّ لله تعالى أسماء وصفات بها يعرف حق معرفته، ويشكر حق شكره، وبها يُدعى ويُرجى كما قال سبحانه:

﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾﴾ [الأعراف: ١٨٠].

فالله سبحانه متصف بكل صفات الكمال ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١] ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾ [الإخلاص: ٤]، ولا يوصف سبحانه إلا بما وَصَفَ به نفسه، أو وصفه به رسوله ﷺ، قال الواسطي رحمه الله:

«ليس كذاته ذات، ولا كاسمه اسم، ولا كفعله فعل، ولا كصفته صفة،

إلا من جهة موافقة اللفظ . . وهذا كله مذهب أهل الحق والسُّنة والجماعة[٣٣]، فيمضي كما أراده اللّه بلا تأويل، ولا تشبيه ولا تعطيل، ولا محاولة للتكييف، أي دون التورط في البحث عن الكُنْه والكيفية، لأن الفطرة السليمة تدرك بداهة أن خالق «الأشياء لا تماثله هذه الأشياء التي هي من خلقه»[٣٤] كما يشير إلى ذلك الموقف المشهور للإمام مالك رضي الله عنه، وهو موقف مدرسة السَّلَف الصالح قديمًا وحديثًا، من قضية التكييف، حيث قال عن الاستواء: «الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة»[٣٥].

ونظرًا للأهمية التربوية الحاسمة لبعد الأسماء والصفات في حياة الإنسان، فقد أولاه القرآن عناية كبيرة، حيث يلاحظ أن ذكر الله قد تكرر في القرآن باسم من أسمائه، أو صفة من صفاته (١٠٠٦٢) مرة[٣٦] لترسيخ الإيمان بوحدانية الله في النفوس، وتصعيد الارتباط به، والاستجابة لأوامره، فهي بمثابة البرنامج العملي التطبيقي لتجسيد الإيمان الحق بالله، الذي يمر عبر المعرفة والاستجابة المخلصة الصادقة.

توحيد الأُلوهية

وهو الاعتقاد الجازم الراسخ كذلك ـ نتيجة لكل ما سبق من كون اللّه تعالى: هو الخالق والمدبِّر، والمتصرف، والمالك. . . المتصف بجميع صفات الكمال التي لا يشاركه فيها أحد من خلقه ـ أن العبادة والطاعة له وحده دون سواه، والخوف لا يكون إلاّ منه، والرجاء لا يلتمس إلا عنده، كما جاء ذلك مجملاً في الفاتحة وهي تدور حول ثلاثة محاور أساسية:

العقائد، والعبادات، ومناهج الحياة[٣٧] كما يتضح ذلك من مقاطع السورة الثلاثة:

---

(٣٣) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن ١٦/٩.

(٣٤) سيد قطب، في ظلال القرآن.

(٣٥) محمد أبو زهرة، مالك/ ١٦٢.

(٣٦) د. عمر سليمان الأشقر، العقيدة في الله/ ٦٠.

(٣٧) سعيد حوى، الأساس في التفسير ١/ ٣٨.

- ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝﴾ [الفاتحة: ٤].
- ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝﴾ [الفاتحة: ٥].
- ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝﴾ [الفاتحة: ٦، ٧].

فتوحيد الأُلوهية هو رأس الأمر وعموده، وهو غاية التوحيد كله، لأنه يتضمن توحيد اللّه في ربوبيته وأسمائه وصفاته. يقول ابن تيمية:

«الشهادة لله بأنه لا إله إلاّ هو: تتضمن إخلاص الأُلوهية له، فلا يجوز أن يتألّه القلبُ غيرَه، لا بحب ولا بخوف، ولا رجاء، ولا إجلال، ولا إكبار، ولا رغبة، ولا رهبة، بل لا بد أن يكون الدين كله لله كما قال تعالى:

﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ [الأنفال: ٣٩].

فإذا كان بعض الدين لله، وبعضه لغيره، كان في ذلك من الشرك بحسب ذلك»[٣٨].

وقد قضى الله سبحانه أن يفرد وحده بالعبادة فقال عز وجل: ﴿۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣]، بمعنى أمر أمرًا جزمًا، وحكمًا قطعًا، وحتمًا مبرمًا أن يعبد وحده[٣٩] بإسلام الإنسان وجهه له، وتحريك كل طاقاته وإمكاناته في كل الظروف والملابسات، في الخط الرسالي المستقيم، الذي ارتضاه الله مشروعًا وحيدًا للعبادة والاستخلاف.

هذا هو مضمون الصبغة التوحيدية كخاصية مركزية من خصائص الدعوة الإسلامية، التي جاءت من أجل إقرارها في واقع الناس، وتلك هي أبعادها

(٣٨) اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم / ٤٥٢.
(٣٩) الشوكاني، فتح القدير ٣/٢١٨.

الكبرى تنطلق من توحيد الربوبية ثم توحيد الأسماء والصفات، وتنتهي بتوحيد الأُلوهية مكونة منظومة مترابطة تؤهل الإنسان لمهامه الاستخلافية، وتمنحه ضمانات النجاح فيها، إن هو فهم عن ربه، ووعى موقعه من الكون والحياة، واستقامت حياته على سنن الهدى والحكمة والتمكين.

٢ ـ الصبغة التوحيدية في التاريخ الرسالي كما تعرضها نصوص الوحي

وزيادة في تأكيد عناية الدعوة الإسلامية بإبراز الصبغة التوحيدية لمضامينها وتوجهاتها، نلاحظ مدى حرص القرآن والسُّنة على ربط حلقات المسار التاريخي الطويل للرسالة، بعضها ببعض، وتحسيس المخاطَبين بأن الصبغة التوحيدية هي القضية المركزية الأولى في كل الرسالات السابقة كما هي أيضًا في خاتمة هذه الرسالات.

وهو ما يؤصّل فعلاً فكرة طروء الشِّرك ويعمِّق أصالة التوحيد في النفوس، ويجعل الإنسان يحسّ بأن الإسلام ما هو إلاّ لبِنة نهائية كان لا بدّ منها لاكتمال البناء وتمامه كما قال تعالى:

﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا ﴾ [المائدة: ٣] وكما قال رسول الله ﷺ في حديث عن أبي هريرة رضي الله عنه:

«مَثلي ومَثَل الأنبياءِ مِن قبلي، كَمَثَل رجلٍ بنى بنيانًا فأحسنَه وأجمله، إلاّ موضع لَبِنَة من زاوية من زواياه، فجعل الناسُ يطوفون به، ويعجبون له ويقولون: هلاّ وضعتَ هذه اللّبِنَة؟ قال: فأنا اللّبِنَة، وأنا خاتمُ النبيين»[٤٠].

طروء الشِّرك على الإنسانية

يبدو جليًا في نصوص قرآنية وسنية عديدة نذكر منها قوله تعالى:

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ

(٤٠) مختصر صحيح مسلم، كتاب الفضائل، باب: تتميم الأنبياء / ٤٠٣.

﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾﴾ [الأعراف: ١٧٢ ـ ١٧٤].

وقوله عليه الصلاة والسلام فيما رواه عياض بن حمار المجاشعي:

«إنّي خلقتُ عبادي حنفاءَ فجاءتْهم الشياطينُ فاجتالتْهم عن دينِهم وحرَّمتْ عليهم ما أحللتُ لهم»[٤١] وهو ما يعززه حديث الفطرة السابق ذكره.

فالناس على هذا يولدون حنفاء على الفطرة، وتمام الاستعداد للاستقامة وعبادة الله وحده، وهو ما حدث في الزمان الأول قبل طروء الشرك الذي جاءت الرسالات السماوية تقاومه، وتعمل على استئصاله من حياة البشر.

قال تعالى:

﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [البقرة: ٢١٣]
وبالنظر في التعقيبات الواردة على هذه الآية، يمكن استخلاص كون الناس كانوا أمة واحدة، حيث عرضوا على آدم، ففطرهم الله على الإسلام، وأقروا له بالعبودية، وكانوا أمة واحدة مسلمين[٤٢] في الفترة الممتدة بين آدم ونوح عليهما السلام، كما جاء في حديث ابن عباس رضي الله عنه:

«وكان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام»[٤٣] ثم أخذ الانحراف العقدي طريقهُ إلى الناس، فجاء الرسل لبيان سبل الهداية والاستقامة على منهاج الله القويم.

محورية التوحيد في التاريخ الرسالي

وهو ما يلاحظ في نصوص الوحي التي استعرضت حركة التاريخ الرسالي من فجرها الأول مع نوح عليه السلام، إلى تمام نورها وكمال دورها على يد

---

(٤١) مختصر صحيح مسلم، كتاب: صفة الجنة، باب: في أهل الجنة وأهل النار/ ٥٢٣.
(٤٢) الشوكاني، فتح القدير ١/ ٢١٤. القرطبي ٣/ ٣٠. تفسير ابن كثير ١/ ٤٤٣.
(٤٣) د. محمد علي الصابوني، النبوة والأنبياء/ ٧.

محمد ﷺ، حيث يظهر بقوة ووضوح الخطُّ المحوري الذي تركزت عليه جهود النبوّة، ألا وهو إبراز الصبغة التوحيدية وإقرارها في واقع الحياة، ويكفي الإشارة هنا إلى بعض هذه النصوص الكثيرة ومنها قوله تعالى: ﴿ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴿٢﴾ ﴾ [النحل: ٢].

وقوله سبحانه:

﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ [النحل: ٣٦].

وقوله عز وجل:

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

وجاءت الإشارة في آية أخرى إلى البعد العملي أو التطبيقي، فقال نوح عليه السلام:

﴿ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ ﴾ [الأعراف: ٥٩].

وقال كل من هود وصالح وشعيب نفس الأمر حيث خاطب كل واحد منهم قومه بقوله: ﴿ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ﴾ [الأعراف: ٥٩، ٦٥، ٧٣، ٨٥].

وقال إبراهيم عليه السلام لقومه:

﴿ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ [العنكبوت: ١٦، ١٧].

وقال يوسف عليه السلام:

﴿ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾ [يوسف: ٤٠].

وقال موسى عليه السلام مخاطبًا بني إسرائيل:

﴿ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾ ﴾ [طه: ٩٨].

وقال لقمان عليه السلام في وصيته لابنه ﴿ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ ﴾ [لقمان: ١٢].

وقال عيسى عليه السلام لبني إسرائيل:

﴿ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ ﴾ [المائدة: ٧٢].

هكذا يبدو التوحيد محورًا مركزيًا وهدفًا رئيسًا للجهد الرسالي الذي قام به أنبياء الله ورسله لتعميم هداياته، وإقرار شرعه في خلقه.

الصبغة التوحيدية للإسلام

جاءت هذه الصبغة أوضح وأقوى ما تكون في الإسلام باعتباره خاتمة وحي الله لرسله، وخلاصة ما ارتضاه لعباده من الحكمة ومناهج الحياة، التي بها ينتظم أمرُهم، وينصلح حالهم في معادهم ومعاشهم.

فالقرآن كله وكذا السُّنّة تأكيد لحقيقة التوحيد، وترسيخ لها في النفوس والواقع. فالوحي في عمومه: «إما خبر عن الله وأسمائه وصفاته، وهو التوحيد العلمي الخبري، وإما دعوة إلى عبادته وحده لا شريك له، وخلع ما يعبدون من دونه، فهو التوحيد الإرادي الطلبي، وإما أمر ونهي وإلزام بطاعته، فذلك من مكملات التوحيد، وإما خبر عن إكرامه لأهل التوحيد، وما فعل بهم في الدنيا، وما يكرمهم به في الآخرة، وهو جزاء توحيده، وإما خبر عن أهل الشرك، وما فعل بهم في الدنيا من النكال، وما فعل بهم في العقبى من العذاب فهو جزاء من خرج عن التوحيد»[٤٤] على حد تعبير شارح متن الطحاوية.

(٤٤) الأذرعي، أصول العقيدة الطحاوية / ١٦.

فلا غرابة إذن أن يعرف الإسلام بأنه «**دين التوحيد**» لأن كل شيء فيه يخدم هذه القضية، بدءً من اسم الإسلام نفسه الذي يعني الخضوع والإذعان والاستسلام للّه وحده، والانقياد لشرعه ظاهرًا وباطنًا، ومرورًا بشعاره الخالد «**لا إلٰه إلاّ اللّه محمدٌ رسولُ اللّه**» الذي به يعبر الإنسان من الظلمات إلى النور، وانتهاء بالمضامين التي تكرس المفاهيم والقيم التوحيدية المذكورة في واقع الحياة، عن طريق إقرار المبادئ التالية نظريًّا وعمليًّا:

ـ الاستيقان أن اللّه لا يُعبد إلاّ بما شَرَّعَ وبما أمر وعلى الشكل الذي أراد.

ـ ولكي يتحقق كل ذلك لا بد من توفر الإخلاص والصواب معًا، لأن العمل إذا كان خالصًا ولم يكن صوابًا لم يُقبل، وإذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا لم يقبل حتى يكون خالصًا صوابًا، والخالص أن يكون لله مجرّدًا من الأغراض وشوائب الهوى وحظوظ النفس، والصواب أن يكون على السُّنة لا يناقض سُنن الله التشريعية والكونية(٤٥).

وهذا ما جاءت الدعوة الإسلامية ترسّخه في عقول الناس وقلوبهم وواقعهم، حتى تصطبغ حياتهم كلها بصبغة الله، وتدخل في السلم كافة كما قال تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدْخُلُواْ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً ﴾ [البقرة: ٢٠٨] بالأخذ بجميع عرى الإسلام وشرائعه، والعمل بجميع أوامره، وترك جميع زواجره(٤٦) للارتقاء في سلم الكمال المعرفي والروحي، والأخلاقي، والعمراني أو الحضاري، تحقيقًا لمستوى راقٍ من الاستخلاف في الأرض.

ج ـ الطبيعة الشمولية

خاصِّيَّة الطبيعة الشمولية للدعوة الإسلامية وما يتلوها لاحقًا من

---

(٤٥) ابن تيمية، اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم / ٤٥٣.
(٤٦) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم ١/ ٤٣٩.

خصائص، هي من مقتضيات الخاصية السابقة، باعتبارها محور الإسلام وعموده، بدونها يفقد النشاط الإنساني توازنه، لأنه يطيش عن غايته، ويتحرك بعيدًا عن أهدافه.

فإذا كانت الصبغة التوحيدية تستلزم أن لا يعبد الإنسان إلا الله سبحانه وتعالى، وأن يعبده بما شرّع له، وأن يكفر بما عداه.

وإذا كان الدين الذي اختاره الله منهاجًا لتحقيق العبودية له سبحانه هو الإسلام، الذي كلف به جميع خلقه، وأرسل به كل رسله، كما هو مقرر في القرآن الكريم في قوله تعالى:

﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَـٰمُ ﴾ [آل عمران: ١٩] والذي نرى مصداقًا له في حياة الأنبياء جميعًا كما هو واضح في آيات عديدة يمكن العودة إليها مباشرة، حيث دعوا جميعًا إلى الإسلام واعتزوا به، ودعوا الله سبحانه وتعالى أن يجعلهم أول المسلمين(٤٧).

وإذا كان الله تعالى بعد تربية طويلة للبشرية وتهيئة لها، قد أكمل الدين وأتم نعمته على الناس، كما جاء في قوله عز وجل:

﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا ﴾ [المائدة: ٤].

إذا كان الأمر كذلك، وأصبح الإسلام كما كان عبر التاريخ هو منهاج الله للحياة الإنسانية، لا يقبل غيره كما هو واضح من قوله تعالى:

﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَـٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [آل عمران: ٨٥].

١ ـ مفهوم الطبيعة الشمولية

إذا كان الأمر كذلك فإنه يصبح من البديهي أن يكون هذا الدين ذا طبيعة

---

(٤٧) سورة يونس، الآية: ٧٢. البقرة، الآيات: ١٣١ ـ ١٣٥. يوسف، الآية: ١٠١. المائدة، الآية: ١١٢..

شمولية، حتى يستوعب النشاط العبادي للإنسان، ويمكنه من إنجاز مهمته الاستخلافية بكفاءة وفعّالية، في أبعادها الشمولية الكبرى:

- المعرفية
- الروحية
- الأخلاقية أو السلوكية
- والعمرانية أو المدنية، كما تم توضيح ذلك في الفصل الثاني من هذا الباب.

فالدعوة الإسلامية على هذا الأساس، دعوة شمولية في أهدافها ومجالاتها ومناهج عملها، تستوعب الحركة الإنسانية بصورة عميقة وشاملة، من خلال ما تؤسسه من مرجعية نظرية شاملة، يتم في ضوئها تفسير التجربة التاريخية للإنسانية، وتحليل الواقع ومباشرة الارتقاء به إلى المستوى المطلوب الممكن، واستشراف آفاق المستقبل، وهي القضايا الحساسة التي اضطرب فيها الفكر الوضعي قديمًا، وحديثًا، ولم يتمكن من بناء موقف شمولي متوازن بشأنها، لأنه لا يملك المرجعية الملائمة، كما قال الدكتور الكسيس كاريل بحق:

«إن الحضارة العصرية تجد نفسها في موقف صعب لأنها لا تلائمنا، فقد أنشئت من غير أية معرفة بطبيعتنا الحقيقية، إذ إنّها تولّدت من خيالات الاكتشافات العلمية وشهوات الناس وأوهامهم، ونظرياتهم ورغباتهم، وعلى الرغم من أنها أنشئت بجهودنا فإنها غير صالحة بالنسبة لحجمنا وشكلنا»[٤٨].

٢ - مظاهر الشمولية من خلال النصوص

ونذكر منها على سبيل المثال قوله تعالى:

﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩] في العقيدة والفكر والسلوك ومناهج الحياة الأسدّ والأعدل والأصوب، المتضمّنة للنظام الكامل

(٤٨) الإنسان ذلك المجهول / ٢٧.

في معاملة الخلق والخالق[٤٩]، وهو ما تؤكده آيات أخرى صريحة الدلالة مثل قوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٨٩] مشتملاً على كل علم نافع مِن خَبَرِ ما سبق، وعلم ما سيأتي، وكل حلال وحرام، وما الناس إليه محتاجون في أمر دينهم، ومعاشهم ومعادهم» كما يقول ابن كثير[٥٠].

فالقرآن الذي تشرحه السُّنّة، كتاب شامل كامل، لم يفرط فيه الله تعالى في شيء من شأنه أن يساهم في دعم تماسك الحياة الإنسانية وانسجامها مع سنن الله في خلقه، كما تقرر ذلك آية أخرى صراحة في قوله تعالى:

﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨] على رأي من يذهب إلى أن المراد بالكتاب هو القرآن[٥١] حيث أشارت الآية إلى أن هذا الكتاب لم يترك شيئًا من ضروب الهداية إلا ودعا إليها صراحة أو ضمنًا.

ونظرًا إلى أن هذا الكتاب استوعب الحياة الإنسانية استيعابًا شاملاً وعميقًا وواقعيًّا، ماضيًا وحاضرًا ومسقبلاً، اعتقادًا وفكرًا وسلوكًا وعملاً، فقد جاء في الكتاب والسُّنة التأكيد على ضرورة الالتزام به والحذار من كل ما يضاده، كما يبدو ذلك من قوله تعالى:

﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣] وفسر الصراط بأنه الإسلام كما جاء في حديث الترمذي الذي به شرح رسولُ الله ﷺ هذه الآيةَ حيث قال في نهاية المثال الذي ضربه:

«... **فالصراط الإسلام**...»[٥٢] وهو ما تؤكده سورة الفاتحة في قوله تعالى:

﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾ [الفاتحة: ٦] وهو جملة ما يوصل

---

(٤٩) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن ١٠/ ٢٢٥. الشاطبي، الموافقات ٣/ ٣٦٩.

(٥٠) تفسير القرآن العظيم ٤/ ٢١٨.

(٥١) الفخر الرازي، التفسير الكبير ١٢/ ٢١٥. الموافقات ٣/ ٣٦٩.

(٥٢) أحمد في المسند ١/ ٤٣٥، طبعة الحلبي.

الإنسان إلى سعادة الدنيا والآخرة، ويمكنه من أداء مهمته الاستخلافية بكفاءة، من عقائد وآداب وأحكام وتعاليم[٥٣].

فإذا ربطنا هذا بالآيات السابقة، التي تحدثت عن كون الإسلام هو الدين الذي لا يقبل الله سواه منهاجًا لعبادته وخلافته، وعلمنا أن هذا الدين قد تمّ وكمل، أيقنا أن شموليته غدت من لوازم خاتميته وهيمنته على الدين كله كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ﴾ [المائدة: ٤٨].

فهيمنة الإسلام المتضمنة لكونه مؤتمنًا وشاهدًا وحاكمًا على ما سواه، تقتضي شموليته واستيعابه للحياة الإنسانية كلها، سواء تعلق الأمر بالموقف من التجارب التاريخية، أو بالموقف من الواقع المعاش، أو بالموقف من المستقبل من جهة، أو بالموقف من الإنسان أو المجتمع، أو الحضارة من جهة أخرى.

قال ابن كثير تعقيبًا على الآية:

«جعل الله هذا الكتاب العظيم الذي أنزله آخر الكتب وخاتمها وأشملها وأعظمها وأكملها، حيث جمع فيه محاسن ما قبله، وزاده من الكمالات ما ليس في غيره، ولهذا جعله شاهدًا وأمينًا وحاكمًا عليها كلها»[٥٤]، فهو المرجع لما سواه، والموجِّه لما عداه.

وعليه كان الشمول من طبيعة الدعوة الإسلامية وخاصية جوهرية من خصائصها، بدونها تفقد معناها وقيمتها ودورها في الحياة، وهو ما حذر منه القرآن في مثل قوله تعالى:

﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَـٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ﴾ [البقرة: ٨٥]. ودعا إلى الحكم بما أنزل الله وصياغة الحياة كلها بالإسلام.

---

(٥٣) رشيد رضا، تفسير المنار ١/ ٦٥.

(٥٤) تفسير القرآن العظيم ٢/ ٥٨٧.

د ـ النزعة الواقعية

خاصية أصيلة منبثقة من خاصية «الصبغة التوحيدية» مباشرة. ودالة عليها، كما انبثقت منها باقي الخصائص الأخرى ودلّت عليها.

فالصبغة التوحيدية التي تعني وحدة مصدر الكون والحياة والإنسان: ابتداءً ووظيفة ومصيرًا، كما يشير إلى ذلك قوله تعالى:

﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾﴾ [البقرة: ١٥٦] ويؤكده شعار الإسلام الخالد: «لا إله إلا الله» الذي يكرس مبدأ: أن لا معبود بحقٍّ إلاّ اللّه.. تفرض وحدة مصدر تدبير الوجود الكوني، حتى تتناسق مفرداتُه، وتنتظم حركته، ويتناغم سيره، فلا يضطرب ولا يتوقف ولا يختلّ كما قال تعالى:

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾﴾ [الرعد: ٢]
﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾﴾ [الملك: ٣].

فكل شيء من الوجود الطبيعي ماضٍ في طريقه بتناغم وانسجام لأن «وراءه مشيئة تدبره، وقدرًا يحرّكه وناموسًا ينسّقه»[٥٥].

١ ـ مفهوم النزعة الواقعية

وانطلاقًا من هذه الحقيقة، نجد أن «النزعة الواقعية» في الدعوة الإسلامية تغدو أمرًا حتميًا، لسبب بسيط هو أن الوجود الكوني كله، بمفرداته وعناصره وقوانينه من صنع الله وتدبيره وحده، والإسلام هو وحيه إلى خلقه، وهديه إلى الناس كافة، ارتضاه لهم لينظم حياتهم الإرادية تنظيمًا متناسقًا مع حياتهم الطبيعية، فهو بالتالي جزء «من الناموس الإلٰهي العام الذي يحكم فطرة الإنسان، وفطرة الوجود العام، وينسقها كلها جملة واحدة»[٥٦] تحقيقًا للتوافق

---

(٥٥) سيد قطب، معالم في الطريق/٩٨.
(٥٦) المرجع نفسه/٩٩.

والانسجام في حركة الوجود الإنساني ومسيرته نحو أهدافه الدنيوية، وغاياته الأخروية.

وعليه فإن «النزعة الواقعية» للدعوة الإسلامية ـ كإطار مرجعي نموذجي يستهدف الارتقاء بالحياة الإنسانية معرفيًا وروحيًا وسلوكيًا وعمرانيًا أو حضاريًا، لتتطابق مع سنن الله الكونية ـ تتجلى في ما يلي:

١ ـ تطابق الحقائق الواردة في الوحي كتابًا وسُنّة، مع فطرة الوجود الطبيعي، وفطرة الوجود الإنساني فردًا وجماعة.

بمعنى أن النموذج المرجعي، الذي رسمه الإسلام لإنجاز مهمة الاستخلاف، جاء متسقًا تمام الاتساق مع طبيعة الإنسان التي خلقه الله عليها، بما فيها من غرائز وطبائع، تشكل في مجموعها: جملة الاستعدادات الفطرية التي تؤهل الإنسان لتحمّل مسؤوليته عن خياراته ومواقفه، وهو ما أشار إليه القرآن صراحة في قوله تعالى:

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الروم: ٣٠].

٢ ـ وبالإضافة إلى هذا الإطار المرجعي النموذجي المستقل الذي يرسمه الإسلام للحياة الإنسانية المنشودة، والذي يتطابق مع سُنن الله في خلقه، نجده ـ أي الإسلام ـ كذلك لا يهمل العناية بواقع الإنسان المُعاش، بل يوليه أهمية كبيرة، ويراعيه في عملية التغيير والارتقاء بالأوضاع القائمة إلى المستوى المطلوب الممكن.

فالإسلام لا يتجاهل واقع الإنسان فطريًا كان أم عارضًا[٥٧] بل نراه دائمًا حريصًا على الانطلاق بالأوضاع من النقطة التي هي فيها فعلاً، فلا يغفل واقع الناس والمجتمع[٥٨] ولا يتعسّف الحلول، ويلزم أتباعه بحركة متوازنة، قائمة

(٥٧) د. عبد المجيد النجار، العقل والسلوك في البنية الإسلامية / ٧٠.
(٥٨) سيد قطب، هذا الدين / ٨.

على العلم بالواقع الإنساني الفطري والمُعاش.

وهذا ما حدا بعلمائنا الأجلّاء إلى تأصيل هذه القضية، خاصة في بعدها المُعاش أو العارض، فقال الإمام الشاطبي على سبيل المثال:

«ليس كل ما يعلم مما هو حق يطلب نشره وإن كان من علم الشريعة، ومما يفيد علمًا بالأحكام، بل ذلك ينقسم: فمنه ما هو مطلوب النشر وهو غالب علم الشريعة، ومنه ما لا يطلب نشره بإطلاق، أو ما لا يطلب نشره بالنسبة إلى حال أو وقت أو شخص»(٥٩)، وعلى هذا أبدًا يتم التعامل مع الواقع المُعاش في طول الأيام كما يقول الإمام القرافي:

«فمهما تجدد في العرف فاعتبره، ومهما سقط فالغِه، ولا تجمد على المنقول في الكتب طول عمرك، بل إذا جاءك رجل من غير إقليمك فلا تُجْرِه على عرف بلدك، وسله عن عرف بلده فأجرِه عليه، وافته به دون عرف بلدك، والمذكور في كتبك»(٦٠).

٢ ـ واقعية الدعوة الإسلامية من خلال النصوص

والذي يتأمل نصوص القرآن والسُّنة يقف على قوة «**النزعة الواقعية**» في الدعوة الإسلامية، حيث يلاحظ مدى اهتمامها بمراعاة الأعراف، واحتفالها برفع الحرج، ومراعاة سُنّة التدرج، والمرونة في مواجهة تنوع الواقع وتجدد الأحداث، كل ذلك في إطار فهم شمولي للواقع الإنساني الفطري أو الانتقالي..

قال تعالى:

﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾ [الطلاق: ٧]، ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

---

(٥٩) الشاطبي، الموافقات ٤/١٨٩.
(٦٠) إعلام الموقعين ٣/٩٩.

﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾ [الطلاق: ٧]، ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]. ﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨].

وقال رسول الله ﷺ في حديث أنس:

«إنّ هذا الدينَ متينٌ فأَوغلوا فيه برفق..»(٦١). وقال أيضًا: **«يسِّروا ولا تعسِّروا وبشروا ولا تنفروا»**(٦٢). وقال عليه السلام: **«فإذا أمرتُكم بشيءٍ فأتوا منه ما استطعتُم، وإذا نهيتُكم عن شيءٍ فَدَعُوْهُ»**(٦٣). وقال كذلك تعقيبًا على جماعة من المتشددين تقالوا ما كان عليه من التعبد:

«... أما واللّهِ إنّي أخشاكُم للّه، وأتقاكُم له، لكنّي أصومُ وأفطرُ، وأصلّي وأرقدُ، وأتزوجُ النساءَ، فمن رغبَ عن سُنّتي فليس مني»(٦٤).

هذه هي الواقعية في نظرتها المتكاملة للواقع الإنساني، نزوع متصاعد إلى التطابق مع النموذج المرجعي المتّسق مع فطرة الوجود وفطرة الإنسان، كما تعرضه نصوص الوحي وتخطط له، وعناية فائقة بالواقع الانتقالي المُعاش، في مرونة محسوبة، تحسبًا للانفلات الناجم عن الجمود والتشدد، وعملاً على دفع هذا الواقع إلى أعلى وأحسن أو أفضل من جديد، كلما تهيّأَت الشروط، وواتَت الظروف حتى لا يتحول إلى أمر واقع.

فالدعوة الإسلامية بهذه «النزعة الواقعيّة» في:

- تعاليمها المنسجمة مع السُنّن الإلٰهية.
- نظرتها إلى الإنسان.
- منهجية تعاملها مع الواقع الإنساني.

مؤهلة دون سواها للتأثير الحاسم في الحياة البشرية، والانتقال بواقع

---

(٦١) رواه الإمام أحمد في المسند ٣/١٩٩.

(٦٢) البخاري في كتاب: العلم، باب: ما كان النبي ﷺ يتخولهم بالموعظة (من فتح الباري ١/١٣٣).

(٦٣) مختصر صحيح مسلم، كتاب: الحج. باب: فرض الحج، ١١٧١.

(٦٤) البخاري في كتاب النكاح. باب: الترغيب في النكاح (من فتح الباري ٩/٨٦).

الناس من حالة الاختلال إلى التوازن، كلما أُحسن الاتصال بالإسلام، وأُجيد التعامل مع الواقع به، وهو ما تعجز عنه كلُّ المذهبيات الأُخرى، لقصور نظرتها للوجود الكوني عمومًا، والوجود الإنساني خصوصًا، وهو ما تَنَبَّه له بحق الدكتور الكسيس كاريل فكتب ملاحظًا بأن جلّ الجهود التي تبذل من قبل العلماء المعاصرين لفائدة البشر لن تبلغ أهدافها لأن أصحابها «يعالجون خططًا تشتمل على جزء فقط من الحقيقة»، فالإنسان كما يرى «غريب في العالم الذي ابتدعه. . . لم يستطع أن ينظم دنياه بنفسه لأنه لا يملك معرفة علمية بطبيعته، ومن ثم فإن التقدم الضخم الذي أحرزته علوم الجماد على علوم الحياة هي إحدى الكوارث التي عانت منها الإنسانية. . فالبيئة التي ولدتها عقولنا واختراعاتنا غير صالحة بالنسبة لقوامنا ولا بالنسبة لهيئتنا. . إننا قوم تعساء لأننا ننحط خلقيًا وعقليًا»[٦٥].

هـ ـ التوجّه العالمي

١ ـ مفهوم التوجه العالمي للدعوة

ونقصد بالتوجه العالمي كون الدعوة الإسلامية جاءت للناس كافة بِغضّ النظر عن مواقعهم وبيئاتهم وأوضاعهم الاجتماعية، فهي رسالة عامة للإنسانية جمعاء، تتجاوز بمضامينها الجديدة الآفاق المحدودة، التي كانت تدور حولها الأديان المرحلية السابقة، المحدودة في الزمان والمكان، حيث كان كل رسول يبعث إلى قومه خاصة كما يبدو ذلك على سبيل المثال من قوله تعالى:

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ [المؤمنون: ٢٣]. وقوله: ﴿ ۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ﴾ [الأعراف: ٦٥]، ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ﴾ [الأعراف: ٧٣]، ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ﴾ [الأعراف: ٨٥]، وقوله سبحانه عن رسالة موسى عليه السلام:

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ ﴾ [الأعراف: ١٠٣]،

(٦٥) الإنسان ذلك المجهول/ ٢٩، ٣٠.

ورسالة عيسى عليه السلام: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [آل عمران: ٤٩] بل إن مرحلية هذه الرسائل ومحدوديتها تظهر حتى في أسمائها حيث نسبت إما إلى شخص أو مكان أو شعب(٦٦).

فالتوجه العالمي خاصية بارزة من خصائص الدعوة الإسلامية، جاءت كتتويج للجهد الرسالي الضخم الذي قامت به قافلة المرسلين، واستطاعت من خلاله أن ترتقي بالوعي الإنساني إلى مستوى من النضج العقلي يؤهله لرسالة جديدة أكثر شمولاً وعمومية، تخاطب الإنسانية كافة، وتدعوها للالتقاء والتعاون كما قال تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

وهو تحوّل عميق في مسيرة الحياة الإنسانية على طريق العالمية.

٢ ـ عالمية الدعوة من خلال نصوص الوحي

وهي كثيرة نقتصر على عينات منها على سبيل المثال. قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾﴾ [الفرقان: ١] ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [ص: ٨٧]، ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ [القلم: ٥٢]، ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [التكوير: ٢٧].

ففي هذه المجموعة من النصوص اتجه الخطاب إلى العالمين كافة، الإنس والجنّ(٦٧) في حين اتجه في آية أخرى إلى الإنسان مباشرة فقال تعالى:

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ: ٢٨].

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨].

---

(٦٦) عبد الكريم الخطيب، التعريف بالإسلام في مواجهة العصر الحديث وتحدياته / ٢٠٣.
(٦٧) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير ٦/ ٧٢.

وجاء في حديث جابر بن عبد اللّه أن رسول الله ﷺ قال: «**أُعطيتُ خمسًا لم يعطهنَّ أحدٌ قبلي...**» وذكر منها: «**... وكان النبيُّ يُبْعَثُ إلى قومِه خاصةً وبُعثتُ إلى الناسِ عامّةً**»(٦٨).

فالتوجه العالمي للدعوة الإسلامية يظهر بوضوح في الخطاب القرآني على مستوى الشكل والمضمون معًا، حيث يلاحظ بقوة كيف تجاوز عتبة أو نطاق الشخصانية والقومية والطبقية والجغرافية.. إلى آفاق العالمية الرحبة، فكثر استعمال مثل هذه النداءات الموحية: «**يأيها الناس..**»، «**يأيها الذين آمنوا..**»، «**قل يا عبادي..**» وهي قوالب تعبيرية ذات دلالة عميقة، نقلت الدعوة من إطارها القومي الضيق المحدود، إلى نطاقها الإنساني العام، الذي يبرز جليًا على صعيد المضامين الإنسانية الجديدة التي طرحتها على مستوى التصور العقدي، وبناء العلاقات الاجتماعية، حيث سارت شوطًا بعيد المدى في إقرار العدالة والمساواة والحرية الإنسانية، وتمكين الإنسان من كسر القيود والتمايزات المجحفة التي أفرزتها أوضاع الانحراف عن منهج الله.

ومن خلال كل ما سبق نستخلص ما يلي:

- أهمية هذه الخصائص في إبراز ذاتية الدعوة الإسلامية، والإفصاح عن طبيعتها الربانية المتميزة، وآفاقها الإنسانية التي تَعِدُ بها البشرية، إن هي وعت وحي الله وأحسنت التفاعل العملي معه.

- **فخاصية «النزعة العلمية»**: التي ارتقت بالعلم إلى مستوى الفريضة(٦٩) بينت الطابع الخصوصي للدعوة الإسلامية في ما يتصل بموقفها من المسألة المعرفية، ومكانة العلم ودوره في الحياة، وأنه وحده الإمام المتبع في الأقوال والأفعال والاعتقادات.

فالعلم من منظور الدعوة الإسلامية، ميزان أساسي للتفاضل كالتقوى،

---

(٦٨) البخاري، في كتاب: التيمم (من فتح الباري ١/٣٤٦).
(٦٩) العقاد، التفكير فريضة إسلامية. د. الدريني، خصائص التشريع الإسلامي/٣٨.

أو أكثر على أساس أن العلماء أكثر خشية لله تعالى، قال سبحانه: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ [يوسف: ٧٦]، ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩]، ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة: ١١].

فالدعوة الإسلامية بتأكيدها الحاسم على عِلميّة الموقف العقدي والفكري والسلوكي والعملي للإنسان، تُحدِث نقلة نوعية فاصلة في التاريخ الإنساني، على طريق التوافق والانسجام مع سنن الله الكونية والتشريعية، وتضع حدًّا للخرافة والوهم وكل المقاييس الزائفة.

ـ وخاصية الصبغة التوحيدية: أبرزت بدورها الطابع الخصوصي للدعوة الإسلامية، في ما يتصل بعلاقة الوجود العالمي بما فيه الإنسان بالوجود الإلٰهي، حيث حسمت الأمر بشكل جذري، في اعتبار الكون مخلوقًا لله تعالى، ورتبت على ذلك فكرة توحيد الله عز وجل، وإسقاط هذه الصفة عن كل ما سواه من مخلوقاته، التي كثيرًا ما يوجه الإنسان جزءًا من اهتماماته العقدية والعبادية لها، وينحط في الخضوع لها.

فالتوحيد الشامل هو صبغة الدعوة الإسلامية، التي تعطيها طابعها المتميز وتبرز ذاتيتها الخاصة، وتمنحها قدرة هائلة على التأثير في الواقع، حينما تحرر طاقات الإنسان، وتدفع به إلى ساحة الحياة طليق النفس، لا يرجو ولا يخشى إلاّ الله تعالى.

ـ وخاصية الطبيعة الشمولية: أكدت الإحاطة العامة للدعوة الإسلامية بالحياة الإنسانية، واستيعابها الكلي العميق لشؤونها العقدية والفكرية والنفسية والاجتماعية، التي تستغرق كلَّ طموحات الإنسان وهمومه، فردًا ومجتمعًا وحضارة.

ووضعت حدًّا لمأساة تجزئة الحياة الإنسانية وشطرها، باعتمادها النظرة الكلية المتكاملة للواقع الإنساني في بعديه: الفطري والمُعاش، ورفضها النهائي للنظرة الجزئية لأحكام الشريعة كما قال تعالى:

﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍۚ ﴾ [البقرة: ٨٥] ودعوتها الناس للدخول في الإسلام كله، كما قال تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً ﴾ [البقرة: ٢٠٨].

ـ **وخاصية النزعة الواقعية**: أبرزت البعد الواقعي المتفرد في نظرة الدعوة الإسلامية إلى الوجود الكوني عمومًا، والوجود الإنساني خصوصًا، فجاءت تعاليمها متطابقة مع السنن الإلٰهية ومنسجمة مع فطرة الإنسان وغير متجاهلة لواقعه، بل تراعيه وتحركه بحكمة نحو آفاق جديدة، أكثر ملاءمة وانسجامًا مع طبيعته ورسالته واستعداداته.

ـ **وخاصية التوجه العالمي**: حددت بوضوح نطاق الدعوة الإسلامية المكاني والزماني، وبيّنت أن زمن الرسالات والشرائع المحدودة والمرحلية قد انتهى، وجاء الإسلام ليتحرك على نطاق عالمي شامل، يتجاوز المصالح القبلية والطبقيّة والعنصريّة، لينظم شؤون الإنسان بِغضّ النظر عن وضعه الاجتماعي والسياسي السابق ويمهّد الطريق أمام الناس لحياة جديدة أساس التفاضل فيها الاستقامة وصالح الأعمال.

وهذا عن أهمية هذه الخصائص في إبراز ذاتية الدعوة الإسلامية والإفصاح عن طبيعتها الربّانية المتميزة، وآفاقها الإنسانية التي تَعِدُ بها البشرية.

أما عن دورها في حماية الدعوة من الانحراف وتمكينها من أداء رسالتها في تجسيد مشروع الاستخلاف في واقع الحياة، فهو واضح، إذ تُعَدّ كل خاصية من هذه الخصائص الكبرى مقومًا من مقوِّمات الدعوة، وضابطًا من ضوابطها الأساسية، التي تساهم مباشرة في تحديد خطوات الحركة وبلورة مواقفها، وتكييف مناهج عملها، وهي أمور في غاية الأهمية بالنسبة للدعوة تضمن استمرارية انشدادها إلى أصولها وأهدافها وتحميها من الانزلاق والانحرافات كما أنها تشكل مع «غايات الدعوة وآفاقها الرسالية الكبرى» التي سبق الحديث عنها في الفصل الأول، الإطار المرجعي الكلي الذي يحكم حركة التبليغ والبناء والمواجهة، ويوجه خطواتها في الاتجاه الصحيح.

الباب الثاني

طبيعة المرحلة المكّيّة
وأهداف الدعوة فيها

الفصل الأول
بيئة الدعوة في المرحلة المكّية

الفصل الثاني
التكليف الرسالي وبداية الدعوة

الفصل الثالث
أهداف الدعوة في المرحلة المكّية

الفصل الأول

بيئة الدعوة في المرحلة المكية

أ ـ وضعية عالم ما قبل الإسلام

١ ـ تقييم القرآن لعالم ما قبل الإسلام

٢ ـ مشاهد الانحطاط الحضاري في عالم ما قبل الإسلام

ب ـ الوضع الفكري

١ ـ العرب والاحتكاك الثقافي

٢ ـ معوقات توطين الثقافة

ج ـ الوضع العقدي

١ ـ بداية طروء الشِّرك على العرب

٢ ـ مظاهر الانحراف العقدي في حياتهم

د ـ الوضع الاجتماعي

١ ـ مظاهر القوة والإيجاب في الحياة الاجتماعية للعرب

٢ ـ مظاهر الاختلال والضعف في الحياة الاجتماعية للعرب

هـ ـ الوضع السياسي

١ ـ المعطى القبلي في الحياة السياسية للعرب
٢ ـ الزعامة السياسية لقريش على العرب

و ـ مبرّرات تشريف العرب بابتداء الدعوة فيهم

١ ـ الاستعدادات الخاصة للعرب
٢ ـ الوضع الاستراتيجي الخاص لمكّة

أ ـ وضعية عالم ما قبل الإسلام

وصف الأستاذ العقاد عالم ما قبل الإسلام بقوله:

«كان عالمًا متداعيًا قد شارف النهاية... خلاصة ما يقال فيه إنه عالم فقد العقيدة كما فقد النظام... أي فقد أسباب الطمأنينة في الباطن والظاهر»[1]، وصار كل ما فيه يتطلع إلى وضع جديد أكثر استقرارًا وطمأنينة. وهو ما أشار إليه القرآن الكريم في قوله تعالى على سبيل المثال:

﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ [الروم: ٤١].

١ ـ تقييم القرآن لعالم ما قبل الإسلام

وهي حقيقة أكدها الواقع التاريخي للإنسانية قبل بزوغ فجر الدعوة الإسلامية، كما يظهر ذلك من استقراء أوضاع المجتمعات البشرية، حيث تشير كل الدلائل إلى مدى الانحطاط المريع الذي تردّت فيه الحضارة الإنسانية، وهو ما دعا القرآنُ الناس للوقوف عليه في الآية التالية مباشرة للآية السابقة والتي جاء فيها: ﴿ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُم

---

(١) عبقرية محمد / ١٠.

مُّشۡرِكِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [الروم: ٤٢].

وسأثبت هنا شهادات بعض الذين اهتموا بتقصّي أحوال الأمم السابقة، لأخذ صورة عامة عن الانحطاط الحضاري الذي كانت عليه البشرية قبل الإسلام، مركّزًا على الوضع العقدي لما له من تأثير عميق في باقي جوانب الحياة الإنسانية.

وقبل الإشارة إلى بعض هذه الشهادات يحسن بنا أن نذكّر بموقف القرآن نفسه من وضعية الديانتين الكبيرتين اليهودية والنصرانية، حيث يقول تعالى:

﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ عُزَيۡرٌ ٱبۡنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ ٱللَّهِۖ ذَٰلِكَ قَوۡلُهُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾ [التوبة: ٣٠، ٣١].

فهم يعتقدون أو يتظاهرون بالاعتقاد بأنهم أبناء الله وأحباؤه من دون الناس كما قال سبحانه وتعالى على لسانهم:

﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحۡنُ أَبۡنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥۚ﴾ [المائدة: ١٨]. ورتّبوا على ذلك صراعات كلامية وعملية في ما بينهم، في سياق محاولة الانفراد بهذه الخصوصية أو المزية، وسلبها من الآخر، كما يتضح ذلك في قوله تعالى:

﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ لَيۡسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيۡسَتِ ٱلۡيَهُودُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَهُمۡ يَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۗ﴾ [البقرة: ١١٣] وترتب على هذه النفسية المستعلية بالباطل غرور خطير جعل اليهود يعتقدون أنهم شعب الله المختار، الذي يجب أن يخدمه العالم كله، لأن كل من سواهم ساقط في نظر الله ومبغوض عنده، فلا حقوق له ولا حرمة[٢]، كما يظهر ذلك من قوله تعالى على لسان اليهود: ﴿قَالُواْ لَيۡسَ عَلَيۡنَا فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٞ﴾ [آل عمران: ٧٥].

---

(٢) رشيد رضا، تفسير المنار ٣/ ٣٣٩.

٢ ـ مشاهد الانحطاط الحضاري في عالم ما قبل الإسلام

وهو نفس الإحساس والمعتقد الذي كان سائدًا عند البراهمة في الهند، كما يتضح من قول «منو» مؤلف قانون «منو شاستر» الذي كان ولا يزال يحكم المجتمع الهندي:

«إن القادر المطلق قد خلق لمصلحة العالم البراهمة من فمه، وشترى من سواعده، وويش من أفخاذه، والشودر من أرجله، ووزع لهم فرائض وواجبات لصلاح العالم. . .»[٣] وقد ترتّبتْ على هذه النظرة نتائج مؤسفة بالنسبة لبقية الناس حيث يصرح القانون نفسه بأنه: «من سعادة شودر أن يقوموا بخدمة البراهمة وليس لهم أجر أو ثواب بغير ذلك، وليس لهم أن يقتنوا مالاً ويدخروا كنزًا، فإن ذلك يؤذي البراهمة، وإذا مد أحد المنبوذين إلى برهمي يدًا أو عصًا ليبطش به قُطعت يدُه، وإذا رفسه في غضب فُدعت رجلُه، وإذا هَمَّ أحدٌ من المنبوذين أن يجالس برهميًا فعلى الملك أن يكوي استه وينفيه من البلاد، أما إذا مسّه بيد أو سبّه فيقتلع لسانه، وإذا ادعى بأنه يعلّمه سُقِي زيتًا فائرًا. .»[٤].

ومثل هذا كان سائدًا في الإمبراطورية الفارسية حيث كان الأكاسرة يزعمون أنه يجري في عروقهم دم إلٰهي، وألقوا ذلك في روع الجماهير بمختلف الوسائل والأساليب، فاعتقدت أن في طبيعتهم شيئًا علويًا مقدسًا[٥].

وهو ما فسح المجال لفوضى عارمة، ظلت تطحن الإنسان قرونًا متطاولة، قبل أن ينقذه الإسلام، وليس أدل على ذلك من شيوعية «مزدك» الذي أحلّ النساء، وأباح الأموال، وعرّض المجتمع للخطر. يقول الإمام الطبري:

«افترض السفلة ذلك واغتنموا، وكاتفوا مزدك وأصحابه وشايعوهم، فابتلى الناس بهم وقوي أمرهم حتى كانوا يدخلون على الرجل في داره فيغلبونه

(٣) أبو الحسن الندوي، ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين / ٥٠.
(٤) المرجع نفسه / ٥١.
(٥) سعيد حوى، الرسول ﷺ / ٤٠١.

على منزله ونسائه وأمواله لا يستطيع الامتناع عنهم. . . فلم يلبثوا إلا قليلاً حتى صاروا لا يعرف الرجل ولده ولا المولود أباه، ولا يملك شيئًا مما يتسع به»[6].

ولم تشذّ المجتمعات المسيحية عن القاعدة، بل اضطربت فيها الأوضاع، حيث عَرَف الاضطهاد الديني والاجتماعي طريقه إلى عامة الناس بمن فيهم المسيحيين أنفسهم، خاصة بعد أن تبنّى الإمبراطور قسطنطين المسيحية كديانة للإمبراطورية الرومانية، وفتح الباب أمام اضطهاد اليهود والزنادقة والوثنيين، حيث كان هؤلاء وغيرهم يُعَذَّبون بكل ما تتفتق عنه القرائح من وسائل التعذيب. . فيحرقون على نار بطيئة تأكلهم قطعة قطعة[7]. . وذكر أبو الحسن الندوي نقلاً عن المقريزي على سبيل المثال أن عددًا من اليهود بلغ ٢٠ ألفًا هاجموا كنائس النصارى بصور وأرادوا الإيقاع بهم فانهزموا، لكن هرقل الروم أمنهم بعد توسلات منهم، فما كان من النصارى إلا أن يراودوه على إبادة اليهود ويزينوا له ذلك، فينكث عهده وأوقع باليهود وقيعة شنعاء، أبادهم جميعًا فيها، حتى لم يبقَ في ممالك الروم بمصر والشام منهم إلاّ من فرّ أو اختفى[8].

والوضع ذاته نجده في علاقة النصارى في ما بينهم، حيث كان الصراع على أشدّه، وكان الاضطهاد يفعل فعله في المجتمع تفكيكًا وإضعافًا مع مرور الأيام، كما تؤشر عليه هذه الواقعة أيام الفتوحات في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، عندما كانت الجيوش الإسلامية بقيادة أبي عبيدة تتأهب لملاقاة هرقل، فأحس القائد الإسلامي أنه غير قادر على الوفاء بالالتزامات الدفاعية الخاصة بأهل الذمة ببلاد الشام، فأوعز إلى عمال المدن المفتوحة يطلب منهم أن يردوا ما جبي من جزية إلى أهلها من النصارى، فلما تم ذلك تأثروا به كثيرًا ودعوا للمسلمين بالنصر وقالوا:

---

(٦) تاريخ الأمم والملوك ٢/٨٨.
(٧) سيد أمير علي، روح الإسلام / ٢٤٤.
(٨) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين / ٣٦.

«ردَّكم اللّهُ علينا ونصرَكم عليهم ـ أي على الروم ـ فلو كانوا هم لم يردوا علينا شيئًا وأخذوا كل شيء بقي لنا»[٩] وهو ما يؤكده «جيبون» تعليقًا على الأوضاع المتردية التي آل إليها أمر الإمبراطورية البيزنطية بقوله:

«. . . في آخر القرن السادس وصلت الدولة في تردّيها وهبوطها إلى آخر نقطة»[١٠].

هذه صورة مجملة عن أوضاع عالم ما قبل الإسلام في أهم ساحاته ومراكز نفوذه وقواه العالمية، وهي كما رأينا أوضاع تزداد سوءً مع مرور الزمن وكأن الله سبحانه يستدرجها إلى نهايتها لكي تبدأ الإنسانية مرحلة حضارية أخرى تتوازن فيها قواها، ويعتدل سيرها وينتظم أمرها.

فكيف كانت أوضاع العرب عامة وبيئة الدعوة الأولى خاصة؟

وهو ما سنراه بحول الله في المباحث التالية:

- الوضع الفكري.
- الوضع العقدي.
- الوضع الاجتماعي.
- الوضع السياسي.
- مبررات تشريف الجزيرة العربية بابتداء الدعوة منها.

ب ـ الوضع الفكري

نشير في البداية إلى أهمية الموقع الاستراتيجي الذي تحتله «جزيرة العرب» في العالم، فقد قيل بحق إنّها «قلب العالم»[١١] لاتصالها الطبيعي بقارات العالم القديم آسيا، وإفريقيا، وأوروبا.

فناحيتها الشمالية الغربية تصلها بقارة إفريقيا، وناحيتها الشمالية الشرقية

---

(٩) الدعوة إلى الإسلام، ترجمة د. إبراهيم ورفاقه / ١٢١.
(١٠) الندوي، المرجع السابق / ٣١.
(١١) مولانا محمد علي، حياة محمد ورسالته / ٩.

مفتاح لقارة أوروبا، والناحية الشرقية تصلها ببلاد فارس والشرق الأوسط والأدنى وتفضي بها إلى الهند والصين..

١ ـ العرب والاحتكاك الثقافي

ومن أجل هذا الموقع الطبيعي المتصل بالعالم القديم برًّا وبحرًا، كان شمال الجزيرة وجنوبها مهبطًا للأمم ومركزًا لتبادل التجارة، والثقافة، والديانة والفنون[١٢].

وقد أشار القرآن نفسه إلى الاحتكاك الواسع بين قريش وباقي أطراف الجزيرة العربية، بل وغيرها من الجهات كالحبشة في الجنوب، وتخوم الإمبراطورية الرومانية في الشمال وذلك عن طريق الرحلة التجارية المشهورة التي ذكرها الله تعالى في قوله:

﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمۡ رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ ۝٢﴾ [قريش: ١، ٢]، فكانوا يرسلون القوافل التجارية إلى اليمن والحبشة شتاء، وإلى الشام صيفًا[١٣]. قال ابن سعد: «كان هاشم رجلاً شريفًا وهو الذي أخذ الحلف لقريش من قيصر بأن تختلف آمنة، وأما مَنْ على الطريق فألَّفهم على أن تحمل قريش بضائعهم، ولا كراء على أهل الطريق، فكتب لهم قيصر كتابًا، وكتب إلى النجاشي أن يُدخل قريشًا أرضه...»[١٤].

ويضاف إلى هذا الاحتكاك الخارجي المتواصل، احتكاك داخلي أشد كثافة عن طريق الأسواق الداخلية الكثيرة التي كان «عكاظ» أشهرها.

فهذا الاحتكاك المتنوع الكثيف نوعًا ما، لعب دورًا حيويًّا في الأوضاع الفكرية داخل جزيرة العرب، بصفة عامة، بما أتاحه من فرص نقل الأفكار، وتبادل الخبرات المعرفية، وتعميم بعض للعادات والتقاليد السائدة، مما يؤدي

---

(١٢) صفي الرحمن المباركفوري، الرحيق المختوم/ ١٩.

(١٣) ابن الجوزي، زاد المسير ٥/ ٢٤١ الشوكاني، فتح القدير ٥/ ٤٩٨.

(١٤) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ١/ ٧٨.

مع مرور الزمن إلى بناء سيكولوجية الجماعة، وإبراز ذاتيتها القومية[١٥]، يقول سعيد الأفغاني عن أهمية هذا الاحتكاك عبر الأسواق:

«هي إذن معرض عام للجزيرة العربية: فيها عرض لتجارات جميع الأقطار، وعرض للبيوع، وعرض للعادات والأديان، واللغات والآداب والسياسة.. وفيها لجان رسمية على نحو ما نألف في معارضنا اليوم، تحكم للمتفوق بتفوقه.. وتزيد على معارضنا بميزة جميلة، وهي صهرها لعادات القبائل ولغاتها ومواصفاتها لتنتقي منها أصلحها وأخلقها بالبقاء[١٦] مثلما فعلت مع الشعر، حيث ذكر متتبعو الحياة الأدبية قبل الإسلام، أن العرب تنخّلت الشعرَ وانتقت سبع أو عشر قصائد كتبتها بماء الذهب وعلقتها بالكعبة تعظيمًا لها[١٧].

٢ ـ معوّقات توطين الثقافة

والعرب بحكم الأمية السائدة فيهم، وبحكم طبيعة البيئة الصحراوية القاسية التي كانت تفرض عليهم أنماط الحياة البدوية البسيطة غير المستقرة، لم تتح لهم فرصة توطين الثقافة، كما هو الحال بالنسبة لأمم وحضارات أخرى: كاليونان والإغريق والفرس والروم... الأمر الذي جعلهم يعتمدون على الثقافة الشفاهية، التي يعتبر الشعر والحكم والأمثال من أبرز مظاهرها عندهم، لسهولة تداولها[١٨]. أما باقي مظاهر الحياة الفكرية، فيمكن حصرها في جملة من المعارف أو المعلومات ذات الطابع التجريبي البسيط الذي كانت تمليه الحاجة، كالفراسة والقيافة، والأنساب والاهتمام بعلم النجوم والطب.. كما اهتموا كذلك بالكهانة والعرافة، ووجد أيضًا في تراثهم الفكري بعض الاهتمام

---

(١٥) أنور الرفاعي، الإسلام في حضارته ونظمه / ٥٠.

(١٦) ظافر القاسمي، نظام الحكم ١/١٣.

(١٧) الرفاعي، المرجع السابق / ٣١.

(١٨) مولانا محمد علي، حياة محمد ورسالته / ٢١.

بالقصص والخطابة، ونظرات في علم الأنواء أو الأرصاد الجوي كما يقولون اليوم.

ج ـ الوضع العقدي

يرى بعض المؤرخين أن جزيرة العرب ظلت تعيش بدون نبي منذ أيام شعيب عليه السلام أكثر من ٣٤٠٠ سنة[١٩]، قبل أن ينجدها الله سبحانه وتعالى بالرسالة الخاتمة على يدي محمد ﷺ، وهو ما يؤيده القرآن الكريم في مثل قوله تعالى:

﴿تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۝ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ۝﴾ [يس: ٥، ٦]، وقوله عز وجل:

﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ۝﴾ [القصص: ٤٦] وأغلب المفسرين[٢٠] يرى أن المقصود بالقوم: قريش والعرب عامة، فهم الذين طال عهدهم بالوحي، وغفلوا عن دين التوحيد الذي كان سائدًا في أجدادهم الأقدمين من قبل، فانتشرت فيهم الخرافة، وتعرضت عقيدتهم للتشويه، والتحريف، الذي تسرب إلى عقولهم وواقع حياتهم، فتحجّر وجودهم العقدي وانعقدت عليه نفوسهم، وصار من الصعب انتباههم إلى الضلال البعيد الذي يعمهون فيه.

١ ـ بداية طروء الشرك على العرب

وبالعودة إلى كتب تاريخ المنطقة العربية قبل الإسلام، نجد أن أغلب الآراء في طروء الشرك على بلاد العرب عامة وقريش خاصة، تذهب إلى تأكيد كون العرب كانوا على عقيدة التوحيد كما جاء بها إبراهيم عليه السلام وبلغها

---

(١٩) محمود شاكر، التاريخ الإسلامي ١/ ٩٢.

(٢٠) الشوكاني، فتح القدير ٤/ ٣٦٠. ابن عشور، التحرير والتنوير ٢٠/ ١٣٤.

لهم ابنه إسماعيل عليه السلام، حتى فشا فيهم الجهل وانطلتْ عليهم حيل الشيطان[٢١] فانزلقوا إلى الوثنية شيئًا فشيئًا حتى غدت مكوّنًا رئيسيًّا من مكوّنات عقيدتهم، وموجّهًا حاسمًا من موجهات حياتهم.

وقد روتْ كتبُ السيرة حدثًا كان له تأثير حاسم في انتشار الشرك بمكة ومنها إلى غيرها من مناطق الجزيرة، فقال ابن هشام:

«حدثني بعض أهل العلم أن عمر بن لحي خرج من مكة إلى الشام في بعض أموره، فلما قدم مآب من أرض البلقاء، وبها يومئذ العماليق وهم ولد عملاق، ويقال ولد عميلق بن لاوذ بن سام بن نوح، رآهم يعبدون الأصنام، فقال لهم: ما هذه الأصنام التي أراكم تعبدون؟ قالوا له: هذه أصنام نعبدها فنستمطرها فتمطرنا، ونستنصرها فتنصرنا، فقال لهم: ألا تعطوني منها صنمًا فأسير به إلى أرض العرب فيعبدونه؟ فأعطوه صنمًا يقال له «هُبَل»، فقدم به مكة وأمر الناس بعبادته وتعظيمه»[٢٢] فأطاعوه لمكانته فيهم، ومحلته عندهم وكرمه عليهم، فهو زعيمهم الروحي الذي كان قوله وفعله فيهم كالشرع المتبع على حد تعبير ابن كثير[٢٣].

ونظرًا لخطورة العمل الذي قام به عمر بن لحي على عقيدة الناس وحياتهم، قال رسول الله ﷺ في حقه:

«رأيت عمر بن عامر الخزاعي يجر قصبه ـ أمعاءه ـ في النار، كان أول من سيب السواءب»[٢٤].

وبهذا الصنيع الشنيع اقتفى العرب أثر الأمم السابقة في تنكّبها طريق الله المستقيم كما أشار إلى ذلك ابن عباس رضي الله عنه بقوله:

«صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بعد، أما «ودّ»: كانت

---

(٢١) ابن الجوزي، تلبيس إبليس / ٥٢.

(٢٢) سيرة ابن هشام ١/ ٧٧.

(٢٣) السيرة النبوية ١/ ٦٢.

(٢٤) البخاري في كتاب: التفسير، باب: ما جعل الله من بحيرة (من فتح الباري ٨/ ٢٢٨).

لكلب بدومة الجندل، أما «سواع»: كانت لهذيل، وأما «يغوث» فكانت لمراد ثم لبني غطيف بالجوف عند سبأ، وأما «يعوق»: فكانت لهمدان، أما «نسر»: فكانت لحمير لآل ذي الكلاع»[٢٥].

ويشير أبو المنذر الكلبي في رواية مشابهة لرواية ابن عباس إلى بعض دواعي تورط العرب في عبادة الأصنام فيقول: «كان الذي سلخ بهم إلى عبادة الأوثان والحجارة، أنه لا يضعن من مكةَ ضاعنٌ إلاّ احتمل معه حجرات من الحرم، تعظيمًا للحرم وصبابة بمكّة، فحيثما حلوا وضعوه، وطافوا به كطوافهم بالكعبة، تيمّنًا منهم بها وصبابة بالحرم وحباله، وهم بعد يعظمون الكعبة ومكة، ويحجون ويعتمرون على إرث إبراهيم، وإسماعيل عليهما السلام، ثم سلخ بهم إلى أن عبدوا ما استحسنوا، ونسوا ما كانوا عليه، واستبدلوا بدين إبراهيم، فعبدوا الأوثان وصاروا إلى ما كانت عليه الأمم من قبلهم»[٢٦].

٢ ـ مظاهر الانحراف العقدي

ومع مرور الزمن انغرست هذه الخرافات في نفوس الناس، واستحكم أمرُها في نظام المجتمع، واتخذت الظاهرة أشكالاً وصورًا مضحكة كما يظهر ذلك من هذه الرواية لابن إسحاق الذي قال:

«واتخذ أهل كل دار في دارهم صنمًا يعبدونه، ، فإذا أراد الرجل منهم السفر، تمسح به حين يركب، فكان ذلك آخر ما يصنع حين يتوجه إلى سفره، وإذا قدم من سفره تمسح به، فكان ذلك أول ما يبدأ به قبل أن يدخل على أهله»[٢٧].

لقد ذهبوا بعيدًا في إخضاع حياتهم لسلطان الوثنية وغدا الأمر بالنسبة لهم حاجة نفسية وعقدية واقتصادية معًا، بحيث كان الرجل منهم، إذا سافر فنزل

---

(٢٥) البخاري في كتاب: التفسير، باب: ودًّا ولا سواعًا (من فتح الباري ٨/ ٥٤١).
(٢٦) كتاب الأصنام/ ٦.
(٢٧) ابن هاشم، السيرة النبوية، ٧/ ٨٥.

منزلاً أخذ أربعة أحجار، فنظر إلى أحسنها فاتخذه ربًا، وجعل ثلاثة أثافي لقدره، وإذا ارتحل تركه، فإذا نزل منزلاً آخر، فعل ذلك. . . وإذا لم يجد صخرًا جمع حثية من التراب، وحلب عليها شاته ثم طاف بها[٢٨].

ولم يتوقفوا عند هذا الحد من «أَصْنَمة» حياتهم ولم يكْفِهم إحاطة الكعبة بحزام كثيف من الأصنام على مختلف الأحجام والأشكال بلغ تعدادها زمن البعثة ٣٦٠ صنمًا، بل راحوا يتخذون مع الكعبة المشرفة طواغيت وهي بيوت عظمتها القبائل كتعظيم الكعبة، جعلوا لها سَدَنَة وحجّابًا، ويُهدى لها كما يهدى للكعبة، ويُطاف بها كما يطاف بالكعبة، وينحر عندها وتقرب لها القرابين[٢٩].

هذا هو الوضع العقدي لغالبية العرب، الذين سقطوا في مستنقع الوثنية والشرك بالله تعالى، وجعلوا للأحجار والأشجار وأكوام الرمل نصيبًا في حياتهم، وهي مخلوقات دون الإنسان، سخّرها الله لخدمته وتمكينه لإنجاز رسالته الاستخلافية في الحياة.

وبجانب العقيدة الوثنية وعبادة الأصنام وجدت هناك معتقدات ثانوية عديدة لم يكن لها أتباع في حجم أتباع الوثنية أشار القرآن الكريم إلى بعضها في سياق مناقشته لأصحابها وردّه على مقولاتهم وأوهامهم ومنهم:

الدهريّون: الذين أشارت إليهم الآية الكريمة:

﴿ وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ﴾ [الجاثية: ٢٤].

فلا بعـث ولا إعادة ولا حساب عندهم[٣٠].

الجنيون: وهم الذين كانوا إذا نزل الواحد منهم واديًا يقول: أعوذ بسيد هذا الوادي من شر سفهاء قومه. بدأ هذا التوهم في اليمن، ثم في بني حنيفة ثم

(٢٨) البخاري في كتاب المغازي، باب: وفد بني حنيفة. . (من فتح الباري ٩/ ٧١).
(٢٩) ابن هشام، السيرة النبوية ١/ ٨٥.
(٣٠) جمال الدين القاسمي، محاسن التأويل ٨/ ٢٩٣.

فشا ذلك في العرب[٣١] وهو الذي أشار إليه القرآن في قوله تعالى:

﴿ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾ ﴾ [الجن: ٦].

قال الكلبي: «كانت بنو مليح من خزاعة يعبدون الجن»[٣٢].

عبدة النار: وهو من الآثار المحدودة التي سرت إلى بعض العرب من الفرس[٣٣].

ووجدت اليهودية والنصرانية غير أن تأثيرهما ظل محدودًا، خاصة في قلب الجزيرة لأسباب قد يعود بعضها إلى أنهما دخلتا فارتين من الاضطهاد الذي مورس على أتباعهما في الإمبراطورية الرومانية بالخصوص[٣٤]، مع أن اليهود سيكون لهم شأن خطير مع الدعوة الإسلامية في مرحلة الدولة بالمدينة.

الحنيفيون: وهم أفراد قلائل ممن بقي على أصل التوحيد الأول، ظلوا مصرين على البحث عن جذور المعتقد الإبراهيمي وسط ظلام الجاهلية الدامس، ولم يكن لهم تأثير في مجريات الأحداث في بيئاتهم[٣٥].

ولا نختم هذا المبحث دون أن نشير إلى بعض العادات والتقاليد أو المراسيم التي أوجدها العرب في سياق التعبير عن عمق صلتهم بمعتقداتهم وقوتها خاصة معتقدهم المحوري وهو الوثنية، حيث كانوا يستغيثون بها، ويقدمون لها النذور والقرابين، ويدعونها، ويحجون إليها ويطوفون بها، ويتذللون عندها، ويخصونها بشيء من مآكلهم ومشاربهم وملابسهم، وحرثهم وأنعامهم، كما يتضح ذلك من الإشارات القرآنية في مثل قوله تعالى:

﴿ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا۟ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا

---

(٣١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن ١٩/ ١٠.
(٣٢) كتاب الأصنام / ٣١٤.
(٣٣) محمد شكري الألوسي، بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب ٢/ ١٧٩.
(٣٤) العقاد، مطلع النور / ٤٦، ٤٧.
(٣٥) ابن كثير، البداية والنهاية ٢/ ٢٣٧.

كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾ [الأنعام: ١٣٦].

وقوله سبحانه:

﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [المائدة: ١٠٣].

ومن أمراضهم العقدية كذلك الاستقسام بالأزلام، وتطيّرهم من بعض الحيوانات أو الطيور، وسكونهم إلى الكهانة والعرافة والتنجيم، بسبب الجهل وحياة البداوة البسيطة، واستحكام التقليد للآباء والأجداد والزعماء كما قال تعالى على لسانهم وهم يبررون موقفهم مما هم عليه من الجمود ومعاكسات لسنن الله الكونية والاجتماعية:

﴿بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الزخرف: ٢٢].

ولعل من الملاحظات الأساسية التي ينبغي تسجيلها على موقف العرب العقدي في عمومه، اعترافهم بتوحيد الربوبية عمومًا، وهو ما أكده القرآن الكريم في العديد من الآيات مثل قوله تعالى:

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزُّمَر: ٣٨].

ولكنهم يتخذون وسطاء بينهم وبين الله يتقرّبون بهم إليه سبحانه حسب زعمهم، كما يورد ذلك القرآن على لسانهم في قوله تعالى:

﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزُّمر: ٣] وقوله كذلك:

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]، فهم يقرون بوحدانية الله تعالى، ولكنهم يشركون به غيره من مخلوقاته، ظنًّا منهم أن لها نوعَ تصرّفٍ لقربها من الله، ورضاه

عنها، فهي تشفع لهم عنده وتقرّبهم إليه، فيدفع عنهم البلاء بجاهها[٣٦]!.

هذه بصفة مجملة صورة عن الأوضاع العقدية لبيئة الدعوة التي جاء الإسلام ليقوّم عوجها، ويصحح مسارها، عن طريق التوافق والانسجام مع سنن الله الكونية والتشريعية.

د ـ الوضع الاجتماعي

الوضع الاجتماعي للعرب قبل الإسلام، تكيف بحسب الظروف الطبيعية من جهة، والأوضاع الفكرية والعقدية السابق ذكرها من جهة أخرى، فهي التي تحكّمت في كثير من مظاهر الحياة لديهم، وساهمت في صياغتها وبلورة صورتها مع مرور الزمن، خاصة في غياب مذهبية فكرية وعقدية مشتركة، تجمع شتاتهم، وترتقي باهتماماتهم وهمومهم إلى الآفاق القومية العامة أو الإنسانية الرحيبة بعد أن ظلت فترة طويلة من الزمن حبيسة الأفق الذاتي أو القبلي المغلق.

فالعرب ببدوهم وحضرهم، كانت الذاتية القبلية هي المحور الذي ينتظم وجودهم وحركتهم، ويشرط مواقفهم وعلاقاتهم حتى على المستوى العقدي، بحيث كان لكل بيت أو قبيلة صنم أو طاغوت خاص بها تتعصّب له، وتدافع عنه وتحميه وتفتخر به[٣٧]، وكان شعارهم الأساسي الملخِّص لفلسفة حياتهم الاجتماعية هو: «أنصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا». الذي نجد ترجمته العملية في قول شاعرهم:

وما أنا إلاّ مِن غَزيَّةَ إن غَوَتْ غَوَيْتُ وإن ترشُدْ غزيةُ أَرْشُدِ

فالمعطى القبلي هو الذي كان يرسم للفرد حياته، ويحدد له تطلّعاته، ويستأثر بكامل ولائه، كما أفصح عنه البيت السابق، وتجسَّدَ بقوة في واقعهم المعاش، وهو ما نراه على سبيل المثال في توزيع جملة من المهام الروحية

---

(٣٦) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن ١٥/ ٣٣٣. رشيد رضا، تفسير المنار ١١/ ٣٢٦.

(٣٧) علي بن جابر الحربي، منهج الدعوة النبوية في المرحلة المكية /٥٨.

والاجتماعية على القبائل، حيث كان الأيسار في بني جمح فهم المسؤولون عن نظام الاستقسام بالأزلام المعروف عندهم. وكان تحجير الأموال التي يسمونها لآلهتهم في بني سهم. وكانت الرفادة والعناية المادية بالحجيج في بني هاشم. والمشورة في بني أسد، والأشناق لحمل الديات والغرامات في بني تيم، والسفارة في بني عدي والسدانة والحجابة في بني عبد الدار[٣٨]. وهكذا يأخذ البعدُ القبلي مكانَه المحوري في كامل النشاط الاجتماعي، ويدخل كأُسٍّ في بنية النظام المجتمعي العربي قبل الإسلام.

١ ـ مظاهر القوة والإيجاب في الحياة الاجتماعية للعرب

ومن أجل تجاوز الأطروحات الأيدولوجية أو الشعوبية التي تحاول تصوير أوضاع البيئة العربية قبل الإسلام بشكل يجرّدها من كل ميزة أو فضيلة أو قيمة إنسانية، أو يضفي عليها مزايا وصفات تبرؤها من كل نقيصة وترقى بها إلى مستوى مثالي من التحضر..

من أجل تجاوز هذه الأطروحات غير الموضوعية، كان لزامًا علينا أن نبدأ بهذه الفقرة، لنرصد جوانب من مظاهر القوة والإيجاب في الحياة الاجتماعية للعرب والتي استفادت منها الدعوة الإسلامية، في ما بعد، في التمكين لدين الله في الأرض، والتي سنشير إلى جوانب منها في المبحث الأخير من هذا الفصل.

وفي هذا السياق يمكن التذكير بجملة من الصفات التي سادت في حياتهم، ودلّت على معادن وخامات إنسانية مهمة، كان لها أقوى الآثار في ما حققته الدعوة الإسلامية من فتوحات عميقة وشاملة في التاريخ الإنساني، عندما استطاع رسول الله ﷺ أن ينفذ بدعوته إلى أعماق النفس العربية، ويفرغها من رواسب الجاهلية، ويملأها بنور الإسلام، ويضيء أغوارها، ويدفع بها إلى

---

(٣٨) ظافر القاسمي، نظام الحكم في الشريعة والتاريخ الإسلامي ١/ ١٤. صفي المباركفوري، الرحيق المختوم / ٣٥.

السير المنهجي في الأرض داعية إلى الله، ومبشرة بعالم جديد، أكثر انسجامًا وتوازنًا ووفاء بضروريات الحياة وحاجات العباد العاجلة والآجلة.

ومن هذه الصفات حبّ الحرية والهيام بها والنزوع المستمر إلى الاستقلال لطول عهدهم بالبداوة التي حررتهم من الضوابط القانونية، فألفوا الانطلاق ودرجت عليه حياتهم حتى أصبح مكونًا من مكونات نفسيتهم.

ومنها الفروسية والشجاعة والنجدة، لأن طبيعة الحياة القبلية التي كانت تطبع النظام الاجتماعي فرضت على الإنسان أن يكون كذلك حتى يعيش ويقاوم عوامل الإخضاع والانتهاب.. فكان الفرد يُنَشّأ على الفروسية والشجاعة ورباطة الجأش، وقوة البأس، وهو ما نراه في أشعار العرب وأمثالهم وقصصهم، وتجلّى في أروع مظاهره وكماله بعد الإسلام.

ومنها الكرم وسخاء النفس وبذل العطاء للآخرين بشجاعة نفسية ملفتة للانتباه، بحيث كانت قيمة من القيم الكبرى التي يُذمّ الإنسانُ ويمتدح على أساسها في القيام بها إلى أبعد الحدود، فكانت المرأة الفقيرة تنحر جملها الوحيد الذي هو وسيلتها الوحيدة للعيش لتقدم الطعام إلى عابر سبيل غريب(٣٩)، كما كانت هذه الخصلة تدفعهم إلى تحمل الديات الهائلة والحمالات المدهشة لكف سفك الدماء، ويتخذون من ذلك معارج للافتخار بين الأفراد والقبائل(٤٠).

ومنها الوفاء بالعهد ورعاية الجوار، فكانت الكلمة عندهم ميثاقًا غليظًا يلتزمون بالوفاء بحقها مهما كلفهم ذلك من ثمن، فهي شرفهم ورأس مالهم، ولو كان الذي يدخل في جوارهم وعهدهم مخالفًا لهم وعلى غير وفاق معهم، كما حدث على سبيل المثال مع رسول الله ﷺ عند عودته من الطائف ودخوله في جوار المطعم بن عدي الذي تسلح هو وبنوه لحماية رسول الله ﷺ من أذى

---

(٣٩) مونتغو مري وات، محمد في مكة /٤٨.
(٤٠) المباركفوري، الرحيق المختوم /٥٢.

المشركين، الذين كانوا في غاية الحمق والتذمر منه عليه الصلاة والسلام، والتأهب لإيذائه.

ولعل في موقف أحد قادة المعارضة[٤١] الكبار للدعوة الإسلامية ـ قيل أبو سفيان بن حرب وقيل أبو جهل[٤٢] ـ ما يؤكد قيمة الوفاء بالعهد ورعاية الجوار، فقد أسرع هذا الزعيم إلى المطعم بن عدي وسأله: أمجير أم تابع؟ فقال المطعم: بل مجير، فقال: إذًا لا تخفر، فقد أجرنا من أجرت[٤٣].

ومنها الأنفة من العار، خاصة ما يتعلق بأعراضهم حيث ذهب الأمر ببعضهم إلى وأد بناتهم خوفًا من أن يجرهن الفقرُ إلى العار والفضيحة[٤٤]، فقد رسخ في أذهانهم، وتكرّس في نظامهم الاجتماعي بشكل عميق جدًا، أن لا قيمة للحياة إلا مع العزة وسلامة العرض[٤٥].

ومنها القناعة والصبر وقوة الاحتمال وشدة الثبات على ما يعتقدون بأنه حق، فقد علمتهم قساوة الطبيعة كيف يخشوشنوا ويوطّنوا أنفسهم على مغالبة التحديات، حماية لوجودهم المادي والمعنوي من التلف والانقراض.

بهذه الصفات وغيرها ظل العربي يحتفظ بكثير من خصائص فطرته التي كانت أقوى وأهم ذخيرة للدعوة الإسلامية في ما بعد.

٢ ـ مظاهر الاختلال والضعف في الحياة الاجتماعية للعرب

إن المتتبع لأحوال البيئة العربية يلاحظ أنه بالرغم من وجود هذه المظاهر من القوة والإيجاب في النظام الاجتماعي، ظل هذا النظام يعاني من الضعف والاختلال، ولم يتمكن المجتمع العربي قبل الإسلام من القيام بأي دور

---

(٤١) ابن كثير، السيرة النبوية ٢/ ١٥٤. محمد الصادق عرجون، محمد رسول الله ٢/ ٣٢٤.

(٤٢) المباركفوري، الرحيق المختوم/ ١٤٦.

(٤٣) المرجع السابق نفسه وبالصفحات نفسها.

(٤٤) سعيد الأفغاني، الإسلام والمرأة/ ٢٢.

(٤٥) عمر رضا كحالة، العرب من هم وما قيل عنهم/ ١١٦.

تاريخي في مستوى وضعه الاستراتيجي، وطاقاته المذخورة، بل جعله عرضة لأطماع الإمبراطوريتين الفارسية والرومانية من الشرق والشمال، والحبشة من الجنوب.

فالمجتمع العربي في غياب الرؤية الفكرية والعقدية الصحيحة، التي تحدد له تصوراته حول الله والكون والحياة والإنسان ظل حبيس التراث القبلي الوثني، مكبلاً بقيوده لا يقوى على الانفكاك منها، وهو ما أطلق عليه القرآن في ما بعد اسم «**الجاهلية**» التي مالت كثير من الكتابات العروبية إلى اعتبار اللفظ مشتقًّا من الجهل ضد الحلم، لا من الجهل ضد العلم(٤٦). ومع أن ذلك لا يغيّر كثيرًا في الوضع، فالشعر الرائع والأدب الفذّ، والقِيَم السلوكية الراقية التي سبق التنويه ببعضها، كل ذلك لم يمنع القرآن من أن يصفهم بالجاهلية، «لأن التراث الثقافي العربي لم يكن يحوي سوى الديباجة المشرقة، الخالية من كل عنصر خلاق، أو فكر عميق، وإذا كانت الوثنية في نظر الإسلام جاهلية، فإن الجهل في حقيقته وثنية، لأنه لا يغرس أفكارًا، بل يُنَصِّب أصنامًا، وهذا هو شأن الجاهلية... ومع سنن الله في خلقه أنه عندما تغرب الفكرة يبزغ الصنم(٤٧) على حد تعبير مالك بن نبي.

ومظاهر الضعف والاختلال في الحياة الاجتماعية للعرب كثيرة نوجز الكلام في بعضها على سبيل المثال لا الحصر، لأخذ صورة مجملة عن الوضع الاجتماعي الذي واجهته الدعوة الإسلامية، وعُنيت بتغييره وطرح البدائل الملائمة عنه.

ومن هذه المظاهر طغيان العصبية القبلية كما سبق، بحيث كان الاعتقاد بشرف القبيلة وامتيازها، عصب الحياة عند العرب(٤٨)، رسّخته الظروف

---

(٤٦) ظافر القاسمي، نظام الحكم في الشريعة والتاريخ الإسلامي ١/٧. د. حمد أسعد طلس، تاريخ العرب ١/٩٤.

(٤٧) شروط النهضة /٣٦. مولانا محمد علي، حياة محمد ورسالته /١٨.

(٤٨) مونتغمري وات، محمد في مكة /٥٤.

القاسية التي كانت تكتنف وجودهم، وتعرضه باستمرار للخطر الذي قد يكون إنهاءً للحياة، أو سَبْيًا للنساء وانتهاكًا للأعراض، أو سلبًا للأموال، أو استرقاقًا للنفس.. مما يجعل الاحتماء بالقبيلة وحمايتها أمرًا في غاية الأهمية بالنسبة لهم.

فإذا أخذنا بعين الاعتبار ظاهرة الانقسام والتحول في البِنْيَة القبلية بشكل مستمر[٤٩]، أدركنا مدى المخاطر التي كانت تنجم عن ذلك، والتي عبرت عنها الحروب الكثيرة، وعمليات الإغارة والسلب والنهب، وعادات الثأر التي تدفع بالأوضاع إلى التفاقم والتعقد باستمرار.

فالروح القبلية من أقوى التحديات التي واجهتها الدعوة الإسلامية ولم تتمكن من حسم أمرها إلاّ مرحليًا، لأنه لوحظ في التاريخ الإسلامي كيف عادت هذه العصبية القبلية مرة أخرى بعد الشيخين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما لتوجه الكثير من الأحداث التاريخية التي شهدتها الحياة الإسلامية بعد ذلك[٥٠].

ومنها المظالم التي كانت تطيح بكيان المرأة في الأُسرة، فكانت بعض القبائل تئد بناتها خوف الفقر والعار، كما يشير إلى ذلك القرآن الكريم في قوله تعالى:

﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ ۚ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ ﴾ [النحل: ٥٨، ٥٩].

كما كانت تورث في جملة المتاع الجامد الذي يرثه الإنسان، كما قال ابن عباس رضي الله عنهما: «كان الرجل إذا مات أبوه أو حموه، فهو أحق بامرأته، إن شاء أمسكها، أو حبسها حتى تفتدي بصداقها أو تموت فيذهب بمالها»[٥١].

---

(٤٩) المرجع نفسه /٤٢.

(٥٠) د. محمد أسعد طلس، تاريخ العرب ١/ ٨٥.

(٥١) البخاري، في كتاب التفسير، باب. تفسير سورة النساء (من فتح الباري. ٨/١٩٨).

وتَحرم من حقها في الميراث كما يحرم منها الصغار، حتى أبطل الإسلام ذلك بنزول قوله تعالى:

﴿ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿٧﴾ ﴾ [النساء: ٧].

في أوس بن ثابت الأنصاري الذي توفي وترك زوجته وثلاث بنات فاستولى ابنا عمه على ميراثه ورفضا عرض الزواج بالبنات لدمامتهن فاشتكت أمهن إلى رسول الله ﷺ فنزلت الآية السابقة تُنصف المرأة وتضع حدًّا للتعسف في حقها[٥٢].

وكانت تُكْرَه أحيانًا على البغاء للتكسب من عرضها كما أشار إلى ذلك القرآن الكريم في قوله تعالى:

﴿ وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ [النور: ٣٣]

وتحمل على الاستبضاع وهو نوع من أنواع السفاح يلجأ إليه بعض الناس لنجابة الولد حسب زعمهم! فكان الرجل يرسل زوجته لمسافحة غيره ممن عرف عندهم بالشجاعة والشهامة.. ويلحق بهذا النوع من الامتهان ما عرف بنكاح الرهط، ونكاح البغايا اللائي كن ينصبن الرايات على أبوابهن ليقصدهن الداعرون ممن لا أخلاق لهم[٥٣].

ويلحق بهذه المظالم إفساح المجال للرجل لكي يتزوج من النساء بأي عدد شاء، ويطلِّق ويراجع متى شاء، وكيفما شاء دون تقييد أو تحديد، وهو ما وضع له الإسلام بعد ذلك حدًّا في مثل قوله تعالى:

﴿ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ﴾ [النساء: ٣] وقوله سبحانه: ﴿ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ ﴾ [البقرة: ٢٢٩] كما لم يتورعوا عن الجمع بين الأختين في النكاح، وكان بعضهم يعضل النساء طمعًا في مالهن[٥٤].

---

(٥٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن ٥/٤٦.

(٥٣) البخاري. كتاب النكاح. باب: لا نكاح إلّا بولي (من فتح الباري ٩/١٤٩).

(٥٤) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم ٢/٤٠٤.

وبالجملة فإن وضع المرأة كان يعاني من اختلال كبير لخَّصَتْه أدبيات العصر الجاهلي في قولهم:

«الطِّيَرة في ثلاث: في المرأة والدابة والدار»[٥٥].

ومن مظاهر الضعف الاجتماعي كذلك، فشّو عادة تعاطي الخمور والإدمان عليها، وما يصاحب ذلك من مضاعفات اجتماعية واقتصادية خطيرة، فقد ذكر أن الخمر كانت شائعة بشكل كبير في حياتهم حتى غدت من مظاهر كرمهم وفخرهم[٥٦]، كما يدل على ذلك كثرة الحديث عنها في أشعارهم خاصة، ولعل في أسلوب التدرج الذي انتهجه الإسلام في التخلص منها ما يلقي الضوء على مدى استحكام أمرها في حياتهم.

ومنها كذلك انتشار عادة القمار أو الميسر كما سماه القرآن، حتى غدا من العادات المتأصلة الجذور في الواقع الاجتماعي العربي قبل الإسلام، وصار من مفاخر الجاهلية، ومظاهر كمال الحياة فيها، تعتبر عدم المشاركة فيه من العار أو النقص في المروءة عندهم[٥٧]. وذهبوا فيه إلى حدّ غريب، فكان الرجل كما يقول ابن عباس رضي الله عنه: «يخاطر الرجل على أهله وماله، فأيهما قَمَر صاحبه ذهب بماله وأهله»[٥٨] الأمر الذي يفضي إلى التحاسد والتباغض والكراهية، ويدفع إلى الانتقام والتقاتل.

ومنها أيضًا شيوع المعاملات الربَويّة ورسوخها في نظامهم الاجتماعي بصورة دلّت بوضوح على مدى جفاف الروح الإنسانية، وطغيان النزعات الاستغلالية، وتضعضع العلاقات الاجتماعية بسبب ذلك كله، وهو ما وردت الإشارة إليه في القرآن الكريم في عدة آيات منها قوله تعالى:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟ أَضْعَـٰفًا مُّضَـٰعَفَةً﴾ [آل عمران: ١٣٠]،

(٥٥) سعيد الأفغاني، الإسلام والمرأة/ ٢٨.
(٥٦) مولانا محمد علي، حياة محمد ورسالته/ ٢٨.
(٥٧) أبو الحسن الندوي، ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين/ ٥٧.
(٥٨) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن ٣/ ٥٢.

على سبيل التوبيخ[٥٩] لأولئك الجاهلين الذين كانوا يرهقون كواهل غيرهم بزيادات فاحشة يملكون بها رقابهم ويمتصّون عَرَقَهم ودماءهم.

ومنها كذلك استحكام عادة التقاتل تغالبًا على المرعى، أو حماية لجار، أو أخذًا بثأر، أو مساعدة لحليف، «كأنما أصبحت الحرب طبيعة من طبائع ذلك الجيل من الناس، فمن العسير جدًّا على التاريخ أن يجد يومًا من أيام الناس مرّ على جزيرة العرب وليس بين أبنائها قتال، فإذا لم يكن في الجنوب كان في الشمال، وإذا لم يكن في نجد كان في تهامة، وإذا لم يكن بين قبائل حمير كان بين نزار، وإذا لم يكن في ربيعة كان في قيس»[٦٠].

ومما يزيد الوضع خطورة وتعقيدًا، تأصّل الروح أو «الغريزة» القبلية في النفوس، وانبناء النظام الاجتماعي كله على أساسها، مما يعطي لهذه الحروب أبعادًا مأساوية، لأن الفرد يجد نفسه مندفعًا تحت إلحاح هذه الروح أو «الغريزة» إلى تلبية نداء المساعدة لأي فرد من أفراد القبيلة، دون أن يهتم بمعرفة ما إذا كان الأمر يتطلب ذلك أم لا[٦١].

وكل هذه المعطيات تعتبر مؤشرًا مهمًّا على مدى عمق الاختلال في الأوضاع الاجتماعية وشموله بحيث لم تشفع فيه بعض مظاهر القوة والإيجاب التي فقدت إشعاعها، وسط الانحدار الذي كانت تشهده المنطقة، والذي لخصه جعفر بن أبي طالب في مرافعته أمام النجاشي بقوله:

«أيها الملك كنّا قومًا أهل جاهلية، نعبدُ الأصنامَ ونأكلُ الميتةَ، ونأتي الفواحشَ، ونقطعُ الأرحامَ، ونسبي الجواري، ويأكل القويُّ منا الضعيفَ»[٦٢].

---

(٥٩) ابن الجوزي، زاد المسير ١/٤٥٨.
(٦٠) محمد الصادق عرجون، محمد رسول الله ﷺ ١/٥٠.
(٦١) ابن هشام، السيرة النبوية ١/٣٣٦.
(٦٢) ابن هشام، السيرة النبوية ١/٣٣٦.

هـ ـ الوضع السياسي

سوف لن نجهد أنفسنا في محاولة تطبيق مقاييس الدولة الحديثة على الوضع الذي كان سائدًا في شبه الجزيرة العربية، واتخاذها إطارًا مرجعيًّا للحكم على هذه الأوضاع، لأن ذلك فيه تعسف مناقض لروح الموضوعية، التي يجب أن تسود في محاولة حكمنا على الأشياء وتقويمنا للأوضاع والمواقف.

لذا يغدو من المهم جدًّا أن ننظر إلى الوضع السياسي من خلال الواقع الذي نتحدث عنه، دون محاولة فصله عن إطاره الزماني والمكاني، وتجريده عن ملابساته الحضارية، لما في ذلك من مخاطر منهجية، قد تؤدي إلى تمويه الحقيقة، ومجانبة الصواب.

١ ـ المعطى القبلي في الحياة السياسية للعرب

فقد أظهرت بعض الدراسات المتخصصة أن الحقيقة الأولى والأساسية في الفكر السياسي المتعلق بالمجتمعات القبلية هي أن: «قرابة الدم هي الأساس الوحيد للأمة في تلك المجتمعات»، وهو ما يجعل «القبيلة» هي الكائن الاجتماعي الطبيعي الذي يعيه البدوي ويعي أهميته، ولا يرتقي وعيُه إطلاقًا في الغالب الأعم إلى أفق الدولة بمعناه القانوني والاجتماعي بما يحتويه من إطار جغرافي وسلطة مركزية، وتشريع قانوني موحد، وثقافة متجانسة، وشعور مشترك..

«فالسلطة» في النظام القبلي تؤسس تعاملها مع الناس على كونهم أعضاء ينتمون إلى نَسَب أو قرابة واحدة، في حين يختلف الأمر في المجتمعات أو الجماعات المتحضّرة، لأن السلطة فيها قائمة على نظام عام هو التنظيم السياسي أو الدولة[٦٣] التي تنظم فئات اجتماعية كثيرة ومتنوعة. على هذا الأساس سننظر إلى الوضع السياسي في الجزيرة العربية قبل الإسلام، معتبرين القبيلة هي وحدة التنظيم الاجتماعي والسياسي[٦٤] حتى في الأطراف الجنوبية

(٦٣) د. زهير حطب، **تطور بُنى الأُسرة العربية** / ٣٨ وما بعدها.

(٦٤) المرجع نفسه / ٤٠. **الرحيق المختوم** / ٣٨.

والشمالية التي احتكّت مدة طويلة بالحياة في بلاد الحبشة والإمبراطوريتين الفارسية والرومانية، وكان لذلك تأثيره دون شك في الحياة العامة لهذه القبائل، خاصة أن إمارتي الغساسنة والمناذرة كان للفرس والروم دور مباشر في تأسيسهما لتكونا بمثابة حزام أمني يقيهما تهديدات القبائل العربية المجاورة.

فمن هذا المنطلق كان لكل قبيلة عربية كيانها الاجتماعي المستقل[٦٥] ومراكز نفوذها السياسي التي يعود إليها أمر إدارة الشؤون العامة المتعلقة بالقبيلة: الداخلية والخارجية، حيث كان لشيوخ القبائل ووجهاء القوم فيها من أهل اليسار، والقوة، والسمعة، نفوذ كبير قد يرقى أحيانًا إلى مستوى نفوذ الملوك في ممالكهم، كما يستشف من هذا البيت الذي يتحدث عن بعض حقوق هؤلاء الشيوخ والرؤساء:

لـك المِـرْبـاعُ فينـا والصَّـفـايـا وحكمُك والنَّشِيْطَةُ والفضولُ

والمرباع: هو ربع الغنيمة، والصفي: ما يختاره ويصفيه قبل قسمة الغنيمة، والنشيطة: ما أصابه في الطريق قبل الوصول إلى العدو، والفضول: ما بقي من الغنيمة[٦٦].

كانوا يأمرون فيُطاعون، ويدعون فيُستجابون، ولهم الكلمة الفاصلة في المشاكل والقضايا العامة الداخلية والخارجية والدينية والسياسية والاجتماعية على حدّ تعبير محمد عزة دروزة[٦٧] صاحب الاهتمامات العلمية الكبيرة بـ «تاريخ الجنس العربي».

فالمظهر السياسي للحياة العربية، يتجلى في وحدة القبيلة، وسلطة زعمائهـا من ذوي النفوذ، الذين سيكون لهم دور خطير في التحديات التي واجهتها الدعوة الإسلامية في مكة والمدينة.

---

(٦٥) د. محمد أسعد طلس، تاريخ العرب ١/ ٨٠.
(٦٦) المباركفوري، الرحيق المختوم / ٣٩.
(٦٧) المؤتمر العالمي الثالث للسيرة والسُّنّة النبوية ٦/ ٤٠٨.

واستقلالية القبيلة في إدارة شؤونها المختلفة[٦٨] لم يعمق التمايز بين، القبائل من الناحية التنظيمية بصفة خاصة، لبساطة الحياة، ورتابتها وتشابه الظروف الطبيعية والاجتماعية إلى حد كبير، الأمر الذي جعل نمط تنظيمها الداخلي يكاد يكون واحداً، «يتكرر عند كل القبائل، مما يجعلها وحدات منفصلة ماديًا في ما بينها، لكنها منسجمة التكوين الداخلي، متشابهة الأوضاع»[٦٩].

فالقبيلة تنقسم إلى عمائر، والعمائر إلى بطون، والبطون إلى أفخاذ، والأفخاذ إلى فصائل، حتى ينتهي التسلسل إلى قاعدة القبيلة وهي الأُسرة[٧٠] ويأتي في قمة هرم القبيلة شيوخها الذين يعود إليهم تدبير الشؤون العامة كما أسلفنا، فيفكّون الخصومات الداخلية، وينظمون الدفاع عن القبيلة ويفاوضون باسمها القبائل الأُخرى.

٢ ـ الزعامة السياسية لقريش على العرب

وتُعَدُّ قريش قبيلة نموذجية في هذا الإطار لوجود، «الكعبة المشرفة» بها، ولوقوعها في قلب طريق القوافل التجارية التي جعلت المنتوجات المختلفة تتدفّق عليها من جهات العالم الأربع[٧١]، فاكتسبت بذلك «امتيازات لم تكن لغيرها من قبائل العرب، فكانوا لا يؤدون إتاوة، ولا يتكلفون دفعًا... يحكمون على الناس ولا يَحكم أحد عليهم... وكانوا يتزوجون من أي قبيلة شاءوا ولا شرط عليهم في ذلك، وكانوا لا يزوجون أحدًا إلا اشترطوا عليه أن يكون متحمسًا لدينهم»[٧٢].

وبهذا اعترف للقرشيين بأفضليتهم على سائر القبائل الأخرى التي كانت

---

(٦٨) مونتغمري وات، محمد في مكة / ٤٩.
(٦٩) د. زهير حطب، مرجع سابق / ٤٠.
(٧٠) المرجع نفسه / ٤٢. محمد رضا كحالة، العرب.. / ١٤٥. محمد في مكة / ١٨.
(٧١) وات، محمد في مكة / ١٨.
(٧٢) ياقوت الحموي، معجم البلدان ٤/ ٦٢٠.

لهم علاقات بهم[٧٣] وأصبحوا يشكلون نواة الزعامة السياسية للعرب، التي ما فتئت تتبلور وتقوى مع مرور الزمن، وظهرت في فترة مقاومة الإسلام حتى فتح مكة، حيث لوحظ كذلك كيف تغيرت الأوضاع لصالح الدعوة الإسلامية بسرعة، بعد أن دخلت معظم قريش في الإسلام، وتحررت مكة من خرافات الجاهلية[٧٤].

فالزعامة القرشية للعرب تأكدت منذ استرجاع قصي بن كلاب ولاية بيت الحرام من خزاعة، فكانت له كما يقول ابن كثير: «جمع الرئاسة، من حجابة البيت، وسدانته واللواء، وبنى دارًا لإزاحة الظلمات وفصل الخصومات سماها دار الندوة، إذا أعضلت قضية اجتمع الرؤساء من كل قبيلة فاشتوروا فيها وفصلوا فيها، ولا يعقد عقد لواء، ولا عقد نكاح إلّا بها، ولا تبلغ جارية ولا تدرّع فتدرع إلا بها»[٧٥] واستمر ذلك في قريش إلى ما بعد الإسلام، كما يبدو ذلك جليًا في مرافعة أبي بكر الصديق على سبيل المثال في سقيفة بني ساعدة عندما قال مخاطبًا الأنصار:

«إن هذا الأمر إن تولَّته الأوسُ نَفَسَتْهُ عليهم الخزرج، وإن تولته الخزرج نفسته عليهم الأوس، ولا تدين العربُ إلّا لهذا الحي من قريش»[٧٦]، فهم أوسط العرب دارًا ونسبًا، «قادرون على سَوْق الناس بعصا الغلب إلى ما يراد منهم، فلا يخشى من أحد خلافٌ عليهم ولا فرقة، لأنهم كفيلون حينئذ بدفعها ومنع الناس منها. . .»[٧٧] كما يقول ابن خلدون.

وقد سبقت الإشارة أثناء الحديث عن «الوضع الاجتماعي» إلى جملة من الوظائف الاجتماعية والسياسية التي استحدثتها قريش لخدمة البيت الحرام

---

(٧٣) محمد في مكة / ٣١.
(٧٤) العقاد، مطلع النور / ٧٧.
(٧٥) السيرة النبوية ١/ ٩٧.
(٧٦) عبد الوهاب خلاف، السياسة الشرعية / ٢٨.
(٧٧) ابن خلدون، المقدمة ٢/ ٦٩٥.

ورعايته، وتأكيدًا لمكانتهم في العرب وزعامتهم عليهم، وقد أحصى بعض الباحثين هذه الوظائف أو المناصب فجعلها عشرة وهي[٧٨]:

الحجابة، والسقاية، والديات، والسفارة، واللواء، والرفادة، والندوة، والخيمة، والخزينة، والأزلام، وكانت مقسمة على أهم الأُسر القُرشية.

وهي في مجملها تدل على مستوى تنظيمي لا بأس به بالنسبة لرتابة الأوضاع وبساطتها، كفيل بالاستجابة لحاجات الوضع الداخلية، وتحدياته الخارجية.

ولعل من أبرز مؤشرات الحياة السياسية العامة في الجزيرة العربية بالإضافة إلى ما سبق، ما توصلت إليه القبائل العربية بشأن أمان الناس وسلامتهم، الذي يظهر بوضوح في أمرين مهمّين هما:

ـ عقد الأحلاف بين القبائل، ويعتبر حلف الفضول آخرها، لدفع الظلم ورد المظالم[٧٩] وقد قامت به فئات من قريش بقيادة بني هاشم[٨٠].

ـ وقف القتال والاعتداءات المفضية إليه خلال الأشهر الحُرُم التي أقرها الإسلام في ما بعد، حيث ينتقل الناس ويتحركون بحرية وأمان في جل الجزيرة العربية لا يعترضهم أحد.

فهذا النوع من الإجراءات التنظيمية، يعد تطورًا مهمًا في الأوضاع السياسية بالمنطقة، ستكون له آثاره على الدعوة الإسلامية قبل فتح مكة، عندما تتمكن قريش مرحليًا من تعبئة قبائل عربية كثيرة ضد الإسلام كما حدث ذلك مثلاً في غزوة الأحزاب.

و ـ مبررات تشريف العرب بابتداء الدعوة فيهم

هذا المبحث يعتبر خلاصة للفصل الأول، ومقدمة أساسية للفصل

---

(٧٨) سيد أمير علي، روح الإسلام / ١٣. م. وات، محمد في مكة / ٣٠.
(٧٩) ظافر القاسمي، نظام الحكم في الشريعة والتاريخ الإسلامي ١/ ٢٠.
(٨٠) العقاد، مطلع النور / ١٦٣.

الثاني، لارتباط كثير من قضاياه بنتائجه، وهو ما سنوجز فيه القول ملخصين لما سبق عرضه من الأفكار، ومضيفين ما توصلت إليه بعضُ المحاولات السابقة في هذا الإطار، وهي عديدة ومفيدة نتخير منها ما نراه منسجمًا مع هدف البحث، وخادمًا لمقاصده.

ولعل المقدمة الضرورية والأساسية لهذه الخلاصة، هي التي ظهرت لي من مراجعة متأنية للسيرة النبوية الشريفة، وبعض ما كتب في سياق تبرير سبب تشريف الله سبحانه وتعالى للعرب بابتداء الدعوة فيهم، وانطلاقها بهم للعالم كله، في ما بعد وهي:

إن الله سبحانه ما كان ليجعل هذه الرسالة العظيمة في غير أمة عظيمة، «إذ لا ينهض بالجليل من الأعمال إلاّ الجليل من الأُمم والرجال، ولا يقوم بالعظائم إلا العظام من الناس»[81]، وهو ما يتطابق مع بعض دلالات قوله تعالى:

﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ﴾ [الأنعام: ١٢٤] فهو فضل من الله يخص به الأفراد والأمم من يشاء، ممن كان أهلاً له من حيث «سلامة الفطرة، وعلو الهمة وزكاء النفس، وطهارة القلب، وحب الخير والحق»[82]. أي استجمع مقومات الاستحقاق للاضطلاع بهذا الدور القيادي الخطير، يقول الإمام ابن باديس:

«والأنبياء لم يُبعثوا إلاّ في مناسب الشرف، ومنابع القوة، ومنابت العزة، ليبنى المجد الطريف من الدين على المجد التليد من أحساب الأُمة وأنسابها وشرفها وعزتها، وما كان لها من مناقب تلتئم مع أصول الدين»[83].

---

(٨١) ابن باديس، حياته وآثاره ٤/ ٥٩.
(٨٢) رشيد رضا، تفسير المنار ٨/ ٣٩.
(٨٣) ابن باديس. المرجع السابق ٤/ ٦١.

١ ـ الاستعدادت الخاصة للعرب

فالعرب رغم ما كان فاشيًا فيهم من أمية وجهالة، وأخلاق مرذولة، وعقائد فاسدة، وروح قبلية جامدة مغلقة كلفتهم الكثير، ورغم ضعفهم إزاء الحضارات والأمم المعاصرة لهم، من النواحي البشرية والفكرية والاجتماعية والسياسية. . . كما رأينا، إلا أنهم في ميزان «السُّنن الحضارية» كانوا يتوفرون على ذخائر هائلة من الاستعدادات النفسية والعقلية لإنجاز وثبة تاريخية حاسمة، وهو ما كان ينقص غيرهم من الأمم والشعوب الأُخرى، التي لوثتها معتقدات منحرفة، وفلسفات مضطربة، وسياسات قهرية مذلة، وأوضاع اجتماعية ومعاشية مختلفة تركت في حياتهم النفسية بالخصوص رواسب انحطاطية يصعب الانفكاك منها، فعلت فعلها في افقادهم القدرة على الانفلات من السقوط الحضاري[٨٤].

ولا يخفى في ميزان «السُّنن الحضارية» الفرق الجوهري بين إنسان ما قبل الحضارة، وإنسان ما بعد الحضارة، «إذ الإنسان الذي تفسخ حضاريًا مخالف تمامًا للإنسان السابق على الحضارة أو الإنسان الفطري»[٨٥] من حيث استعداداتهما النفسية وقابليتهما للدخول في عمل حضاري جديد، بما يفرضه من تعبئة روحية ومادية ومجالدات ومكابدات، قوامها يقظة دائمة، وتوثب مستمر، وتضحية سخية بالأموال والأنفس والثمرات، من أجل مغالبة التحديات ومدافعة العوائق، وضمان تواصل الجهد وحمايته من التحريف أو التبديد والإتلاف.

فالعرب «أُمة» سابقة على الحضارة، ما زالت تحافظ على كامل قواها المذخورة القابلة للتفجير والتسخير، في عمل حضاري جديد، ذي نَفَس طويل، وآفاق إنسانية، وامتدادات عالمية شاملة، تُخرج الناس من عبادة

---

(٨٤) مقدمة ابن خلدون ٢/ ٦٥٢.

(٨٥) مالك بن نبي، **شروط النهضة** /١٠٦.

المخلوقات إلى عبادة الله وحده، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، أي من حالة الفصام والخصام مع الفطرة، إلى حالة الوفاق والوئام معها.

٢ ـ الوضع الاستراتيجي الخاص لمكّة

تلك ـ في رأيي ـ هي المقدمة الأساسية التي تستوعب جُلّ المبررات التي يمكن تقديمها بين يدي تشريف الله تعالى للعرب بابتداء الدعوة فيهم، وإناطة أمر تبليغها للناس بهم، وهو ما سنحاول إجمال الحديث فيه في ما يلي:

١ ـ وجود بيت الله الحرام الذي باركه الله تعالى وجعل أفئدة الناس تهوى إليه بمكّة، كما ذكر ذلك القرآن الكريم في قوله تعالى:

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾﴾ [آل عمران: ٩٦].

وقوله سبحانه على لسان إبراهيم عليه السلام:

﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ [البقرة: ١٢٦]، وكما أكد ذلك رسول الله في أكثر من حديث مثل قوله عليه السلام:

«إن هذا بلدٌ حرّمه الله يومَ خَلَقَ السماواتِ والأرضَ وهو حرامٌ بحرمة الله إلى يوم القيامة..»(٨٦).

فالعرب قاطبة كانت تحترم الكعبة وتقدّسها، وتحتفظ لها بمكانة مرموقة في نفوسها. يقول العقاد: «والأساس المهم الذي قامت عليه مكانة البيت المكّي، أن البيت بجملته كان هو المقصود بالقداسة، غير منظور إلى الأوثان والأصنام التي اشتمل عليها، وربما اشتمل على الوثن المعظم يقدسه بعض القبائل، وتزدريه قبائل أخرى، فلا يغضّ ذلك من مكانة «البيت» عند المعظِّمين والمزدرين»(٨٧).

---

(٨٦) البخاري في كتاب الحج، باب: لا يحل القتال بمكة (من فتح الباري. ٤/٣٨).
(٨٧) مطلع النور / ١٥٧.

٢ ـ الموقع الاستراتيجي المهم الذي تحتله مكة خاصة والجزيرة العربية عامة في العالم القديم، إذ تعتبر ملتقى طرق التجارة العالمية[(٨٨)] مما يسهل عملية نشر الرسالة وتبليغها منها بفعالية.

٣ ـ المكانة المرموقة التي كانت تحتلها قريش بسبب وجود البيت الحرام عندها وقيامها به منذ قرون طويلة من جهة، وبُعد هذه المنطقة عمومًا عن المؤثرات السلبية الخارجية التي كانت تطحن العالم وكذا أطراف الجزيرة الجنوبية والشمالية بسبب قربها من أطراف القوى المتطاحنة من جهة أخرى. يقول ابن باديس:

«فكانت هذه الأطراف تنطوي على عروبة مزعومة المقومات، ولم يحافظ على الطبع العربي الصميم إلّا صميم الجزيرة ومنه مكة التي ظهر فيها الإسلام، وهذا الوسط وإن كان عريقًا في الصفات التي تَسَمّى العصرُ لأجلها جاهليًا، لكنه بعيد عن الذل الذي يقتل العزة والشرف من النفوس، والجاهل يمكن أن تعلّمه، والجافي يمكن أن تهذّبه، ولكن الذليل الذي نشأ على الذل يعسر أو يتعذر أن تغرس في نفسه الذليلة المهينة عزة وإباء وشهامة تُلحقه بالرجال»[(٨٩)].

٤ ـ حاجة العرب أنفسهم إلى الرسالة بعد أن طال العهد بينهم وبين الهدي الإلٰهي، ولحق معتقداتهم الكثيرُ من التشويه وضروب الخرافة، كما يشير إلى ذلك القرآن نفسه في قوله تعالى:

﴿ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٤ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۝٥ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ۝٦ ﴾ [يس: ٣ ـ ٦].

﴿ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ۝٤٦ ﴾ [القصص: ٤٦]، بعد غفلة قادتهم إلى الجهالة والغواية وتراكم الضلالات فيهم جيلاً بعد جيل[(٩٠)].

---

(٨٨) د. عبد العزيز الدوري، مقدمة في تاريخ صدر الإسلام / ٢٩.

(٨٩) ابن باديس حياته وآثاره ٤/ ٦٤.

(٩٠) ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير ٢٢/٣٤٨.

٥ ـ ملاءمة الأوضاع الاجتماعية والسياسية في الجزيرة العربية بصفة عامة لنجاح الدعوة فيها أكثر من غيرها، لعدم وجود حكومة راسخة الأنظمة، ذات قوانين وتشريعات وجيوش وشرطة وسلطان شامل في الجزيرة، تقف في وجه الدعوة، تجند قواها البشرية، والمادية للتصدي لها وفق خطة مدروسة، وبرامج محكمة.

٦ ـ الوضع العقدي المشتت، الذي يجعل القوى المعارضة للدعوة الإسلامية، عاجزة تمامًا عن إدارة الحوار، وإقناع الناس بجدوى هذه المقدّسات الموهومة، ولولا المصالح الاقتصادية والاعتبارات القبلية الخاصة، ما صمدت هذه المعارضة فترة طويلة ضد الإسلام.

٧ ـ الإفادة من النظام القبلي الذي كان يحكم الواقع العربي بقوة يومئذٍ، حيث استفادت الدعوة كثيرًا من التوازنات القبلية، سواء تعلق الأمر بحماية الرسول ﷺ أو بأتباعه، فقد كانت المعارضة الجاهلية تشفق من الاعتداء على كل من له عصبية، وتدع تأديبه أو تعذيبه لأهله أنفسهم، خاصة في المراحل الأولى للدعوة(٩١).

٨ ـ ملاءمة الأوضاع الفكرية في الجزيرة سواء للرسول ﷺ أو لبيئة الدعوة عمومًا التي كانت تغلب عليها الأُميّة الطبيعية بشهادة القرآن نفسه في مثل قوله تعالى:

﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ۝٢ ﴾ [الجمعة: ٢].

فالأُميّة صفة مشتركة بين الداعي وبيئة الدعوة، في الغالب الأعم، وفي ذلك قطع لأي ريب أو شك قد يتبادر إلى الأذهان في أن الرسول عليه الصلاة والسلام تعلّم من غيره، وأن البيئة أعانته على ذلك، وهو من تمام الإعجاز الإلهي(٩٢)، إذ من المحال أن يأتيهم بهذا الشرع العظيم وهو أُمّي مثلهم، لو لم

(٩١) سيد قطب، في ظلال القرآن ٥/٣١٤٣ بتصرف.
(٩٢) علي بن جابر الحربي، منهج الدعوة النبوية في المرحلة المكية / ٨٥.

يكن رسولاً يتلقى الوحي من لدن حكيم خبير.

وقد لَمَحَ القاسمي بعدًا آخر له أهميته في هذا السياق فقال:

«وإنما أوثرت بعثته صلوات الله عليه في الأميين، لأنهم أحدُّ الناس أذهانًا، وأقواهم جِنانًا، وأصفاهم فطرة، وأفصحهم بيانًا، لم تفسد فطرتهم بغواشي المتحضرينَ، ولا بأفانين تلاعب أولئك المتمدنين، ولذا انقلبوا إلى الناس بعد الإسلام بعلم عظيم، وحكمة باهرة، وسياسة عادلة، قادوا بها معظم الأمم»(٩٣)، وهو ما سبق تأكيدنا له، وتركيزنا عليه، لأنه مفصل الأمر ومحوره في ما نحن بصدده.

وبهذا نكون قد ألممنا ببيئة الدعوة في المرحلة المكّية، التي ستتحرك فيها الدعوة للتعريف بنفسها، وعرض مشاريعها، وإعداد العدة البشرية والمادية والمعنوية، لتغيير أوضاع المنطقة، والانطلاق نحو تحقيق الأهداف الاستراتيجية البعيدة والقريبة للدعوة.

---

(٩٣) محاسن التأويل ٩/ ١٥٨.

الفصل الثاني

التكليف الرسالي
وبداية الدعوة

أ ـ التأهيل الرسالي للشخصية النبوية

١ ـ التأهيل الفطري أو الوهبي
٢ ـ التأهيل الاكتسابي
٣ ـ التأهيل التأييدي

ب ـ تشريفه عليه السلام بالنبوّة

١ ـ إرهاصات التحول من البشر السوي إلى البشر النبي
٢ ـ دخوله الرسمي عالم النبوة

ج ـ التكليف الرسالي وبداية الدعوة

١ ـ التكليف بالرسالة
٢ ـ بداية الانطلاق في الدعوة

إن السياق المنهجي للبحث يقتضي منا بعد أن تحدثنا عن «بيئة الدعوة في المرحلة المكية»، أن نتحدث في هذا الفصل عن تكليف النبي ﷺ بالدعوة، وكيف انطلقت هذه الدعوة لتغيير الأوضاع العقدية والفكرية والاجتماعية والسياسية السابق ذكرها في الفصل الأول من هذا الباب. قبل أن نشرع في التحدث عن أهداف الدعوة في هذه المرحلة التي سوف يتمحور حولها الجهدُ النبوي، وتنصبّ عليها كلُّ اهتماماته من خلال التوجيه القرآني وحركة التنزيل النبوي له على الواقع.

فهذا الفصل يساعدنا كثيرًا في الوقوف على جوانب مهمة من أسباب نجاح العمل النبوي، ويمهّد الطريق أمامنا للدخول في صميم البحث، لحصر التحديات الداخلية في الفترة المكية، ومعرفة منهج النبي ﷺ في مواجهتها والتغلب عليها، حماية للدعوة ومحافظة على منجزاتها، وإنجازًا لأهدافها.

وسنتناول في هذا الفصل المباحث التالية.

ـ التأهيل الرسالي للشخصية النبوية: حيث سنرى بحول الله كيف أُعدّ رسول الله ﷺ إعدادًا رساليًا متكاملاً، وأُهّل تأهيلاً مناسبًا ومكافئًا لمهمته الضخمة، التي قدّر لها أن تُحدث تحويلاً جذريًا وشاملاً في المسار الحضاري للإنسانية قاطبة.

ـ التكليف بالرسالة وتبليغ الدعوة وكيف تم ذلك.

ـ بداية الانطلاق في العمل الدعوي.

أ ـ التأهيل الرسالي للشخصية النبوية

في المبحث الأخير من الفصل الأول من هذا الباب توصلنا إلى حقيقة أو سُنّة اجتماعية مهمة، مفادها: أن الأعمال الجليلة، والتحولات الحاسمة في التاريخ الإنساني، لا ينهض بها إلا أُولو العزم من الرجال، ذوو الهمم العالية، والاستعدادات الكبيرة، والإرادات القوية، كما قال ابن باديس: «لا يقوم بالعظائم إلا العظام من الناس»[1].

وفي هذا المضمار نجد أن أعظم الناس تأثيرًا في المسار التاريخي للحضارة الإنسانية هم الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، على تفاوتٍ بينهم في نسبة هذا التأثير كما يشير إلى ذلك القرآن الكريم في مثل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [الإسراء: ٥٥].

﴿۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣]. .

فالرسل هم طليعة التغيير الحضاري عبر التاريخ، لأنهم يمثلون ذروة الكمال الإنساني في شخصيتهم البشرية، وشخصيتهم الرسالية، أعدهم الله سبحانه وسدّد حركتهم في الحياة، وعصمهم من ذاتية الهوى والانصياع للأعراف والتقاليد المنحرفة، وارتقى بهم درجات فوق حضيض المقاييس والقيم العرقية والفئوية والطبقية. . لتقويم الواقع الإنساني، والارتفاع به إلى مستوى النضج الحضاري المساعد على الانفتاح البصير، على سُنن الله في الآفاق والأنفس والكتاب، معرفةً وتفاعلاً.

قال تعالى مؤكدًا كون الأنبياء هم صفوة البشر، وخلاصة ما فيهم من معادن، اجتباهم الله للاضطلاع بمسؤولية تغيير الواقع، وقيادة حركة تصحيح

---

(١) د. عمار طالبي، ابن باديس حياته وآثاره ٤/٥٩.

أوضاعه وتحقيق أمثل توازن له، وأفضل عطاء:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ﴾ [مريم: ٥٨].

وقال سبحانه:

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [آل عمران: ٣٣].

وقال عَزّ من قائل في آية أخرى مؤكدًا بها حسن اختياره وأنه سبحانه وتعالى أعرف بالناس من أنفسهم، وأعلم بمعادن الخير فيهم:

﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤] أي أعلم بمن يستحق أن يكون رسولاً مؤهلاً لتحمل الأمانة بقوة: فهْمًا وتمثلاً وأداءً في الواقع.

فالنبوة إعجاز وتحدٍّ شامل لكل القوى التي تواجهها الرسالة، سواء تعلق الأمر بشخصية الرسول، أو بمضمون الرسالة، لأن ذلك من شروط الفعل الرسالي ومستلزماته.

فالرسالة حجّة الله على عباده، والرسول هو الذي يقيم هذه الحجة، وهو ما يستدعي كماله في ذاته، والتزامه وبيانه، فاستدعى ذلك كله أن يكون الأنبياء في قمة الكمال الإنساني حتى يتمكّنوا من أداء واجبهم بكفاءة واقتدار.

ورسول الله محمد ﷺ كمتوج لمسيرة النبوّة، وخاتم لرسالات الله إلى الناس، بعد جهاد طويل بلغت فيه الإنسانيةُ درجةً من الاستعداد تؤهلها لاستقبال رسالة عامة تبشّر بحضارة عالمية، تُخرج الإنسان من طور القَبَلِيّة والقومية إلى طور الإنسانية الشاملة(٢).

رسول الله ﷺ كقائد لهذه النقلة النوعية الجديدة في التاريخ الإنساني، كُتِبَ له أن يستجمع من المؤهلات والكمالات ما تفرّق في غيره ممن سبقه من

---

(٢) سعيد حوى، **الرسول ﷺ** ٢/١٢.

صفوة خلق الله، حتى يتمكن من ضمان الإعجاز والتحدي في رسالته، التي جاءت تخاطب البشرية قاطبة، وتحاورها وتسوسها، وتفجر طاقاتها في الخير، على تنوع قدراتها ومواهبها، واختلاف ظروفها، وتباين حاجاتها.

وهو ما يشير إليه قوله تعالى في سياق دعوته لرسوله عليه الصلاة والسلام للاقتداء بمن سبقه من الأنبياء والرسل:

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ ﴾ [الأنعام: ٩٠].

يقول الشيخ الطاهر بن عاشور: إن رسول الله ﷺ «جَمَعَ هدى الأولين، وأُكملت له الفضائل، وجُمِعَ له ما تفرّقَ من الخصائص، والمزايا العظيمة، وفي إفراده بالذكر وتَرْكِ عَدّه مع الأولين رمزٌ بديع إلى فذاذته وتفَرُّد مقداره...» ويضيف مبينًا أن أمره عليه الصلاة والسلام «بالاقتداء بهداهم يؤذن بأن الله زوى إليه كل فضيلة من فضائلهم التي خص كل واحد بها، سواء ما اتفق منه واتحد، أو اختلف وافترق، فإنما يقتدي بما أطلعه الله عليه من فضائل الرسل وسِيَرهم، وهو الخلق الموصوف بالعظيم في قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾ [القلم: ٤][٣].

وهو ما سنحاول تسليط بعض الأضواء عليه في هذا المبحث، لنرى كيف أَهّلَ عليه الصلاة والسلام تأهيلاً رساليًّا متكاملاً، مكّنه بفضل الله من الاضطلاع بأعباء الدعوة حماية لها، ومحافظة على منجزاتها في الفترة الحاسمة من فترات مسيرتها؟.

ونتناول ذلك من خلال النقاط التالية:

- التأهيل الفطري أو الوهبي.
- التأهيل الاكتسابي.
- التأهيل التأييدي.

---

(٣) تفسير التحرير والتنوير ٧/ ٣٥٥، ٧/ ٣٥٦.

بتركيز ومن غير توسّع، وبدون الاستغراق في تتبّع وقائع السيرة ودقائقها، لأن غرضنا هو ليس إعادة تسجيل سيرته عليه الصلاة والسلام، بل هو محاولة استخلاص القوانين الاجتماعية التي انتظمت بها حركته، واستطاع من خلالها إنجاز مهمته الرسالية بكفاءة عالية.

١ ـ التأهيل الفطري أو الوهبي

ونقصد به أن الله سبحانه وتعالى زود رسوله محمدًا ﷺ باستعدادات جبِلّيّة عظيمة، وأودع فيه من صفات الكمال المطبوع، والجمال الموهوب، ما يجعل من شخصيته قدوة نموذجية فذّة منفردة في الكمال البَشَري إلى أن يرث الله الأرض ومَن عليها.

لقد منحه الله كمال الخلقة، وكمال العقل، وكمال الفهم، وكمال اللّسان، وكمال الحواس، وجعل ذلك فطرة فيه، كما يقول القاضي عياض:

«إذا نظرت إلى خصال الكمال والتي هي غير مكتسبة وفي جبلة الخلقة وجدته ﷺ حائزًا لجميعها محيطًا بشتات محاسنها دون خلاف بين نقلة الأخبار»[٤].

فهو عليه الصلاة والسلام أكمل الناس خلقةً، وأحسنهم صورة، وأقواهم بِنْيَة، كما يقول البراء رضي الله عنه:

«ما رأيت شيئًا قَط أحسن منه ﷺ»[٥].

وكما يقول أبو الطفيل رضي الله عنه:

«كان أبيض مليحًا مقصدًا»[٦] أي ليس بجسيم، ولا نحيف، ولا طويل ولا قصير[٧]، كأن الشمس تجري في وجهه[٨] على حدّ تعبير أبي هريرة رضي الله عنه. من رآه بديهةً هابه ومن خالطه معرفةً أحبه[٩] كما يقول علي رضي الله

(٤) الشفاء ١/٥٨.
(٥) مختصر صحيح مسلم، كتاب: الفضائل، باب: صفة النبي ﷺ ومبعثه / ٤١٥.
(٦، ٧) المرجع نفسه والصفحة نفسها (الهامش).
(٨، ٩) الشفا. ١/٦١.

عنه. وهو يلقي المزيد من الأضواء على بعض الانطباعات الأولية، التي أدلت بها أُم معبد وهي تصف رسول الله ﷺ لزوجها والتي منها:

«رأيت رجلاً ظاهر الوضاءة، حسن الخلق، مليح الوجه.. قسيمًا وسيمًا.. إذا صمت فعليه الوقار، وإذا تكلم سما وعلاه البهاء، حلو المنطق، فصل لا نزر ولا هذر، كأن منطقه خرزات نظم ينحدرن، أبهى الناس، وأجمله من بعيد، وأحسنه من قريب»(١٠).

إلى جانب البعد الخِلْقي من شخصيته عليه السلام كان يتمتع كذلك بوفور عقله وذكاء لُبّه، وقوة حواسه، واعتدال حركاته، وحسن شمائله، كما يقول القاضي عياض مقررًا ذلك ومؤكدًا له، بعد دراسة استيعابية عميقة لحياته عليه الصلاة والسلام، كما يبدو ذلك من كتابه القيم «الشفا»، يقول:

«لا مِرْيَة أنه كان أعقلَ الناس وأذكاهم، ومَن تأملَ تدبيره أَمْرَ بواطن الخلق وظواهرهم، وسياسة العامة والخاصة... دون تعلّم سبق، ولا ممارسة تقدمت، ولا مطالعة للكتب منه: لم يمترِ في رجحان عقله وثقوب فهمه لأول بديهة»(١١) كما يتجلى ذلك بقوة في مواجهة تحديات الدعوة، وتخطّيها بكفاءة عالية في جميع المراحل.

وسأكتفي هنا بمثال واحد يشير إلى وفورة عقله وعظمة ما كان يتمتع به من ملكات شخصية، وسلائق نفسية جُبِل عليها، تُؤهّله للتألّق والتفرّد في تدبير الأمور، وسياسة قضايا الحياة، وقطع دابر الخصومات(١٢) وتحقيق أرفع مستويات التوازن وأعلاها في حركة المجتمع، كما يبدو ذلك من حله لمشكل وضع الحجر الأسود الذي كاد يؤدي إلى حرب بسبب إصرار كل قبيلة على الانفراد بوضعه في مكانه دون الأخرى حتى تحاوزوا، وتحالفوا، وأعدوا

---

(١٠) ابن كثير، السيرة النبوية ٢/ ٢٦٩.
(١١) الشفا ١/ ٦٦.
(١٢) د. البوطي، فقه السيرة /٨.

للقتال، دون أن يهتدي أيٌّ من جموع القبائل المشتركة في البناء إلى حل أمثل يحقن الدماء، وفوضوا الأمر إلى أول داخل إلى المسجد ليقضي بينهم، فكان أن دخل عليهم رسول الله ﷺ، فهتفوا جميعًا: هذا الأمين، رضينا بحكمه، هذا محمد، فلما انتهى إليهم وأخبروه الخبر قال لهم: «هلمّ إليّ ثوبًا، فأتي به، فأخذ الركن فوضعه فيه بيديه، ثم قال: لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب، ثم ارفعوه جميعًا، ففعلوا حتى إذا بلغوا به موضعه وضعه هو بيديه ثم بني عليه»[١٣].

ويضاف إلى كمال الخلقة، وكمال العقل، كمال الأداة التبليغية، وكمال الملكات النفسية أو الخلقية، فكان عليه الصلاة والسلام في قمة فصاحة اللّسان، وفصاحة اللغة، وفصاحة الموضوع أو الفكرة، وكان ذلك فيه جبلة وطبعًا حيث رزقه الله كما يقول العقاد:

«ومن فصاحة الموضوع كفاه ما رزق من فصاحة اللّسان وفصاحة الكلام»[١٤].

وكان كذلك في القمة من حيث التكافؤ الخلقي، والتكامل التام بين ملكاته النفسية «فصبره مثل شجاعته، وشجاعته مثل كرمه، وكرمه مثل حلمه، وحلمه مثل رحمته، ورحمته مثل مروءته، وهكذا لا تجد له خلقًا في موضعه من الحياة يزيد أو ينقص على خلق آخر في موضعه منها، ومن هنا كان جماع أمره عند قومه «الأمين» وهذا اسم يمثل التكافؤ الخلقي أصدق التمثيل»[١٥].

ويعود هذا الكمال في التكافؤ الخلقي والتوازن النفسي في شخصية رسول الله ﷺ إلى عناية الله به، حيث منحه من المواهب والقدرات الفذة المتفرّدة، ما به يؤهله للقيام بدوره الرسالي الضخم، في نقل الإنسانية من الطفولة الفكرية إلى النضج، ومن الاختلال إلى التوازن، ومن التآكل إلى التكامل، قال القاضي عياض:

---

(١٣) ابن هشام، السيرة النبوية ١/ ٢٠٩.
(١٤) عبقرية محمد / ٢١.
(١٥) محمد الصادق عرجون، محمد رسول الله ١/ ٢١١.

«وكان في ما ذكره المحققون مجبولاً عليها ـ أي على هذا التكافؤ الخلقي وتوازن ملكاته النفسية ـ في أصل خلقته، وأول فطرته، لم تصل له باكتساب ولا رياضة إلاّ بجود إلٰهي وخصوصية ربّانية وهكذا لسائر الأنبياء»[١٦].

وخلاصة القول هي أن الله سبحانه وتعالى منح رسول الله ﷺ من الكمالات الخلقية والعقلية والنفسية.. ما به يتربّع بجدارة على قمة الكمال البشري، ويتأهل ليكون قدوة نموذجية فذّة للعالمين.

٢ ـ التأهيل الاكتسابي

ونقصد به أن الله سبحانه وتعالى وفق رسوله ﷺ إلى اكتساب صفات وخبرات وخصال إنسانية كثيرة، عملت على صقل مواهبه الفطرية، والسمو باستعداداته الجبلية، نحو آفاق بعيدة في الكمال الإنساني.

فقد أخذه الله سبحانه وتعالى بالتربية والرعاية منذ طفولته، بل وقبلها كما رأينا في الفقرة السابقة عن التأهيل الفطري، ليعده إعدادًا منسجمًا مع مهمته المنتظرة، فأحاطه بجملة من الظروف النفسيّة والاجتماعية التي أتاحت له فرص تنمية مواهبه، وإثراء تجربته في الحياة، من خلال معاناة هموم الواقع المعاش، والتفاعل الإيجابي معها.

ولا يخفى دور الانفتاح الإيجابي على الواقع في التربية، وتأهيل الرجال للمهام الجليلة في الحياة، فمعاناة الخلق، ومكابدة مشاق الحياة، أصل عظيم من أصول التربية الناجحة، وهو بعض ما عاناه الرسول ﷺ في مثله قوله:

«المؤمنُ الذي يخالطُ الناسَ، ويصبرُ على أذاهم، أعظمُ أجرًا من المؤمنِ الذي لا يخالطُ الناسَ ولا يصبرُ على أذاهم»[١٧].

---

(١٦) الشفا ١/٩٧.

(١٧) سنن ابن ماجة، كتاب: الفتن، باب: الصبر على البلاء ٢/١٣٣٨.

لأن معادن الناس لا تظهر على حقيقتها إلاّ في معترك الواقع، وهي تأخذ وتعطي، وتوالي وتعادي، يقول سيد قطب في هذا الإطار:

«حقيقة الإيمان لا يتم تمامها في القلب، حتى تتعرض لمجاهدة الناس في أمر هذا الإيمان، لأنه يجاهد نفسه كذلك أثناء مجاهدته للناس، وتتفتح له في الإيمان آفاق لم تكن لتتفتح أبدًا، وهو قاعد آمن ساكن، وتتبين له حقائق في الناس والحياة، لم تكن لتتبين له أبدًا بغير هذه الوسيلة، ويبلغ هو بنفسه وبمشاعره وتصوراته وبعاداته وطباعه وانفعالاته واستجاباته ما لم يكن ليبلغه أبدًا بدون هذه التجربة الشاقة العسيرة»[١٨]. وهو ما يؤكده المودودي بعد تجربة طويلة في مجال الدعوة وسياسة النفوس بقوله:

«هذه هي التربية... لا أعرف أسلوبًا آخر أكثر نفعًا وأقوى تأثيرًا لإعداد الرجال من هذا الأُسلوب.. فالتربية التي نحب أن يتحلى بها رجالنا لا تتم إلا في قعر المعركة، والممارسة الفعلية للدعوة»[١٩].

لهذا كان التأهيل الاكتسابي بُعدًا أساسيًا من أبعاد التأهيل الرسالي للنبي ﷺ، وهو ما سنلقي عليه بعض الأضواء من خلال تأملنا في بعض جوانب حياته عليه الصلاة والسلام قبل البعثة على سبيل المثال لا الحصر.

أهمية النشأة البدوية

وهو أول ما ينبغي التوقّف عنده، بعد شرف النسب وعراقته، الذي سنتناوله في المبحث القادم، ذلك لأن الأعوام الأولى من حياة الطفل لها أثر حاسم في حياته، فالإنسان يولد على الفطرة، والبيئة المحيطة به ـ سواء أكانت طبيعية أم اجتماعية ـ هي التي تصوغ شخصيته، وتترك بصماتها في بنيته الجسمية، وتفكيره ونفسه وسلوكه وسببه كما يقول ابن خلدون «إن النفس إذا كانت على الفطرة الأولى، كانت متهيئة لقبول ما يرد عليها وينطبع فيها من خير

---

(١٨) هذا الدين / ١٠.
(١٩) عن مجلة الرائد ع ١٨/ ٢٥.

وشر.. وبقدر ما سبق من أحد الخلقين، تبعد عن الآخر، ويصعب عليها اكتسابه، فصاحب الخير إذا سبقت إلى نفسه عوائد الخير وحصلت لها ملكته، بَعُدَ عن الشر، وصعب عليه طريقه، وكذا صاحب الشر إذا سبقت إليه أيضًا عوائده»[٢٠].

وقد كان من رعاية الله لرسوله ﷺ، أن هيأ له أسباب النشأة في البادية، حيث صفاء الجو، ونقاوة الطبيعة، وبساطة الحياة، وفصاحة اللغة، وشجاعة الفؤاد، فشب عليه السلام قوي البنية، صحيح الجسم، فصيح اللّسان، صافي الذهن، طليق الفكر، محصنًا منذ البدء من أمراض المدينة العضوية والنفسية والفكرية والسلوكية الاجتماعية التي غالبًا ما تعاني منها التجمعات البشرية.

قالت مرضعته حليمة وهي تصف ما كان عليه من القوة «... وكان يشبّ شبابًا، لا يشبه الغلمان، لم يبلغ سنتين حتى كان غلامًا....»[٢١] ممتلئًا قوة وحيوية.

فإذا أخذنا بعين الاعتبار، أنه مكث في البادية أربع أو خمس سنوات، حسب ما يذهب إليه عامة أهل السيرة[٢٢]، وتذكرنا أن كثيرًا من علماء التربية يودون «لو تكون الطبيعة هي المهد الأول للطفل حتى تتّسق مداركُه مع حقائق الكون الذي وجد فيه»[٢٣]، أدركنا مدى حجم الاستفادة الكبيرة التي حظي بها عليه الصلاة والسلام من هذه النشأة المركزة، في عمق البادية العربية، في مرحلة من أهم مراحل النشأة.

مؤثرات اليُتْم في حياته

يعتبر يتم رسول الله ﷺ من الوجهة التربوية بالخصوص، عاملاً آخر من عوامل الرعاية الإلٰهية له، فقد نشأ عليه السلام يتيمًا، لم يَرَ أباه، ثم ما لبث أُمّه أن لحقت بربها هي الأخرى، فانتقلت كفالته إلى جده عبد المطلب، الذي

---

(٢٠) المقدمة ٢/ ٥٨٤.
(٢١) ابن هشام، السيرة النبوية ١/ ١٧٣.
(٢٢) المباركفوري، الرحيق المختوم/ ٦٥.
(٢٣) محمد الغزالي، فقه السيرة/ ٦٣.

فارق الحياة هو الآخر فآلت رعايته عليه السلام إلى عمه أبي طالب وهو لم يتجاوز الثامنة من عمره بعد.

فهذه السلسلة من التحولات النفسية والاجتماعية، والانتقال من وضع إلى آخر، وضعه في ظروف ملائمة للنشأة المتميزة التي تكسبه «الصلابة والاستقلالية والقدرة على التحمّل، والإرادة النافذة، والتحدي الذي لا تنكسر له قناة»[٢٤].

وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك في قوله تعالى:

﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ﴿٦﴾ ﴾ [الضحى: ٦]، أي حوّل يتمك هذا إلى نعمة، فأنشأك على كمال الإرادة والاستقامة، وجعلك نموذجًا فريدًا في اكتمال خَلقك وخُلقك، تأخذ بمجامع قلوب الناس «مع أن شأن الأيتام أن ينشأوا على نقائصَ لأنهم لا يجدون من يُعنى بتهذيبهم، وتعهّد أصولهم الخلقية»[٢٥].

لقد شاءت له إرادة الله تعالى، منذ ميلاده، أن يعيش بعيدًا عن أحضان أُمه، ورعاية جده، هنالك في أعماق بادية قوم من العرب عرفوا بصفاء البيان، وفصاحة اللّسان، وشظف العيش، ففلت بذلك من مؤثرات اللين والدّعَة، والتنافس على السيادة والشرف.. التي كانت تطبع الحياة بمكة، وتترك بصماتِها القوية على صفحات النفوس[٢٦]. يقول الدكتور البوطي:

«هكذا أرادت حكمةُ الله أن ينشأ رسوله يتيمًا، تتولاه عنايةُ الله وحده، بعيدًا عن الذراع التي تمعن في تدليله، والمال الذي يزيد في تنعيمه، حتى لا تميل به النفسُ إلى مجد المال والجاه، وحتى لا يتأثر بما حوله من الزعامة، فتلتبس على الناس قداسة النبوة بجاه الدنيا، وحتى لا يحسبوه يصطنع الأول

---

(٢٤) د. عماد الدين خليل، دراسة في السيرة /٤٧.

(٢٥) ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير ٣٩٩/٣٠. الرازي، التفسير الكبير ٢١٨/٣١.

(٢٦) محمد الصادق عرجون، محمد رسول الله ١٥٣/١.

ابتغاء الوصول إلى الثاني»[٢٧].

ولا يعني هذا أنه عليه السلام، حرم نهائيًا من عواطف الحنوّ والحبّ، كما يحدث لكثير من الأيتام، لأن الله تعالى شمله برعايته وضمن له محاضن آوته وعوّضت إحساسه بالحرمان، حتى لا ينشأ مقهورًا مسلوب الإرادة، ناقمًا على الناس مبغضًا لهم.

والذي يطالع أخبار مرضعته وجدّه وعمّه، يرى كيف كانوا يغمرونه بالحنوّ عليه، والحب له، والاهتمام الشديد به، والذي وإن لم يَرْقَ إلى حنو الوالدين وحبهما، إلا أنه في ميزان التربية النموذجية للإنسان، يحتل مكانة في غاية الأهمية، يقول ابن هشام:

«كان يوضع لعبد المطلب فراش في ظل الكعبة، فكان بنوه يجلسون حول فراشه ذلك، حتى يخرج إليه، لا يجلس عليه أحد من بنيه إجلالاً له.. فكان رسول الله ﷺ يأتي وهو غلام جفر، حتى يجلس عليه، فيأخذه أعمامه ليؤخروه عنه، فيقول عبد المطلب، إذا رأى ذلك منهم: دعوا ابني، فوالله إنّ له لشأنًا، ثم يجلسه معه على الفراش، ويمسح ظهره بيده، ويسره ما كان يصنع»[٢٨]، وكان ـ أي عبد المطلب ـ لا يأكل طعامًا إلاّ ويقول: عليَّ بابني، وهو ما كان يفعله معه أبو طالب، والذي كان إذا أراد أن يغذي عياله قال: كما أنتم حتى يأتي ولدي، يقصد رسول الله ﷺ[٢٩] وكانت مرضعته حليمة حريصة أشد الحرص على مكثه عندها، كما يبدو ذلك من قولها:

«... قدمنا به على أهله ونحن أحرص شيء على مكْثه فينا.. فلم نزل بها حتى ردّته معنا»[٣٠] أي أمه عليه السلام.

---

(٢٧) فقه السيرة / ٦٢.
(٢٨) السيرة النبوية ١/ ١٧٨.
(٢٩) ابن كثير، السيرة النبوية ١/ ٢٤٠، ٢٤٢.
(٣٠) ابن هشام، المرجع السابق ١/ ١٧٣.

مشاركة عمه في أعباء الحياة

ذكر عنه عليه الصلاة والسلام أنه اشتغل في صباه برعي الغنم في مكة بقراريط، مساهمة منه في تخفيف أعباء الحياة عن عمه الكثير العيال[٣١] وسعيًا منه كذلك إلى الاعتماد على نفسه، والعيش من كدّه. وفي هذا روى أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

«ما بعث الله نبيًا إلاّ رعى الغنم» فقال أصحابه: وأنت؟ فقال: «نعم كنتُ أرعاها على قراريط لأهلِ مكة»[٣٢].

فنحن عندما نتأمل الآثار التربوية لهذا العمل، نجدها كثيرة في حياته عليه السلام، وهو ما لاحظه ابن حجر في تعليقه اللطيف على هذا الحديث، حيث ذكر أن من فوائد التربية الجليلة في رعي الأنبياء عليهم السلام للغنم قبل النبوة:

«حصول التمرّن لهم على سياسة الأُمم بعد النبوة، بما يحصل لهم من الحلم والشفقة والصبر على رعيها وجمعها بعد تفرقها، ونقلها من مسرح إلى آخر، وتأمينها من كل ما يهددها، ويخلص من هذا إلى تأكيد كون هذه المعاناة للغنم: تورثهم الصبر على الأمة، وتعرفهم اختلاف طباعها، وتفاوت عقولها، فيجبرون كسرها، ويرفقون بضعيفها، ويحسنون تعهدها. فيكون تحملهم لمشقة ذلك أسهل مما لو كلفوا القيام بذلك من أول وهلة.. وخصت الغنم بذلك لكونها أضعف من غيرها، ولأن تفرّقها أكثر من تفرق الإبل والبقرة..»[٣٣].

الإفادة من خبرات غيره

وفي الثانية عشرة من عمره، تعلق بعمه أبي طالب وهو يهمّ بالخروج في قافلة تجارية إلى الشام، فَرَقَّ له قلبُه واصطحبه معه[٣٤] فكانت المرة الأولى

---

(٣١) د. عماد الدين خليل، دراسة في السيرة / ٤٠. عرجون، مرجع سابق ١/ ١٧٧.

(٣٢) البخاري، في كتاب الإجارة، باب: رعي الغنم على القراريط (من فتح الباري ٤/ ٤٤١).

(٣٣) ابن حجر، فتح الباري ٤/ ٣٤٩.

(٣٤) ابن هشام، السيرة النبوية ١/ ١٩١.

التي يسافر فيها رسول الله ﷺ، في ركب من كبار تجار قريش إلى عالم جديد على تُخُوم الإمبراطورية الرومانية، ذات التقاليد الثقافية والاجتماعية المتنوعة والمعقّدة.

ولا شك أن هذه الرحلة في هذه المرحلة المهمة من عمره عليه الصلاة والسلام تركت آثارًا مهمة في حياته ونموّ خبراته، واتساع مداركه، بما كان يراه ويسمعه أثناء طول الطريق، من عمه أو الأشياخ المحنكين الذين كانوا معهم، ثم ما رآه وسمعه من الراهب «بحيرا»[٣٥] وشاهده في أسواق المدن التي مروا بها، واكتشفه من أساليب المعاملات التجارية.. إلى غير ذلك مما تحفل به عادة مثل هذه الرحلات.. يقول الشيخ الغزالي: «إن الأسفار من أخصب أبواب المعرفة وأعمقها أثرًا، ومثلُ محمدٍ ﷺ في صفاء ذهنِه، ونقاء قلبه، لا يعزب عنه وجه العبرة فيما يرى في حِلّه وترحاله»[٣٦].

الانفتاح على هموم المجتمع ومشكلاته

ويضاف إلى ما سبق من عوامل التأهيل الاكتسابي وأسبابه لرسول الله ﷺ، انفتاحه الإيجابي على هموم الواقع، ومشاركته في حل مشكلاته، كما يبدو ذلك على سبيل المثال من شهوده حرب الفجّار بين قريش وحلفائها وبين قيس وعيلان من جهة أخرى، التي اخترقت قداسة الأشهر الحُرُم، فقامت قريش لتحجزها عن ذلك، وتحافظ على استتباب الأمن وضمان انتظام مصالح الناس، كما جرت به عادتهم في احترام هذه الأشهر منذ آماد بعيدة[٣٧].

وتدور أغلب الروايات في ما يتعلق بسِنّ رسول الله ﷺ يومئذ بين الخامسة عشرة والعشرين، لأن هذه الحرب دامت عدة سنوات، قال ابن إسحاق:

---

(٣٥) المصدر نفسه ١/ ١٩١.

(٣٦) فقه السيرة / ٦٨.

(٣٧) فقه السيرة / ٧٤. الرحيق المختوم / ٦٧.

«هاجت حرب الفجار ورسول الله عليه الصلاة والسلام ابن عشرين سنة»[٣٨]، كان عليه السلام يعين المقاتلين[٣٩]، وقيل قاتل بنفسه[٤٠].

ولا يخفى ما في هذه المشاركة من أبعاد تربوية في غاية الأهمية. لما تفرضه الحرب من تحديات وتثيره من توتّر وقلق وخوف، وتستدعيه من يقظة واحتياط وحذر، وما ترسخه في نفوس الرجال من الصبر والقوة والاحتمال ورباطة الجأش، وسرعة الاستجابة، والحركة.. بالإضافة إلى ما تفتحه من نوافذ أمام النفوس الكبيرة على المجتمع، ليكتشفوا مواطن الخلل فيه، ويقفوا على عوراته وأمراضه..

وفي السياق نفسه نجد رسول الله ﷺ يشارك في حلف الفضول، الذي تداعت إليه قريش عقب حرب الفجار، وتعاهدت على «أن لا يجدوا بمكة مظلومًا من أهلها وغيرهم ممن دخلها من سائر الناس، إلاّ قاموا معه، وكانوا على مَن ظَلَمَهُ حتى تردّ عليه مظلمته» وفيه قال عليه الصلاة والسلام بعد النبوة:

«لقد شاهدتُ في دار عبد اللّه بن جدعان حلفًا ما أحبّ أن لي به حُمر النَّعَم، ولو ادعى به في الإسلام لأجبتُ»[٤١].

وهنا كذلك يمكن التذكير بمشاركته في حل أزمة وضع الحجر الأسود، حيث تمكن عليه السلام بفطانته وحسن تصرفه من تجنيب الناس حربًا ماحِقَة تشنها القبائل بعضها على بعض.

فهذه الوقائع وغيرها مؤشر مهم على مدى انفتاح رسول الله ﷺ على هموم الواقع المعاش، ومشاركته الفعّالة في تجارب مجتمعه السياسية والعسكرية والدينية[٤٢]، وما أفادته به من تجارب وخبرات، وفتحته أمامه من

---

(٣٨) ابن كثير، السيرة النبوية ١/ ٢٥٥. عرجون، محمد رسول الله ١/ ١٨٤.
(٣٩) ابن هشام، السيرة النبوية ١/١٩٨. ابن سيد الناس، عيون الأثر ١/ ٥٩.
(٤٠) الغزالي، فقه السيرة / ٧٤. عرجون، محمد رسول الله ١/ ١٨٤.
(٤١) ابن هشام، المرجع السابق ١/١٤١.
(٤٢) د. عماد الدين خليل، دراسة في السيرة/ ٤١.

آفاق ستؤهله لمهام حاسمة بعد حين، حينما يبدأ قيادة أكبر وأعظم حركة تغيير في التاريخ الإنساني.

اقتحامه عليه السلام معركة الحياة

في الخامسة والعشرين من عمره، يرغب إليه عمه أبو طالب أن يسهم في تجارة خديجة، لعل الله يوفقه في تحسين الأوضاع الاجتماعية الصعبة للأسرة، كما يلاحظ ذلك من قول أبي طالب:

«يا ابن أخي أنا رجلٌ لا مالَ لي، وقد اشتدّ الزمانُ علينا، وألحّت علينا سنواتٌ منكرة، وليس لنا مادة ولا تجارة..»[٤٣]، وبعض ما كان يقوم به عليه الصلاة والسلام من أعمال التجارة[٤٤] لم يفِ بالغرض، فلم يتردّد في اقتحام عالم التجارة الواسع، بعد قبول خديجة وترحيبها برغبة رسول الله في التجارة بمالِها.

وقد وُفِّق رسول الله ﷺ توفيقًا عظيمًا في عمله التجاري الجديد، فعاد بفائدة كبيرة لم يسبق أن حقّقها أحدٌ ممن تاجر لخديجة من قبل، الأمر الذي جعلها تضاعف له ما سمّت له[٤٥]، فاستفاد عليه السلام من هذه الناحية رصيدًا مهمًّا من المال يتقوّى به على مواجهة أعباء الحياة، واستفاد من نواحي أخرى قد تكون أكثر أهمية بالنسبة لثراء خبراته. وصقل تجاربه، ذلك لأن هذه الرحلات التي قام بها رسول الله ﷺ في هذه الفترة المهمة من عمره، تعلّم منها الكثير، وأفاد منها إفادة كبيرة، عمّقت في حسّه معطيات المرحلة الأُولى، وفتحت عينيه على عالم عصره، وما كان يسوده من علاقات بين الغالب والمغلوب، والسيد والمسود[٤٦]، كما مكنته من ازدياد خبرته بطبائع النفوس

---

(٤٣) ابن سيد الناس، عيون الأثر ١/ ٦٠.

(٤٤) د. عماد الدين خليل، دراسة في السيرة / ٤٠. الأساس في السنّة ١/١٦٨.

(٤٥) ابن سيد الناس، المرجع السابق ١/ ٦٢.

(٤٦) د. عماد الدين، المرجع السابق / ٤٨.

وخفايا سوق المعاملات التجارية التي تعد مصبًّا أساسيًّا تلتقي فيه مختلف روافد الخبرة الإنسانية الفكرية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية.. لتتم عملية التفاعل الحضاري ونقل الخبرة، وتداول التجارب على أوسع نطاق ممكن بين الشعوب والقبائل.

ولعل من أهم نتائج هذه الرحلة كذلك إفضاؤها إلى زواج النبي ﷺ بالسيدة خديجة رضي الله عنها، التي أُعجبت بالشخصية النبوية الآسرة، ورغبت في الزواج منه، وسعت إليه، حتى فازت بما رمت إليه من الاقتران به عليه السلام[٤٧]، وهو من توفيق الله كذلك، حيث سيكون لهذه السيدة الفاضلة شأن كبير في شطر مهم من مسيرة الدعوة الإسلامية.

وقد يكون من المفيد التأكيد على الدور الحيوي المهم الذي أدّته السيدة خديجة في حياة الرسول عليه السلام قبل البعثة وبعدها، إذ يعتبر الاتصال بها عن طريق التجارة ابتداءً ثم الاقتران بها ثانيًا تحوّلاً في غاية الأهمية من الناحية الاجتماعية بالخصوص، وهو ما أشار إليه القرآن الكريم صراحة في قوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ۝٨﴾ [الضحى: ٨].

وقال الشيخ الطاهر بن عاشور:

«أغناه الله غنائين: أعظمهما غِنى القلب، إذ ألقى في قلبه قِلّة الاهتمام بالدنيا، وغنى المال حين ألهم خديجة مقارضته في تجارتها»[٤٨]، ثم زواجه منها وقيامه على شؤونها كلها، بما فيها مواصلة التجارة بمالها، واستثماره بكفاءة عالية، جعلته يزكو بفضل الله، ويكون من أسباب الحفظ والرعاية التي وفرها الله لرسوله، ليكون في مأمن تام من كل ما يهز مكانته في نفوس الناس، ويزري بها في المجتمع، وهو ما نلمسه في حديثٍ له عليه السلام ردّ به على السيدة عائشة رضي الله عنها، عندما أخذتها الغيرة ذات مرة فقالت لرسول

---

(٤٧) ابن سيد الناس، المرجع السابق ١/ ٦٢. ابن كثير، السيرة النبوية ١/ ٢٦٣.
(٤٨) تفسير التحرير والتنوير ٣٠/ ٤٠.

الله ﷺ: هل كانت إلاّ عجوزًا قد أبدلك الله خيرًا منها؟ فغضب ثم قال:

«لا واللّهِ ما أبدلني اللّهُ خيرًا منها، آمنتْ بي إذْ كَفَرَ الناسُ، وصدّقتْني إذ كذبني الناس، وواستْني بمالِها إذ حَرَمَني الناس، ورزقني اللّهُ منها الولد دون غيرها»[٤٩].

وبهذه التحولات المهمة في الحياة الاجتماعية لرسول الله ﷺ، يكون قد دخل معترك الحياة من أبوابه الواسعة، كزوج وكأب وعضو فعّال في الأسرة الطالبية ذات المكانة المرموقة في قريش من الناحية الدينية بالخصوص.

ومن خلال كلّ ما سبق نرى كيف أخذتْ أبعادُ الشخصية النبوية تتكامل مع مرور الزمن، تأهيلاً لمهمته الرسالية العظيمة التي تنتظره، ليغير بها مسار الحضارة الإنسانية التي تاهت منذ آماد بعيدة في غياهب الجاهلية الاعتقادية والعبادية معًا، وأفرزتْ علاقاتٍ اجتماعية ظالمة، ألحقت أضرارًا بالغة بالبشرية.

٣ ـ التأهيل التأييدي

وتقصد به تلك الرعاية الكاملة، التي شمل بها الله سبحانه وتعالى رسوله، قبل وجوده وبعده، وأثناء قيامه بعمله الرسالي في الدعوة والإصلاح الشامل العميق لأوضاع الحياة الإنسانية.

فالرسول من حيث هو حُجّة الله على خلقه، ودليله إلى هدايته، وإخراج الناس من الظلمات إلى النور، يختاره الله على عينه، ويكلؤه بعنايته ورعايته وحفظه وتربيته حتى يكون آية من آياته في كمال الخِلقة والخلق والجهاد وليتمكن من خلال ذلك كله من القيام بمهمته خير القيام.

يقول الشهرستاني:

«الأنبياء خيرة الله في خلقه، وحجة الله على عباده، والوسائل إليه،

---

(٤٩) الإمام أحمد.

وأبواب رحمته، وأسباب نعمته ﴿ ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ ﴾ [الحج: ٧٥]، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا ﴾ [آل عمران: ٣٣]، فكما يصطفيهم من الخلق قولاً بالرسالة والنبوة، يصطفيهم من الخلق فعلاً بكمال الفطرة، ونقاء الجوهر وصفاء العنصر، وطيب الأخلاق وكرم الأعراق، فيرقّيهم مرتبة مرتبة حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة، وكملت قوته النفسانية، وتهيأت لقبول الأسرار الإلٰهية بعث إليهم ملكًا، وأنزل إليهم كتابًا»(٥٠).

من خلال هذه المعطيات، ينطلق حديثنا في هذه الفقرة، لاستكمال البعد الثالث الأساسي من أبعاد التأهيل الرسالي للشخصية النبوية وهو: التأهيل التأييدي، الذي نتطرق فيه إلى مجموعة من الوقائع، تبين لنا كيف كانت يد العناية الإلٰهية تتابع رسول الله ﷺ، وتهيئه ليكون نبيًّا رسولاً.

طهارة الأعراق

وهو من المؤيدات القوية، التي كان لها دور مهم في التأهيل الرسالي للشخصية النبوية، ذلك لأن طهارة الأعراق، وشرف النسب، تمنح الإنسان أصالة ومصداقية وتقطع الطريق أمام من يريد ثلبه والقدح فيه، بخلاف من كان في أعراقه أو نسبه دخن، فيعيّره الناسُ بذلك، ويشنعون به بشكل قد يؤول به إلى الشعور بعقدة النقص إزاءهم، وإن كان هو في ذاته من معادن الخلق.

فالأعراف الاجتماعية، خاصة في ما يتعلق بأنساب الناس وأعراقهم، لها تأثير لا ينكر في موقف المجتمع من الإنسان الذي يواجهه بالتحدي، إذ يلجأ هذا الأخير في سياق الدفاع عن وجوده المادي والمعنوي إلى ما يوهن به موقف الخصم، وهو الأمر الذي حمى الله رسوله منه، وجعله يأوي إلى ركن شديد من عراقة النّسب، وشرف الموطن، في بيئة تقيم وزنًا خاصًّا لذلك، وتعده كل

---

(٥٠) الشهرستاني، نهاية الإقدام في علم الكلام / ٤٦٣، اقتبسه د. طه الدسوقي في كتابه: نظرية النبوة في الإسلام / ١٠.

شيء في حياتها، تفاخر به، وتربي أجيالها عليه[٥١]، الأمر الذي جعل بعض من تتبّع حياة العرب قبل الإسلام بالدرس والتحليل والرصد لأنواع المعارف التي كانت سائدة عندهم: يحصي «علم الأنساب» في عِداد ما برع فيه العرب واهتموا به اهتمامًا خاصًا بزوا فيه أممًا كثيرة في التاريخ[٥٢].

يقول القاضي عياض:

«وأما شرف نسبه ﷺ وكرم بلده ومنشؤه، فما لا يحتاج إلى إقامة دليل عليه، ولا بيان مشكل ولا خفي منه، فإنه نخبة بني هاشم، وسلالة قريش وصميمها، وأشرفُ العرب وأعزهم نفرًا من قبل أبيه وأمه، ومن أهل مكة، من أكرم بلاد الله على الله وعلى عباده»[٥٣].

فهو عليه السلام خيار من خيار كما جاء في الحديث الذي رواه مسلم: **«إنّ اللّهَ اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشًا من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم»**[٥٤].

والذي رواه البخاري:

«بعثتُ مِن خيرِ قرون بني آدم قرنًا فقرنًا، حتى كنتُ من القرن الذي كنت منه»[٥٥].

فالذي يدرس نسب رسول الله ﷺ ويتوغل في أعماقه التاريخية، يصل إلى الحقيقة السابقة، ويدرك يقينًا أنه عليه السلام: «من سلالة آباء كرام، سادوا ورأسوا... ليس في آبائه خامل مسترذل، ولا مغمور مستذل، كلهم سادة وقادة، وهم أخصّ الناس بالمناكح الطاهرة، حتى تحرجوا عن نكاح المحارم،

---

(٥١) ابن خلدون، المقدمة ٢/ ٥٩٥.
(٥٢) أنور الرفاعي، الإسلام في حضارته ونظمه / ٣٦.
(٥٣) الشفا ١/ ٨١.
(٥٤) مختصر صحيح مسلم، كتاب الفضائل، باب: اصطفاء النبي ﷺ / ٤٠٢.
(٥٥) البخاري، في كتاب: بدء الخلق، باب صفة النبي ﷺ (من فتح الباري. ٦/ ٤٤٧).

وإن استباحه غيرُهم من العرب» كما يؤكد الماوردي[٥٦].

هكذا قدر لرسول الله عليه السلام أن يخرج من أصلاب قوم ذوي عقيدة وأريحية ووسامة ورئاسة، كما يظهر ذلك على سبيل المثال من هذه الكلمات التي وجهها نقيل جد عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى حرب، الذي نافر عبد المطلب جدّ رسول الله ﷺ فقال له:

«أتنافر رجلاً هو أطولُ منك قامةً، وأعظم منك هامةً، وأوسم منك وسامةً، وأقل منك لامةً، وأكثر منك ولدًا، وأجزل منك صفدًا، وأطول منك مندودًا..»[٥٧]، وهو ما يؤكده ابن الكلبي في وصفه لأبناء عبد المطلب ومنهم والد رسول الله عليه الصلاة والسلام بقوله:

«كانوا إذا طافوا بالبيت يأخذون بالبصر»[٥٨].

فرسول الله ﷺ كما خلص إليه ابن هشام بعد تتبعه سلسلة نسب النبي الشريف «أشرف ولد آدم حسبًا، وأفضلهم نسبًا، من قِبَل أبيه وأمه»[٥٩].

وهذا دون شك تأييد من الله، بطهارة الأعراق، وشرف النسب، يترك أثره العميق في نفسه، فلا يحسّ بالدونية أو الضعف إزاء غيره، بل يشعر بالأناقة النفسية، والتحرر الذاتي المطلق في ذلك الوسط الذي يهيم بالإنسان والأحساب كما سبقت الإشارة إليه.

وهو ما يحرره من جهة أخرى عند الانطلاق في مباشرة مهامه الرسالية، ويشكل بالنسبة للدعوة سندًا ماديًا ومعنويًا في غاية الأهمية، يوفر لها الكثير من الجهد والوقت وضمانات النجاح.

---

(٥٦) أعلام النبوة / ١٨٨.
(٥٧) العقاد، مطلع النور / ١٦٣.
(٥٨) المرجع نفسه / ١٦٢.
(٥٩) السيرة النبوية ١/ ١١٥.

روى الإمام أحمد عن عبد اللّه بن عباس رضي الله عنهما أنه قال:

«نظر الله في قلوب العباد فوجد قلب محمد ﷺ خير قلوب العباد. فاصطفاه لنفسه، فابتعثه برسالته»(٦٠).

فالطهارة النفسية، وانشراح الصدر، وصفاء القلب من أمراض النفوس التي تستولي على الناس عادة، مما أنعم الله به على نبيه محمد ﷺ، كما تشير إلى ذلك نصوص وقائع عديدة مثل قوله تعالى:

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤﴾ [الشرح: ١ ـ ٤].

قال ابن العربي:

«شرحه حقيقة حسية، وذلك حيث كان عند ظئره، وحين أسري به وشرحه معنى: حين جمع له التوحيد في صدره والقرآن، وعلّمه ما لم يكن يعلم، وكان فضل الله عليه عظيمًا، وشرحه حين خلق له القبول لكل ما ألقي إليه والعمل به، وذلك هو تمام الشرح وزوال الترح»(٦١).

وفي الحديث عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ أتاه جبريل وهو يلعب مع الفتيان، فأخذه فصرعه، فشقّ عن قلبه، فاستخرجه، فاستخرج منه علقة، فقال: «هذا حظّ الشيطان منك، ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم، ثم لامه، ثم أعاده إلى مكانه، وجاء الغلمان يسعون إلى أمه ـ مرضعته ـ أن محمدًا قد قتل، فاستقبلوه وهو ممتقـع اللون»(٦٢).

وفي نفس السياق، وردت أخبار صحيحة أن الله تعالى حفظ رسوله ﷺ من وساويس الشيطان وحماه منه، فعن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله قال:

---

(٦٠) مسند الإمام أحمد ١/٣٧٩.

(٦١) أحكام القران ٤/١٩٤٩.

(٦٢) صحيح مسلم بشرح النووي، باب: الإسراء ٢/٣٩٣.

«ما منكم من أحدٍ إلاّ وقد وكل به قرينه، من الجن، قالوا: وأنت يا رسول الله؟ قال: وأنا، إلا أن اللّه أعانني عليه فأسلم، فليس يأمُرني إلاّ بخير»[٦٣].

فالله سبحانه أحاط رسوله عليه الصلاة والسلام برعايته وتأييده، تأهيلاً له ليؤدي مهمته بكفاءة، فطهّر نفسه، وألهمها تقواها، فكان قلبه فعلاً كما سبقت الإشارة إلى ذلك خير قلوب العباد، استأصلت منه النوازع الشريرة، ومُلىء رحمة وحبًّا للخَلْق وشفقة عليهم، كما تدل عليه حياته بعد البعثة بصفة خاصة، كما يشير إلى ذلك قوله تعالى:

﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة: ١٢٨].

يشق عليه أشد المشقة، نكوصُ الناس عن الحق، وانزلاقهم نحو الضلال والتيه، حريص على هدايتهم رؤوف رحيم بهم.

وهي سمة النفوس الكبيرة التي خلصها الله من جاذبية الهوى، وحب العلو في الأرض، وعبادة الذات، وتأليه الغرائز، ومحضها له ليجري الخير للناس على أيديها، فجهدها كله منصبٌّ على «متابعة الترقي، لا في مقاومة التدلي، وفي تطهير العامة من المنكر، لا في التطهر منه، فقد عافاهم الله من لوثاته»[٦٤]، وزكاهم، وجعلهم رحمة للعالمين.

البراءة من انحرافات المحيط الاجتماعي

إن القاعدة الاجتماعية القائلة «إن الإنسان ابن بيئته» ليست مجرد مقولة أو فرضية، بل هي حقيقة واقعية دعمتها علوم النفس والتربية والاجتماع، وأكدها الواقع الإنساني المعاش، فصارت من المنطلقات المهمة والأساسية في

(٦٣) الإمام أحمد في المسند ٦/ ١٨٢.
(٦٤) محمد الغزالي، فقه السيرة / ٦٥.

التعامل السليم مع واقع الأفراد والجماعات والمجتمعات، دراسة وفهمًا وتفسيرًا وتكييفًا أو تكيّفًا.

وهو ما نبّه إليه حديث نبوي شريف جاء فيه:

«كلُّ مولودٍ يولدُ على الفِطرةِ، فأبواه يهوِّدانِه أو ينصِّرانِه أو يمجِّسانِه، كمثلِ البهيمةِ تنتجُ البهيمةَ هلى ترى فيها جدعاء»[٦٥]. حيث تلاحظ الإشارة الصريحة إلى دور المؤثرات الخارجية في صياغة شخصية الإنسان، وتحديد توجّهاته، لأن التنشئة الاجتماعية للفرد في البيت والمحيط الاجتماعي العام هي التي تطبع حياة الإنسان وتقرر مصيره إلى حدّ بعيد.

فالإنسان يولد على الفطرة وهي الاستعداد للاستقامة والتناغم مع سُنن الله في خلقه، هذا هو الأصل، والانحراف هو الاستثناء، لأنه «ليس من ذات المولود ومقتضى طبعه، بل إنما حصل بسبب خارجي، فإن سلم من ذلك السبب استمر على الحق» كما يقول ابن حجر[٦٦]، وهو ما يعطي عليه الحديثُ دليلاً حسيًّا في إشارته إلى البهيمة التي تلد بهيمة سوية الخلقة، ثم تمتد إليها المؤثرات الاصطناعية الخارجية بالخصوص فتغيّرها[٦٧].

ومن هذا المنطلق كان من المقرر أن يكون لبيئة النبي ﷺ سلطات على شخصيته، وأن تصطبغ حياته بما فيها من مفاهيم عقدية وقيم سلوكية، وعادات وتقاليد اجتماعية، يمتصها[٦٨] الجميع ويتمثلها لاستمرار وجوده الاجتماعي، وهو ما لم يحدث إلاّ في ما هو ضروري ومفيد، لأن الله تعالى كان يرعاه ويؤيده، ليعده ويؤهله لإنجاز التحول الحضاري الحاسم في الحياة الإنسانية على مرّ التاريخ.

فالذي يتتبع حياته قبل بعثته، يقف على هذه العناية، وهذا التأييد، الذي

---

(٦٥) البخاري، في كتاب الجنائز، باب: ما قيل في أولاد المشركين (من فتح الباري ٣/ ١٩١).

(٦٦) فتح الباري ٣/ ١٩٢.

(٦٧) صحيح مسلم بشرح النووي ٤/ ٥١٤.

(٦٨) مالك بن نبي، مشكلة الثقافة / ١٠٢.

حفظه من كل ما يخل بالمروءة، ويؤثر على علوّ همته، ونظافة ذيله، ونصاعة صفحته، بل يلاحظ يد العناية الإلٰهية وهي تصوغه وتربّيه، وتبني شخصيته الرسالية قبل أن يكون رسولاً، لما لماضي الإنسان من تأثير حاسم في حاضره ومستقبله، في ذاكرة المجتمع وضميره ومواقفه.

وهذه بعض العيّنات الحية من تأييد الله لرسوله بالحفظ والعناية، وقد مرّت أمثلة كثيرة في المباحث السابقة، تندرج كلها في هذا السياق بمفهومه العام الشامل.

ففي الحديث أن رسول الله ﷺ قال مخبرًا عمّا كان الله يحفظه منه:

«لقد رأيتني في غلمان قريش ننقلُ الحجارةَ لبعضِ ما يلعبُ به الغلمانُ، كلُّنا قد تعرّى وأخذ إزَارَه، وجعلَهُ على رقبَتِه، يحملُ عليه الحجارةَ، فإني لأقبلُ معهم كذلك وأدبرُ، إذ لاكمني لاكم ما أراه لكمة وجيعة، ثم قال شدّ عليك إزارُك، قال فأخذتُه فشددتُه عليّ، ثم جعلتُ أحملُ الحجارةَ على رقبتي، إزاري عليّ من بين أصحابي»(٦٩).

وأثناء إعادة قريش بناء الكعبة المشرّفة، شارك رسول الله ﷺ مع عمه العباس في نقل الحجارة، فقال له: اجعل إزارك على رقبتك ليقيك الحجارة، فخر إلى الأرض، وطمحت عيناه إلى السماء ثم أفاق فقال: **«إزاري، إزاري»** فشد عليه(٧٠)، وفي رواية فما رؤي بعد ذلك عريانًا(٧١).

وعن زيد بن حارثة قال: فوالذي أكرمه ـ أي رسول الله ﷺ ـ وأنزل عليه الكتاب ما استلم صنمًا قط، حتى أكرمه الله تعالى بالذي أكرمه، وأنزل عليه(٧٢).

قال ابن إسحاق:

---

(٦٩) ابن كثير، السيرة النبوية ١/ ٢٥٠.

(٧٠) البخاري في كتاب، الحج. باب: فضل مكة وبنيانها (فتح الباري ٣/ ٣٤٤).

(٧١) ابن حجر، فتح الباري ٣/ ٣٤٦.

(٧٢) ابن كثير، السيرة النبوية ١/ ٢٥٣.

«فشبَّ رسولُ الله ﷺ، يكلؤه الله ويحفظه، ويحوطه من أقذار الجاهلية، لما يريد من كرامته ورسالته، حتى أن بلغ أن كان رجلاً أفضل قومه مروءة، وأحسنهم خلقًا، وأكرمهم حسبًا، وأحسنهم جوارًا، وأعظمهم حلمًا، وأصدقهم حديثًا، وأعظمهم أمانةً، وأبعدهم عن الفحش، والأخلاق التي تدنس الرجال تنزّهًا وتكرّمًا، حتى ما اسمه في قومه إلاّ «الأمين» لما جمع الله فيه من الأمور الصالحة»[٧٣].

وهو ما لخّصه الله تعالى في وصفه الجامع لرسوله وثنائه عليه بقوله:

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤ ﴾ [القلم: ٤] أي بلغت قمة الكمال الإنساني في طهارة النفس، وقوة الإرادة، وبهذا يزداد وضوحًا معنى التمكّن الذي أفاده حرف الاستعلاء في قوله: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤ ﴾ فهو متمكن منه الخلق العظيم في نفسه، ومتمكن منه في دعوته»[٧٤].

هكذا شملت الرعاية الربانية محمدًا ﷺ تربية وتأهيلاً، حتى تكاملت أبعادُ شخصيته الرسالية عبر التأهيل الفطري، والتأهيل الاكتسابي، والتأهيل التأييدي، فأصبح عليه السلام خلاصة الكفاية الإنسانية يومئذ. صار «أصلح رجل من أصلح بيت في أصلح زمان»[٧٥]، للاضطلاع بأعباء الرسالة الخاتمة، اجتمعت فيه بصورة فذّة فريدة طبائعُ العظمة الأربع:

«طبيعة العبادة، وطبيعة الفكر، وطبيعة التعبير الجميل، وطبيعة العمل والحركة» فكان بحق خير مرشح مؤهل للتشرف بالرسالة، وإسعاد الإنسانية بها.

ب ـ تشريفه عليه السلام بالنبوة

إن الرسول ﷺ قبل أن يصبح نبيًا رسولاً، مكلفًا بالدعوة إلى الإسلام،

---

(٧٣) المرجع نفسه ١/ ٢٥٠.
(٧٤) الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير ٢٩/ ٦٤.
(٧٥) العقاد، عبقرية محمد ١٦/ ١٥٤.

والعمل على تجسيد مفاهيمه في واقع الحياة، خضع كما رأينا لإعداد خاص يؤهله للدور الذي ينتظره، وقد وقفنا على جوانب من هذا الإعداد التأهيلي في المبحث السابق.

وقد تبيّن لي من خلال تتبع أحداث حياته عبر محاور التأهيل الثلاثة:

- التأهيل الفطري.
- التأهيل الاكتسابي.
- التأهيل التأييدي.

إن مشاركته البارزة في إعادة بناء الكعبة في الخامسة والثلاثين(٧٦) من عمره، من المنعطفات المهمة في تأهيله التأييدي، وهو ما أدركه بعض زعماء الجاهلية، وتحسّبوا لعواقبه، عندما قال أحدهم يعقب على القوم ويأسف لصنيعهم:

«واعجباه لقوم أهل شرف وعقول، وسن وأموال، وعمدوا إلى أصغرهم سنًا، وأقلهم مالاً فرأسوه عليهم في «مكرمتهم» وحوزتهم، كأنهم خدام له!! أما والله ليفوتنهم سبقًا، وليقسمن عليهم حظوظًا وجدوداً»(٧٧).

فقد وفقه الله تعالى إلى مكرمة عظيمة هيأها له ليقوِّي مركزه في مكة، ويدعم مكانته لدى الرأي العام القرشي، الذي أصبح يشكّل بالنسبة له الشخصية المحورية المؤهلة لصناعة المواقف الكبرى، وقيادة الأحداث الحاسمة في حياته، كما يشير إلى ذلك لقب «الأمين» الذي صار يُلقَّب به.

جاءت هذه المكرمة في المرحلة الحاسمة، لتتوج مراحل التأهيل السابقة، وتبدأ مرحلة جديدة في حياته عليه الصلاة والسلام، ينتقل عبرها من

---

(٧٦) المباركفوري، الرحيق المختوم / ٧٠.

(٧٧) النجم عمر بن فهد، اتحاف الورى بأخبار أم القرى ١/١٥٨. عرجون، محمد رسول الله ١/١٨٨.

البشر السوي إلى البشر النبي، ثم من البشر النبي إلى البشر الرسول[٧٨]، وهو ما سنحاول بيانه في هذا المبحث.

١ ـ إرهاصات التحول من البشر السوي إلى البشر النبي

وهي التي تمّت في الفترة ما بين مشاركته عليه السلام في إعادة بناء الكعبة إلى بداية نزول الوحي عليه في تمام الأربعين من عمره.

وكما سبقت الإشارة، فإن تدخله البارز في وضع الحجر الأسود، ونجاحه البارع الباهر في حقن دماء القبائل، التي تخاصمت وتخالفت وأعدت للقتال، وتعاهد بعضها مع بعض على الموت[٧٩]، مؤشر مهم جدًا، نحسبه من المؤيدات التأهيلية، القوية، بين يدي مرحلة جديدة من الإعداد المتميز يتأهل فيها عليه الصلاة والسلام لتلقي الوحي والاتصال بالملأ الأعلى.

فالمرحلة السابقة، حققت فيها التربية التأهيلية للنبي ﷺ الارتقاء به إلى مستوى البشر السوي، كما دلّ على ذلك وصفُه بالأمين، وارتضاؤه حكمًا في إنهاء الأزمة العاصفة التي ثارت بمناسبة الحرص على الاستئثار بمكرمة وضع الحجر الأسود.

والمرحلة التالية على قِصرها من الناحية الزمنية، وشدّتها من الناحية النفسية، هي التي نقلت الرسول عليه الصلاة والسلام من البشر السوي إلى البشر النبي، عبر سلسلة من الإرهاصات المباشرة، أفضت به في النهاية إلى النبوة، وسنقتصر على بعضها بصورة مجملة.

الرؤيا الصادقة

وهي بداية الإرهاص الحقيقي بالنبوة، فكان عليه الصلاة والسلام لا يرى

---

(٧٨) محمد الصادق عرجون، محمد رسول الله ١/ ٢٧٠. د. حسين مؤنس، دراسات في السيرة النبوية / ٨٤.

(٧٩) ابن سيد الناس، عيون الأثر ١/ ٦٥.

رؤيا إلا وجاءت مثل فلق الصبح، كما جاء في حديث عائشة رضي الله عنها التي قالت:

«أول ما بدئ به رسولُ الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا، إلا جاءت مثل فَلَق الصُّبح»[٨٠].

أي كاملة ثابتة واضحة كما رآها في المنام، وكأن الله نقشها في نفسه نقشًا[٨١]، كما يوحي بذلك لفظ «فلق الصبح».

وفي هذا تهيئة نفسية واجتماعية كبيرة لرسول الله ﷺ، وتأهيل له لدخول عالم النبوة، والتعامل المباشر مع مخلوقاته وفي مقدمتهم الملائكة.

وتبدو الأهمية النفسية والاجتماعية لهذه الرؤيا الصالحة، أو الصادقة في بناء ثقة الرسول في نفسه، من جهة، وثقة المجتمع فيه من جهة أخرى، وفي ذلك تمهيد وتوطئة للموقف من الوحي في ما بعد[٨٢]، سواء من جهته هو، أو من جهة المحيط القريب منه بالخصوص، فقد مكث عليه السلام مدة يعيش في هذه الأجواء النفسية المشرقة التي فتحت له أبوابًا واسعة على عالم النبوة، على اعتبار أن الرؤيا جزء من أجزاء النبوّة كما قال عليه الصلاة والسلام:

«رؤيا الرّجل الصّالح جزءٌ من ستة وأربعين جزءًا من النبوّة» وفي رواية «جزء من سبعين جزءًا من النبوّة»[٨٣].

التخلّي والعزلة

في حديث عائشة السابق، تحديد لمراحل التحول في المسيرة النبوية نحو دخول عالم النبوة، حيث كانت الرؤيا الصادقة بوابة هذا التحول العميق، الذي سرعان ما أفضى به إلى التخلي والعزلة كما جاء في الحديث:

---

(٨٠) البخاري، كيف كان بدء الوحي (من فتح الباري. ١/ ١٨).

(٨١) عرجون، محمد رسول الله ١/ ٢٥٤.

(٨٢) ابن حجر، فتح الباري ١/ ١٨.

(٨٣) مختصر صحيح مسلم، كتاب: الرؤيا، باب: رؤيا المؤمن / ٤٠٠، ٤٠١.

«. . ثم حبِّب إليه الخلاء، وكان يخلو بغار حِراء، فيتحنّث فيه، وهو التعبّد الليالي ذات العدد، قبل أن ينزعَ إلى أهلِه، ويتزوّدَ لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثِلها حتى جاءه الحقُّ وهو في غارِ حِراء»[٨٤].

وفي حديث آخر للترمذي إشارة إلى قوة تجاوب النبي ﷺ مع هذه الوضعية الجديدة، كما يتضح ذلك من قوله نقلاً عن عائشة رضي الله عنها:

«. . وحبب إليه الخلوة، فلم يكن شيء أحب إليه من أن يخلو»[٨٥]، ليعمق تأملاته في الكون والحياة والإنسان، وينخلع مرحليًا عن واقع الجاهلية من حوله، ويراجع مفاسدها، ويترقّى روحيًا، وتشرق أنوار الربّانية في نفسه، ويتخفف من أثقال الطبيعة البشرية، إعدادًا له لمرحلة النبوة، وما تحتاجه من إشراق وشفافية وروحانية.

فالخلوة بما تعنيه من انقطاع عن مشاغل الحياة، وهموم المجتمع، وصخب حركته الدائبة، وانعزال تام لبعض الوقت عن الناس، طرف من تدبير الله لرسوله عليه الصلاة والسلام، ليُعِدّه لما ينتظره من الأمر العظيم، ذلك لأن «الاستغراق في واقع الحياة يجعل النفس تألفه، وتستنيم له»[٨٦] وتعجز عن نقده ورفضه والسعي لتغييره، في حين تمكن العزلة والانخلاع عن هذا الواقع الإنساني من مواجهة موضوعية له، والانفلات من قيوده ومقاييسه وأعرافه وتقاليده الثقيلة، والاستعلاء على همومه الصغيرة، التي تستغرق حياة جمهور الناس، والارتفاع إلى الآفاق الإنسانية الرَّحبة.

يقول سيد قطب:

«لا بد لأي روح يراد لها أن تؤثر في واقع الحياة البشرية. . لا بد لهذه الروح من خلوة وعزلة بعض الوقت، وانقطاع عن شواغل الأرض، وضجّة الحياة، وهموم الناس الصغيرة التي تشغل الحياة.

---

(٨٤) البخاري، كيف كان بدء الوحي (من فتح الباري. ١/ ١٨).
(٨٥) ابن كثير، السيرة النبوية ١/ ٣٨٥.
(٨٦) سيد قطب، في ظلال القرآن ٦/ ٣٧٤١.

لا بد من فترة للتأمل والتدبّر والتعامل مع الكون الكبير، وحقائقه الطليقة[٨٧] تكون بمثابة فترة حضانة يؤهل فيها من اختارته الإرادة الإلٰهية ليحمل للناس هدى الله.

فالخلوة النبوية قبيل نزول الوحي عليه، أصبحت خطوة حاسمة من خطوات تحوّله الروحي[٨٨]، وتأهيله لتلقّي أمر الله، والدخول في عالم النبوة، وهو ما توحي به عبارةُ حديث الترمذي السابق «. . فلم يكن شيء أحب إليه من أن يخلو».

وقد جاء في سيرته عليه السلام، أنه كان «يجاور في حراء كل سنة شهرًا»[٨٩] ينقطع فيه عن غمار المجتمع، ويخلو بنفسه يطهّرها ويزكّيها، ويسمو بها درجاتٍ في مراقي الزلفى.

فشهر من الانقطاع في غار موحش، في جو ملؤه التأمّل العميق في هذا الكون الفسيح، يترك آثارًا عميقة في النفس، ويملؤها بالرهبة والخشوع، ويصلها بالله عز وجل أقوى وأعمق ما يكون الاتصال، فتحسّ به، وتستشعر عظمته في كل شيء داخلها، ومن حولها، فتزداد صلة به، وقربًا منه، وتناغمًا مع سننه في خلقه.

وتوحي بعض الإشارات إلى أنّ هذه الخلوة ازدادت وتصاعدت قبيل مبعثه بقليل كما يستشف ذلك من قول ابن كثير:

«. . . وقويت محبته للخلوة عند قرب إيحاء الله إليه، صلوات الله وسلامه عليه»[٩٠]، بعد أن حبّب إليه الخلاءَ والانفراد قبل ذلك عمومًا[٩١].

تناغم المحيط ومشاركته في إعداده عليه السلام للنبوّة

وأقصد بالمحيط المؤثرات الخارجية، ما كان منها خفيًا من أمور الغيب،

---

(٨٧) سيد قطب، في ظلال القرآن ٦/ ٣٧٤١.
(٨٨) د. حسين مؤنس، دراسات في السيرة النبوية / ٨٠.
(٨٩) ابن هشام، السيرة النبوية ١/ ٢٥١.
(٩٠) السيرة النبوية ١/ ٣٨٨.
(٩١) ابن القيم، زاد المعاد ١/ ٨٨.

وما كان منها متصلاً بالبشارات التي شاعت بين الناس، بشأن مبعثه عليه السلام، والتي كان لأهل الكتاب[٩٢] دورٌ في شيوعها، لورود الكلام عنه في كتبهم المقدسة، رغم ما لحقها من تحريف، ونالها من تزييف مع مرور الزمن. كما يدخل في نفس السياق الرؤى الكثيرة، التي رآها أناس كثيرون[٩٣]، وأذاعوها في مجالسهم وأسواقهم ومنتدياتهم. .

وسأقتصر هنا على نموذج من تناغم المحيط في إعداده عليه الصلاة والسلام، وهو متصل بتدخل بعض المؤثرات الخفية من مخلوقات الله تعالى، كما تشير إلى ذلك نصوصٌ عديدة، فقد جاء عن ابن مسعود رضي الله عنه: أن النبي ﷺ أقام ثلاث سنين يسمع الصوت، ولا يدري ما هو، ويرى الضوء. وعلق على هذا النجم عمر بن فهد بقوله: «وأظنه يعني بثلاث سنين: هذه ـ أي التاسعة والثلاثون ـ والتي قبلها والتي بعدها»[٩٤].

وذكر ابن هشام أن رسول الله ﷺ حين أراده الله بكرامته، وابتدأه بالنبوة، كان إذا خرج لحاجة ابتعد حتى تحسُر عنه البيوت، ويُفضي إلى شعاب مكة وبطون أوديتها، فلا يمرّ بحجر ولا شجر إلاّ قال: السلام عليك يا رسول الله. . فيلتفت رسولُ الله ﷺ حوله وعن يمينه وشماله وخلفه، فلا يرى إلاّ الشجرَ والحجر[٩٥].

كما روى مسلم عن جابر بن سمرة أن رسول الله ﷺ قال: **«إني لأعرفُ حجرًا بمكةَ كان يسلّمُ عليّ قبل أن أُبعثَ، إنّي لأعرفُه الآن»**[٩٦].

وتوضح رواية عن الإمام أحمد، شدة هذه العجائب التي كان يسمعها

---

(٩٢) ابن هشام، السيرة النبوية ١/٢٤٨. ابن كثير، السيرة النبوية ١/٢٨٦.
(٩٣) المرجع الأخير ١/٢٨٦ وما بعدها. قلعجي، دراسة تحليلية لشخصية الرسول/١٠٨.
(٩٤) اتحاف الورى بأخبار أم القرى ١/١٦٢.
(٩٥) السيرة النبوية ١/٢٥٠.
(٩٦) مختصر صحيح مسلم، كتاب: الفضائل، باب: تسليم الحجر على النبي ﷺ/٤٠٣.

ويراها، وقوة تأثيرها في نفسه، فقد أُثر عن السيدة خديجة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال لها:

«إنّي أرى ضوءًا وأسمع صوتًا، وإني أخشى أن يكونَ بي جنّ» فقالت: لم يكن الله ليفعل ذلك بك يا ابن عبد الله، وأخبرت ورقة بن نوفل بذلك فطمأنَها، وبشَّرَها قائلاً: إن يكُ صادقًا، فإن هذا ناموس مثل ناموس موسى[٩٧].

هذه نماذج من الإرهاصات التي مهّدت لمرحلة النبوة، وأعدت النبي ﷺ وأهَّلَته لتلقّي الوحي الأعلى، وهيأته نفسيًا وفكريًا وجسميًا لما هو مُقبل عليه، ومنتَدَبٌ له من قِبَل الله عز وجل.

٢ ـ دخوله الرسمي عالم النبوه

بعد كل هذه التحولات والإرهاصات، جاءت اللحظة التاريخية الحاسمة في حياة الرسول ﷺ، وحياة الإنسانية بعده، لينتقل من وضعية البشر السوي إلى وضعية البشر النبي، حيث يتلقى الوحي من الله عزّ وجلّ، وتبث إليه ألوان وأنواع من العلم والهداية التي تستقيم بها حياة الإنسان، وتتماسك بها المجتمعات، وترتقي بها الحضارات، وتتحقق بها مستويات رفيعة من الاستخلاف.

ففي تمام الأربعين من عمره عليه السلام، وهو في خلوته في غار حراء، فاجأه الوحي ووجد ملكًا يقول له: «**إقرأ**» فيردّ عليه صلواتُ الله وسلامه عليه مفجوءًا مرتبكًا: «**ما أنا بقارىء**». أي ما أحسن القراءة[٩٨]. فأخذه الملك فغطّه وعصره عصرًا شديدًا، وغمّه حتى كادت تنحبس أنفاسُه، وبلغ منه الجهد مبلغًا عبر عنه عليه السلام بقوله: «**فغتني به حتى ظننت أنه الموت ثم أرسلني**»، وأعاد الطلب منه بالقراءة مرة ثانية: فكرّر عليه السلام جوابه الأول: «**ما أنا بقارئ**»؟

---

(٩٧) مسند الإمام أحمد ٤/٣٠٣، طبعة دار المعارف.

(٩٨) فتح الباري ١/١٩.

فأخذه مرة أخرى وكبسه وضغطه ضغطًا شديدًا، أحسّ معه ثانية أنه الموت، ثم أرسله وقال له «إقرأ» للمرة الثالثة، فلم يزد عليه السلام على قوله «ما أنا بقارئ» فضمه إليه وعصره بقوة ثم أرسله وقال[99].

﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ ﴾ [العلق: ١ ـ ٥]، فنقشت في قلبه عليه السلام. وبعد فترة من الانتظار، وسيادة الصمت المطبق في الغار وتأكد الرسول ﷺ[100] من نهاية المشهد، استجمع نفسه وعاد إليه روعُه، فهبّ للعودة مسرعًا إلى بيته: «يرجف فؤاده، فدخل على خديجة بنت خويلد رضي الله عنها، فقال: «زمّلوني زمّلوني» حتى ذهب عنه الرَّوْع فقال لخديجة وأخبرها الخبر: «لقد خشيتُ على نفسي...»[101]، فطمأنته وثبّتته بما ذكرتْ له من جليل صفاته، وحُسْن سجاياه، ونصاعة صفحته قائلة:

«كلاّ والله لا يخزيك الله أبدًا، إنك لتصلُ الرحمَ، وتحملُ الكلّ، وتكسبُ المعدوم، وتقري الضيفَ، وتعين على نوائب الحق».

ثم انطلقت به إلى ابن عمها ورقة بن نوفل، الذي كان لديه عِلْمٌ بالكتاب من جهة، ومعرفة بأحوال الرسول ﷺ من جهة أخرى، بواسطة خديجة التي كانت تطلعه على ما كان ينطوي عليه صلوات الله وسلامه عليه، من وجوه العظمة[102] والتفرد، فلما سمع منه تفاصيل ما جرى له، قال: «هذا الناموس الذي نزّل الله على موسى، يا ليتني فيها جذعًا، يا ليتني أكون حيًّا إذ يخرجك قومك، فقال رسول الله ﷺ أَوَ مُخرجِي هم؟ قال: نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلاّ عُوْدِي، وإن يدركني يومُك أنصرك نصرًا مؤزرًا»[103].

وبهذا يكون الرسول ﷺ قد تجاوز عتبة البشرية السويّة ودخل بصفة

(٩٩) ابن كثير، السيرة النبوية ١/٤٠٧.
(١٠٠) ابن هشام، السيرة النبوية ١/٢٥٣.
(١٠١) البخاري، كيف كان بدء الوحي (من فتح الباري ١/١٩).
(١٠٢) ابن كثير، السيرة النبوية ١/٣٩٦.
(١٠٣) البخاري. كيف كان بدء الوحي (من فتح الباري ١/١٩).

رسمية عالم النبوة، حيث يُطْلِعُه الله تعالى على بعض أسرار عالم الغيب، بعد أن نضجت خبرته بعالم الشهادة، لكي يقوم بدوره في بيان الهدى الذي به تنتظم حياة الإنسانية، ويتناسق سيرها وتتحدد وجهته.

وقد تبين لنا مما سبق، أن دخوله عليه السلام عالم النبوة، لم يكن سهلاً، بل تمّ عبر مخاض شاق، كما يبدو ذلك جليًّا من شدة المعاناة التي تعرّض لها، وهو يعيش لحظات انفتاح عالم الغيب أمامه، ليصير نبيًّا مُوحَى إليه، يتلقى الوحي الإلٰهي العظيم، حيث ظن عليه السلام أن حياته توشك أن تتعرض للخطر، ويداهمها الموت من شدة ما ألمّ به من هول المفاجأة، وعنف الصدمة الأولى، حينما أخذ هذا الوافد الجديد يطالبه بالقراءة، ويغطّه غطًّا شديدًا ثلاث مرات، تركت آثارًا عميقة في كيانه عليه السلام، كما يؤشر على ذلك مثل هذه العبارات الموحية، التي صدرت منه مباشرة ونطق بها هو، أو تلك التي وصفت بها حالته:

«فغتني.. حتى ظننت أنه الموت» وفي رواية **«فغطني حتى بلغ منّي الجهد»**، **«لقد خشيتُ على نفسي»**، ولما عاد من الغار جاء وصف حاله في الحديث: «فرجع بها.. يرجف فؤاده»، فقال لخديجة رضي الله عنها: **«زمّلوني زمّلوني»** من شدة ما كان يشعر به من الجهد ورجفان البدن[١٠٤].

ولعله من المفيد هنا، الإشارة إلى بعض ما ذكره العلماء في حكمة ما لاقاه الرسول ﷺ من الشدّة والمعاناة، وهو يعبُر عالم البشرية إلى عالم النبوة، لكي يكون بشرًا نبيًّا يوحى إليه، ويأتيه خبر السماء.

قال ابن حجر في هذا الغطّ الشديد إن الحكمة منه: «شغله عن الالتفات لشيء آخر، ولإظهار الشدة والجد في الأمر تنبيهًا على ثقل القول الذي سيلقى إليه»[١٠٥].

---

(١٠٤) ابن حجر، **فتح الباري** ١/١٩.
(١٠٥) المرجع نفسه ٨/ ٥٨٣.

وذكر ابن كثير أنه: «إنما فعل ذلك به ليبلو صبرَه، ويحسن تأديبه، فيرتاض لاحتمال ما كلف به من أعباء النبوة.. ويستيقظ لعظمة ما يُلقى إليه بعد هذا الصنيع المشقّ على النفوس، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝﴾ [المزمل: ٥]، ولهذا كان عليه السلام إذا جاءه الوحي يحمرّ وجهُه، ويغط كما يغطّ البكر من الإبل ويتفصّد جبينُه عرقًا في اليوم الشديد البرد»(١٠٦).

ج ـ التكليف الرسالي وبداية الدعوة

إن نزول أوائل «سورة العلق» على رسول الله ﷺ في غار حراء، وما رافق ذلك من إجراءات سبق الحديث عنها، نقل رسول الله عليه الصلاة والسلام نقلة حاسمة، أدخلته عالم النبوة، بصورة مباشرة جعلته يدرك أبعاد الحدث ويعي دلالاته، بعدما أخبره ورقة أنه سيكون النبي الذي بشرت به الكتب السابقة.

وهذا الوعي نلحظه بقوة في الحالة النفسية المتوترة جدًّا لرسول الله ﷺ، بعد ذهاب روع الصدمة الأُولى عنه، واطمئنانه إلى حديثي خديجة رضي الله عنها، وورقة بن نوفل، من أن ما حدث له كرامة ربانيّة تدخله عالم النبوة، وليس غيرها مما يُخشى منه على التوازن النفسي والعقلي للإنسان، كما يبدو ذلك من قوله عليه السلام في حديث البخاري السابق: **«لقد خشيت على نفسي»**.

لقد طابت نفسه عليه السلام واطمأنت لهذه الكرامة العظيمة، التي أخذ يرقب حلقاتها بشغف شديد، وينتظر ما سيصدر إليه من أوامر، ويطلب منه من أعمال بلهفة وشوق، وهو ما لم يحدث بالسرعة التي كان يتمنّاها عليه السلام، فتحول هذا الاطمئنان والشوق والتشوف إلى قلق، أخذ يتصاعد مع مرور الوقت، ويكبر داخله، مما جعله يغدو مرارًا إلى حراء، وإلى بعض الجبال المحيطة بمكة يتطلع إلى الوحي من جديد في حالة نفسية شديدة التوتر.

---

(١٠٦) السيرة النبوية ١/ ٣٩٣.

فقد جاء في صحيح البخاري أن الوحي فتر «حتى حزن النبي ﷺ في ما بَلَغَنا حزنًا غدًا منه مرارًا كي يتردى من رؤوس شواهق الجبال، فلما أوفى بذروة جبل لكي يلقي من نفسه تبدى له جبريل فقال له: يا محمد إنك رسول الله حقًّا، فيسكن لذلك جأشُه وتقرّ نفسه فيرجع، فإذا طالت عليه فترة الوحي غدا لمثل ذلك، فإذا أوفى بذروة جبل تبدى له جبريل وقال له مثل ذلــك»[١٠٧].

ومكث عليه السلام فترة قدّرها[١٠٨] بعض العلماء بثلاث سنوات، وبعضهم بسنتين ونصف، والبعض الآخر بستة أشهر، وذهب فريق إلى تقديرها بأيام معدودات لا تتجاوز الشهر[١٠٩]، ليستعيد نفسه، وتخفّ عليه وطأة الصدمة الأولى، التي أثّرت فيه نفسيًا وجسميًا تأثيرًا كبيرًا، ويطمئن إلى ما نزل إليه، وتركن إليه نفسه، وتقوى عنده دواعي الشوق إلى معرفة المزيد عن حقيقة هذه النبوّة.

وهو ما يؤكده كلام جيد أورده ابن حجر نقلاً عن الإسماعيلي نثبته لأهميته، فقد قال بعد أن أوضح المقدمات التأسيسية السابقة عن التكليف بالرسالة.

«ثم كان من مقدمات تأسيس النبوة فترة الوحي ليدرج فيه ويمرن عليه، فشقّ عليه فتورُه، إذ لم يكن خوطب عن الله بعد أنك رسول من الله والمبعوث إلى عباده، فأشفق أن يكون ذلك أمر بدئ به ثم لم يرد استفهامه، فحزن لذلك حتى تدرّج على احتمال أعباء النبوة، والصبر على ثقل ما يَرِد عليه، . .»[١١٠].

---

(١٠٧) البخاري، في كتاب التعبير. باب، أول ما بدئ به عليه السلام من الوحي (من فتح الباري ٩/١) هذا الحديث من بلاغات الزهري ردّه بعض المعاصرين بشدة، أمثال محمد أبو شهبة في كتابه: السيرة النبوية ٢٦٧/١. والصادق عرجون في كتابه، محمد رسول الله ٣٨٥/١. ومولانا محمد علي في كتابه، حياة محمد ورسالته / ٧١.

(١٠٨) ابن حجر، فتح الباري ٣٠٣/١٢.

(١٠٩) الصادق عرجون، محمد رسول الله ٤١٢/١. المباركفوري، الرحيق المختوم/ ٧٨.

(١١٠) فتح الباري ٣٠٣/١٢.

١ ـ التكليف بالرسالة

فلما توطّنت نفسه على ذلك، أخذت تتشوف بلهفة إلى المزيد من البيان. جاءه الوحي مرة أخرى، يحدد له مهمته الرسالية، ويدعوه للانطلاق في إنجازها دون توانٍ، فكانت تلك هي مرحلة التكليف بالرسالة.

فقد جاء في الحديث الصحيح عن جابر بن عبد الله أن الرسول ﷺ قال:

«بينما أنا أمشي إذْ سمعتُ صوتًا من السماءِ فرفعتُ بَصَري فإذا الملكُ الذي جاءني بحراء جالسٌ على كرسي بين السّماء والأرض، فرعبتُ منه، فرجعتُ فقلت: زمّلوني»، فأنزل الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝ قُمْ فَأَنذِرْ ۝﴾ [المدثر: ١، ٢] إلى قوله ﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝﴾ [المدثر: ٥] **فحميَ الوحيُ وتتابعَ»**[١١١].

قال ابن كثير: «وبهذا الأمر حصل الإرسال إلى الناس وبالأول ـ يعني «إقرأ» ـ حصلت النبوة»[١١٢] وهو ما يؤكده ابن تيميّة بقوله: «وهذا الذي ينبغي، فإن قوله: «إقرأ» أمرٌ بالقراءة لا بتبليغ الرسالة وبذلك صار نبيًا، وقوله: «قم فأنذر» أمر بالإنذار، وبذلك صار رسولاً نبيًا»[١١٣].

وبهذا تم التكليف الرسالي له عليه السلام، وجاءت مرحلة الانطلاق في العمل من أجل تبليغ الرسالة، وتجسيد أهدافها وقِيَمها في واقع الناس، عبر حركة جهادية منظمة وطويلة، حددت معالمها الكبرى الآياتُ الأولى من «سورة المدثر».

ويُعَدّ التحوّل المعرفي أول معلم من معالم هذه الرسالة الخاتمة، كما سبق الحديث عنه في الفصلين الثاني والثالث من الباب الأول، وهو ما نراه في فاتحة الوحي، في مطلع «سورة العلق».

---

(١١١) البخاري، باب: كيف كان بدء الوحي (من فتح الباري ١/ ٣٣).
(١١٢) السيرة النبوية ١/ ٤١٤.
(١١٣) مجموع الفتاوي ١٦/ ٢٥٥.

وبعد التحذير من الانحراف عن سُنن الله الكونية والتشريعية ثاني معلم من معالم الرسالة، التي جاءت ترسي أسس الانطلاق الحضاري المتوازن، بالتركيز على التحذير من أسباب الضعف والسقوط، والدلالة على أسباب القوة والصعود.

ثم يأتي التأكيد على قضية التوحيد وإرجاع الكبرياء والعلو والعظمة لله وحده كمعلم ثالث من معالم الرسالة.

ثم بَعْدَه التطهّر الباطني والظاهري، والتحقّق بصفات الكمال البشري النفسية والسلوكية كمعلم خامس من معالم الرسالة.

والحرص على التواضع لله وعدم استكثار ما يقدم في سبيله من جهد أو تضحية مالية أو بدنية مهما تعاظمت، والجد في بذل المزيد.

ثم يأتي المعلم الأخير وهو الصبر على ما يلقاه المؤمن من متاعب ومشاق في سبيل إنجاز كل هذه الأهداف كإجراء عملي أساسي، لمجابهة التحديات والتغلب عليها.

ومع أن هذه التوجيهات قصد بها الرسول ﷺ كقائم بالدعوة، إلاّ أنها دلّتْ في الوقت نفسه على الآفاق الحضارية الكبرى للرسالة الإسلامية، وأفصحت عن توجهاتها المبدئية منذ الانطلاقة الأُولى.

٢ ـ بداية الدعوة

بعد مرحلة طويلة من الإعداد والتأهيل الرسالي، الذي انتهى إلى التكليف بالرسالة، وبمجرد استرجاعه عليه السلام لأنفاسه من ثقل الحمل الذي ألقي عليه، انطلق في عملية التبليغ دون توانٍ، مؤدّيًا لِحَقِّ الله والعباد عليه، بعزم وحزم وثبات.

فقد استشعر عليه السلام منذ البداية، ثقلَ ما أنيط به من مسؤولية عظيمة. كما يوحي بذلك فعل الأمر ﴿قُمْ فَأَنذِرْ ۝﴾ [المدثر: ٢] الذي وعاه ﷺ جيدًا،

واستيقن أن مرحلة جديدة في حياته وحياة الإنسانية قد بدأت فنهض للقيام بالأمر، وفرّغ نفسه كلها له، كما تترجم ذلك سيرتُه الشريفة، إلى درجة أنّ رجلاً كان عنده مال لرسول الله ﷺ، فجاءه يكلمه بشأنه، فأخبره عليه السلام: أن ذلك لم يعد يعنيه كثيرًا[١١٤]، فقد حُمِّل مسؤولية الاضطلاع بأمر يتوقف عليه التوازن العالمي، ومصير الإنسانية في عاجلها وآجلها.

أما كيف بدأت الدعوة؟ وكيف تحركت في المجتمع المكّي؟ وعلى ماذا كانت تركز؟ ومواقف المجتمع المكي منها؟ ومناهج مواجهة التحديات؟.

كل هذه القضايا المهمة ستكون بحول الله موضع بحث ودراسة في الباب التالي. وقد رأيت في هذا الفصل، الإشارة السريعة إلى بداية الدعوة، تساوقًا مع السياق التاريخي المنهجي للموضوع وتجنبًا للتكرار.

فالرسول عليه الصلاة والسلام بعد ما جاءه البيان بالتكليف الرسالي، وحددت له الخطوط العريضة للدعوة، بدأ يتحرك وفق استراتيجية محددة استلهم فيها واقع البيئة من جهة، وأهداف الرسالة، وطبيعة المرحلة من جهة أخرى، والإمكانات المتاحة له من جهة ثالثة.

ويمكننا هنا أن نشير إجمالاً إلى ملامح هذا التحرك الاستراتيجي المحكم، من خلال المراحل التي مرت بها الدعوة، ونفذت عبرها إلى عقول الناس ونفوسهم في البيئة المكية وغيرها.. وهي كما سيرد الحديث عنها مفصلاً في ما بعد، ثلاث مراحل تأسيسية كبرى:

استغرقت الأولى ثلاث سنوات، وتميزت بالهدوء والعمل الفردي، سواء من جهة الرسول عليه الصلاة والسلام، أو من جهة الطليعة الأولى للدعوة، كأبي بكر وعثمان والزبير، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص... وغيرهم[١١٥].

---

(١١٤) د. حسين مؤنس، مرجع السابق / ٧٩.
(١١٥) ابن هشام، السيرة النبوية ١/ ٢٦٧.

وامتدت الثانية: سبع سنوات تقريبًا، وبدأت بالإعلان العام للدعوة، والانفتاح التام على المجتمع المكي، والدخول معه في حوار شامل منضبط، تصاعدت معه وتائر التحدي للدعوة وقيادتها وأتباعها بشكل حاد وعنيف، استدعى حكمة بالغة في مواجهة الاستفزازات، والتحدّي وكبح أنفاس الدعوة..

واستغرقت الثالثة: ثلاث سنوات، بدأت بتوسيع دائرة الانفتاح، لتشمل مناطق أخرى خارج بيئة مكة، وقد جاءت عقب وفاة أبي طالب وخديجة رضي الله عنها، وتطور المجابهة بين الدعوة والمجتمع المكي، واتخاذها أبعادًا خطيرة في الأذى، ومحاولة كسر شوكة المسلمين، وإجهاض مشروعهم الحضاري الجديد، الأمر الذي احتاج كذلك سياسة واقعية حكيمة، لمجابهة هذه التحديات المجنونة، وحماية الدعوة منها.

وقد استطاع رسول الله ﷺ عبر هذا التحرك الاستراتيجي المحكم، أن يقود الدعوة بكفاءة عالية، ويجنّبها المهالك والمتالف، ويخرج بها قوية، بعد جهاد مظنٍ امتد ثلاثة عشر عامًا، أسس فيها قاعدة الدولة الإسلامية التي قامت بعد ذلك في المدينة قوية شامخة، سرعان ما تهاوت أمامها أمم عريقة في المدنية والملك.

ومن خلال كلّ ما سبق نرى كيف امتدت يد العناية الإلٰهية إلى رسول الله ﷺ لتأهله تأهيلاً رساليًا متكاملاً فذًا، يمكّنه من أداء مهمته في إعادة التوازن النفسي والفكري والاجتماعي للحياة الإنسانية، بالدعوة إلى الإسلام، والعمل على تمكينه من صياغة الواقع المعاش، في كافة أبعاده، صياغة جديدة يتوافق فيها الإنسان مع فطرته، وفطرة الحياة من حوله.

الفصل الثالث

أهداف الدعوة في المرحلة المكّية

أ ـ بناء المنظومة العقدية

١ ـ أهمية المنظومة العقدية في الحياة الإنسانية
٢ ـ الإصلاح العقدي منطلق جميع الرسالات
٣ ـ المنطلق العقدي في المشروع التغييري للدعوة الإسلامية
٤ ـ مفردات المنظومة العقدية
٥ ـ الإصلاح العقدي محور ارتكاز الدعوة في الفترة المكية

ب ـ بناء المنظومة الفكرية

١ ـ أهمية المسألة الفكرية في المنظومة الاجتماعية
٢ ـ البُعد الفكري في المشروع التغييري للدعوة الإسلامية
٣ ـ محور الإصلاح الفكري في الفترة المكّية

ج ـ إرساء أُسس بنا المنظومة الاجتماعيّة

١ ـ أهمية المسألة الاجتماعية في الحياة الإنسانية
٢ ـ مكانة المسألة الاجتماعية في المشروع التغييري للدعوة الإسلامية

٣ ـ إرساء الأسس المبدئية لبناء المنظومة الاجتماعية من مرتكزات الدعوة في الفترة المكية

د ـ الإعداد لبناء الدولة

١ ـ أهمية الدولة في حياة الدعوة

٢ ـ عمله عليه السلام من أجل بناء الدولة

السؤال المنهجي المهم الآن، بعد معرفة التكليف الرسالي للنبي ﷺ، وأمره بالقيام بالدعوة إلى الإسلام، وتحركه فعلاً لإنجاز مهمته هو:

ما هي أهداف الدعوة في الفترة المكية؟ خاصة وأنها موضوع البحث أي الدعوة في الفترة المكية.

وتبدو الأهمية المنهجية الخاصة لهذا السؤال، في كونه سيساعدنا إلى حدّ بعيد في تقييم الجهد الضخم، الذي بذله النبي ﷺ، لأن الحكم على نتائج أي عمل من الأعمال، يكون تبعًا للأهداف التي كان يسعى لتحقيقها.

ماذا أنجز منها؟ أو بأي نسبة اقترب منها؟ فأهداف الدعوة في المرحلة المكية هي المقياس الذي ننظر من خلاله إلى النتائج التي وصلت إليها الدعوة طيلة ثلاثة عشر عامًا من الجهد المنهجي المنظّم الدؤوب.

ولعل من المفيد التأكيد، هنا، ونحن بصدد تحديد أهداف الدعوة في المرحلة المكية، أنه لا يمكننا أن نتناول الحديث عنها بمعزل عن الأهداف الاستراتيجية الشاملة للدعوة بصفة عامة، من حيث هي مشروع حضاري عالمي الآفاق، شمولي الأبعاد، إنساني التوجّهات، ذلك لأن الفترة المكية مرحلة حركية تأسيسية من مراحل الدعوة التي تكامل عبرها إنجاز المشروع الإسلامي

في أرض الواقع نظريًا وعمليًا، في حياته عليه الصلاة والسلام.

فأهداف الدعوة الإسلامية العامة واحدة في جميع المراحل، ولكن تحقيقها في الواقع المعاش هو الذي اختلف من مرحلة إلى أخرى، واستدعى من الناحية العملية الإجرائية ضبط أهداف مرحلية في إطار الاستراتيجية العامة للدعوة.

فأهداف الدعوة في مكّة هي أهداف الدعوة الكلية عمومًا، ولكنها تكيّفت مع المرحلة والبيئة في إطار نظام أو منهج الأولويات الذي أملته طبيعة:

ـ الدعوة نفسها.

ـ وضع البيئة التي بدأ فيها تنزيل المشروع على الواقع.

ـ وإمكانات الدعوة أو الحركة.

فهذه العوامل الموضوعية لها دخل كبير في تكييف منهجية العمل، وضبط أولوياته، وبلورة مواقفه. وهو ما سنقف عليه في الباب الثالث عند حديثنا عن التحديات التي واجهت الدعوة ومنهج مواجهتها.

وانطلاقًا من هذه المقدّمات واستذكارًا لأهداف الدعوة الإسلامية التي سبق الحديث عنها في الباب الأول، نستطيع أن نقول بأن الأهداف الاستراتيجية للدعوة عمومًا هي:

تحقيق مستوى راقٍ من الاستخلاف في الأرض، عبر التحقق الخالص الصواب بالعبودية لله عزّ وجلّ، كما أشار إلى ذلك القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦] بتحريك حياتهم كلها باسم الله ولله وعلى منهج الله، في صَلاتهم ونُسُكهم وحياتهم ومماتهم.

فالدعوة الإسلامية جاءت بمشروع استخلافي، يتكفّل بإحداث التوافق في حياة الإنسان، والانسجام في حركة المجتمع والتناغم مع الوجود الكوني.

وقد سبق أن تحدثنا عن الأبعاد الكلية الكبرى لهذا المشروع

الاستخلافي، والتي تتلخص في:

- الترقّي المعرفي.
- الترقي الروحي.
- الترقي الأخلاقي أو السلوكي.
- الترقي العمراني أو الحضاري.

في هذا الإطار وعلى ضوء هذه الأبعاد، نتحدث عن أهداف الدعوة في الفترة المكية، كمرحلة من مراحل الدعوة تشكل نقطة الانطلاق في الطريق الطويل الذي كان يجب على الدعوة أن تقطعه لكي تقترب من هذه الأهداف الاستراتيجية الكبرى التي يتحقق عبرها مشروعُ الاستخلاف.

ومن خلال تتبعي لأحداث السيرة عمومًا، وأحداث المرحلة المكية خصوصًا، تبيّن لي أن أهداف هذه الفترة التأسيسية تمحورت حول الأهداف التالية:

- بناء المنظومة العقدية.
- بناء المنظومة الفكرية.
- بناء المنظومة الاجتماعية.
- إعداد أرضية بناء المنظومة السياسية «بناء الدولة».

أ ـ بناء المنظومة العقدية

١ ـ أهمية المنظومة العقدية في الحياة الإنسانية

انطلاقًا من التوجّهات العالمية الشاملة للدعوة الإسلامية، التي تستهدف إحداث تحولات جذرية عميقة في الوضع الإنساني الذي اعترته اختلالات كثيرة على مستوى الفكر والسلوك والعمل والعلاقات.. كان الاهتمام ببناء المنظومة العقدية هو المدخل المحوري الأول لإنجاز هذه المهمة المصيرية في حياة الإنسان.

ذلك لأن «النظرة العامة إلى الوجود التي يأخذ بها الإنسان ويعتقد بحقائقها، ويتخذ منها عقيدة له وفلسفة لحياته، هي الأصل الذي تنبثق منه جميع نظراته الفكرية واتجاهاته السلوكية، وهي المحرك الخفي لأفكاره وسلوكه، وهي أساس اختلاف الحضارات والثقافات»[1]، وهو ما ركز عليه القرآن في نظرته الواقعية العميقة لمسألة التغيير، حيث نبّه إلى أن مركز الثقل في أي عمل تاريخي موفق، هو تغيير النفس، انطلاقًا من ضبط قناعاتها مع السنن التي فطر الله الخلق عليها، كما قال تعالى:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

وأوّل ما يُغَيّر في النفس ويُضبَط، هو معتقدها وتصوّرها عن الله والكون والحياة، قبل أي أمر آخر، فهو أولوية الأولويات، والمضْغَة التي إذا صلحت صلح البناءُ كلّه وإذا فسدت اختلّ البناءُ كُلّه.

فالإصلاح العقدي هو الأرضية الصلبة التي تُشاد عليها صروحُ الرقيّ الفكري والروحي والأخلاقي، والعمراني كلّها، وتنطلق منها مسيرةُ الإنسان نحو التوافق النفسي، والانسجام الاجتماعي في الحياة.

فإذا وقع أيّ خلل في هذه الأرضية، ظهرت آثارُه في النفس والفكر والسلوك والعلاقات، وأصابت المجتمع بالفتور والاضطراب، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾﴾ [الجن: ١٧]. ويعد الاختلال في المنظومة العقدية أولى بذور الانحراف وأخطرها على الإطلاق،، في حين يعد تناغم هذه المنظومة في النفس الإنسانية وواقع الحياة من أقوى عوامل الاستقرار والتماسك والقوة في المجتمع وأهمها، كما قال تعالى:

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَـٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦].

وهو ما تحقق لقوم يونس عليه السلام حيث قال الله تعالى فيهم:

---

(١) محمد المبارك، نظام الإسلام العقيدة والعبادة / ٣.

﴿ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفۡنَا عَنۡهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ ﴾ [يونس: ٩٨].

هكذا يغدو الإيمان بالله واليوم الآخر والملائكة والرسل والكتب والقدر خيره وشره، إيمانًا عميقًا مكينًا، سنّة الحياة، وقانون التمكين والاستخلاف، بدونه يضطرب السير، ويختل توازن الحياة الإنسانية.

٢ ـ الإصلاح العقدي منطلق جميع الرسالات

الإصلاح العقدي، هو مقدمة المشاريع الإصلاحية، التي جاءت بها الرسالات السماوية جميعًا، فمن إعادة ترتيب التصورات العقدية عن الله والكون والحياة وبنائها انطلق الأنبياء والرسل في تغيير واقع البيئات التي ظهروا فيها، وإصلاح أحوالها.

فكان كلّ واحد منهم يدعو قومه لنبذ الشرك، والإيمان بالله وعبادته وَحْدَه، كما دل على ذلك القرآن الكريم في مثل قوله تعالى:

﴿ وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ ﴾ [النحل: ٣٦].

وقوله سبحانه:

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، باجتناب كل معبود دون الله، من هوى وأشخاص وأشياء وأفكار.. لأنها جميعًا مخلوقة لا حول لها ولا قوّة، والله وحده هو صاحب القوة والملك في الدنيا والآخرة.

وهو ما يستلزم التحرر مما سواه، والتوجه إليه وحده بالعبادة في الأخذ والعطاء، والحركة والسكون والسر والعلانية، والحب والبغض..

هذا هو المدخل الأساسي العام «النظرية التغيير والإصلاح» في حركة النبوة عبر التاريخ، لم تختلف إلا في الوسائل والأساليب، التي تكيفت مع

أوضاع البيئة ومتطلبات المرحلة، أما الجوهر وهو تصحيح وبناء المنظومة العقدية التي توثق صلة الناس بالله، وتحكم علاقاتهم بمهمتهم الوجودية وتطلق طاقاتهم على طريق الخلافة، فضلّ ثابتًا راسخًا على طول المدى.

لقد اختلفت الشرائع نسبيًّا من قوم إلى آخر، تبعًا لأحوال الشعوب والعصور والبيئات التي تنوعت مشكلاتها، وتباينت ظروفها، واستدعت تشريعات ملائمة، تستوعب الواقع وتتحرك به نحو الانضباط الإيماني، والاستجابة لشرع الله وحكمه، غير أن العقيدة لم تتغير ولم تختلف، وظلت ثابتة متماسكة على الدوام، كما قال تعالى:

﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨].

قال ابن كثير معلقًا على هذه الآية:

«هذا إخبار عن الأمم المختلفة الأديان، باعتبار ما بعث الله به رسله الكرام من الشرائع المختلفة في الأحكام، المتفقة في التوحيد، كما ثبت في صحيح البخاري عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال:

«الأنبياء إخوة لعَلّات أمّهاتهم شتى ودينهم واحد»[٢] يعني بذلك التوحيد الذي بعث الله به كل رسول أرسله، وضمنه كل كتاب أنزله[٣] أي أن المنظومة العقدية المشتملة على الحقائق الإيمانية الكبرى[٤] بقيت هي القاسم المشترك بين جميع الرسالات في حركة التغيير والإصلاح عبر التاريخ.

٣ ـ المنطلق العقدي في المشروع التغييري للدعوة الإسلامية

والدعوة الإسلامية باعتبارها خاتمة الجهد الرسالي، جاءت مستوعبة لما تفرّق في غيرها من الكتب السابقة، ومستوفية لعناصر الديمومة والخلود، والصلاحية لكل زمان ومكان، كما قال تعالى:

---

(٢) البخاري في كتاب: أحاديث الأنبياء، باب: واذكر في الكتاب مريم (من فتح الباري ٦/ ٣٨٠).
(٣) تفسير القرآن العظيم / ٥٨٨.
(٤) محمد المبارك، المرجع السابق / ٩١.

﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، فلا يحتاج الناس بعده إلى غيره، لأن الله سبحانه وتعالى أودع فيه خلاصة ما به تستقيم حياتهم، كما يشير إلى ذلك قوله تعالى:

﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨]، أي رقيب عليها وشهيد، لأنه «الفرد الكامل، الحقيق بأن يسمى كتابًا على الإطلاق، بحيازته جميع الأوصاف الكمالية لجنس الكتاب السماوي، وتفوقه على بقية أفراده»[٥]، كما يقرر ذلك القاسمي.

ولعل من نافلة القول التأكيد على كون «المنظومة العقدية» هي أول أبعاد المشروع الإسلامي الجديد اكتمالاً ونضجًا، لما لها من أهمية قصوى في نجاح بقية الأبعاد الأُخرى كما سبق التنبيه إلى ذلك.

فالبعد العقدي هو ركيزة المشروع التغييري، الذي جاءت الدعوة الإسلامية به لكي تصلح أوضاع الإنسان عامة على امتداد الزمان والمكان.

فهو في صدر أولوياتها جميعًا، ولم تغفل عنه في جميع مراحل السير، بل ظل الاهتمام به قائمًا حتى في مرحلة الدولة بعد الهجرة، حيث لم ينقطع التأكيد على الإيمان بالله واليوم الآخر والقدر خيره وشره.

ذلك لأن أمر العقيدة، يتجاوز مجرد حفظ مفرداتها، إلى تقريرها في النفس والفكر، والعناية المستمرة بتغذيتها حتى تظل حية متوثبة في أعماق الضمير، فلا يخبو وهجها وإشراقها بفعل ضغوط الواقع المعاش، ونزوع النفس المستمر للاستجابة لها، وهو ما استدعى دوام التذكير، كما قال تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٥٥﴾ [الذاريات: ٥٥]. ، وقال كذلك:

﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ۝٤٥﴾ [قٓ: ٤٥].

فالتذكير بآيات الله في الآفاق والأنفس والتاريخ.. هو الذي يفتح بَصَرَ

---

(٥) محاسن التأويل ٤/ ٢١١.

الإنسان وبصيرته على العظمة الإلٰهية، ويدفع به إلى المزيد من الطاعة لله، والاستقامة على أمره، لأنه يرفع عنه حجب الجهل والغفلة والنسيان[6] ويرفع درجة أشواقه الإيمانية إلى مراتب الإحسان، فيعبد الله كأنه يراه، فيحسن نيته وعمله.

وهو ما تستهدفه العقيدة في الإنسان بعد أن يستحكم أمرها في أغوار نفسه، وتتولى ضبط وتوجيه استجاباته كلها ما ظهر منها وما بطن، من أجل أمثل العطاءات الفكرية والسلوكية والاجتماعية، كما يؤكد ذلك قوله تعالى:

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢].

هكذا يبدو المنطلق أو البعد العقدي في المشروع التغييري للدعوة الإسلامية هدفًا استراتيجيًّا محوريًّا، تنبني عليه جميع سياسات المجتمع وتوجهاته، وتتوقف عليه فعالية أفراده، ويكفي أن نتأمل الدلالة الإحصائية لمفردة «الإيمان» ومشتقّاتها التي تكررت أكثر من «١٠٦٢» مرة في القرآن الكريم، لنزداد يقينًا بالأهمية الخاصة التي أولتها الدعوة الإسلامية للمنظومة العقدية.

٤ ـ مفردات المنظومة العقدية

وقبل المضي في الحديث عن موقع المنظومة العقدية في الفترة المكية، يحسن بنا أن نحدد مفردات وعناصر هذه المنظومة التي ستكون محور المعركة الحاسمة بين الدعوة وواقع البيئة التي ابتدأت منها مسيرة التغيير، عقب التكليف الرسالي مباشرة.

ومن غير أن نهتم كثيرًا بالأُطر المنهجية التي اجتهد العلماء في استيعاب هذه المفردات من خلالها، حيث اعتمد بعضهم توزيعها على المحاور التالية:

- محور الإلٰهيات.
- ومحور النبوات.

(٦) تفسير ابن باديس /٢٩.

ـ ومحور المغيبات[7].

وعمل آخرون على استيعابها من خلال التصور الإسلامي حول الله والكون والحياة والإنسان، واكتفى آخرون بعرضها من خلال أركان الإيمان مباشرة.

ودون توقف عند هذه الأطر. نقول بأن «الأصول الأساسية للعقيدة الإسلامية هي:

الإيمان بالله والحياة الآخرة، ثم الاعتقاد بالنبوة لكونها طريقًا إلى معرفة الحقائق الغيبية والصلة بين الله وعباده»[8]، أما الجرد التفصيلي لمفردات المنظومة العقدية فيتلخص في:

توحيد الله سبحانه وتعالى في ربوبيته وألوهيته وصفاته وأسمائه وقَطْع دابر الشرك ودواعيه، لأن «العقيدة في الإله رأس العقائد الدينية بجملتها وتفصيلها»[9] كما يقول العقاد.

الإيمان بالرسل والرسالات جميعًا، وأنها ختمت بمحمد عليه الصلاة والسلام، وهيمن عليها الإسلام.

الإيمان بالملائكة المكرمين الذين ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۝٦﴾ [التحريم: ٦].

الإيمان باليوم الآخر وحلقاته المتسلسلة التي تنتهي بالإنسان إلى الجنة أو النار.

الإيمان بالقضاء والقدر، وتفويض الأمر لله تعالى دون التقصير في العمل الدؤوب للتطابق مع سنن الله التي وضعها لينتظم بها أمر الوجود.

وقد جاءت كل هذه القضايا في حديث جبريل المشهور الذي ورد فيه عن الإيمان قوله عليه السلام:

---

(٧) د. البوطي، كبرى اليقينيات الكونية.
(٨) محمد المبارك، العقيدة والعبادة (١٢٨ . محمد أبو زهرة، المجتمع الإنساني في ظل الإسلام / ٢٣.
(٩) حقائق الإسلام وأباطيل خصومه / ٣٤.

«... أن تؤمنَ باللّه وملائكته وكتبِه ورسلِه واليومِ الآخر، وتؤمن بالقدر خيرِه وشرِّه»[10]، وجاءت رواية البخاري[11] مبدوءة بالإيمان كذلك، وهو ما جعل ابن حجر يعلّق على ذلك بقوله: «قدم السؤال عن الإيمان لأنه الأصل»[12].

٥ ـ الإصلاح العقدي محور ارتكاز الدعوة في الفترة المكية

إن الفترة المكية باعتبارها مرحلة تأسيسيّة للدعوة، أعطيت فيها أولوية خاصة للبعد العقدي، باعتباره المرتكز القاعدي لعملية التغيير المنشودة في النفوس والذهنيات والعلاقات والمواقف، وأنظمة الحياة القائمة.

فلوحظ تركيز شديد على إقرار أصول العقيدة في الله واليوم الآخر، وصدق ما جاء به الرسول ﷺ بالخصوص، حيث يكفي تأمل نصوص الوحي للوقوف على هذه الحقيقة الكبرى التي استغرقت من القرآن المكي جزءه الأعظم[13]، لترسيخها في النفوس بكل الوسائل.

فالقرآن الكريم بالخصوص، لكي يركز هذه العقيدة في أغوار النفس الإنسانية، بعد أن يخلّيها مما تسرب إليها من معتقدات خرافية باطلة، تراه يلجأ إلى الاستدلال على صدق قضاياه إلى آيات الله في الآفاق والأنفس، ويطوف بالإنسان في أعماق التجربة البشرية في اقترابها وابتعادها عن هدي الله الذي وعد به الإنسانية في بداية حياتها الاستخلافية على الأرض:

﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ۝ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ [طه: ١٢٣، ١٢٤].

فالقرآن الكريم منح لقضية التوحيد، وإقرار العبودية لله تعالى مقام

---

(١٠) مختصر صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب: أول الإيمان / ٧.

(١١) البخاري، كتاب الإيمان، باب: سؤال جبريل النبي ﷺ، (من فتح الباري ١/ ٩٤).

(١٢) فتح الباري ١/ ٩٦.

(١٣) محمد عزة دروزة، القرآن المجيد / ١٢٤. محمد قطب، دراسات قرآنية / ٢١.

الصدارة في الفترة المكية، حيث كان مبدأ «لا إله إلاّ اللّه» بكل ما تعنيه هذه الكلمة من نفي للألوهية عما سوى الله وإثباتها لله وحده، هو محور ارتكاز الدعوة عامة، وفي مرحلتها المكية خاصة، إذ شكّل الهدف الأكبر للدعوة في هذه الفترة، واستأثر بالقسط الأوفر من الاهتمام.

يقول سيد قطب رحمه الله:

«لقد شاءت حكمة الله أن تكون قضية العقيدة هي القضية التي تتصدى لها الدعوة منذ اليوم الأول للرسالة، وأن يبدأ رسول الله ﷺ أُولى خطواته في الدعوة، بدعوة الناس أن يشهدوا: «أن لا إله إلاّ الله» وأن يمضي في دعوته يعرف الناس بربهم الحق، ويعبدهم له دون سواه»[١٤].

وقد اقتضى تحقيق هذا التعريف، وذلك التعبيد، تركيزًا شديدًا على مفصل القضية العقدية، وعمودها الفقري، وهو: إقرار وحدانية الله تعالى في ربوبيته، وأُلوهيته وأسمائه وصفاته في الضمير الإنساني بشكل جذري عميق، يجعل الإنسان يدرك بيقين «حقيقة الذات الخالقة لكل شيء، المالكة لكل شيء، المهيمنة على كل شيء، المدبرة لكل شيء، المؤثّرة في كل شيء»[١٥] فيهتف من أعماق نفسه بلسان مقاله وحاله:

﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝ ﴾ [الفاتحة: ٥].

وهو ما حدث فعلاً حينما استقرت حقيقة الأُلوهيّة في نفوس الرعيل الأول من المؤمنين ـ في الفترة المكية ـ الذين مضوا يجسدون عبوديتهم لله تعالى في واقع الحياة، وسط تحديات عاتية، مسّتهم بقوة وعمق، في أجسادهم وأموالهم ونفوسهم وأهليهم، ومراكزهم الاجتماعية.. فارتفعوا فوق ذلك كله، وانحازوا إلى ما عند الله، لأنهم وعوا أنه خير وأبقى.

ولسنا في حاجة، هنا، إلى التماس تأييدات للعناية الخاصة التي أَوْلَتْها

---

(١٤) معالم في الطريق / ٢٢.

(١٥) سيد قطب، مقومات التصور الإسلامي / ١٨٨.

الفترة المكية لجذر المنظومة العقدية، لوضوح ذلك حتى على المستوى الإحصائي الكمي، إذ يكفي القراءة العابرة للقرآن المكي لاستيقان هذه الحقيقة، وهو ما جعلني أكتفي بالإشارة إلى ما ورد في مطلع سورتي «العلق والمدثر» من تركيز على لب القضية العقدية وأصلها وهو الإيمان بالله وإفراده بالعبودية الخالصة وحده بلا شريك أو وسيط.

ففي مطلع «سورة العلق» تأكيد نهائي حاسم لتوحيد الله تعالى في ربوبيته، وأنه سبحانه خالق كل شيء، ومالكه، ومدبّر أمره، كما يتضح ذلك من ظاهر الآيات ودلالاتها معًا، وهو ما يؤكده العلاّمة الطاهر بن عاشور بقوله:

«وقد جمعتْ هذه الآيات الخمس من أول السورة، أصولَ الصفات الإلٰهية فوصف الرب يتضمن الوجود والوحدانية، ووصف **«الذي خلق»** ووصف **«الذي علم بالقلم»** يقتضيان صفات الأفعال... ووصف **«الأكرم»** يتضمن صفات الكمال والتنزيه عن النقائص[(١٦)].

وفي مطلع سورة «المدثر» التي جاء فيها الأمر للنبي ﷺ بالانطلاق في الدعوة، تأكيد نهائي حاسم كذلك، بتوحيد الله في ألوهيته والتوجه له بالعبادة وحده، والبراءة مما سواه، كما يبدو ذلك من قوله سبحانه: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣﴾ [المدثر: ٣] أي واختص سيدك ومالكك ومصلح أمورك بالتكبير، وصفه سبحانه بالكبرياء والعظمة، وأنه أكبر من أن يكون له شريك، وأعظم من أن يكون له صاحبة أو ولد»[(١٧)].

قال ابن العربي:

«هذا القول وإن كان يقتضي بعمومه تكبير الصلاة، فإنه مراد به التكبير والتقدير، والتنزيه بخلع الأنداد والأصنام دونه، ولا تتخذ وليًا غيره، ولا تعبد

---

(١٦) تفسير التحرير والتنوير ٣٠/ ٤٤٠.

(١٧) الشوكاني، فتح القدير ٥/ ٣٢٤.

ولا ترى لغيره فعلاً إلاّ له، ولا نعمة إلاّ منه، لأنه لم تكن صلاة عند نزولها، إنما كان ابتداءً التوحيد»[١٨].

فنحن نرى من خلال هذه المقدمات المبكرة، التي أفصحت عن التوجهات الكبرى للدعوة عمومًا، كيف تم التركيز على صلب القضية العقدية، التي جاء القرآن في الفترة المكية خاصة وفي باقي مراحل الدعوة عمومًا، يؤصلها ويؤكدها، ويعمق حقيقتها في النفوس والعقول والعلاقات وأنظمة الحياة، من خلال باقي مفردات المنظومة العقدية الأخرى، وخاصة الإيمان بالآخرة، والاعتقاد بالنبوة، والتصديق بما تضمنه الوحي الإلٰهي من حقائق عالم الغيب والشهادة.

فالهدف الأساسي للدعوة في المرحلة المكية، هو بناء هذه المنظومة العقدية، وتأسيسها في النفوس والأذهان، ليُبنى عليها صرح النظام الحياتي كله في ما بعد.

ب ـ بناء المنظومة الفكرية

لقد رأينا في المبحث السابق أن بناء المنظومة العقدية، التي تزود الإنسان بالرؤية الصحيحة عن الله والكون والحياة والإنسان، هو مفتاح التفاعل الإيجابي المنتج مع سنن الله في خلقه، على طريق تحقيق مستوى راقٍ من الاستخلاف في الأرض.

هو ما جعل القرآن الكريم يوليها عناية خاصة منذ البداية وحتى النهاية، حيث كثف الحديث عنها بصورة مركزة في الفترة المكية، أكدت مكانتها المحورية في الحياة الإنسانية بشكل حاسم لا يدع مجالاً للغفلة عنها في أي مشروع تغييري يراد له النجاح.

وإلى جانب هذا الاهتمام الخاص ببناء المنظومة العقدية، وإرساء

---

(١٨) أحكام القرآن ٤/ ١٨٨٦.

الأسس القاعدية اللازمة لأي عمل حضاري منشود، اهتم الوحي كذلك بصورة ملفتة للانتباه بالمسألة الفكرية، ومنحها عناية كبرى منذ البداية، حيث شكلت هدفًا أساسيًا من أهداف الدعوة في الفترة المكية خاصة، باعتبارها مرحلة تأسيسية حاسمة.

١ ـ أهمية المسألة الفكرية في المنظومة الاجتماعية

وبالنظر إلى المنظومة الاجتماعية عامة، من خلال حركة التاريخ، نجد أن البعد العقدي يقوم بدور أساسي في توجيه هذه الحركة، وتحديد فعاليتها في الواقع باعتبار العقيدة نقطة ارتكاز تتجمع إليها خيوط حياة الإنسان ونشاطه[١٩]، لتعطيه فعالية عالية، وتمنح المجتمع حيوية كبيرة، تمكنه من المساهمة في إدارة عملية التدافع الحضاري، ومجابهة مضاعفاتها وأعبائها بما يحفظ توازنه ويصون وجوده.

والسؤال المنهجي المهم هنا هو:

هذه العقيدة الحية الباعثة على الحياة والقوة، كيف يصل إليها المجتمع؟ وكيف يوجهها بفعالية لخدمة أهدافه في الحياة، عبر انضباطه السلوكي، وقدرته على استثمار ما يتاح له من إمكانات وظروف؟.

ولعل من الإجابات المهمة على هذا التساؤل ما ذكره الإمام الغزالي في حديثه عن التفكير، حيث قال:

«وأما ثمرة الفكر فهي العلوم والأحوال والأعمال، ولكن ثمرته الخاصة العلم لا غير، نعم إذا حصل العلم في القلب تغيّر حالُ القلب، وإذا تغيّر حال القلب تغيرت أعمال الجوارح، فالعمل تابع الحال، والحال تابع العلم، والعلم تابع الفكر، فالفكر إذًا هو المبدأ أو المفتاح للخيرات كلها»[٢٠].

---

(١٩) سيد قطب، السلام العالمي والإسلام / ٩.
(٢٠) إحياء علوم الدين ٦/٢٨٠٨.

وهو ما يؤكده ابن باديس بقوله:

«سلوك الإنسان في الحياة مرتبط بتفكيره ارتباطًا وثيقًا: يستقيم باستقامته، ويعوج باعوجاجه، ويثمر بإثماره، ويعقم بعقمه، لأن أفعاله ناشئة عن اعتقاداته وأقواله إعراب عن تلك الاعتقادات واعتقاداته ثمرة إدراكه الحاصل عن تفكيره ونظره»(٢١).

من هنا تأتي أهمية المسألة الفكرية، ويبرز دورُها الحيوي في المنظومة الاجتماعية عمومًا، لأن حيوية الفكر وتطلعاته الاجتهادية، وارتياده لآفاق المعرفة، ورغبته في استكشاف أسرار الحياة، وتمرده المتواصل على الجمود والتقليد، هو الذي يجعل العقيدة حية في النفس، محرّكة للواقع نحو آفاق حضارية أكثر توازنًا وانسجامًا ورقيًا، على عكس الخمول الفكري، وشيوع النزعات التقليدية التي تقضي على روح الاجتهاد والإبداع، وتَسِم الحياة بالرتابة والروتين، وتسلب العقيدة فعاليتها وإشعاعها، فإن ذلك يسلم المجتمع في النهاية إلى حالة من الضعف والعجز، وتفقده القدرة على مواكبة معركة التدافع الحضاري، وتدحرجه نحو متاهات الإمّعية والغثائية.

فسلامة المنظومة الفكرية في أبعادها المعرفية والمنهجية لدى الأفراد والمجتمع من أقوى أسباب الاهتداء إلى معرفة الحقائق الكونية، التي تقود إلى اليقين بالله، وتيسر عبادته، كما قال سبحانه:

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [فصّلت: ٥٣].

وكما قال أيضًا:

﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ ﴾ [آل عمران: ١٩٠، ١٩١].

(٢١) تفسير ابن باديس / ١٥٤.

هكذا يهتدي الإنسان إلى الحق عندما يتحرر فكره من أثقال التقاليد المنحرفة، ويتغلب على الألفة الغافلة، ويعرف بالضبط مجال عمله، ونطاق حركته، ويسلك سبلاً قويمة في التأمل والدراسة والبحث.

٢ ـ البعد الفكري في المشروع التغييري للدعوة الإسلامية

والإسلام باعتباره منهجًا أو مشروع الغد، لتحقيق مستويات راقية من الاستخلاف، أَوْلى عناية شديدة للمسألة الفكرية، من خلال احتفائه الكبير جدًّا بالعقل، الذي جعله مناط التكليف، وأدرجه ضمن الضروريات الكلية الخمس، التي جاءت الشرائع تحفظها(٢٢)، بل وجعله أساس تكريم الإنسان وتفضيله على كثير من مخلوقات الله تعالى كما جاء في القرآن:

﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ ﴾ [الإسراء: ٧٠].

قال القرطبي بعد أن أورد بعض التفسيرات الجزئية المأثورة:

«والصحيح الذي يعول عليه أن التفضيل إنّما كان بالعقل الذي هو عمدة التكليف، وبه يعرف الله، ويفهم كلامه، ويوصل إلى نعيمه، وتصديق رسله، إلاّ أنه لما لم ينهض بكل المراد من العبد، بعثت الرسل، وأنزلت الكتب، فمثال الشرع الشمس، ومثال العقل العين، فإذا فتحتْ وكانت سليمة، رأت الشمس وأدركت تفاصيل الأشياء»(٢٣).

نظرًا لهذه المكانة الخطيرة «للعقل» الذي لا يستقيم بدونه دين ولا دنيا(٢٤)، أعطى الإسلام أولوية خاصة لبناء المنظومة الفكرية، وإحلال العقل مكانه اللائق به في حياة الإنسان، حتى يقوم بمهمته الاستخلافية خير قيام، من خلال تأكيده على الدور الحيوي الذي يؤديه العقل ـ كجهاز تحليل وتفسير

(٢٢) الشاطبي، الموافقات ٢/ ١٠.
(٢٣) الجامع لأحكام القرآن ١٠/ ٢٩٤.
(٢٤) د. فتحي الدريني، خصائص التشريع الإسلامي في السياسة والحكم/ ١٢٨.

وتركيب ـ في فهم الأحكام العادية أو القوانين الكونية، والأحكام الشرعية[٢٥]، ومحاولة تجسيدها في الواقع الإنساني تجسيدًا منسجمًا مع فطرته وظروفه الحياتية، ومتناغمًا مع سنن الله في الخلق.

وفي هذا السياق جاءت الدعوة إلى العلم بمفهومه الشامل، واعتُبر التفكير فريضة شرعية، وأُعلي مقام العلماء، وشُنّع بالتقليد والجمود ونزل بأهله إلى ما دون مرتبة الأنعام كما قال تعالى:

﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾ [الفرقان: ٤٤]، كما شُنّع كذلك بالمصادر المزيفة للمعرفة المستندة إلى الخرافة والهوى والأعراف الفاسدة.. ورُفضت مناهج التفكير غير العلمية المحكومة بالظن والتخرّص.. كما قال تعالى:

﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ [يونس: ٣٦].

وقال كذلك:

﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾﴾ [الأنعام: ١١٦]، أي يخمّنون ويفترضون بدون دليل.

لقد رفض الإسلام كل المصادر غير العلمية، ما تعلق منها بالقيم والمفاهيم والإفكار ذاتها، وما تعلق أيضًا بطرائق التفكير وتحصيل هذه المعرفة. ودعا إلى تأسيس كل ذلك على المعرفة الصحيحة، المطابقة للحقائق الكونية، والسنن النفسية والاجتماعية، التي أودعها الله في الآفاق والأنفس والكتاب، وهو ما أكدناه في الباب الأول، عند حديثنا عن خاصية «**النزعة العلمية في الدعوة الإسلامية**»، حيث أوضحنا أن كل شيء في الإسلام ينطلق من العلم، ويتمّ بالعلم، سواء على مستوى الاعتقاد أو السلوك أو العمل، تماشيًا مع التوجيه القرآني الصارم:

﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ

---

(٢٥) سعيد حوى، جولات في الفقهين الكبير والأكبر وأصولهما / ٣٧.

مَسْئُولًا ﴾ [الإسراء: ٣٦]، الذي يرتقي بالجهد الإنساني إلى أعلى مستويات الفعالية الاجتماعية، عندما يلتزم العلم ضابطًا في الأخذ والعطاء، وما يستدعيه ذلك من وضع نهاية لكل أنواع وأساليب التفكير والممارسة غير العلمية.

٣ ـ محورية الإصلاح الفكري في الفترة المكيّة

والفترة المكية لكونها مرحلة انطلاق ابتدائي للدعوة، كُثّف فيها الاهتمام **«بالمنظومة الفكرية»** بشكل كبير، كما يبدو ذلك جليًا في القرآن المكي الذي حفل بالدعوة المباشرة والضمنية إلى التحرر من أثقال التقاليد والجمود على الموروثات بدون بصيرة، والتحريض على إعمال الفكر في كل شيء:

ـ بدءً من الإنسان نفسه، كآية كبرى من آيات الله.

ـ والكون من حوله كساحة لا نهائيّة لآيات اللّه الدالة على عجائب صنعه، وعظمة قدرته.

ـ والتجربة التاريخية للإنسان، بما فيها من الاستقامة والانحراف، والصعود والهبوط.

ـ والمصير الإنساني في عالم الغيب وما سيؤول إليه أمر كل إنسان في الجنّة أو النار.

وتكفي أدنى مراجعة خفيفة للقرآن المكي، للوقوف على هذه الحقيقة، إذ لا تخلو سورة من سوره من الحديث المباشر أو الإيحائي عن آيات الله في الآفاق والأنفس، والتاريخ، وعالم الغيب.. ودعوة الناس للتأمل فيها، والتفكير الجدي في دلالاتها، حيث يكثر جدًّا استعمال كلمات وأساليب تهدف كلها إلى تحريك الأذهان والعقول، لِتُجاوِز المألوفات الرتيبة، إلى إدراك حقائق الأمور، التي تقود كلّها إلى اليقين بالله، والترقي في مدارج القرب منه.

ومن شواهد هذه الظاهرة البارزة في القرآن المكي قوله تعالى على سبيل المثال:

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الروم: ٨].

وقوله:

﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾﴾ [قٓ: ٦].

وقوله:

﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾﴾ [الغاشية: ١٧ ـ ١٩].

وقوله:

﴿مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [القصص: ٧٢].

وقوله:

﴿قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾﴾ [الأنعام: ٩٨].

وقوله:

﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [النحل: ٤٤].

وقوله:

﴿۞ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ﴾ [سبأ: ٤٦].

وقوله:

﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [الأنعام: ٥٠].

وقوله:

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ﴾ [الروم: ٩].

﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١٠﴾﴾ [الملك: ١٠].

هذه نماذج من الدعوة القرآنية إلى النظر والتأمل والتفكير في الآيات والآفاق والأنفس والتاريخ. . لتحرير الإنسان من الخرافة والجمود والتقليد، والخوف من الطبيعة والانزلاق في تأليهها.

لقد قاد القرآن الكريم حملة منهجية منظمة كثيفة على الفكر الخرافي، والجمود العقلي، للانتقال بالإنسانية إلى مرحلة جديدة في مسيرتها الحضارية، يأخذ فيها التفكير العلمي الموضوعي(٢٦) مكانته في توجيه مواقف الإنسان، وضبط حركته في الحياة، بعيدًا عن التقاليد العرفية العتيقة التي تعطل طاقاته الفكرية والحسّية عن الانطلاق في الاتجاه الصحيح، ومعرفة الله وعبادته، وهو ما ندّد به القرآن بقوة في مثل قوله تعالى:

﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

وقوله سبحانه:

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الحج: ٦٤]، لأن الأسماع والأبصار آلات لالتقاط العلم والخبرة، والعقل هو الذي يعي ما فيها من عبرة وفائدة، فإذا كان العقل معطّلًا ومحجورًا عليه بالخرافة والجمود. . لم يستفد الإنسان مما ترسله حواسّه مهما كان فيه من حكمة وعلم، «فآفة ذلك كله هو اختلال العقل»(٢٧).

ومن هنا كانت المعرفة العلمية في مقدمة أولويات الدعوة الإسلامية عمومًا، كما يفصح عن ذلك الإعلان الأول عنها، الذي أعطى للقراءة والكتابة والتعلم. . الأسبقية لتوقف العمل على الفهم كما قال تعالى:

---

(٢٦) محمد المبارك، الإسلام والفكر العلمي/ ١٧٧.

(٢٧) الطاهر بن عاشور. تفسير التحرير والتنوير ١٧/ ٢٨٩.

﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد: ١٩]، وقال كذلك: ﴿وَلَا تَقۡفُ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۚ﴾ [الإسراء: ٣٦]، وقوله سبحانه: ﴿فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ۝٧﴾ [الأنبياء: ٧].

فقد انقضى زمن الإقناع بالمعجزات الحسّية «وبدأت مع الرسالة الخاتمة فترة جديدة تتأسس فيها الحياة الإنسانية على العقل والفكر والنظر والعلم، وهو ما اضطلعت به الدعوة في المرحلة المكية خاصة، حيث تمحور جزء كبير من اهتماماتها حول بناء المنظومة الفكرية سواء على مستوى المضمون أو منهجية التفكير.

ج ـ إرساء أسس بناء المنظومة الاجتماعية

الهدف الثالث والأساسي من أهداف الدعوة الإسلامية في الفترة المكية، هو إرساء الأسس المبدئية الكبرى التي تبنى عليها المنظومة الاجتماعية، انطلاقًا من الأرضية العقدية التي سبق الحديث عنها:

١ ـ أهمية المسألة الاجتماعية في الحياة الإنسانية

ولا يخفى ما للمنظومة الاجتماعية من أهمية كبرى في الحياة الإنسانية، على اعتبار أن الإنسان مدنيّ بطبعه، لا بدّ له من الاجتماع الذي به يحفظ وجوده ويُبقي نوعه «إذ لا يمكنه تحصيل أسباب معاشه، وإعداد ما يدفع به عن نفسه، دون معين من أبناء جنسه، فيضطر إلى اجتماع يتكفل له بذلك على أيسر مرام، لتتم حكمة إيجاده وغاية ما خلق له»[٢٨].

وهنا تبدأ المشكلة في حياة الإنسانية، إذ تطرح مسألة وضع الإنسان في هذا النظام الاجتماعي، الذي من المفترض أن يوفر له الضمانات المعنوية والمادية للترقي في مدارج الكمال الإنساني، بتعميق إنسانية الإنسان بصفة دائمة.

---

(٢٨) ابن الأزرق، بدائع السلك في طبائع الملك ١/ ٧١.

ونكفي أدنى مراجعة للتاريخ الإنساني للتأكد من حجم هذه المشكلة، حيث يلاحظ كيف عانى الإنسان من ألوان مختلفة من الظلم الاجتماعي، والامتهان لكرامته، والإهدار لإنسانيته، كما يبدو ذلك في نظام الطبقات الذي ساد العالم قبل الإسلام، وعرّض الإنسان للرق والعبودية، والسخرة. . مما طبع حياة البشرية بالصراع المرير، وحرمها من طاقات إنسانية كبيرة، بإمكانها أن تثري، بما وهبها الله من عبقريات وقدرات ومواهب، الحضارةَ الإنسانية، وتتحرك بها نحو آفاق استخلافية أكثر إبداعًا وتحقيقًا لطموحات الإنسان في الترقي المعرفي والروحي والأخلاقي والعمراني.

لقد عاشت البشرية قبل الإسلام أوضاعًا مزرية في ما يتصل بالنظام الاجتماعي، رغم تواصل الجهد الرسالي لإصلاح حياة الإنسان، الذي لم يحل دون اندفاع الأوضاع نحو الاختلال والتأزم بشكل حاد ومستمر، كما سبق أن أوضحنا في الفصل الأول من الباب الثاني، عند حديثنا عن «بيئة الدعوة في الفترة المكية»، حيث رأينا مظاهر عديدة لاختلال الوضع الاجتماعي، وتدهور مكانة الإنسان.

وسأكتفي هنا بإضافة ملاحظة ذات دلالة مهمة في ما نحن بصدده، تتعلق بموقف أحد أقطاب الفلسفة العالمية التي كان لها تأثير كبير في الفكر الإنساني، حيث رأى «أرسطو»: أن الله خلق فصيلتين من البشر أُهِّلَت إحداهما ـ وهم اليونان ـ لخلافته والسيادة على خلقه، وكُتب على الأخرى وهم البرابرة الخدمة للأولى، وهو ما يعطي الحق للجنس اليوناني «السيد» أن يعمل بمختلف الوسائل لردّ هؤلاء البرابرة إلى المنزلة التي خُلِقوا لها، وهي منزلة الرِّق[٢٩].

وقد سرى هذا الانحطاط في النظام الاجتماعي العالمي قبل الإسلام، حتى أصبح البعض يدعى أنه من نسل الآلهة، والبعض الآخر يرى أن الدماء التي تجري في عروقه ليست من نوع دماء العامة، وذهبت ملل ونحل أخرى إلى

---

(٢٩) د. مصطفى عبد الواحد، المجتمع الإسلامي في ضوء الكتاب والسنة / ٧١.

تقسيم الشعوب إلى طبقات خلق بعضها من رأس الإله فهي مقدسة، وخلق بعضها من قدميه فهي منبوذة، واشتغلت فئات أخرى بالجدل حول المرأة: أهي ذات روح أم لا روح فيها؟ وأبيح للسادة أن يقتلوا عبيدهم ويعذبوهم»[٣٠]. ويستخدموهم كوسيلة للتسلية، وإقامة المبارزات الوحشية، أو بحملهم على مقاتلة الأسود، في حفلات يقبل عليها الأحرار بشغف[٣١].

٢ ـ مكانة المسألة الاجتماعية في المشروع التغييري للدعوة الإسلامية

والدعوة الإسلامية كرسالة خاتمة، جاءت كمشروع تغييري شامل لإصلاح الأوضاع الإنسانية، وتمكين كل فرد أو مجتمع أو أُمة، تنضبط بها فهمًا وممارسة، من تحقيق مستوى راقٍ من الاستخلاف كما قال تعالى:

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ﴾ [النور: ٥٥].

هذه الدعوة الشاملة الكاملة، أعطت أهمية كبيرة جدًا للمسألة الاجتماعية، بعد المسألتين العقدية والفكرية وكان هذا اتساقًا مع الهدف من الوجود الإنساني، وهو إنجاز مهمة الاستخلاف في الأرض بواسطة تحقيق العبودية التامة لله تعالى، التي تعني تسخير كل طاقات الإنسان في طاعة الله، كما جاء في القرآن الكريم:

﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ ﴾ [الأنعام: ١٦٢].

وقد سبق أن بينا في الفصل الثاني من الباب الأول عند حديثنا عن «الوظيفة الوجودية للإنسان» أن الاستخلاف لا يتم إلا باجتهاد الإنسان في عمارة الأرض وتسخير نِعَم الله للمزيد من الترقي المعرفي والروحي والسلوكي والعمراني، قال تعالى: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ﴾

---

(٣٠) سيد قطب، العدالة الاجتماعية في الإسلام / ٤٤.
(٣١) سيد قطب، نحو مجتمع إسلامي / ٧٠.

[هود: ٦١]. أي جعلكم عامرينها بالبناء والغرس والزرع[٣٢].. وكل ما به يزداد الإنسان اكتشافًا لسنن الله، واستمتاعًا بنعمه، وتحققًا بطاعته. ولا شك أن هذا الإعمار للأرض، هو لُبّ المسألة الاجتماعية، التي جاءت الدعوة الإسلامية تساعد الإنسان على بنائها على أسس أكثر توافقًا مع فطرة الله التي فطر الناس عليها، ووفاء بحاجات العباد الروحية والمعيشية، فهي من مقاصد الدين الأولى، باعتبارها المجال الذي تتجسد فيه العقيدة في أرض الواقع، ويُترجم فيه مشروع الدعوة عمومًا إلى نظام اجتماعي يعبر عن مستوى استخلافي معين.

وقد أكد القرآن والسُّنة بشكل صريح وحاسم على البُعد العملي للإيمان، حيث يلاحظ الربط المستمر بين الإيمان والعمل الصالح، والرفض الباتّ للانفصام بينهما، الذي يشنع به القرآن ويسميه نفاقًا وفسوقًا..

فالعمل الذي هو تجسيد لمقتضيات الإيمان، هدف مقاصدي أساسي للدعوة، بل نجد القرآن الكريم يرتقي به إلى درجة الهدف الكلّي في مثل قوله تعالى:

﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ١، ٢].

وقوله سبحانه:

﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾﴾ [الزلزلة: ٧، ٨].

وقوله كذلك:

﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [النحل: ٣٢]، وآيات وأحاديث كثيرة جدًّا تؤكد على أن «المحور الأساسي لوجود الإنسان ـ فردًا أو جماعة ـ على الأرض هو العمل الذي يتخذ مقياسًا عادلاً لتحديد المصير في الدنيا والآخرة،

---

(٣٢) ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير ١٢/١٠٨.

وهو موقف ينسجم تمامًا مع فكرتي: الاستخلاف والاستعمار الأرضي(٣٣)..

فالإنسان يقترب باستمرار من هدفه الوجودي في الأرض، على قدر ما ينجز من أعمال صالحة يعمّر بها الأرض، ويحقق حاجاته الروحية والاجتماعية، التي تتيح له الفرصة للمزيد من الاطلاع على أسرار الحياة، والاقتراب من خالقه، والاستعداد للقائه والفوز برضوانه وجنته.

والدعوة الإسلامية جاءت تزيل العوائق المختلفة التي تقف في طريق الإنسان، وتحول بينه وبين تحقيق مستوى راق من الاستخلاف، وترسم له الطريق نحو التوازن والاستقرار والاستمتاع الأمثل بالحياة، وذلك بتأكيدها على القيم والمبادئ والأصول التي تضمن السير الارتقائي التصاعدي للحياة الإنسانية، وتحفظها من عوامل الاختلال والتراجع، وهو ما سنراه في المبحث التالي.

٣ ـ إرساء الأسس المبدئية لبناء المنظومة الاجتماعية من مرتكزات الدعوة في الفترة المكيّة

إن الفترة المكية باعتبارها مرحلة قاعدية وتأسيسية للدعوة، كما سبقت الإشارة إلى ذلك، اهتمت بشكل مكثّف جدًّا، ببناء المنظومتين العقدية والفكرية، واكتفت في ما يتعلق بالمنظومة الاجتماعية كهدف استراتيجي للدعوة الإسلامية، بإرساء الأُسس أو الأصول المبدئية التي تقوم عليها الحياة الاجتماعية، تاركة التفاصيل التشريعية الإجرائية لفترة لاحقة، هي الفترة المدنية، التي تهيأت فيها الظروف لقيام الدولة.

ويمكن إعادة كل الأصول المبدئية التي ركزت عليها الدعوة في الفترة المكية، إلى أصل كلي، تفرعت منه باقي الأسس المبدئية الأخرى، ألا وهو: المكانة المرموقة التي يحتلها الإنسان في الكون، والدور الخطير الذي أنيط به في الأرض، كما يوضح ذلك القرآن الكريم في مثل قوله تعالى:

---

(٣٣) د. عماد الدين خليل، التفسير الإسلامي للتاريخ / ١٩٤.

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ [الإسراء: ٧٠].

فالله سبحانه وتعالى خص الإنسان بمواهب وصفات ينفرد بها على غيره من المخلوقات، ويمتاز بها عليها، كما يدل على ذلك لفظ التكريم الذي يعني: أنه نفيس في ذاته وشريف غير مبذول ولا ذليل[٣٤]، فهو عزيز وكريم، قال الراغب الأصفهاني: «وكل شيء شَرُفَ في بابه فإنه يوصف بالكرم»[٣٥].

فالإنسان بما زوّده الله به من استعدادات فذة، وحباه به من تكريم وتفضيل، تأهَّلَ ليحتل مركزًا عظيمًا في الوجود، يمنحه مقام الصدارة والسيادة في الأرض، كما يشير إلى ذلك «الاستقبال الفخم الذي استقبله به الوجود.. بذلك الموكب الذي تسجد فيه الملائكة، ويعلن فيه الخالق جلّ شأنه تكريم هذا الإنسان»[٣٦]، وجعله خليفة في الأرض، يسخر مكوناتها، ويستمتع بخيراتها، طاعة للّه وشكراً له، واضطلاعًا بهذه الأمانة العظيمة التي أبت السماوات والأرض والجبال أن تحملها، وأشفقت على نفسها منها، وحملها الإنسان.

فالدعوة الإسلامية في الفترة المكية ركّزت على هذا المعنى لتعيد للإنسان كرامته، وتعيده إلى مركزه في الوجود، وقد استلزم تحقيق ذلك وسط أجواء اهتزت فيها قيمة الإنسان، وتدهورت مكانته، بسبب ما طرأ على العلاقات الإنسانية من ظروف عقدية وفكرية واجتماعية... أساءت كثيرًا إلى إنسانية الإنسان، وأهدرت كرامته، بنشوء الطبقات، وانتشار الرّق، واستفحال أمر الخرافة في مجال الاعتقاد والسلوك..

لقد استلزمت العودةُ بالإنسان إلى مكانته في الوجود ـ كقوة فاعلة فيه، وُضعت كلُّ مذخورات الكون في خدمته ـ التأكيدَ على قيمته وشرفه ورسالته،

---

(٣٤) ابن عاشور، مرجع سابق ١٥/ ١٦٥.
(٣٥) معجم مفردات ألفاظ القرآن / ٤٤٦.
(٣٦) سيد قطب، في ظلال القرآن ١٤/ ٢٢٤١.

وتحسيسه هو نفسه بذلك، وحمله على رفض كل الأوضاع التي من شأنها أن تسيء إلى كرامته، وتَحُوْل بينه وبين تبوُّ مكانته في الأرض.

هذا هو الأصل الأكبر الذي تمحورت حوله الدعوة في المرحلة المكية، والذي انبثقت عنه أصول وأسس مبدئية أخرى، كان لا بد من التركيز الكبير عليها لتحقيق إنسانية الإنسان، كمرتكز محوري في المنظومة الاجتماعية التي هي بصدد الإنشاء.

وهذه الأسس أو الأصول المبدئية التي سيُبنى عليها النظام الاجتماعي، وتحكم بها العلاقات الاجتماعية، وتعود إليها كل تفاصيلها، وتحفظ للإنسان إنسانيته وتنميها، وتتيح له المزيد من الترقي الحضاري.. يمكن إجمالها في الأصول التالية التي تشكل الأرضية الضرورية لحياة اجتماعية، تستجيب لطموحات الإنسان، وتلبّي حاجاته جميعًا وهي:

ـ الحرية والمساواة والعدالة والمسؤولية:

لقد ركزت الدعوة في المرحلة المكية على تأكيد هذه الأصول وترسيخها لتتأسّس عليها المنظومة الاجتماعية حينما تتكامل التشريعات المتعلقة بها مع مرور الوقت، لأن الكرامة الإنسانية لا تتحقق إلا عبر هذه الأصول، التي تشكّل الأركان الحقيقية لأي نظام اجتماعي سليم.

وبهذا راجعَ الإسلامُ مراجعةً جذرية شاملة الأسسَ والمرتكزاتِ التي تقوم عليها الحياةُ الاجتماعية، فرفض كل «القيم» والمقاييس والعلائق التي تسيء إلى إنسانية الإنسان، وتهدر كرامته الآدمية، كالرق الذي يتنافى مع حريته، والطبقية التي تتنافى مع قيم المساواة بين البشر، والظلم الاجتماعي الذي يتنافى مع مبدأ العدالة.

ـ فالدعوة في مكة أصَّلتْ قيمةَ الحرية الإنسانية، وأعلتْ من شأنها بتركيز شديد على التوحيد ونفي الشرك، وتخليص الإنسان من الخرافة والخوف من غير الله، وكل ما من شأنه أن يصادر حقه في التفكير والمعتقد والقول والعمل

الذي لا يمسّ بدوره حرية الآخرين الفردية والجماعية.

ـ كما أصّلت المسؤولية الفردية عما يصدر من الإنسان، ونفت كل الخرافات والمظالم التاريخية التي كانت شائعة في الكثير من المجتمعات الإنسانية القديمة(٣٧) في ما يتعلق بمسؤولية الإنسان عن أعمال الغير، فقد قرر القرآن بوضوح تام التبعة الفردية في مثل قوله تعالى:

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: ١٦٤]، وقوله أيضًا:

﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾﴾ [النجم: ٣٩] وقوله: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾﴾ [الزلزلة: ٧، ٨].

ـ وأقرّت المساواة الإنسانية، متجاوزة بذلك كل الموازين والأعراف الجائرة، التي تزن الناس وتصنفهم بألوانهم وأعراقهم وعصبياتهم وأموالهم.

فالبشر كلهم من آدم، وآدم من تراب، فلا تفاضل بينهم بلون أو جنس أو طبقة.. بل هم في أصل الخليقة متساوون كما قرر ذلك القرآن في قوله تعالى:

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [الأنعام: ٩٨]، والإيمان والعمل الصالح وحدهما أساس التفاضل والشرف بين البشر كما قال تعالى:

﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا﴾ [سبأ: ٣٧].

يقول سيد قطب رحمه الله معقّبًا على المقاييس الخاطئة والقيم الزائفة التي كانت تحتكم إليها أمم كثيرة، فأبطلها الإسلام، وجاء «ليقرر وحدة الجنس البشري في المنشأ والمصير، في المحيا والممات، في الحقوق والواجبات، أمام القانون وأمام الله، في الدنيا والآخرة، لا فضل إلا للعمل الصالح، ولا كرامة إلا للأتقى»(٣٨).

ـ كما ركزت الدعوة أيضًا على إقرار مبدأ العدالة لتحقيق الكرامة

(٣٧) سعيد حوى، الرسول ﷺ ٢/ ١٨٠.
(٣٨) العدالة الاجتماعية في الإسلام / ٤٥.

الإنسانية، وتوفير الأمن وحماية الحريات وتحقيق دعائم المساواة في المجتمع فجاء في القرآن التأكيد على هذه القيمة الكلية العظيمة في مثل قوله تعالى:

﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾ [الأنعام: ١٥٢]، وقوله سبحانه:

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى﴾ [النحل: ٩٠].

هذه بشكل عام هي الأسس الهيكلية الكبرى التي تقوم عليها المنظومة الاجتماعية، أولتها الدعوة في الفترة المكية عناية مهمة، تمهيدًا بين يدي النظام الاجتماعي الذي جاء الإسلام ليبنيه، ويعلي صرحه حينما تتوفر للدعوة الشروط الموضوعية.

د ـ الإعداد لبناء الدولة

١ ـ أهمية الدولة في حياة الدعوة

الهدف الرابع الأساسي من أهداف الدعوة في الفترة المكية، هو الإعداد لبناء الدولة، التي تحمي الدين وتسوس الناس به[٣٩]، وتهيِّئ الشروط الموضوعية لتحقيق الأهداف الاستراتيجية البعيدة للدعوة، على اعتبار أن «الإسلام جاء لكي يعبّر عن وجوده في عالمنا من خلال دوائر ثلاث يتداخل بعضها في بعض، وتتسع صوب الخارج لكي تشمل مزيدًا من المساحات: دائرة الإنسان، فالدولة، فالحضارة..»[٤٠].

فالدولة هي التي تحمي الإنسان، وتُعِد إمكانات إنجاز مستوى حضاري راق وشروطه، وهي التي تحمي الدعوة التي تبني الإنسان الرسالي المحرر عقديًا وفكريًا، والمؤهل لتجسيد أهداف الرسالة في واقع الحياة، وبدونها ـ أي الدولة ـ يصبح كل إنجاز للدعوة على مستوى الإعداد البشري بالخصوص معرّضًا للخطر، وهو ما يعود بالضرر على الدعوة نفسها.

(٣٩) ابن الأزرق، بدائع السلك في طبائع الملك ١/ ١١٠.
(٤٠) د. عماد الدين خليل، دراسة في السيرة/ ١٢٨.

٢ ـ عمله عليه السلام من أجل بناء الدولة

لهذا كان من أهداف الدعوة في الفترة المكية العمل على توفير شروط وإمكانات بناء الدولة التي تخدم الدعوة وتحميها، وهو ما نراه بوضوح في السيرة النبوية، إذ عمل الرسول ﷺ بكل قواه على استيعاب المجتمع المكي وجعله نواة لدولة الإسلام تتولى نشر الإسلام والذّود عنه، فلما تعذر عليه ذلك اتجه إلى الطائف باحثًا عن النصرة والتأييد، ثم بعد ذلك إلى خارج الدائرة القرشية، حيث تمّ له إيجاد أرضية جديدة لتحقيق مشروع الدولة.

ومما سبق يمكن أن نخلص إلى القول بأن الأهداف الأساسية الكبرى للدعوة الإسلامية في الفترة المكية كمرحلة تأسيسية حاسمة هي:

ـ التركيز على بناء المنظومة العقدية، بتصحيح مفاهيم الناس عن الألوهية، ونفي الشرك نهائيًا من حياتهم، والسير بهم قدمًا نحو التحقق بالعبودية الخالصة لله تعالى، تطابقًا مع الهدف من وجود الإنسان الذي حدده القرآن بقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦].

ـ التركيز على بناء المنظومة الفكرية بإصلاح مسالك التفكير، وتمكين العقل الإنساني من أداء مهمته، في معرفة خالقه، وفهم وحيه، وكشف سُننه في الآفاق والأنفس، والسعي المتواصل للتطابق مع سُنن الوحي وسنن الكون.

ـ التركيز أيضًا على إرساء أسس المنظومة الاجتماعية، المرتكزة على كرامة الإنسان وتدعيم إنسانيته ليقوم بمهمته الاستخلافية في الحياة، حيث تمّت العناية بتأكيد الحرية والمسؤولية والمساواة والعدالة كقيم ضرورية لبناء نظام اجتماعي متوازن، تتاح فيه الفرص للإنسان لكي يعبر عن مواهبه وقدراته وطموحاته المشروعة دون كبت.

ـ ثم التركيز أخيرًا على الإعداد لبناء الدولة، التي تضطلع بمهمة نشر الدعوة، وتجسيد قيمها في الواقع الإنساني، وحمايتها من كل ما من شأنه أن يعوق وصولها إلى الناس، ويهدد منجزاتها البشرية والمادية والمعنوية.

الباب الثالث

التحدّيات التي واجهتها الدعوة
في الفترة المكيّة
ومنهج مواجهتها

وصلنا من خلال الفصول السابقة إلى أن الدعوة الإسلامية كخلاصة نهائية للجهد الرسالي الضخم، الذي بذله الأنبياء والمرسلون عليهم الصلاة والسلام.. جاءت بمشروع استخلافي متكامل، يمكّن الإنسان إذا ما وعاه وانضبطت به خطاه في الحياة، من تحقيق الغاية من وجوده في معاشه ومعاده.

فالدعوة الإسلامية حددت للإنسان غاية بعيدة ينشدّ إليها وجودُه كله، ويرتبط بها سعيُه، وهي الفوز بوراثة الجنة ونيل مرضاة الله تعالى، كما قال تعالى:

﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ ﴾ [القصص: ٧٧].

كما حددتْ له أهدافًا استراتيجية في حياته، وجعلتها شرطًا ضروريًا لتحقيق هذه الغاية والفوز بها، وهي تحقيق مستوى لا بأس به من الاستخلاف في الأرض، عبر التحقق بالعبودية الخاشعة لله تعالى، على مستوى السعي للترقّي المعرفي، والترقي الروحي، والترقي السلوكي، والترقي العمراني أو الحضاري عمومًا، كما قال تعالى:

﴿ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ

﴿... عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ۝٧٥ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ۝٧٦﴾ [طه: ٧٤ ـ ٧٦].

وحتى لا يشذ الجهد الإنساني عن هذه الغاية، ويظلّ على الدوام متجهًا صوب أهدافه الاستخلافية، أكدت الدعوة الإسلامية على جملة من الخصائص الكلية الأساسية التي تضمن توجّه الجهد نحو هدفه الاستراتيجي وهو تحقيق الاستخلاف في الأرض كما أراده الله تعالى، ومن أبرز هذه الخصائص: العلمية والتوحيد والشمولية والواقعية والعالمية.

فالدعوة الإسلامية كمشروع لتحقيق الاستخلاف الحقّ في الأرض، وتمكين الإنسان من الاستمتاع بما فيها، وضمان فوزه بوراثة الجنة في الآخرة، والوصول إلى المتعة الأبدية، جاءت لتأخذ بيد الإنسان إلى ما به يدرك غايته، ويحقق أهدافه في الحياة.

واقتضى تحقيق وعي الإنسان بهذه الحقائق من الدعوة الإسلامية، أن تدخل في مواجهة كبيرة مع الموروثات الجاهلية، التي كانت تهيمن على عقول الناس ونفوسهم وسلوكهم وأنظمة حياتهم، وتعدّل وتغيّر وتهدّم وتعيد البناء من جديد في التصوّرات والقِيَم ومناهج التفكير، والسلوكات والعلاقات.. حتى تنسجم حياة الإنسان مع فطرته من جهة، وتتساوق حياتُه مع سنن الكون والحياة من جهة أخرى.

كيف بدأت الدعوة عملية التخلية وإعادة البناء؟ من أين بدأت ولماذا؟ ما هي التحديات التي واجهت عملية هدم الواقع العقدي والنفسي والفكري والسلوكي والاجتماعي وإعادة البناء من جديد؟ ما هي العوامل أو المؤثرات التي تحكمت في حركة السير؟

هذه الأسئلة المهمة وغيرها، هي موضوع الباب الثالث من هذا البحث، الذي يعدّ الباب الثاني جزءًا أساسيًا منه، حيث مهد لنا الطريق من خلال:

ـ تعريفنا بالبيئة التي ستتحرك فيها الدعوة، وتتكيف معها منهجية العمل ووسائله وأساليبه.

ـ وتعريفنا كذلك بالإعداد الرسالي لصاحب الدعوة، وتكليفه بالانطلاق في القيام بواجبه التغييري، لإصلاح أوضاع الإنسانية، والارتقاء بها إلى الآفاق الاستخلافية المرجوة.

ـ وتعريفنا أيضًا من جهة ثالثة، بالأهداف الكبرى للدعوة في الفترة المكية، باعتبارها مرحلة تأسيسية حاسمة في مسيرة الرسالة الإسلامية عمومًا.

فنحن بعد وضع هذه المرتكزات المنهجية للبحث والمتمثلة في تحديد وبيان:

ـ طبيعة الدعوة الإسلامية وخصائصها المبدئية الكبرى كمدخل كلّي للبحث.

ـ وطبيعة المرحلة المكية وأهداف الدعوة فيها كأرضية مباشرة ضرورية للموضوع.

نشرع في دراسة صلب الموضوع. أو الجانب التطبيقي فيه، الذي يعنى بتتبع منهج النبي ﷺ في حماية الدعوة والحفاظ على منجزاتها خلال الفترة المكية، وهذا عبر تقسيم هذه الفترة المهمة جدًّا من الدعوة، إلى ثلاث مراحل تأسيسية كبرى، هي بمثابة حلقات قوية، يخدم بعضها بعضًا، حيث سأركز في كل فترة من هذه الفترات على:

ـ تحديد الإطار الزماني والمكاني للمرحلة.

ـ تحديد الأهداف المحورية للمرحلة.

ـ تتبع التحديات التي واجهتها الدعوة في كلّ مرحلة.

ـ بيان منهج النبي ﷺ في مواجهة هذه التحديات.

ـ ثم أخلص في نهاية كل مرحلة إلى حصر النتائج أو الإنجازات التي حققتها الدعوة.

الفصل الأول

مشكلات الدعوة في المرحلة التأسيسية الأولى ومنهج مواجهتها

أ ـ الإطار الزماني والمكاني للمرحلة

١ ـ الإطار الزماني

٢ ـ الإطار المكاني

ب ـ هدف الدعوة في هذه المرحلة

١ ـ بناء نواة القاعدة الجهادية للدعوة

٢ ـ حماية هذه النواة الجهادية للدعوة

ج ـ المشكلات التي واجهتها الدعوة في هذه المرحلة

١ ـ مشكلة بناء النواة الجهادية الأُولى للدعوة.

٢ ـ مشكلة حماية هذه النواة الجهادية والمحافظة عليها

د ـ منهج النبي صلى الله عليه وسلم في مواجهة هذه المشكلات

أولاً: مواجهته عليه السلام لمشكلة بناء النواة القاعدية للدعوة

١ ـ مواجهته عليه السلام لمشكلة البداية

٢ ـ مواجهته عليه السلام لمشكلة تمثيل قاعدة الدعوة للمجتمع

٣ ـ مواجهته لمشكلة الاستيعاب التربوي لهذه النواة الجهادية

ثانيًا: مواجهته عليه السلام لمشكلة حماية هذه النواة الجهادية والمحافظة عليها

١ ـ منحه عليه السلام الأولوية لبناء القدرات الذاتية للدعوة

٢ ـ انتهاجه سياسة تفادي المواجهة المبكرة مع المجتمع

هـ ـ منجزات الدعوة في هذه المرحلة

١ ـ منجزاتها على مستوى الهدف المحوري للمرحلة

٢ ـ موقع هذه المنجزات من الأهداف الكلية للمرحلة المكية

أ ـ الإطار الزماني والمكاني للمرحلة

١ ـ الإطار الزماني

الإطار الزماني للدعوة في هذه المرحلة، يستغرق ثلاث سنوات، من بداية التكليف الرسالي بالدعوة الذي ابتدأ في سنة ٦١٠ م، إلى الانطلاق في الدعوة العامة في نهاية السنة الثالثة من البعثة على أرجح الأقوال[١].

٢ ـ الإطار المكاني

أما الإطار المكاني للدعوة في هذه المرحلة، فقد اقتصر على الدائرة المكية أو القرشية عامة، حيث كان رسول الله ﷺ مركّزًا جهده على المجتمع المكّي ومحيطه القريب، لأسباب سترد الإشارة إليها لاحقًا، عند حديثنا عن منهجه عليه السلام في مواجهة التحديات التي كانت تواجه الدعوة في مرحلتها التأسيسية الأولى.

وتحديد الإطار المكاني للدعوة بالمجتمع المكي ومحيطه القريب، لا يعني أن الدعوة لم تخرج من هذه الدائرة في هذه المرحلة، بل تعني أن التركيز الأكبر كان في هذه المساحة. لأن هناك من أسلم وهو بعيد الموطن، كأبي ذر

(١) ابن سيد الناس، **عيون الأثر** ١/ ١٢٢، ابن كثير، **السيرة النبوية** ١/ ٤٥٤.

الغفاري الذي بلغه خبر الدعوة الإسلامية، فبعث أخاه يستطلع له الأخبار ويستوثق منها، حيث قال له: «إركب إلى هذا الوادي، فاعلم لي علم هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي..»[٢].

فالدعوة في هذه المرحلة، لم تكن سرية مطلقة في رأي كثير من المحققين[٣]، بل كانت معلومة لدى الناس في المجتمع المكي، وخبرها منتشر، ويعود الفضل في عدم احتدام المجابهة بينها وبين المجتمع القرشي إلى السياسات الحكيمة التي انتهجها النبي ﷺ، وهو ما جعل آثارها تظهر في الواقع دون أن تثير الناس وتستفز نفوسهم ضدها.

ب ـ أهداف الدعوة في هذه المرحلة

رأينا في الفصل الأخير من الباب الثاني، عند حديثنا عن أهداف الدعوة الإسلامية في الفترة المكية، أنها تتمحور حول:

ـ بناء المنظومة الفكرية.

ـ بناء المنظومة العقدية.

ـ إرساء أسس بناء المنظومة الاجتماعية.

ـ الإعداد لبناء الدولة الخادمة للدعوة.

وهذا يتم كما أكّدنا في بداية الفصل نفسه، في إطار أشمل يتعلق بأهداف الدعوة الإسلامية بصفة عامة، ألا وهي إنجاز مستوى استخلافي راقٍ، معرفيًّا وروحيًّا وسلوكيًّا وعمرانيًّا، في سياق العمل المخلص الصائب للتحقق بالعبودية الشاملة لله تعالى.

وهذا معناه أن الدعوة الإسلامية جاءت تستهدف إحداث تحوّل ضخم في الحياة الإنسانية، تنتقل بموجبه البشرية ﴿مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾

(٢) ابن كثير، السيرة النبوية ١/ ٤٤٧.

(٣) محمد عزة دروزة، سيرة الرسول ١/ ١٦٢، د. عماد الدين خليل، دراسة في السيرة / ٦٥.

[المائدة: ١٦] كما عبر عن ذلك القرآن الكريم في آيات كثيرة، مليئة بالإيحاءات المعبرة عن كون الحركة الإنسانية التي لا تستهدي بالوحي الإلٰهي، ولا تنضبط بتوجيهاته، تتسم بالفوضى والتخبط ومناقضة سنن الحياة.

فالعمل التغييري الذي اضطلعت الدعوة الإسلامية بإنجازه في الواقع البشري، إصلاحًا له، وارتقاءً به إلى مستوى متقدم من التوافق والانسجام مع سنن الله في خلقه، ليس عملاً كبيرًا كسائر الأعمال التاريخية التي مرت بالإنسانية بقيادة الأنبياء عليهم السلام وغيرهم فحسب، بل هو أكبر وأعظم تحوّل في الحياة الإنسانية على الإطلاق، لأنه شكّل نقلة جديدة على طريق الارتقاء بالإنسانية من الطفولة إلى النضج والرشد واكتمال ملكاتها الفهمية، واستواء خبراتها، التي تمكنها من تجاوز الخرافة وتيه الاعتقاد إلى التفكير العلمي الموضوعي، المفضي إلى الوقوف على أسرار الخليقة وعظمة الخالق، والتوجه له بالعبادة وحده دون سواه.

وتحول ضخم كهذا استلزم منذ البداية الإعداد الجيد له حتى يتم بنجاح، وهو ما كان الرسول ﷺ على وعي تامّ به وبتبعاته ومستلزماته. فعمل عليه السلام بكل قواه من أجل توفير الضمانات اللازمة لنجاحه، وهو ما يتجلى لنا في تركيزه، في المرحلة التأسيسية الأولى لدعوته، على إعداد قاعدة أو طليعة جهادية قوية لها، بإمكانها تحمّل تبعات الدعوة والصمود في وجه التحديات التي يفرضها المجتمع الجاهلي عليها في دفاعه الذاتي عن موروثاته وامتيازاته.

لقد شكّل بناء هذه القاعدة الجهادية أو الطليعية هدفًا أساسيًا لهذه المرحلة، استقطب جل اهتمامات الرسول ﷺ وأصحابه الأوائل منذ الوهلة الأولى لبداية التكليف الرسالي، لأنه عليه السلام كان يدرك جيدًا أن العمل الحضاري الضخم الذي قدّر له أن يقود عملية إنجازه في الأرض، في حاجة إلى «طليعة جهادية» تضطلع معه بحمل أعباء الدعوة من أجل التمكين له في الأرض.

فهو عليه السلام يعرف أن أحوال المجتمعات راسخة قوية لا يزحزحها

ولا يهدم بناءها إلاّ المطالبة القوية[٤] والاستناد إلى ركن شديد كما قال سيدنا لوط عليه السلام، حينما أحس بالضعف أمام ضغط قومه:

﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيَ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾﴾ [هود: ٨٠]، أي لو أن لي أنصارًا وأعوانًا أتقوّى بهم على دفعكم ومغالبتكم[٥]، وإخلاء طريق الدعوة من أمثالكم.

وهذه القوة المتمثلة في «**الطليعة الجهادية**» المؤمنة بالرسالة المتجردة لها، المصممة على المضي قدمًا لتمثلها والتمكين لها، كانت في مقدمة أولويات الدعوة في المرحلة التأسيسية الأولى، ليقينه عليه السلام «**أن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن**»[٦] فركز جهوده على بناء النواة الأولى للدعوة بناء محكمًا، تكامل فيه التوثّب الروحي العالي، مع تنهيج الفكر وتحريره من سلطان الخرافة، وتهذيب السلوك والارتقاء به إلى مستويات عالية من السموّ والكمال الإنساني.

لقد بذل رسول الله ﷺ جهدًا مركّزًا في غفلة من المجتمع الجاهلي لإعداد نواة الطليعة الجهادية الأولى، التي ستحمل معه تبعات الدعوة في كل مراحلها الحاسمة، حيث حرص عليه السلام على أن تكون هذه النواة الجهادية الأولى صورة نموذجية حيّة، تشهد في أرض الواقع بلسان الحال قبل لسان المقال على عظمة الإسلام ومصداقية نموذجه الحضاري الذي يَعِدُ به الإنسانية، يوم يشرع في مواجهة المجتمع بالدعوة، وفتح الحوار معه حول واقعه وأوضاعه من جهة، ووعود الإسلام وآفاقه الرسالية من جهة أخرى.

ومن هنا تظهر أهمية أولوية التركيز على بناء هذه النواة الجهادية النوعية، فهو عليه السلام كان على دراية تامة بأبعاد القضية، فعمل جهده على صياغة الرعيل الأول للدعوة صياغة رسالية تستجيب لطموحات الدعوة، وتجسد

---

(٤) ابن خلدون، المقدمة ٢/٦٣٩.

(٥) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن ٩/٧٨. الشوكاني ٢/٥١٤.

(٦) ابن الأزرق، بدائع السلك في طبائع الملك ١/٩٢.

مضمونها بصورة جدية فعالة مؤثرة مع مرور الزمن، تواصل إكمال معالم المشروع الجديد. وبذلك الاحتياط الحكيم مكّن الدعوة من تجاوز عقبة خطيرة، كثيرًا ما تسببت في إجهاض حركات كثيرة في التاريخ وقضت عليها، ألا وهي: عجز هذه الحركات والدعوات عن تربية أتباعها تربية نموذجية، مما يؤدي إلى إعطاء صورة سيئة عنها، تنفر الناس وتعزلهم عن الدعوة أو الفكرة وتزهدهم فيها(٧).

ج ـ المشكلات التي واجهتها الدعوة في هذه المرحلة

إذا كان هدف الدعوة في مرحلتها التأسيسية الأولى هو بناء نواة الطليعة الجهادية الأولى، التي تتحقق بالإسلام(*) في ذاتها، وتضطلع مع رسول الله ﷺ بأعباء تبليغ الدعوة، والإعداد لتمكينها من صياغة الحياة الإنسانية وتوجيهها نحو التناغم مع سُنن الله في خلقه.. فما هي يا ترى المشكلات أو التحديات التي واجهتها الدعوة في هذه المرحلة المهمة من مراحلها؟

وقبل المضي في الإجابة عن هذا السؤال، لا بد من الإشارة السريعة إلى قلّة بل ندرة المعلومات عن هذه المرحلة، حيث يُلاحظ في كل كتب السيرة القديمة والحديثة التي تمكّنتُ من الاطلاع عليها على كثرتها ـ كما يتضح ذلك من قائمة المصادر والمراجع ـ مرورُها العابر على هذه المرحلة، الأمر الذي صعّب كثيرًا مهمّة بعض المحاولات التي أراد أصحابها تسجيل وقائع السيرة من القرآن الكريم(٨)، خاصة إذا ما لاحظنا كذلك الاختلاف القائم حول الترتيب الزماني لنزول الآيات بصفة عامة وما تعلق منها بالمرحلة التي نحن بصددها بصفة خاصة، وهو ما لفت نظر سيد قطب رحمه الله وهو يحاول تأسيس ما أسماه «بمكتبة القرآن الجديدة» حيث كتب يقول:

---

(٧) سعيد حوى، الرسول ﷺ ١/ ٢٠٣.

(*) ـ أي بما نزل منه في تلك الفترة.

(٨) انظر مثلاً: سيرة الرسول ﷺ صور مقتبسة من القرآن الكريم لدروزة. وعبد الصبور مرزوق، السيرة النبوية في القرآن الكريم.

«. . . ليس لدينا أي سجلّ كامل لأسباب النزول وتاريخه المضبوط، وحتى الآيات التي نعرف أسباب نزولها وتاريخه تختلف فيها الآراء وتتعدد فيها الأقوال، ولا مجال فيها لغير الظنّ والترجيح.

ولو كان بين أيدينا ذلك السجل الدقيق الذي لا يُقَوَّم بثمن لهيّأ لنا فرصة لا تقدر لتتبّع مراحل الدعوة الإسلامية وطرائقها في كل مرحلة، ولكشفَ لنا عن العوامل النفسية والعقلية فيها، فوق العوامل التاريخية والمحلية. . ولكن هذا كله مع الأسف الشديد لا سبيل إليه الآن بغير الحدس والتخمين[٩].

ومع ذلك سنحاول من خلال المعلومات المتوفرة البحث عن أهم المشكلات الأساسية التي واجهت الدعوة في هذه الفترة المبكرة، وهي تتحرك لتأسيس أول وجود فعلي لها في الواقع.

ومن خلال تتبّع وقائع هذه المرحلة يمكن تحديد المشكلات الأساسية التي واجهت الدعوة فيها في مشكلتين أساسيتين هما:

- مشكلة بناء النواة الجهادية الأولى للدعوة.
- مشكلة حماية هذه النواة الجهادية والمحافظة عليها.

مشكلة بناء النواة الجهادية الأولى للدعوة

إن الرسول ﷺ وقد حدّد هدفه في هذه المرحلة، في ضرورة إعداد القاعدة البشرية الطليعية للدعوة، وجد نفسه أمام جملة من العقبات كان عليه أن ينتبه لها، ويأخذها بعين الاعتبار في أي خطوة يخطوها إلى الأمام.

فقد كان عليه ﷺ أن يحل مشكلة البداية أو الانطلاق في الدعوة، وهي مشكلة ليست يسيرة في مجتمع يعاني من خلل عظيم في منظومته العقدية والفكرية والاجتماعية، بالنسبة إلى ما جاءت به الدعوة الإسلامية من قيم ومفاهيم وتصوّرات جديدة، تقلب كثيرًا ممّا ألفه الناس ودرجتْ عليه حياتُهم،

---

(٩) مشاهد القيامة في القرآن / ٩.

وانبنت عليه علاقاتهم، وارتبطت به مصالح كثير منهم.

وقد بينتْ وقائع السيرة في المراحل التالية، عندما بدأت الدعوة تعلن للناس مشروعها، خطورة هذه المشكلة، حيث لوحظ مدى عنف ردّ الفعل الذي قوبلت به الدعوة من قبل المجتمع الجاهلي يومئذ، والذي بلغ مداه في السلوك العدواني على المسلمين وقيادتهم، وهو ما كان رسول الله ﷺ على وعي تامّ به، عندما أعار مشكلة البداية ما تستحقه من اهتمام وعناية.

لقد أدرك الرسول عليه الصلاة والسلام منذ البداية، أن مفاجأة قريش بالدعوة والدخول معها في حوار علني مباشر حَوْل أوضاعها العقدية والفكرية والاجتماعية... لن يزيد الأمر إلاّ تعقيدًا وصعوبة، إذ «كيف يدعو قريشًا إلى الحقّ، وهو يعلم أنهم أحرص ما يكونون على باطلهم؟ وأي طريقة يسلك لإقناعهم أن ما هم فيه باطل، وأن ما جاءهم به هو الحق، وكيف وهذا الحق يبطل عقائدهم، ويهدم تقاليدهم، ويهدد كل ما يتطاولون به على الناس من جاه وسلطان، وما يستمتعون به في الحياة من لذة ومتاع»[١٠].

إن كل هذه الظروف والأوضاع المحيطة بالدعوة، حتمت على رسول الله ﷺ التفكير مليًا في كيفية تحقيق أهداف المرحلة على ضوء ملابسات الواقع ومعاكساته..

فقد كان عليه أن يحتاط من مفاجأة الرأي العام ومعاكسته دون مقدمات، لما في ذلك من مخاطرة غير محسوبة العواقب، في مجتمع يركَبُ كلّ صعب من أجل حريته وشرفه ومصالحه وموروثاته.

كما كان عليه أن يدقق في خطواته وهو يتحرك لبناء النواة القاعدية الأولى للدعوة، بحيث لا يلتفت إليه أحد ولا يعبأ به، ولا يعير أي اهتمام لما يقوم به من عمل.

وكل ذلك كان يطرح تساؤلات عملية كثيرة، تستدعي تعميق البحث

(١٠) أمين دويدار، صور من حياة الرسول / ١٢٦.

وتكثيف الجهد لضمان انطلاقة سليمة موفقة للدعوة، ومن هذه الأسئلة المهمة:

ـ من هم الأشخاص المؤهّلون الذين ينبغي التركيز عليهم في بداية الأمر؟

ـ كيف تتم مواجهتهم بالأمر؟

ـ كيف يتم أمر متابعتهم وتكوينهم؟

ـ كيف يتم التوفيق بين ممارسة بعض شعائر دينهم والحرص على عدم مفاجأة المجتمع واستفزازه؟

ـ كيف يمكن لهؤلاء أن ينخرطوا في ممارسة الدعوة، دون الإضرار بمسيرة العمل وبأنفسهم كرصيد عزيز للدعوة؟

إلى غير ذلك من المشكلات الفرعية الكثيرة التي تطرح تحديات عديدة على الدعوة وقيادتها، وهي تسعى جاهدة إلى بناء النواة القاعدية الأولى التي تنطلق بها الدعوة، وتستند إليها في مواجهة ضغوط المحيط عليها، وتهديده لها بالتهميش أو التحريف أو التوقيف.

٢ ـ مشكلة حماية هذه النواة الجهادية والمحافظة عليها

والمشكلة الكبيرة الثانية التي واجهت الدعوة في هذه المرحلة وباقي المراحل اللاحقة هي:

كيف تتم حماية هذه الطليعة الجهادية والمحافظة عليها من مؤثرات المحيط ومعاكساته وتحرّشاته؟

وهو التحدي الكبير الذي يواجه كل الدعوات والحركات ويهددها بالإضعاف والانحراف، إن لم تؤخذ التدابير الوقائية اللازمة للحيلولة دون ذلك، والتاريخ البشري مليء بالتجارب التي تمكنت من تحقيق انطلاقات كبرى ومكاسب مهمة، سرعان ما تلاشت وأخذت مسارب أخرى سارت بها بعيدًا عن منطلقاتها وأهدافها(١١).

---

(١١) مالك بن نبي، بين الرشاد والتيه / ١٤.

فالدعوة الإسلامية كحركة تغييرية كبرى، تستهدف إحداث تحوّل شامل وعميق في حياة البشرية تنتقل عبره الإنسانية من الظلمات إلى النور، كانت في حاجة مُلحّة إلى حماية نواة القاعدة الجهادية الأولى والمحافظة عليها قدر الإمكان، لارتباط نجاح باقي المراحل اللاحقة بها.

وكان هذا المشكل يطرح تبعات جسيمة على رسول الله ﷺ كقائد للدعوة من واجبه العمل على توفير الشروط والضمانات اللازمة لرعاية الرعيل الأول من أتباعه، والنأي بهم، ما أمكن، عن دواعي الضعف والفتنة، حتى يستكملوا بعض شروط المناعة والقوة التي تؤهلهم لمواجهة التحديات والصمود أمامها، ومغالبتها بما تيسّر لهم من الإمكانات والوسائل الملائمة.

هذه باختصار المشكلات الأساسية الكبرى التي واجهتها الدعوة الإسلامية في مرحلتها التأسيسية الأولى المتمحورة حول مشكلتين رئيسيتين هما:

- مشكلة بناء نواة الطليعة الجهادية الأولى.

- مشكلة حمايتها والمحافظة عليها من عوامل الإضعاف والفتنة، ومواصلة تعبئتها وإعدادها لمعارك المراحل القادمة.

د ـ منهج النبي صلى الله عليه وسلم في مواجهة هذه المشكلات

في البداية نبادر إلى التذكير بأننا نعني بمنهج النبي ﷺ:

الكيفيات العملية المنظمة التي كان عليه السلام يعرض بها الإسلام على الناس، ويواجه بها مشكلات الواقع والدعوة، ويحرك بواسطتها الأحداث من حوله بما يضمن حماية المحتوى الرسالي للدعوة، ويحافظ على منجزاتها ويحقق أهدافها في الخلق.

فخطواته عليه السلام كانت مضبوطة منسّقة مدروسة، لا مكان فيها للعفوية والارتجال وسوء التقدير، لأنها كانت تصدر كلها عن منهج واضح محدد في أبعاده «الفكرية» والعملية، وهو ما سنحاول الوقوف على معالمه في

هذه الدراسة بحول الله تعالى.

فالدارس لوقائع السيرة النبوية في هذه المرحلة وسائر مراحل الدعوة، يلاحظ مدى صرامة انضباط النبي ﷺ بالمنهج في العمل، فهو عليه السلام على سبيل المثال لم يندفع إلى الإنذار وقد تلقى الأمر بذلك من ربه في قوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝ قُمْ فَأَنذِرْ﴾ [المدثر: ١، ٢] أي شمّر عن ساعد الجد، وانطلق بعزم وحزم دون توان، وقم بإنفاذ أمر الله إلى العباد حتى لا تفوتهم الفرصة «لأن الأمر بالقيام في هذا المقام لا يراد منه مجرد النهوض، وترك التلفف في الثياب، وإنما يراد به العزيمة الناهضة في قوة حازمة، تتحرك ماضية في اتجاه ما كلفه من صدق العمل تحقيقًا لأداء واجب التبليغ»(١٢).

قلت مع هذا لم يندفع عليه السلام إلى العمل دون خطة أو منهج، بل حول الأمر إلى خطة عمل محددة الأهداف والوسائل الإجرائية، على ضوء تقديره لموقف البيئة المحيطة بالدعوة.

لقد تحرك الرسول ﷺ لإنفاذ أمر ربه وفق خطة سبق الحديث عنها في المبحثين الآنفين، ومنهج نحن بصدد التحدث عنه من خلال عرض الخطوات الإجرائية التي اعتمدها عليه السلام في مواجهة مشكلات الدعوة، وإنجاز أهدافها في هذه المرحلة.

أولاً: مواجهته عليه السلام لمشكلة بناء نواة القاعدة الجهادية الأُولى للدعوة

رأينا في المبحث السابق الخاص بالمشكلات الأساسية التي واجهتها الدعوة في بداية أمرها، أن النبي عليه الصلاة والسلام كان يستهدف في هذه المرحلة بناء نواة القاعدة الجهادية التي ترتكز عليها الدعوة في مواجهة المجتمع والسعي إلى تغيير وجهته وإعادة النظر في علاقاته وأنظمته، وإدماجه في حركة الاستخلاف بعد نكوص طويل.

---

(١٢) محمد الصادق عرجون، محمد رسول الله ١/ ٥٩٠.

وفي سياق إنجاز هذه المهمة وجد النبي ﷺ نفسه وجهًا لوجه أمام مشكلة بناء هذه القاعدة الجهادية، فكيف واجهها يا ترى؟ وكيف بنى هذه القاعدة القيادية للدعوة ووفّر لها أسباب الحماية وسط أجواء صعبة ومعقدة؟ سبق الكلام عنها في الفصل الأول من الباب الثاني، أثناء حديثنا عن «بيئة الدعوة في الفترة المكية» التي أفاض القرآن الكريم في الحديث عنها، ووصفها بأوصاف شتى كما يدل على ذلك قوله تعالى على سبيل المثال:

﴿ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ۝٦ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٧ ﴾ [يس: ٦، ٧].

وقوله كذلك:

﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ۝٩٧ ﴾ [مريم: ٩٧]، درجوا على اللجج والجدال بالباطل والإعراض عن الحق والمكابرة فيه(١٣).

وقوله أيضًا:

﴿ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ ﴾ [السجدة: ٣] الأمر الذي جعل الكثير من العادات والتقاليد المنحرفة تتكرس في حياتهم، وتمارس دور الموجّه لمواقفهم واتجاهاتهم، وهو ما يصعّب مهمة التغيير والإصلاح ويجعل القائمين بها بحاجة إلى المزيد من الحكمة والمثابرة والصمود وطول النفس.

وسنشرع الآن في رسم صورة لمعالم المنهجية التي توخاها النبي ﷺ في مواجهة هذه المشكلة وتجاوزها، وذلك من خلال التركيز على ثلاث مشكلات أساسية لعلاقتها المباشرة بما نحن بصدده وهي:

ـ مواجهته عليه السلام لمشكلة البداية.

---

(١٣) القاسمي، محاسن التأويل ٧/ ١٥٠. الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير ١٦/ ١٧٦.

ـ مواجهته عليه السلام لمشكلة تمثيل قاعدة الدعوة للمجتمع كله.

ـ مواجهته عليه السلام لمشكلة الاستيعاب التربوي لأتباعه.

١ ـ مواجهته عليه السلام لمشكلة البداية

وقد اعتبرنا بداية الانطلاق في الدعوة مشكلة لاعتبارات عديدة منها:

ـ طبيعة البيئة القبلية المعقدة القائمة على الصراع بين الأُسر والزعامات، بحيث يصعب على الناس وخاصة أهل النفوذ والوجاهة، هضم أمر الانقياد لمن هو دونهم في المكانة الاجتماعية والسن، وهو ما نلاحظه بوضوح في بعض الاعتراضات التي صدرت عن زعماء قريش في ما بعد وسجّلها القرآن الكريم في مثل قوله تعالى:

﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ۝٣١﴾ [الزخرف: ٣١] بالرغم من مكانة النبي ﷺ في قومه، وما عرف عنه من سمو الخلق واستقامة السيرة قبل البعثة، مع ذلك فإن التقاليد الجاهلية وأعرافها تتدخل لفرض مقاييسها الموروثة ونصبها ميزانًا للحق والصواب والمصداقية والأفضلية.

فالصدارة الاجتماعية من المنظور الجاهلي، ينبغي أن تكون لأهل الجاه والثراء، لا لغيرهم من ضعفاء الناس وصغارهم[١٤] وهو ما كان رسول الله ﷺ على وعي به وبمخاطره، وأخذه في حسبانه في خطة عمله حتى لا يثير ضده المجتمع الجاهلي منذ البداية، لما في ذلك من خطر كبير على الدعوة.

ـ طبيعة الدعوة الإسلامية ذاتها، المناقضة بصفة جذرية لأصول ومرتكزات الفكر والحياة الجاهليين في الاعتقاد والتفكير والعمل والعلاقات، «فقد كانت تمثل ردًّا حاسمًا على كل القيم الجاهلية، وانقلابًا جذريًّا على مواضعات العصر وممارساته ومطامحه القريبة العاجلة..»[١٥] الأمر الذي

(١٤) سيد قطب، في ظلال القرآن ٥/ ٣١٨٦.

(١٥) د. عماد الدين خليل، دراسة في السيرة/ ٩٩.

جعل مفاجأة الرأي العام بها منذ البداية، يشكّل رهانًا في غاية الخطورة، لأنه يحفّز المجتمع ويهيّئه لردّ الفعل السلبي والتحفّظ من الدعوة والانجراف بسهولة في تيار مواجهتها ومحاولة إجهاض مشروعها.

ـ وهذان الاعتباران الأساسيان، كانا يطرحان مشكلات عميقة أخرى سبق ذكرها، تتعلق بضرورة التحرّز من البداية غير الموفقة، لما ينجم عنها من متاعب للدعوة، وهي في بداية انطلاقها لا تملك وسائل الدفاع عن نفسها وسط بحر الجاهلية المحيط بها والمعاكس لطموحاتها وتوجّهاتها.

ومن أمثلة هذه المشكلات العملية العديدة التي كانت تطرح نفسها على النبي ﷺ: بمن ستكون البداية وكيف؟ وهو أمر تُحَتِّمُ مصلحةُ الدعوة الاهتمامَ به، لتجنّب أخطاء البداية التي ربما أثّرتْ سلبًا على سير الأمور، وفتحتْ جبهات لصراع هي في غنى عنه، وليست مهيأة لمواجهته في هذه المرحلة من عمرها.

فالدعوة في هذه الفترة في حاجة أكيدة إلى نماذج نوعية تكون أكثر قابلية للانضباط، والاستعداد للعطاء لبناء قاعدة الإقلاع الحقيقي بالمشروع الإسلامي، حينما تأزف ساعة الخروج به إلى المجتمع ومواجهته به، ويجعلها أكثر حرصًا على سلامة التقدير وحسن الاختيار للعناصر التي تضع بها الأساس الأول للدعوة.

وما أكثر الحركات والدعوات(١٦) التي وُلدت محمّلة بأسباب الضعف وعوامل الاختلال، لأنها لم تعر لمشكلة البداية: بمن ستكون؟ وكيف؟ أهمية خاصة، فالتحقَ بها من كان عبئًا عليها، ومعولَ هدمٍ في بنيانها، من ذوي الآفاق المحدودة، والنفسيات المعلولة، ممن لا يصلحون كطليعة قيادية يؤسَّس عليها بنيان الحركة أو الدعوة في انطلاقتها الأولى، التي ستتحكم في مستقبلها إلى حدّ بعيد، كما تشير إلى ذلك وصايا المربّين التي، وإن كانت

---

(١٦) مالك بن نبي، مشكلة الأفكار. /١٦٣، فتحي يكن، التربية الوقائية في الإسلام/ ٩٢.

تتحدث عن الفرد، إلا أنها تستوعب الجماعات والأمم، لاتصالها بسنن الله في القوة والضعف. فقد ورد أن كل «أمر تغلب عليه الصفة التي بدأ بها» فمن «صَحّتْ بدايتُه، صحّت نهايتُه» ويلاحظون أن أسباب الفتور والضعف التي تظهر على الأفراد «إنما تتولد من فساد الابتداء»[١٧].

هذه الاعتبارات كلّها وعاها عليه السلام، وعلى ضوئها تحرّك في عمله، فجاء منظّمًا منسّقًا في مستوى التحدّي والطموح معًا، وجنب الدعوةَ كلَّ هذه المحاذير، وأعدَّ لها الأرضية الصلبة، التي ستقف بوثوق وثبات وقوة بعد ذلك.

وقد كان أول إجراء حكيم قام به النبي ﷺ في هذا السياق، لضمان بداية سليمة موفّقة للدعوة، هو اعتماد أسلوب الاتصال الفردي الانتقائي، القائم على المعرفة الشخصية لقابليات الأفراد من جهة، ومدى استعدادهم للتجاوب مع الدعوة والانخراط في موكبها من جهة أخرى، حتى لا يتسرّب إليها مَن ليس في مستواها، وحتى يجنبها مضاعفات الرفض في حالة عدم قبول أمره والمبادرة إلى إشاعته بين الناس بما يثير حفائظهم ويعبّئهم ضد الدعوة.

قال ابن إسحاق:

«وجعل رسول الله ﷺ يذكر جميع ما أنعم الله عليه وعلى العباد به من النبوة سرًّا إلى من يطمئن إليه من أهله»[١٨] في بداية الأمر، في كامل الاحتياط والحذر، كما تدل على ذلك هذه الرواية التي ذكرت في إسلام علي رضي الله عنه، الذي كان يعيش في بيت رسول الله ﷺ، ورآه يصلي هو وخديجة رضي الله عنها فقال: يا محمد ما هذا؟ قال عليه السلام: دين الله الذي اصطفى لنفسه، وبعث به رسله، فأدعوك إلى الله وحده لا شريك له.. فقال: هذا أمرٌ لم أسمع به قبل اليوم فلست بقاض أمرًا حتى أحدث به أبا طالب.

---

(١٧) أحمد الراشد، الرقائق / ٤٠.
(١٨) ابن هشام، السيرة النبوية ١/ ٢٥٩.

فكره رسول الله ﷺ أن يفشي عليه سره قبل أن يستعلن أمره. فقال له: «يا عليّ إذا لم تُسْلمْ فاكتمْ»[19].

بهذا المستوى من الانضباط في السير، كان عليه السلام ينقل خطاه في بداية حركته لبناء نواة القاعدة الجهادية الأولى للدعوة وقد تجنّب كل من غلب عليه ظنّه أنه لا يتجاوب مع دعوته، بمن في ذلك أقرب الناس إليه وأحدبهم عليه، وأرأفهم به عمه أبو طالب الذي لم يعرض عليه الرسول ﷺ الإسلام، إلاّ بعد أن فاجأهما هو وعلي يصلّيان، فدار بينهما حوار انتهى بقول أبي طالب: «أي ابن أخي لا أستطيع أن أفارق دين آبائي وما كانوا عليه، ولكن والله لا يُخْلَصُ إليك بشيء تكرهه ما بقيت»[20].

وبالمنهجية نفسها أخذ عليه السلام يوسع دائرة الدعوة إلى أصحابه الخُلّص، الذين يثق في قدراتهم ويطمئن إليهم، حيث ركز على أبي بكر الصديق بعد إسلام أهل بيته خديجة وعلي وزيد، لمكانته في قومه والتي ترشحه لأدوار مهمة في مسيرة الدعوة، فقد كان رضي الله عنه: «مألفًا لقومه محببًا سهلاً، وكان أنسب قريش لقريش، وأعلمهم بها وما كان فيها من خير وشر، وكان تاجرًا ذا خلق معروف، فكان رجال قومه يأتونه ويألفونه لتجارته وحسن مجالسته وغير ذلك»[21]، فدعاه عليه السلام وعرض عليه الإسلام فأسلم دون تردُّد، فاغتبط بذلك رسول الله ﷺ أيّما اغتباط حتى قيل أنه انطلق عنه «وما بين الأخشبين أحد أكثر سرورًا منه بإسلام أبي بكر»[22].

وقد كان رسول الله ﷺ على حق في هذا السرور والاغتباط، فأبو بكر رضي الله عنه بمجرد إسلامه انطلق بتوجيه منه عليه السلام يساهم بفعالية في بناء قاعدة الدعوة[23]، حيث أسلم على يده بعد ذلك مباشرة نفرٌ من خير رجال

---

(19) ابن كثير، السيرة النبوية ١/ ٤٢٨.

(20) ابن هشام، السيرة النبوية ١/ ٢٦٤.

(21) ابن سيد الناس، عيون الأثر ١/ ١١٨.

(22) محمد يوسف الكندهلوي، حياة الصحابة ١/ ٦٧.

(23) المباركفوري، الرحيق المختوم/ ٨٦.

قريش هم عثمان بن عفان الأموي، والزبير بن العوام الأسدي، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص الزهرياني، وطلحة بن عبيد الله التيمي، فكان هؤلاء الثمانية السابقون هم طليعة الإسلام، ونواة قاعدته الجهادية، التي انطلقت تبشّر بالدعوة بالأسلوب الانتقائي الحذر نفسه الذي أتى أُكُلَه بإذن ربّه بعد حين من الزمن، وتتابع دخولُ الناس في دين الله رجالاً ونساءً، حتى فشى ذكره بمكة وتحدث الناس به(٢٤) بعد ذلك.

ويلحق بهذه التدابير التي واجه بها رسول الله ﷺ مشكلة انطلاق الدعوة، إحجامه في بداية الأمر عن مبادأة رؤساء قومه بالدعوة، خوفًا من إثارتهم عليها(٢٥)، لمعرفته عليه السلام بتقاليد البيئة وطباع أهل النفوذ فيها وقدرتهم على تزييف وعي الرأي العام وتجنيده للمحافظة على استقرار الأوضاع، وهي النظرة العميقة التي اتضح في ما بعد صوابُها، حينما فشا أمر الدعوة وتجاوز مرحلة الخطر، وبدأت المواجهة العنيفة مع زعامة المجتمع الجاهلي، حيث أفصح هؤلاء عن جانب من خلفيات الموقف النفسي والفكري الذي كان يحركهم ضد الدعوة، وهو ما سجله القرآن في مثل قوله تعالى:

﴿ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ﴾ [صَ: ٨] أي: مع أن فينا من هو أثرى وأعلى رياسة(٢٦).

وهو ما احتاط منه رسول الله ﷺ وحرص على تجنبه في بداية الدعوة، تأمينًا لمسيرتها من مواجهات مبكرة قد تجهضها وتشلّ حركتها، ونجح عليه السلام في هذه الخطة إلى حدّ بعيد، باستيعابه لعدد مهم من شبان قريش ورجالاتها بل ونسائها، من غير أن يثير ذلك المجتمع ضد الدعوة التي كانت معروفة عند الناس بصفة عامة، كما يدل على ذلك قول المشركين الذين إذا مر بهم رسول الله ﷺ في مجالسهم أشاروا إليه وهم يرددون: «إن غلام بني

(٢٤) ابن هشام ١/ ٢٨٠.
(٢٥) عبد المتعال الصعيدي، السياسة الإسلامية في عهد النبوة /١١.
(٢٦) القاسمي، من محاسن التأويل ٨/ ١٤٦.

عبد المطلب ليكلّم من السماء»[٢٧].

فقد تمكن عليه السلام من خلال هذه الخطوات الموفقة من فسح المجال للدعوة لكي تسري في أعماق المجتمع وتتمكن منه دون أن يلتفت قادته وأفراده إلى الآثار المستقبلية العميقة التي ستلحق به، فأخطأوا التقدير عندما ظنوا أن دعوته عليه السلام لا تخرج عن نطاق الظاهرة الحنيفية التي كان لها بعض الوجود الفردي المحدود في المجتمع المكّي[٢٨].

٢ ـ مواجهته عليه السلام لمشكلة تمثيل قاعدة الدعوة للمجتمع كله

بعد تمكّنه عليه السلام من مواجهة مشكلة البداية ونجاحه فيها كان عليه أن يواجه مشكلة أخرى لا تقل عنها أهمية، بل هي جزء مهم من عملية البداية السليمة الموفّقة، ألا وهي مشكلة تمثيل قاعدة الدعوة للمجتمع كله أو أغلبه، من الناحيتين المكانية والاجتماعية، حتى لا تنحصر في مكان محدود أو فئة اجتماعية معينة، أو عشيرة بذاتها، لأن ذلك من شأنه أن يحجّم الدعوة ويورّطها في متاهات صراع القبائل إن كانت نواتها الأولى من قبيلة واحدة، أو صراع الطبقات إن كانت هذه النواة من فئة اجتماعية معيّنة، كفئة العبيد أو الشباب أو الفقراء.. خاصة وأن الدعوة الإسلامية كما رأينا في الباب الأول دعوة عالمية جاءت لتستوعب الأرض كلها والناس جميعهم إلى قيام الساعة.

فالإسلام جاء ببديل جديد ينزع نحو الكونية، ليرتقي بالإنسان من حضيض القبيلة والفكر القبلي، إلى قمم العقيدة والأُمة[٢٩]، التي تلتقي فيها القبائل والشعوب والأجيال على صعيد واحد كما قال تعالى:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ [الحجرات: ١٣].

---

(٢٧) الصادق عرجون، محمد رسول الله ١/ ٥٩٦.

(٢٨) محمد حسين هيكل، حياة محمد / ٥٧. منير غضبان، المنهج الحركي للسيرة النبوية / ٢٨.

(٢٩) د. محمد عابد الجابري، العقل السياسي العربي: محدداته وتجلياته / ١٠٠.

فكان على رسول الله ﷺ أن يعير أهمية كبيرة لهذه القضية حتى ينسجم سيره مع توجهات الرسالة وطموحاتها الإنسانية من جهة، ويجنب الدعوة محاذير الانحسار والتّمَحور الجغرافي أو الفئوي من جهة أخرى، وهو ما لم يغب عن باله عليه الصلاة والسلام، وعمل كل ما في وسعه من أجل توسيع نطاق قاعدة الدعوة لتشمل كل أو معظم الجهات والفئات، ليشكل بذلك النواة الأولى لمشروع الأمة، البديل عن مشروع القبيلة.

ومع أن المعلومات عن كيفية تنفيذ هذه الخطة الاستيعابية غير متوفرة بشكل ملحوظ، سواء في المصادر القديمة أو المراجع الحديثة حسب اطلاعنا، فإننا سنحاول استقراء ما تيسّر منها لرسم صورة عامة عن القضية، وذلك من خلال استعراض قائمة الرعيل الأول من المسلمين، ومحاولة فرزها على ضوء الأصول الجغرافية، والانتماءات الاجتماعية والجنس والسن.. حتى نتبين مدى نجاح الدعوة في تجاوز مشكلة التمحور المكاني والفئوي المحدوين، إلى مجتمع العقيدة والفكر المفتوح، أو الأُمّة الوسط كما يسميها القرآن الكريم.

التمثيل الجغرافي

ونقصد به مدى نجاح الدعوة في إيجاد موقع قدم لها في القبائل المختلفة، لما في ذلك من أهمية كبيرة بالنسبة لمستقبلها، وهو ما يبدو أن الدعوة نجحت فيه بشكل ملفت للانتباه، رغم سيرها الحذر جدًّا، إذ يكفي تفحّص قائمة الصحابة الأوائل الذين أسلموا في هذه المرحلة، للتأكّد بسرعة من مدى تمكّن الدعوة من النفاذ إلى جلّ بطون المجتمع القرشي وقبائله.

فقد التحق بالإسلام في هذه الفترة:

- من بني هاشم ١٣ فردًا.
- ومن بني مخزوم ٧ أفراد.
- ومن بني تيم ٤ أفراد.

- ومن بني عدي ٨ أفراد.
- ومن بني زهرة ٦ أفراد.
- ومن بني سلمة فرد واحد.
- ومن بني سهم فردان (٢).
- ومن بني جمح ٥ أفراد.
- ومن بني أسد (١) فرد.
- ومن بني عامر فردان (٢).

وما ينيف عن العشرة من بطون وقبائل أخرى مختلفة[٣٠].

التمثيل الاجتماعي

ونقصد به تجاوز الدعوة في انتشارها دائرة التمحور في فئة معينة من فئات المجتمع، كالعبيد أو الشباب أو غيرهم.. وهو ما يحاول بعض المستشرقين غمز الدعوة به باعتبارها - حسب زعمهم - دعوة مستضعفين[٣١]، ويكفي استعراض أسماء هؤلاء ليتضح مباشرة مدى تنوع الوضع الاجتماعي لهم، إذ نجد فيهم:

- ٣١ فردًا من وجهاء قريش وأبنائهم.
- ١٤ فردًا من مواليهم وحلفائهم.
- ١٢ امرأة موزّعة على أكثر من سبعة بطون.
- ٣ أفراد من قبائل أخرى[٣٢].

فالدعوة كما يتضح من هذه النتائج البيّنة، استطاعت بالإضافة إلى إيجاد مواقع لها في جلّ بطون المجتمع القرشي وقبائله، أن تستوعب فئات مختلفة ومتعددة منه، وأن تكوّن منهم رصيدًا احتياطيًا في غاية الأهمية بالنسبة للمراحل المقبلة، وهو ما اعترف به أحد المستشرقين الذين اهتموا كثيرًا بفحص أوضاع

---

(٣٠) منير الغضبان، المنهج الحركي للسيرة النبوية/ ٢٤. محمود شاكر، التاريخ الإسلامي ٢/ ٥٩.
(٣١) عرجون، محمد رسول الله ١/ ٦٠٤.
(٣٢) محمود شاكر، التاريخ الإسلامي ٢/ ٦٠.

الجماعة الإسلامية في هذه الفترة من عمر الدعوة، حيث لاحظ أن قاعدة الدعوة كانت تتشكل من شباب ينتمون إلى أعظم العائلات وأفضلها، ورجال من سائر هذه العائلات، وآخرين مستقلين عن كل القبائل، ويخلص إلى القول بأن: «الإسلام كان في الأساس حركة شباب، إذ إنّ معظم الذين نعرف أعمارهم لم يتجاوزوا الأربعين (وبعضهم كانوا أصغر كثيرًا).. ولم يكن الإسلام من جهة ثانية حركة رجال من طبقة مستضعفة من حثالة الناس أو من طفيليين صعاليك حطّوا رحالهم في مكة، ولم يستمد الإسلام قوّته من رجال الدرجة السفلى من السلم الاجتماعي، بل من أولئك الذين كانوا في الوسط»[٣٣]

٣ ـ مواجهته عليه السلام لمشكلة الاستيعاب التربوي لأتباعه

المشكلة الثالثة التي واجهتها الدعوة في بداية مسيرتها وستواجهها في المراحل التالية هي: مشكلة الاستيعاب التربوي لنواة القاعدة الجهادية الأولى للدعوة، ذلك لأن الأمر لا يتوقف عند مجرد النجاح في ضمان بداية سليمة موفقة للعمل، وإحراز نتائج إيجابية على مستوى توغله في كافة نواحي المجتمع، وتأثيره في فئاته المختلفة، بل يتجاوز هذه العتبة إلى ما هو أهم وأخطر من مجرد البداية الموفقة، ليواجه صلب المشكلة، وهي تربية هذه الفئات المنضوية تحت لواء الدعوة، وإعدادها بشكل جيد يعطي صورة صحيحة دقيقة عن المشروع الذي تؤمن به، وتتبناه وتدعو إليه، وتعمل على صياغة حياة الناس وفقه.

مخاطر العجز عن الاستيعاب التربوي

هذه هي المرحلة الحرجة، والمهمة الصعبة في عملية البناء، التي كثيرًا ما تُخْفِقُ الحركاتُ والدعوات في تجاوزها بسلام، كما يقرر ذلك[٣٤] كثير من

(٣٣) منتغومري وات، محمد في مكة ١٤٨ ـ ١٦٠.
(٣٤) ابن باديس: حياته وآثاره ٣/٢١٧. د. السيد سلامة خميسي، التربية وتحديث الإنسان العربي /٢٢.

العلماء والمفكرين وقادة الحركات التغييرية الذين يقول أحدهم من موقع التجربة في شهادة له عن عوامل الضعف التي تعاني منها الحركة الاسلامية اليوم:

«إن أكثر ما تعاني منه الحركات الاسلامية من مشكلات وانقسامات، ومن تساقط للأفراد خلال السير والعمل، ومن بروز ظواهر مَرَضِيّة في هذا الجانب او ذاك، سببه الأساسي والأصيل عدم نجاحها في الاستيعاب التربوي، وإخفاقها في تكوين الشخصية الإسلامية، وإيجاد الفرد المسلم وفق المواصفات التي وردت في كتاب الله وسُنّة نبيه ﷺ»(٣٥).

هذ هو مقتل الحركات والدعوات... أن يلتحق بها أتباع وينجذبوا اليها، فتعجز(٣٦) عن تربيتهم وصياغة مفاهيمهم وتفكيرهم وسلوكهم وحياتهم كلها، صياغة منسجمة مع رؤيتها للإنسان والكون والحياة، ومتكيفة مع التحديات التي تواجهها، والإمكانات التي تمتلكها، والمهام التي يجب عليها أن تقوم بها.

ويتعاظم هذا الخطر في حالة كالتي واجهتها الدعوة الإسلامية في مرحلتها التأسيسية الأولى خاصة، حيث كان عليها أن تستوعب أتباعها تربويًّا دون إثارة المجتمع وتحفيزه ضدها كما سبق التأكيد على ذلك.

فكيف واجه الرسول ﷺ هذه المشكلة الحساسة يا ترى؟ وكيف تعامل مع مخزون الميراث الجاهلي الذي كان يحمله هؤلاء القادمون من أعماق المجتمع الجاهلي ليعبروا إلى المجتمع الإسلامي نوعا آخر من البشر، في وعيه لذاته، ووعيه للعالم المحيط به، ووعيه لرسالته في الحياة، وفي طموحه نحو التألّق والاستعلاء بالحق؟

---

(٣٥) فتحي يكن، الاستيعاب في حياة الدعوة الإسلامية / ٧٦.

(٣٦) أبو الأعلى المودودي، موجز تاريخ تجديد الدين وإحيائه ٤٠، ١١٤. سعيد حوى، الرسول ﷺ ١/٢٠٣.

مشكلة قلة المعلومات المتصلة بالاستيعاب التربوي في هذه المرحلة

وهنا نجد أنفسنا مرة أخرى أمام مشكلة ندرة المعلومات التي تكشف لنا عن التدابير العملية التي اعتمدها الرسول ﷺ لضمان متابعة مركّزة وشاملة لأتباعه، قصد إعادة صياغة عقيدتهم وتفكيرهم وسلوكهم وبنائها. لتأهيلهم لتحمل تبعات الدعوة بحماس واقتدار، وتقديم النموذج الإنساني البديل الأرقى والأفضل.

كيف كان عليه السلام يلتقي بأصحابه؟ وكيف كان يبلغهم ما يأتيه من الوحي؟ كيف كان يتابع إعادة صياغة نفوسهم وبناء وعيهم بذواتهم وواقعهم ورسالتهم الجديدة في الحياة؟ كل هذا لا نملك عنه معلومات دقيقة، ومع ذلك فإنه لا يمنعنا استنادًا إلى بعض الوقائع المحدودة والنتائج المحصلة في هذه الفترة، من التأكيد على أن جهدًا منهجيًا مركّزًا قد بُذِل في هذا السياق، لأنه من غير المعقول أو المقبول أن تصل الدعوة إلى ما وصلت إليه من صياغة جديدة لحياة الرعيل الأول من أبنائها دون جهد كبير، وعمل منهجي مدروس، قائم على المتابعة والتوجيه المستمرّين، ذلك لأن «العجينة البشرية عجينة عَصِيّة تحتاج إلى متابعة دائمة، وليس يكفي أن تضعها في قالبها المضبوط مرة فتنضبط إلى الأبد وتستقر! بل هناك عشرات من الدوافع الموارة في تلك النفس، دائمة البروز هنا والبروز هناك، ودائمة التخطي لحدود القالب المضبوط من هنا ومن هناك، ولا بد في كل مرة من التوجيه لإعادة ضبطها داخل القالب، حتى تنطبع نفس المتلقّي بالتوجيه، فيقوم هو بذاته بعملية المتابعة والضبط. . .»[٣٧].

وهذه الملاحظة المنهجية المهمة، تتأكد قيمتها وتتضاعف الحاجة إليها، عندما يتعلق الأمر بالاستيعاب التربوي لفئات تمّ استيعابها التربوي ضمن إطار ثقافة مرجعية مغايرة، وتكونتْ مواقفها واتجاهاتها[٣٨]، وتحددت سلوكياتها على ضوء ذلك، حيث تصبح عملية إعادة تربيتها ضمن سياق حياتي جديد،

(٣٧) محمد قطب، منهج التربية الإسلامية ٢/ ٤٦.
(٣٨) د. سامي ذبيان، الصحافة اليومية والإعلام / ١٢١.

أمرًا في غاية الصعوبة، مما يؤكد ضرورة تكثيف المتابعة والتوجيه، وهو ما يجعلنا نجزم بأن هناك عملاً منظّمًا قام به رسول الله ﷺ لاستيعاب أتباعه استيعابًا تربويًا متكاملاً، مكّنهم من الاستعلاء الإيماني على واقع المجتمع الجاهلي، والصمود في مواجهته، والإصرار على تغييره بعد ذلك.

محاور الاستيعاب التربوي

وبالعودة إلى أهداف الدعوة في الفترة المكّية عمومًا، وتأمل بواكير ما نزل من الوحي، يتضح لنا أن محاولة الاستيعاب التربوي لنواة القاعدة الجهادية الأولى، كانت تدور بشكل أساسي على ثلاثة أبعاد رئيسية هي:

البعد المعرفي: الذي يستهدف شحذ الفعالية الفكرية للفرد المسلم، وتحريره من قيود الخرافة والجمود والرتابة، وإعطائه حيوية جديدة، وتعويده على التحليل ونشدان الاقتناع والإقناع، وتزويده برؤية منهجية قائمة على البرهان والدليل والحجة، بعيدًا عن التقليد والهوى والظنون.

وفي سبيل تحقيق هذا الهدف المحوري، نجد القرآن المكي بالخصوص، يفيض[٣٩] في أساليب تحريك الفكر، وتدريب المسلمين على التفكير المنهجي، عن طريق الإكثار من دعوتهم إلى استعمال الحواس، وتأمل مظاهر الكون من حولهم، بل وتأمل أنفسهم، واستحضار مآلهم بعد الحياة الدنيا.

ويكفي التذكير هنا بأوائل ما نزل من القرآن كمطلع سورتي «العلق والقلم» على سبيل المثال، حيث يبدو جليًا مدى الاهتمام الكبير الذي أولاه الإسلام للمسألة العلمية، باعتبارها مدخلاً أساسيًا لأي إصلاح حقيقي ناجح، فالعلم الذي رمز إليه في الآيات بأهم وسائل تحصيله: القراءة والكتابة والتفكير، وهو منطلق هذه الدعوة وقوتها الحقيقية العظيمة التي تواجه بها أعباء

---

(٣٩) انظر: **أوائل ما نزل من القرآن**.

الحياة، كما سبق تأكيد ذلك في الباب الثاني أثناء حديثنا عن خصائص الدعوة الإسلامية.

البعد الروحي: الذي يستهدف شحذ الفعالية الروحية للفرد المسلم، بربط صلته بالله وحده ربطًا محكمًا، يصعّد أشواقه الإيمانية، ويجعله يحس بالقرب من ربّه، ويستشعر رقابته المحيطة بكل شيء، فيتوجه له بالطاعة والعبادة والرجاء، مستعليًا على هواه وإغراءات الحياة من حوله، لأن ذلك كله لا قيمة له بالنظر إلى معية الله، وإلى ما أعده لعباده الصالحين المصلحين من فضل وكرامة.

فتوحيد الله سبحانه وتعالى وإرجاع الكبرياء والعلو والعظمة له وحده، هو محور المشروع الإسلامي كله منذ البداية، كما دلّ على ذلك أولُ ما نزل من الوحي في قوله تعالى:

﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ ﴾ [العلق: ١]. وهو واضح في إثبات الوحدانية لله وإرجاع كل شيء إليه، والبراءة مما سواه من أشخاص وأشياء وأفكار.. قال الطاهر بن عاشور: «هذا أول ما جاء من قواعد الإسلام قد افتتح الله به أول الوحي.. فكانت هذه الآية أصلا للتوحيد في الإسلام»[٤٠]، وهو ما أكده نداء التكليف بالرسالة بعد ذلك في قوله تعالى:

﴿ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ ﴾ [المدثر: ٢، ٣]، أي عظّمْه وحده ونزّهْه عن الشركاء والأضداد والأنداد ومشابهة الممكنات والمحدثات[٤١].

فالدعوة في هذه المرحلة ـ كما في المراحل اللاحقة ـ ركّزت على بناء الإيمان بالله معرفة وعبادة، لإعداد الإنسان الرسالي المستعلي بانتمائه إلى هذا الدِّين المعتّز بالتزامه به.

البعد السلوكي: الذي يستهدف تقويم سلوك الإنسان، وضبط تصرفاته

---

(٤٠) تفسير التحرير والتنوير ٣٠/ ٤٣٦.

(٤١) الرازي، التفسير الكبير ٣٠/ ١٩١.

ومواقفه، بما يتسق مع فطرة الله التي فطر الناس عليها، وينسجم مع مضمون الرسالة التي يحملها، والدور الذي قدر له أن يؤديه في واقع الحياة الإنسانية.

فالدعوة هنا ركزت على إخراج الإنسان المسلم من أخلاق القبيلة إلى أخلاق العقيدة والأمة، وما يستلزمانه من طهارة الظاهر والباطن، والتحقق بصفات الكمال الإنساني، كما يؤكد ذلك قوله تعالى في توصيات الوحي الأُولى:

﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ۝٥ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ۝٧﴾ [المدثر: ٤ ـ ٧] وهي دعوة إلى التسامي نحو مقامات السلوك الحضاري الرفيع في شكله ومضمونه، وهجر أخلاق الجاهلية وعوائدها، والارتفاع إلى مستوى المسؤولية الرسالية في أداء الواجب، بما يتطلبه من احتساب وصبر وحلم وعفو وإحسان، ودأب على الجد في تبليغ الدعوة[٤٢] والعمل على تجسيد أطروحاتها في نموذج اجتماعي متميّز، تستوعب به الطموحات الإنسانية في حياة متوازنة كريمة.

هذه هي محاور الاستيعاب التربوي لنواة القاعدة الجهادية الأولى للدعوة، تركزت حول البعد المعرفي، والبعد الروحي، والبعد السلوكي لبناء شخصية إسلامية متينة، تجمع بين العلم بسنن الله، وقوة الإيمان به سبحانه، وفعالية السلوك والقدرة على التأثير في الحياة.

بعض وسائل الاستيعاب وكيفياته

ونكتفي هنا بالإشارة إلى بعض الوسائل والكيفيات فقط، لقلة المعلومات كما نبهنا إلى ذلك سابقا، ونبدأها بـ:

١ ـ **المحصن لأول للدعوة**: وهو بيت رسول الله ﷺ، الذي كان مدرسة يتلقى فيها الناس حقيقة الإسلام، وما ينبغي عليهم عمله للالتزام به، والدعوة إليه.

---

(٤٢) الصادق عرجون، محمد رسول الله ﷺ ١/ ٥٩٢.

فقد ذكر على سبيل المثال أن عمار بن ياسر لقي صهيب الرومي أمام بيت رسول الله ﷺ فسأله أين تريد؟ فقال صهيب: أريد أن أدخل إلى بيت محمد فأسمع كلامه، وما يدعو إليه فاتفقا على الدخول معًا، فلما جلسا بين يديه عرض عليهما الإسلام، وقرأ عليهما القرآن، فأسلما، ثم مكثا عنده يومهما ذلك، حتى إذ أمسيا خرجا مستخفيين، فلما دخل عمار على أبويه عرض عليهما الإسلام فأعجبهما فأسلما(٤٣).

ومرّ معنا إسلام الخمسة الأوائل على يد أبي بكر، وكيف ذهب بهم حتى أتوا رسول الله «فعرض عليهم الإسلام، وقرأ عليهم القرآن، وأنبأهم بحق الإسلام، وبما وعدهم الله من الكرامة، فآمنوا»(٤٤). وجاء في إسلام أبي ذر الغفاري رضي الله عنه أنه انطلق وراء علي كرم الله وجهه يقْفُوه حتى دخل على النبي ﷺ ودخل معه، فسمع من قوله وأسلم مكانه(٤٥).

فبيت رسول الله ﷺ كان المحضن الأول للدعوة، والقناة الأساسية التي كانت تعبر منها المعلومات والتوجيهات إلى الصحابة الكرام في هذه الفترة من الدعوة، وبتأمل الوقائع السابقة يمكن تصور ما كان يدور في جلساته عليه السلام مع من يفِدُون عليه، وانعكاسات ذلك على عملية الاستيعاب التربوي لأصحابه.

فجلساته عليه السلام كانت لا تخلو من:

- قراءة القرآن ومدارسته.
- إنباء الحاضرين بحق الإسلام عليهم في أموالهم وأنفسهم وأوقاتهم..
- تحسيسهم ببعض ما أعد الله من الكرامة والفضل لهم.
- وتزويدهم بالوعي الحركي اللازم كما يتضح ذلك على سبيل المثال من

(٤٣) العسقلاني، الإصابة في تمييز الصحابة ٥/١٤٧.
(٤٤) النجم عمر بن فهد، إتحاف الورى بأخبار أم القرى ١/١٤٧.
(٤٥) ابن كثير، السيرة النبوية ١/٤٤٨.

تصرفه مع صهيب وعمار اللذين مكثا عنده يوما كاملا ولم يخرجهما إلاّ ليلاً، وكما فعل ذلك مع أبي ذر وعمر بن عبسة، حينها وجّه كلٌ واحد منهما للعودة إلى قومه لبثّ الدعوة فيهم إلى حين[٤٦].

٢ ـ المحضن الثاني للدعوة: وهو بيوت بعض أصحابه عليه السلام الذين كانوا يحملون معه عبء الدعوة، وكان لا بد لهم من متابعة تدارس القرآن، وبناء وعيهم برسالة الإسلام، ومواكبة سير الدعوة، وقيام الليل الذي افترضه الله على المؤمنين الأوائل كما جاء الأمر به في سورة «المزمل» فقام رسول الله ﷺ وأصحابه حولا[٤٧]، حتى تورّمت أقدامهم، قبل أن يأتي التخفيف في آخر السورة[٤٨]، خاصة إذا علمنا بالطابع السري الذي كانت تحرص عليه الدعوة في هذه المرحلة وعدم توفر الفرصة لكل الصحابة حتى يقيموا الليل في بيوتهم، فكان لا بد من الاستعانة ببيوت غيرهم من إخوانهم لقيام الليل وغيره.

وقد كان قيام الليل من أفضل الخطط التربوية [٤٩] التي اعتُمدت لتحقيق الاستيعاب الأمثل لهذه النواة الجهادية، خاصة من حيث التعبئة الروحية، وتصعيد الأشواق الإيمانية، وتقويم النفس، وتمكينها من الانسلاخ من رواسب الجاهلية وعوائدها الثقيلة، والاستعلاء بالإسلام على كل شيء.

٣ ـ المحضن الثالث للدعوة: في هذه المرحلة شعاب مكّة، حيث كان الصحابة إذا أرادوا الصلاة يذهبون في الشعاب مستخْفِين من قومهم[٥٠]، وكذلك كان يفعل رسول الله ﷺ، الذي غالبًا ما يرافقه عليٌّ رضي الله عنه[٥١]، ولا شك أن اللقاءات المتكررة تكون قد جمعته عليه السلام ببعض أصحابه

---

(٤٦) ابن كثير، المرجع السابق ١/ ٤٤٨. الكند هلوي، حياة الصحابة ١/ ٧١.
(٤٧) صحيح مسلم بشرح النووي ١/ ٣٩٧ (كتاب الصلاة، باب: صلاة الليل).
(٤٨) ابن العربي، أحكام القرآن ٤/ ١٨٨١.
(٤٩) سيد قطب، في ظلال القرآن ٦/ ٣٧٤٥.
(٥٠) ابن هشام، السيرة النبوية ١/ ١١٧.
(٥١) ابن سيد الناس، عيون الأثر ١/ ١١٧.

ليأخذوا منه بعض التوجيهات اللازمة التي تعزّز وعيهم، وتدعم إقبالهم على الله، وارتباطهم بدينه، وانفصالهم عن مواريث الجاهلية.

فالاحتكاك بين المسلمين بعضهم ببعض، وبينهم وبين قيادتهم تنوّعت طرُقه، لما له من أهمية خاصة في عملية الاستيعاب التربوي، ذلك لأن اللقاء الدائم هو الذي يحقق الربط بين أفراد الجماعة، ويوفر لهم جو الأخذ والعطاء، وينمّي ثقتهم بأنفسهم، ويشحذ عزائمهم، ويمدّهم بطاقة الثبات والصمود[٥٢] ويعطي للأُخوَّة أبعادها العملية الشاملة، خاصة في أجواء الضغط والتحفّز والخوف، أين يشعر المؤمنون بوحدتهم وتكامل قواهم، وتفجر مشاعر المحبة والشفقة والإيثار في نفوسهم، مما يكون له أقوى الآثار في سبكهم ولحم وحدة جماعتهم، ومنحها قوة كبيرة تؤهّلها للقيام بأعمال تاريخية عظيمة وهو ما حدث فعلاً.

والآن ومن خلال تتبعنا للخطوات التي اتبعها رسول الله ﷺ لمواجهة مشكلة بناء نواة القاعدة الجهادية الأولى للدعوة، يمكننا التأكيد مرة أخرى على أنه استطاع عليه السلام أن يواجه بنجاح ثلاث مشكلات أساسية كثيرا ما قصمت ظهور الدعوات والحركات وهي:

- مشكلة البداية والانطلاق.
- مشكلة ضمان تمثيل الدعوة لكافة شرائح المجتمع ومساحاته.
- مشكلة الاستيعاب التربوي لأتباع الدعوة والارتقاء بوعيهم والتزامهم إلى مستوى الآفاق الرسالية لها.

وتمكن من إعداد قيادة نوعية وعددية مهمة للدعوة، بإمكانها الاضطلاع بحمل أعباء العمل معه، وتهيئة الشروط اللازمة لنجاحه.

---

(٥٢) منير الغضبان، المنهج الحركي للسيرة النبوية ١/ ٥١.

٢ ـ مواجهته عليه السلام لمشكلة حماية هذه الطليعة الجهادية والمحافظة عليها

بعد هذا النجاح الكبير الذي حققه رسول الله ﷺ في الإنطلاق بالدعوة، وتمكّنه من مدّ قاعدتها البشرية إلى أجزاء كثيرة في المجتمع، واستطاعته استيعاب هذه القاعدة البشرية استيعابًا تربويًّا متينًا، تواجهه المشكلة الثانية وهي مشكلة حماية هذه القاعدة الجهادية والمحافظة عليها من التآكل الداخلي، والاستنزاف في مناوشات تضعف قدرتها على الاستمرار والبقاء.

مخاطر الغفلة عن مواجهة هذه المشكلة

والحقيقة أن هذه المشكلة من أعقد وأخطر المشكلات التي تواجه الدعوات والحركات التغييرية، فقد ثبت في التاريخ الإنساني والإسلامي على السواء، أن حماية منجزات العمل والمحافظة عليها، من أصعب ما تواجهه حركات الإصلاح بعد انطلاقها، ونجاحها في جذب اهتمام الناس إليها، والتفافهم حولها.

وقد لفتتْ هذه المشكلة نظر أحد المهتمين «بفلسفة الحضارة والتاريخ» وهو يتأمل تطور الظاهرة الثورية المعاصرة، ويتابع مآلاتها على ضوء الواقع التاريخي، فكتب معقبًا:

«حين يصبح المجتمع في وضع غير محتمل، فإن الثورة تكون خير مفجّر يشعل النار في البارود، فتدور عجلة قدر هذا المجتمع، ولكن هل يعتبر دفع القوى إلى السير بعد إطلاقها هو كل شيء؟.

إن تاريخ الثوارت في العالم يوضح كم أن مصيرها عابر واحتمالي بعد أن تتفجر»[٥٣]. ويضيف قائلا:

«لا يغني أن ندفع عجلة الثورة في وطن ما، بل يجب أن نتتبع حركتها

---

(٥٣) مالك بن نبي، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي / ١٥٩.

ورقابتها بعد ذلك»[٥٤] من أجل تواصل العمل واضطراد السير نحو أهدافه المرسومة.

إذ ما جدوى أن تُبذل جهود كبيرة، ويكابد الناس مشاق البناء، ثم يؤول أمر كل ذلك إلى الاضمحلال، أو الانحراف عن أهدافه ومقاصده؟ وهو ما حذرت منه الشريعة في مثل قوله تعالى:

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا﴾ [النحل: ٩٢] الذي استنبط منه العلماء ذم من أعاد على الشيء بالإفساد بعد إحكامه[٥٥] ونبّه عليه حديثُ عائشة:

«.. وكان أحب الدين إليه ما داوم صاحبه عليه»[٥٦]، أي دام عليه ولم يقطعه.

فعملية البناء لا تقتصر فقط على مجرد الانطلاق والإنجاز وتحقيق تقدم ملموس فيه، بل تشمل كذلك جانب حماية هذا البناء والمحافظة عليه، فهو - أي البناء - محصلة فعل منهجي هادف يتكامل فيه جهد الإنجاز وجهد حماية هذا الإنجاز في الوقت نفسه.

وهو ما تؤكده النظرة الأصولية العميقة الشاملة لمنهج الشريعة في بناء الحياة، عبر محافظتها على ضروريات الوجود الإنساني الخمس عن طريق:

- تحقيقها وإيجادها أولا،

- والمحافظة على بقائها ثانيًا[٥٧].

- وفي ذلك يقول الإمام الشاطبي:

---

(٥٤) بين الرشاد والتيه / ١٤.

(٥٥) القاسمي، محاسن التأويل ٦/ ١٥٢.

(٥٦) صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب: صلاة المسافر. باب: فضيلة العمل الدائم ٢/ ٤٤٢.

(٥٧) د. وهبة الزحيلي، نظرية الضرورة الشرعية / ٥٢.

«والحفظ لها ـ أي لضروريات الوجود الإنساني ـ يكون بأمرين:

أحدهما: ما يقيم أركانها ويثبّت قواعدها، وذلك عبارة عن مراعاتها من جانب الوجود.

والثاني: ما يدرأ عنها الاختلال الواقع أو المتوقع فيها، وذلك عبارة عن مراعاتها من جانب العدم»[٥٨].

فعبقرية البناء تظهر في القدرة على الحركة المتوازنة التي تجمع بين فعالية الإنجاز، والنجاح في الحماية له والمحافظة عليه، وحسن توظيفه في تحقيق الأهداف المنشودة للحركة أو المجتمع.

هذه المشكلة الصعبة، أو العقبة التي كثيرًا ما قصمت ظهور الحركات والدعوات، كيف واجهها النبي عليه الصلاة والسلام؟ وهو ما سنحاول رؤيته من خلال تتبّع بعض التدابير الوقائية التي اعتمدها عليه السلام لحماية نواة الدعوة التي هو بصدد بنائها.

وحتى لا نتيه وراء التفاصيل الجزئية الكثيرة، سنركز على نقطتين محوريتين تستوعبان العديد من التدابير الفرعية الأخرى وهما:

- منحه عليه السلام الأولوية لبناء القدرات الذاتية للدعوة
- انتهاجه عليه السلام سياسة تفادي المواجهة المبكرة مع المجتمع.

١ ـ منحه عليه السلام الأولوية لبناء القدرات الذاتية للدعوة

وهو أول وأهم إجراء منهجي حكيم لحماية أية دعوة، والمحافظة على منجزاتها، وتمكينها من السير قُدمًا نحو الأهداف المنشودة، ذلك لأن نجاحَ أي مشروع متوقّفٌ على مدى استيعاب أصحابه له، وتفاعلهم معه، واستعدادهم للثبات عليه، والبذل من أجله، وهو ما كان النبي ﷺ على وعي به، فتوجّه همّه

(٥٨) الموافقات ٢/٨.

الأكبر لبناء القدرات الذاتية للدعوة التي كانت تتمثل في هذه المرحلة، في إعداد نواة القاعدة الجهادية الأولى، التي سيقوم عليها بنيان الدعوة في المراحل اللاحقة.

وكما سبق أن رأينا، فإن رسول الله ﷺ وهو يواجه مشكلة بناء نواة هذه القاعدة الجهادية، قد اتخذ من التدابير ما كان له دخل كبير في ضمان حماية الدعوة والمحافظة على منجزاتها، كما يدلّ ذلك تركيزه على مدّ القاعدة البشرية للدعوة لتشمل تمثيل كلّ أو جُلّ مناطق المجتمع وفئاته، الأمر الذي جعلها ـ أي الدعوة ـ تستعصي على الاحتواء والاستئصال بعد ذلك، وتجنيبها محاذير الصراع القبلي إلى حد كبير، بل ووظّف القبيلة لخدمة الدعوة بهذا التوزع والانتشار القاعدي الواسع للأتباع.

فالرسول ﷺ بهذا العمل، تمكّن من حماية دعوته، والمحافظة على منجزاتها، لأنه فوت على القوى المضادة إمكانية تحجيم الدعوة، وفرصة الانفراد بها بالاستفادة من «المعطى القبلي» الذي أصبح يؤدي دوره كذلك لصالح المشروع الإسلامي، وذلك من خلال توفير «القبيلة نفسها الحماية والمنعة للرسول ﷺ أولاً، ولأصحاب العشائر والقبائل من المسلمين ثانيًا، فكانت ـ أي القبيلة ـ من هذه الناحية عاملاً أساسيًّا في بقاء الدعوة حية تبحث لنفسها عن طريق لكسر الطوق القبلي المفروض عليها»[٥٩].

فنجاح الرسول عليه الصلاة والسلام في توسيع نطاق الدعوة إلى مختلف جهات المجتمع وطبقاته، شكّل أحد الشروط المهمة لحمايتها والمحافظة على منجزاتها.

كما شكل اهتمامه الشديد بالاستيعاب التربوي لأتباعه أقوى دعامات حماية الدعوة وشروط المحافظة على منجزاتها كذلك، لأنه عليه السلام بذلك تجاوز في بناء قدرات الدعوة البعد الكمي أو العددي إلى البعد النوعي، وهو

---

(٥٩) د. محمد عابد الجابري، العقل السياسي العربي / ١٠٠.

أهم مؤشرات القدرة الذاتية وأقواها والتي كان عليه السلام يعمل من أجل توفيرها.

٢ و ٢ ـ انتهاجه عليه السلام سياسة تفادي المواجهة المبكرة مع المجتمع

وهو ثاني إجراء منهجي حكيم اعتمده النبي ﷺ لحماية الدعوة والمحافظة على منجزاتها منذ خطواتها الأولى، فقد أدرك عليه السلام، أن بناء القدرات الذاتية للدعوة، المتمثلة في إعداد نواة القاعدة الجهادية الأُولى في بيئة يحكمها الهمّ القبلي، ويوجهها الفكر الوثني، يحتاج إلى انتهاج سياسة محكمة، تتيح الفرصة للدعوة، لكي تتحرك بعيدًا عن أجواء الإرهاب والمواجهة المكشوفة التي تؤثر على سيرها ومصيرها.

فالأهداف التي جاءت من أجلها الدعوة، تستلزم تغييرًا عميقًا وشاملاً في حياة الناس، لا تستسيغه القيم والمفاهيم والنظم والعلائق التي تقوم عليها، مما يجعل مقاومتها والحرص على الفتك بها من ضرورات وجودهم، خاصة عندما يتعلق الأمر بتغيير العقيدة الدينية، التي تنبثق منها تلك القيم والمفاهيم، وتقوم عليها هذه النظم والعلائق، وهو ما يؤكده الأستاذ العقاد عندما يلاحظ أن «الإنسان إذا غيّر معيشته فإنما يغيّر صناعته، وإذا غيّر موطنه إنما يغيّر بلدًا، وإذا غيّر زيّه فإنما يغير سمتًا يقوم على كساء، ولكنه إذا غير عقيدته الدينية، فقد غيّر كونه واستبدل به كونًا آخر، وقد غير ماضيه وماضي أهله، وغير مصيره في الدنيا ومصيره بعد الموت، وغير آراءه ومقاييسه في ما يأخذ وفي ما يَدَع من أمور الحياة والعلاقات والناس. .»[٦٠].

هذا التغيير الجذري لواقع المجتمع المكي، كان النبي ﷺ يعي جيدًا أنه من الصعوبة بمكان، فاتخذ جملة من التدابير التي تساعده على ضمان سير الدعوة، والنأي بها مرحليًا عن الدخول في مواجهات مبكرة مع المجتمع، نستعرضها في ما يلي باختصار لسبق الإشارة إلى بعضها في المباحث السالفة:

---

(٦٠) العقاد، عبقرية عمر / ٨٢.

ـ الانضباط الأمني

وهو من الإجراءات الأساسية التي اعتمدها عليه الصلاة والسلام لحماية الدعوة والحفاظ على منجزات عمله، فقد حرص حرصًا شديدًا على ضمان حدّ أدنى من سرية العمل، خاصة في ما يتصل بأتباعه، حتى لا يتعرضوا للمضايقات والضغوط من قِبَل المجتمع.

وقد مرت معنا صور من الانضباط الأمني العالي الذي كان يحكم سلوك النبي ﷺ وأتباعه الأوائل، الأمر الذي جعل الكثير ممن أسلموا يعتقد كل واحد منهم أنه من السّبّق، كما يتضح ذلك مثلاً من قول أبي ذر «أنه رُبع الإسلام»، وقول عمر بن عبسة حين أسلم:

«لقد رأيتني وأنا ربع الإسلام» وقول سعد بن أبي الوقاص:

«ما أسلم أحد في اليوم الذي أسلمت فيه، ولقد مكثت سبعة أيام وإني لثلث الإسلام»[٦١].

فهؤلاء قالوا هذا بحسب اطلاعهم[٦٢]، لأن النبي ﷺ كان قد أحاط الدعوة بدرجة مهمة من الانضباط الأمني، حال دون معرفة ما كان يجري من حركة التحولات داخل المجتمع المكي. يقول ابن كثير معقبًا: «المؤمنون كانوا إذ ذاك يستسرون إسلامهم لا يطلع على أمرهم كثير أحد من قراباتهم، دع الأجانب، دع أهل البادية من الأعراب»[٦٣].

فالدعوة كانت تتحرك، وكان الناس يسمعون بها، ويتداولون الحديث عنها[٦٤]، لكن الإحاطة بمن انضوى تحت لوائها ظل مجهولاً، وهو ما جعل المجتمع لا يوليها أهمية، ولا يتحسس منها بشكل مقلق يدفع إلى مواجهتها إلا

---

(٦١) ابن كثير، السيرة النبوية ١/ ٤٤٣.

(٦٢) ابن حجر العسقلاني، فتح الباري ٧/ ١٣٥.

(٦٣) السيرة النبوية ١/ ٤٤٣.

(٦٤) محمد أبو زهرة، خاتم النبيين ١/ ٣٣٧. د. عماد الدين خليل، دراسة في السيرة/ ٦٥.

بعد فترة من الزمن، تمكنت فيها من ضرب جذورها في أعماق الواقع.

ومما يؤكد هذا قول العباس عم الرسول ﷺ الذي ساقه جوابًا عن سؤال أحد ضيوفه، رأى النبي عليه الصلاة والسلام وخديجة وعليًا يُصَلّون فقال: يا عباس ما هذا الدين؟ فأخبره بهم وبحقيقة أمرهم ثم قال له: «.. وأيمُ اللّه لا أعلم على ظهر الأرض كلها أحدًا على هذا الدين غير هؤلاء الثلاثة»[٦٥] ومع أن عددًا لا بأس به من الناس قد أسلم والتحق بركب الدعوة منذ وقت مبكر جدًا[٦٦].

وقد ذكرت كتب السيرة كذلك أنه عليه السلام، بالإضافة إلى الاحتياطات الأمنية الكثيرة التي كان يراعيها، اتخذ في نهاية المرحلة التأسيسية الأولى للدعوة[٦٧] مقرًا سريًا يلتقي فيه بأتباعه ليواصل تعميق تكوينهم، ويستقبل فيه من يريد الدخول في الإسلام، وهو «دار الأرقم» التي أدّت دورًا مهمًا في مسيرة الدعوة، بعد توسّع قاعدتها البشرية نسبيًا، واحتياجها إلى رعاية مكثّفة، وتأطير رسالي يؤهّلها للقيام بواجبها بكفاءة واقتدار.

- الانضباط الاجتماعي

وهو جانب مهم من الانضباط الأمني العام، الذي كانت الدعوة تنتهجه كإجراء وقائي يوفر لها بعضَ الحماية اللازمة للاستمرار في عملية بناء قدراتها الذاتية، بعيدًا عن أجواء القهر والملاحقات المرهقة.

فالمسلمون الأوّلون بجانب التزامهم بالانضباط الأمني، كانوا ملتزمين أيضًا بدرجة من الانضباط الاجتماعي، بحيث يصعب ملاحظة مظاهر الخروج عن المقررات والضوابط الاجتماعية التي درج المجتمع على الالتزام بها في علاقاته والدفاع عن مصالحه.

(٦٥) ابن كثير، السيرة النبوية ١/ ٤٣٠.
(٦٦) النجم عمر بن فهد، إتحاف الورى بأخبار أم القرى ١/ ١٨١.
(٦٧) د. عماد الدين خليل، دراسة في السيرة / ٦٤.

فمصلحة الدعوة كانت تقتضي التزام جانب الحذر والاحتياط، في ما يتصل بالعلاقة بالمحيط الجاهلي، مما جعل المؤمنين الأوائل بتوجيه من النبي ﷺ، يستمرون في التعامل والتعايش معه بصورة عادية، جنبتهم الدخول في مواجهات جدالية سافرة، تضرهم ولا تنفعهم في تلك الفترة.

لقد كان حرصهم على مراعاة تقاليد المجتمع وأعرافه السائدة والكفّ عن مهاجمتها، والعمل على التكيّف معها مرحليًا، من التدابير الموفقة التي ساعدت على حماية الدعوة والمحافظة على منجزاتها في هذه الفترة الحساسة من حياتها، وهو ما لاحظه ابن إسحاق فقال:

«لما بادى رسول الله ﷺ قومه بالإسلام، وصدع به كما أمره الله لم يبعد منه قومه، ولم يردوا عليه ـ في ما بلغني ـ حتى ذكر آلهتهم وعابها. .»[٦٨]، بعد أن سار بالدعوة شوطًا مهمًا، وأعد لَبناتِها الأولى بإحكام ويشير أيضًا إلى ذلك هذا التقرير الذي جاء فيه: «ثم دخل الناس أرسالاً من النساء والرجال، حتى فشا ذكر الإسلام بمكة وتحدث به، فلما أسلم هؤلاء وفشا أمرهم أعظمت ذلك قريش، وتغضبت له، وظهر لرسول الله ﷺ البغي والحسد وشَخَصَ له منهم رجالٌ فبادروه وأصحابه بالعداوة. . .»[٦٩].

ـ تأخير المواجهة مع الزعامة الجاهلية

وهو أيضًا من التدابير الحكيمة التي اعتمدها عليه السلام لحماية الدعوة والمحافظة على منجزاتها في هذه الفترة بالخصوص، ذلك لإنه ثبت في تاريخ النبوة أن الخصم التقليدي لحركات التغيير وإصلاح أوضاع البشر، هم الزعماء الكبار وأصحاب النفوذ السياسي والاجتماعي في المجتمع، وما عداهم تبع لهم رهبًا أو رغبًا»[٧٠].

---

(٦٨) ابن هشام، السيرة النبوية ١/ ٢٨٢.
(٦٩) النجم عمر بن فهد، إتحاف الورى بأخبار أم القرى ١/ ١٨٦.
(٧٠) دروزة، سيرة الرسول ﷺ ١/ ١٩٥.

وهو ما أكده القرآن الكريم في أكثر من مناسبة ولخصه الله سبحانه وتعالى في مثل قوله:

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ۝٣٤ وَقَالُواْ نَحۡنُ أَكۡثَرُ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ ۝٣٥﴾ [سبأ: ٣٤، ٣٥].

وقوله:

﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ ۝٢٣﴾ [الزخرف: ٢٣].

والرسول ﷺ كان على وعي بهذه الحقيقة، فقرأ للعامل أو «المعطى الزعامي» حسابه في حركته، في جميع مراحل الدعوة، وخاصة في مرحلتها التأسيسية الأولى، فحرص حرصًا شديدًا على تأخير المواجهة مع الزعامة القرشية، بالإحجام أو الكف، ليس عن مهاجمة تقاليد المجتمع وأعرافه الفاسدة فحسب، بل عن مباداة رؤسائه بالدعوة إلى الإسلام، بمن فيهم عمه أبو طالب الذي آواه ونصره، «ومع ذلك كله لم يعرف أن النبي ﷺ أثره على سائر عمومته بدعوته إلى الإيمان برسالته مدة استسراره بدعوته»[71].

وهو ما دلّ بقوة على مدى عمق وعي النبي عليه الصلاة والسلام بالدور الخطير للزعامة الجاهلية، وصرامة التزامه بتأخير المواجهة معها قدر الإمكان، بعيدًا عن العواطف والحسابات المتعجلة.

وقد أثبتت الأحداث في ما بعد حكمة هذا التدبير، بعد أن صدع عليه السلام بالدعوة، فتألب عليه الملأ من قومه وألّبوا عليه المجتمع هو وأصحابه وأذاقوهم الأمرّين، ولكن بعد فوات الأوان واستحكام أمر الدعوة في المجتمع.

هـ ـ منجزات الدعوة في هذه المرحلة

بعد هذا العمل المنهجي المحكم، الذي استغرق ثلاث سنوات من عمر

(٧١) عرجون، محمد رسول الله ﷺ ١/ ٦٠٢.

الدعوة، أين وصل النبي ﷺ في تحقيق هدف المرحلة، المتمثّل في بناء نواة القاعدة الجهادية الأولى للدعوة؟

وماذا أنجز من أهداف المرحلة المكية بصفة عامة المتمثلة في:

- بناء المنظومة العقدية وتصحيح مفاهيم الناس وتصوراتهم عن الله والكون والحياة.

- وبناء المنظومة الفكرية لإصلاح مسالك تفكير الناس ومناهجهم.

- إرساء أسس بناء المنظومة الاجتماعية المرتكزة على تدعيم كرامة الإنسان في الوجود.

- إعداد الشروط الموضوعية لقيام الدولة، التي تجسّد المشروع الإسلامي في واقع الحياة، وتحمي الدعوة وتذود عنها؟

أما بخصوص منجزات الدعوة على مستوى الهدف المحوري للمرحلة، فقد تمكن عليه الصلاة والسلام من تحقيق نجاح كبير، حيث استطاع فعلاً أن يبني نواة القاعدة الجهادية الأولى للدعوة، التي سيكون لها أثر حاسم في مستقبل المسيرة الدعوية، والمراحل التي ستمر بها حتى وفاة النبي عليه الصلاة والسلام.

لقد أتى جهد التربية أُكُله، في تكوين شخصية إسلامية نموذجية، في تصوراتها العقدية، وحيويتها العقلية، والتزاماتها الأخلاقية والسلوكية، مما جعل هذه النواة الجهادية قادرة بعد قليل، على تحمل ضغوط الوثنية التي ستصب عليها من أجل فتنتها عن دينها: تعذيبًا واضطهادًا وقتلاً ونفيًا وقطيعة واحتقارًا[٧٢] وتجاوزها بروح احتسابية عالية، نحو تحطيم النظام الجاهلي، والتمكين للنظام الإسلامي بديلاً عنه.

ولم تقتصر منجزات الدعوة في هذه المرحلة على استيعاب عدد محدود

---

(٧٢) د. عماد الدين خليل، دراسة في السيرة / ١٠٠.

من هذه النوعية الرفيعة الإعداد، بل تجاوزت ذلك كما رأينا سابقًا، إلى الاستيعاب العددي والجغرافي والاجتماعي، حيث تجاوز عدد المنتمين للإسلام ٦٠ فردًا موزعين على مختلف القبائل والمستويات الاجتماعية، بما في ذلك أقوى العائلات وأشهر القبائل، التي انحدر منها شباب ربطتهم روابط متينة بالرجال الذين يملكون السلطة في مكة، وكانوا في مقدمة أعداء الدعوة[٧٣].

لقد استطاعت الدعوة في هذه الفترة كذلك أن تتجاوز إطار مكة وقريش، إلى مناطق أخرى، كما دل على ذلك إسلام أبي ذر الغفاري رضي الله عنه وجزء كبير من قبيلته[٧٤] ليكون سندًا للدعوة في مرحلة قيام الدولة، وإسلام عمر بن عبسة السُّلَمي مبكرًا في مكة، والذي رغب أن يجاور فيها رسول الله ﷺ فقال له:

«لا ولكن إلحق بقومك فإذا أخبرت أني قد خرجت فاتبعني»[٧٥]، ليقوم بدوره في نشر الدعوة وكسب أنصار آخرين لها، تتقوى بهم عند اللزوم.

أما منجزات الدعوة على مستوى أهداف المرحلة المكية عمومًا، فقد كانت مهمة كذلك حيث تمكن عليه السلام من خلال نجاحه في بناء هذه القاعدة الجهادية القوية المتنوعة، من تحقيق نتائج مشجعة جدًّا على طريق إنجاز أهداف المرحلة المكية.

فهذه النواة القاعدية للدعوة الممثلة للمجتمع المكي خصوصًا من الناحيتين الجغرافية والاجتماعية، بدأت تتحقق فيها ومن خلالها أهداف المرحلة، على مستوى الطموحات الفكرية والاجتماعية والسياسية للدعوة.

ويظهر ذلك في بدء استحكام التصورات العقدية للرسالة، في نفوس هذه

---

(٧٣) وات، محمد في مكة / ١٥٨.
(٧٤) ابن كثير، السيرة النبوية ١/ ٤٥١.
(٧٥) المرجع نفسه / ٤٤٢.

الفئة من المؤمنين، التي أخذت مفاهيمها عن الله والكون والحياة والمصير تتعدل وتتبلور وفق مقررات الإسلام ورؤيته المستقلة، المناقضة لما تواضع عليه الناس من خرافات وأباطيل في المعتقدات جَنَت على الإنسانية في دينها ودنياها.

ويدل على نجاح عملية البدء في بناء المنظومة العقدية للإنسان، وإصلاح العلاقة بالله والكون والحياة، انخلاع هذه الفئة المؤمنة من المحيط الوثني الشِّركي بشكل جذري واندماجها السريع في أجواء الدعوة الجديدة، واكتشافها أنها كانت في تيه كبير.

كما يظهر أيضًا هذا النجاح في بدء استعادة العقل لوظيفته العظيمة في ممارسة التفكير والتحرر من قيود التقليد والجمود، حيث يلاحظ فعلاً، كيف أخذ العقل الإسلامي في ظل المعطيات الجديدة للدعوة يتوهج وينقد الذات والماضي والحاضر الجاهلي المفلس، ويتطلّع إلى آفاق استخلافية واعدة، يتبوأ فيها الفكرُ مكانته المرموقة باعتباره هو «المبدأ والمفتاح لكل الخيرات»[٧٦].

وظهر كذلك هذا النجاح في بدء تأسيس علاقات اجتماعية جديدة، قائمة على روح الأمة بدل القبيلة، والإنسانية بدل الطبقية، والعالمية بدل العصبية الجاهلية المنتنة، وما يستلزمه ذلك كله من حرية ومساواة وعدل، وأخوة بين البشر.

فقد استطاعت الدعوة أن تنطلق فعلاً في تأسيس منظومة اجتماعية تتجاوز إطار القبلية والطبقة والدم.. التقى فيها صهيب الرومي، وبلال الحبشي، وأبو بكر العربي، وخديجة المرأة الميسورة، وعمار بن ياسر الصغير، وخالد بن سعيد السري ابن السري.. التقوا جميعًا من مختلف القبائل والأُسر والطبقات والأعمار.. في ظلال علاقات اجتماعية بديلة قائمة على حفظ الكرامة الإنسانية، وضمان حقوق الناس في الحرية والمساواة والعدل.

---

(٧٦) الغزالي، إحياء علوم الدين ٦/٢٨٠٨.

وفي كل هذه النتائج بداية حقيقية جادة لإعداد الشروط الموضوعية البشرية والمادية لبناء الدولة التي تضطلع بأعباء إنجاز مهمة الاستخلاف في الأرض.

ومن كلّ ما سبق نخلص إلى القول: بأن هذه النتائج المهمة، التي وصلت إليها الدعوة في مرحلتها التأسيسية الأولى، والتي كانت بحق الأرضية الصلبة لمراحل تالية، ارتكزت عليها في انطلاقها، واستندت إليها في مواجهة التحديات التي جابهتها. . ما هي إلا ثمرة جهد منهجي محكم، قام به النبي ﷺ على جبهات عدة، تميز بأمرين أساسيين، شكلا نقطة القوة الحقيقية التي تفوقت بها حركته الرسالية، وارتقت إلى قمة «النموذجية» المنشودة في البناء، وهما:

- القدرة على البناء ومواجهة التحديات.

- القدرة على حماية منهج البناء، والمحافظة على منجزات البناء بعد تحقيقها.

وهو التحدي الأكبر الذي يواجه الإنسانية باستمرار، ويهدد حاضرها ومستقبلها.

الفصل الثاني

تحديات المرحلة التأسيسية الثانية ومنهج مواجهتها

٢ ـ مواجهة التحديّات الخاصة بقاعدة الدعوة

٣ ـ مواجهة التحدّيات الخاصة بقاعدة المجتمع

هـ ـ منجزات الدعوة في هذه المرحلة

١ ـ منجزاتها على مستوى الهدف المحوري للمرحلة

٢ ـ موقع هذه المنجزات من الأهداف الكليّة للمرحلة المكّية

أ ـ الإطار الزماني والمكاني للمرحلة

١ ـ الإطار الزماني

أما الإطار الزماني للمرحلة الثانية من الدعوة: فيمتد عبر سبع سنوات، أي من السنة الثالثة وهي نهاية المرحلة الأُولى، إلى نهاية السنة العاشرة من البعثة التي تتزامن مع وفاة أبي طالب، وأم المؤمنين خديجة رضي الله عنها، وخروج النبي ﷺ إلى الطائف، باحثًا عن موقع جديد أكثر فعالية للدعوة، بعد أن استيقن أن مكة لم تعد مهيأة لإمكانية قيام الدولة الإسلامية بها، وأن فتحها يتم من خارجها.

واعتُبِرت هذه الفترة مرحلة مستقلة في مسيرة الدعوة رغم طول مدتها، بالمقارنة مع الفترتين: السابقة عليها واللاحقة لها، وكثافة الأحداث التي شهدتها، والتي يرقى بعضها إلى مستوى المنعطفات الكبرى، لأنها تشكل بأحداثها الخصبة، فترة واحدة متميزة عن المرحلتين التأسيسيتين الأُولى والثالثة، سواء في نطاق الحركة أو أهدافها الآنية، أو خطورة التحديات التي واجهت الدعوة فيها.

فهذه المرحلة يظهر تميّزها عما سبقها وما تلاها على هذه المستويات

جميعًا، حيث اتسع نطاق حركة الدعوة، وتوسعت معه أهدافها، وتصاعدت وتائر التحديات، وكبر حجم الهموم التي كان عليها أن تواجهها، بالمقارنة مع المرحلة الأُولى، وكذا المرحلة الثالثة التي ستشهد تحركات أوسع، وتصعيدًا أشد.

٢ ـ الإطار المكاني

أما الإطار المكاني للمرحلة: فقد امتد كذلك ليشمل الدائرة القرشية بصفة خاصة، ومحيطها القريب بصفة عامة، لأن الرسول ﷺ كان يدرك جيدًا مدى المكانة المرموقة التي تحتلها مكة خصوصًا وقريش عمومًا في حياة العرب ونفوسهم، فحرص على نجاح الدعوة هناك، لما لذلك من أهمية كبيرة في ضمان انتشارها وذيوع أمرها في الناس.

يقول ابن خلدون مؤكدًا هذه الحقيقة، ومبرزًا المكانة الخاصة لقريش في العرب:

«إن قريشًا كانوا عصبة مضر وأصلهم، وأهل الغلب منهم، وكان لهم على سائر مضر العزة بالكثرة والعصبية والشرف، فكان سائر العرب يعترف لهم بذلك ويستكنون لغلبهم»[١]. وهو التحليل الذي استند إليه أبو بكر الصديق رضي الله عنه يوم السقيفة حينما قدّم وجهة نظره في ما ينبغي مراعاته في أمر الخلافة حيث قال:

«. . . إنّ العرب لا تعرفُ هذا الأمر إلاّ لهذا الحي من قريش، وهم أوسط العرب دارًا ونسبًا. . »[٢].

لهذا حرص رسول الله ﷺ على نجاح الدعوة في قريش، وكرس لذلك جهده ووقته، مع ما كان يلقاه من المعارضة والعنت منهم، ولم يقرر الخروج

---

(١) المقدمة ٢/ ٦٩٥.

(٢) ظافر القاسمي، نظام الحكم في الشريعة والتاريخ الإسلامي ١/ ١٣٢.

من مكة أو الدائرة القرشية عمومًا إلّا بعد عشر سنوات من الرباط والعمل الدؤوب الصبور، الذي استطاع من خلاله أن يخلخل وحدة الكتلة الجاهلية، ويعبِّئ جزءًا مهمًّا من طاقاتها البشرية لصالح الدعوة.

ب ـ أهداف الدعوة في هذه المرحلة

بعد نجاحه عليه السلام في إنجاز أهداف المرحلة التأسيسية الأُولى للدعوة، وتمكنه من اجتياز مشكلاتها العديدة بسلام، انطلق ـ معتمدًا على هذا الرصيد ـ في جولة جديدة تمحورت أهدافها حول مطلبين اثنين هما:

ـ مواصلة بناء القاعدة الجهادية للدعوة.

ـ إنجاز المرحلة الأولى من انفتاح الدعوة على المجتمع.

١ ـ مواصلة بناء القاعدة الجهادية للدعوة

وقد استوفينا فيه الكلام في الفصل السابق، حيث رأينا كيف انصب جهد النبي ﷺ على بناء النواة الجهادية الأولى للدعوة، سواء من ناحية العدد أو من ناحية النوع، ولم ينشغل عنها بشيء آخر، لإدراكه لأهميتها الكبرى بالنسبة لمستقبل الدعوة عندما تنفتح على المجتمع، وتدخل معه في حوار شامل، يمس كل قيمه ونظمه وعلاقاته وموازينه بل ويضعها في الميزان ليسقط الكثير منها.

ونظرًا لأهمية هذه القاعدة الجهادية في ضمان نجاح الدعوة، وتحقيق أهدافها الكبرى في إعادة بناء مفاهيم الإنسان العقدية، ومناهجه التفكيرية، وأسس أنظمته الاجتماعية وإعادة صياغتها، تواصل الاهتمام بها في هذه المرحلة كذلك، وشكلت هدفًا أساسيًّا من أهدافها المحورية الكبرى.

خاصة وأن القرآن استرسل في النزول مصححًا للمفاهيم، ومؤسسًا لرؤية حضارية جديدة، في التصورات العقدية، والمعرفية، وأصول الأنظمة الاجتماعية التي تحكم العلاقات الاجتماعية وتوجهها نحو غاياتها المنشودة.

وأول ما تعنيه هذه التوجيهات هو: هذه القاعدة الجهادية للدعوة، التي عليها أن تستوعبها: تعلمّا وفهمّا وممارسة ونقلاً أو تحويلاً بعد ذلك إلى المجتمع أولاً بأول، حتى تعطي صورة حقيقية عن الدعوة، أكثر جاذبية وتألّقا، وقدرة على التأثير في ما يحيط بها وينافسها من نماذج ومشاريع.

وهذا يستلزم عناية خاصة بهذه الفئة من أتباع الدعوة، خاصة في هذه المرحلة التي دخلت فيها الدعوة طورًا جديدًا من أطوار حياتها، يتّسم بالمواجهة بين النموذج الإسلامي والنموذج الجاهلي القائم، الذي سيلجأ إلى التقليل من أهمية وعود الدعوة وحظوظ نجاحها، بالتركيز على مواقف أصحابها وسلوكهم، ليؤكد للرأي العام أن ما هو عليه خير له مما يوعَد به، وأضمن لاستقراره ومستقبله.

وهو ما كان رسول الله ﷺ على وعي عميق به، فاتجه اهتمامه ـ كما سنرى لاحقًا ـ إلى مواصلة بناء هذه القاعدة الجهادية بناءً مكينًا، يستجيب لطموحات الدعوة في تحقيق نقلة شاملة في الحياة الإنسانية، ويوفر أسباب المناعة والثبات لكل المؤمنين في صراعهم مع مواريث الجاهلية في أنفسهم وفي واقع الحياة من حولهم.

٢ ـ إنجاز المرحلة الأولى من انفتاح الدعوة على المجتمع

هذا هو الهدف المحوري الثاني للدعوة في هذه المرحلة، فقد أصبح من اللازم بعد النجاح في المرحلة الأولى، أن تنطلق الدعوة في جولة جديدة من الانفتاح المدروس على المجتمع، قصد إبلاغه هدايات الله سبحانه وتعالى، ومحاورته بشأنها، وتهيئة الأجواء الملائمة للانتقال به مما هو عليه من تناقض مع فطرته وفطرة الوجود من حوله، إلى التناغم والانسجام والتوافق.

وهذا انسجامًا مع إنسانية الرسالة وعالميتها، كما سبق بيان ذلك في «خصائص الدعوة» في الباب الأول، فهي ـ أي الدعوة ـ مندرجة في سياق الهدي الإلهي الذي وعد به البشرية منذ البدء، لتسديد وجهتها، وترشيد مسيرتها كما جاء بيان ذلك في القرآن الكريم مثل قوله تعالى:

﴿ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ [طه: ١٢٣، ١٢٤].

وعليه فقد كان من المفروض أن تدخل الدعوة منذ البداية في حوار مفتوح ومباشر مع المجتمع، لولا مقتضيات عملية خاصة، أملَتْها مصلحة الدعوة ذاتها، كان لا بد أن تأخذ بها قيادة العمل وتلتزم بها، وهو ما تمّ فعلاً خلال المرحلة الأولى، التي وفرت ضمانات أساسية لنجاح الدعوة في المرحلة التالية.

هذه المرحلة إذن هي مرحلة انفتاح على المجتمع المحلي أو القرشي عمومًا، لمحاورته في أمر الدعوة، وأمر الواقع المعاش الذي عليه الناس فعلاً، ما يصلح منه وما لا يصلح؟ وكيف دخل عليه الفساد؟ وما جره هذا الفساد من ويلات على الناس؟ وكيف تتم عملية الانتقال منه إلى واقع أكثر إنسانية ووفاء بمصالح العباد العاجلة والآجلة؟

إنها مرحلة طرح التساؤلات الكبرى حول الواقع والمصير، والماضي والحاضر، والعلم والخرافة، والحرية والعبودية، والتمايزات الطبقية والمساواة، والظلم الاجتماعي والعدالة.. وإدارة الحوار حولها مع كل فئات المجتمع دون تمييز أو استثناء، لكسر طوق التقاليد المجحفة، التي كانت تطحن كرامة الإنسان، وتكبّل نفسه وعقله، وتحرمه من نعمة نقد ذاته وواقعه، وماضيه، وإبصار مستقبله على ضوء حقائق الوجود، والإمكانات المتاحة، والطموحات المشروعة.

وقد اعتبرنا هذه المرحلة، مرحلة انفتاح أوّلَى للدعوة على المجتمع، لأن النبي ﷺ ركّز فيها جهده في الدائرة المكية أو القرشية، ولم يحّول محور اهتمامه عنها إلا بعد وفاة أبي طالب وخديجة رضي الله عنهما، واشتداد المعارضة ضده في مكة في العام العاشر من الدعوة[٣] وتيقنه عليه السلام أن

(٣) أبو الحسن الندوي، السيرة النبوية / ١٢٤.

الدعوة تحتاج إلى موقع آخر غير مكة، وإلى قبيلة أخرى ذات شوكة ونفوذ غير قريش لاحتضانها والتجاوب مع طموحاتها، فقرر الخروج إلى الطائف وبذلك تبدأ المرحلة الثانية من انفتاح الدعوة على المجتمع.

وهذا لا يعني أن الدعوة لم تخرج في هذه المرحلة من الدائرة القرشية، لأنها امتدت منذ المرحلة الأولى وتواصل امتدادها إلى مناطق خارج[٤] مكة، ولكن يعني فقط أن محور اهتمام الدعوة في هذه الفترة هو مكة، لما لها من مكانة خاصة في نفوس العرب وحياتهم من النواحي الدينية والاقتصادية والسياسية كما سبق بيان ذلك.

وهذا ما جعل النبي ﷺ يركّز عليها في دعوته، ويمكث فيها فترة طويلة نسبيًا بالنظر إلى المراحل اللاحقة والضغوط الحادة التي كانت تتعرض لها الدعوة، أملاً في المزيد من التأثير الإيجابي في أوضاعها من جهة، واستغلالاً لهذا المركز المتميز «الذي كان يجمع إليه الناس من كل مكان في سبيل إيصال صوت الدعوة إلى كل مكان في الجزيرة العربية وغيرها، مما لا يمكن الحصول عليه في أي بلد آخر، فيوفر على الرسالة جهودًا كبيرة، ومصاعبَ كثيرة..»[٥].

هذان هما الهدفان الأساسيان في هذه المرحلة التأسيسية الثانية للدعوة، عليهما سيتمحور جهد النبي ﷺ وصحابته، ومن خلالهما يدور الصراع المرير بين الإسلام وقوى الجاهلية.

ج ـ التحديات التي واجهتها الدعوة في هذه المرحلة

إن هذه المرحلة بحكم طبيعتها، مفتوحة على تحديات كثيرة، لأنها مرحلة انفتاح على المجتمع، ومرحلة مواجهة بين المجتمع وبين الدعوة في قضايا محورية حساسة، تشمل:

(٤) ابن كثير، السيرة النبوية ١/ ٤٤٢.
(٥) محمد حسين فضل الله، خطوات على طريق الإسلام / ٤٧٢، ٤٤٧، ٤٥٢.

منظومته العقدية والفكرية والاجتماعية.

الدعوة تسعى إلى تغييرها واستبدالها تدريجيًا بما يحقق للإنسان إنسانيته، ويعده للحياة الأُخروية، والمجتمع الجاهلي يعمل من جهته بكل قواه، على حماية نفسه، والمحافظة على وجوده واستقرار الأمر الذي يجعل الصراع بينهما شديدًا، وحادًّا، وخاصة من جانب المجتمع الجاهلي، الذي يلجأ بحكم جاهليته، إلى كل وسيلة يحقق بها تمكنه من قمع الدعوة، وكسر شوكتها، وضمان استقرار أوضاعه واستمرارها، دون اهتمام بأي ضابط أخلاقي أو إنساني، فالغاية عنده تبرر الوسيلة بصورة مطلقة.

ونظراً إلى أن التحديات التي واجهتها الدعوة في هذه المرحلة من مسيرتها كثيرة ومتنوعة، فقد رأيت أنه من المفيد منهجيًا حصرها في ثلاثة محاور أساسية، على اعتبار أن المواجهة بين الدعوة والمجتمع الجاهلي دارت على ثلاثة مستويات هي:

- مستوى الدعوة وقيادتها.
- مستوى قاعدة الدعوة.
- مستوى قاعدة المجتمع.

فالتحديات التي واجهتها الدعوة في هذه الفترة، وكان عليها أن تجابهها وترفعها، خصّت الدعوة في ذاتها والداعية الحامل لها وهو رسول الله ﷺ، كما خصّت كذلك أتباع الدعوة الذين كانوا يمثلون قاعدتها الجهادية، التي تعلق عليها آمال كبيرة في الانتصار لها وبها بعد حين، كما شملت أيضا قاعدة المجتمع التي كان يدور حولها الصراع بين الطرفين، أيهما يؤثر فيها ويستأثر بولائها.

وقبل الشروع في الحديث عن هذه التحديات، نمهد لذلك بحديث مركز عن الأسباب والدواعي التي جعلت المجتمع الجاهلي عموما يواجه الدعوة بالإعراض والمقاومة، لما في ذلك من أهمية بالنسبة لفهم جذور الصراع، وخلفيات المواجهة، وتقدير حجم التحدي.

١ ـ خلفيّات الموقف العدائي من الدعوة

فالمجتمع الجاهلي، بمكة اكتشف بعد قليل من إعلان الدعوة الخطوط العريضة لمشروعها، وأن ما يقوم الرسول ﷺ بعمله، ليس من قبيل ما كان يقوم به بعض «الديّانين» كما كانوا يظنون أول الأمر[٦]، بل هو قلب شامل وعميق لأوضاع المجتمع ومفاهيمه العقدية والفكرية والاجتماعية.. بما لا عهد لهم به، الأمر الذي جعل زعماء المجتمع الجاهلي على الخصوص، يعلنون النفير ضد الدعوة، ويدخلون معها في مواجهة حادّة، دفاعًا عن مواريث المجتمع وامتيازاتهم فيه.

وفي ما يلي إشارة مركزة إلى خلفيات الموقف العدائي من الدعوة، نوردها تبعًا لمحاور اهتمام الدعوة الأساسية في الفترة المكية وهي:

ـ إعادة النظر في المنظومة العقدية للمجتمع

وهو ما أحس به الملأ من قريش، وارتجوا له بقوة، ورأوا فيه نقضًا جذريًا لمعتقداتهم التي ارتبط بها تاريخهم وواقعهم، وتهديدًا خطيرًا لمستقبلهم.

فقد كانت لهم تصورات في الألوهية والنبّوة والملائكة والحياة الأخروية، مناقضة لما جاءت به الدعوة، كما رأينا في الفصل الأول من الباب الثاني، وكما دلّ على ذلك القرآن الكريم، وهو يحتفظ لنا بنماذج من صور الحوار العنيف، الذي كان يدور بين الدعوة وفعاليات المجتمع الجاهلي، مثل قوله سبحانه وتعالى على لسان المشركين:

﴿أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ۝٥ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ۝٦ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْـَٔاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ۝٧﴾ [صٓ: ٥ ـ ٧]. أي كذب وتخرّص غايته «الانقياد له ليعلو علينا، ونكون له أتباعًا

---

(٦) الغزالي، فقه السيرة / ١٠٠.

فيتحكّم فينا بما يريد»[٧]، كما زعم المشركون الذين أخذهم العجب من دعوة التوحيد التي صادمت إحدى أهم ركائز حياتهم الروحية القائمة على الشرك.

ومثل قوله تعالى:

﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴾ [الإسراء: ٩٤]. لأنهم كانوا يتصورون أن يكون النبي ملكًا كريمًا مدعمًا بالخوارق والمعجزات، مما جعلهم يقولون:

﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ۝ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾ [الفرقان: ٧، ٨].

وقد صحح القرآن هذه التصورات الفاسدة في أكثر من آية، كقوله تعالى:

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٢٠].

وقوله سبحانه:

﴿قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴾ [الإسراء: ٩٥]. لأن رسول كل جنس ينبغي أن يكون منهم[٨] لطفًا بهم ورحمة لهم.

وفي السياق نفسه ورد حديث مفصل بأساليب متنوعة عن الحياة الأخروية، التي كان العرب في غفلة عنها، ظانين أن الحياة هي الحياة الدنيا، وأن الموت هو النهاية الأبدية، وأنه لا رقيب هناك ولا حسيب[٩].

وفي هذا قال تعالى مسجلا هذه المعتقدات الفاسدة:

---

(٧) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن ١٥/ ١٥٢.
(٨) ابن الجوزي، زاد المسير ٥/ ٨٩.
(٩) أمين دويدار، صور من حياة الرسول/ ١٣٤.

﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴿٣﴾ ﴾ [ق: ٣].

وقال كذلك:

﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ ﴾ [يس: ٧٨].

وقال أيضا:

﴿ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِن بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ ﴾ [هود: ٧].

وقال سبحانه:

﴿ بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوا أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [المؤمنون: ٨١ ـ ٨٣].

هذه بعض النماذج من صور الحوار العنيف، والمواجهة الحادّة، التي دارت بين الدعوة وقيادات المجتمع الجاهلي، في مجال المفاهيم والتصورات العقدية السائدة والبديلة، تبين لنا إحدى أكبر أسباب الموقف العدائي من الدعوة.

فالملأ ومن وراءه عامة أفراد المجتمع الجاهلي، أدرك أن الدعوة الإسلامية بما طرحته من مفاهيم وتصورات جديدة، حول الألوهية والنبوّة والحياة الأخروية.. ستقلب موازين حياتهم رأسًا على عقب، إن هي نجحت في تحقيق أهدافها، فتحرك بكل قواه لمواجهتها والتصدي لها.

ـ إعادة النظر في المنظومة الفكرية للمجتمع

وهو هدف أساسي من أهداف الدعوة الإسلامية عمومًا، نال حظه الوافر من العناية والاهتمام في الفترة المكية على وجه الخصوص، لأهمية إصلاح المنظومة الفكرية في صلاح باقي منظومات الحياة الإنسانية الأخرى، كما سبق الحديث عن ذلك في الفصل الثالث من الباب الثاني، حيث تأكد لنا فعلاً أن

عملية تجديد النفس وتغيير الواقع لا تتم ما لم تتغير عادات الناس في التفكير، ولم يتحرر العقل الإنساني من أسْرِ الألفة والتقليد والجمود.

والمتأمل في الخطاب القرآني عمومًا وقسمه المكي خصوصًا يلمس بوضوح، كيف أن قضية إصلاح مسالك التفكير، و«منهجة» الفكر، كانت محور ارتكاز الدعوة، سواء تعلق الأمر بالحديث عن المنظومة العقدية القائمة أو البديلة، أو تعلق بالمنظومة الفكرية ذاتها، أو بباقي المنظومات الاجتماعية الأخرى القائمة والبديلة كذلك.

فالخطاب القرآني وهو يهدم الأوضاع العقدية والفكرية والاجتماعية المهترئة، ويقترح بدائل لها أكثر استجابة لطموحات الإنسان، ووفاء بحاجاته المعاشية والمعادية، يوظف العلم والعقل والفكر.

من هذه المنطلقات تحرك الخطاب القرآني ليحرر العقل الإنساني، ويزوده بمناهج التفكير الصحيحة الفعالة، وهو ما استدعى ثورة عميقة وشاملة على مواريث الجاهلية في هذا المجال، تبلغ حد تحسيسها بالعجز والسذاجة والتفاهة، وفقدان المصداقية نهائيًا، وهو ما تحقق فعلاً، ودفع بالملأ الجاهلي تحت ضغط سلطان الدعوة، وعجزه هو عن مواجهتها بالحجّة إلى مهاترة لا تليق[١٠]، سجَّلَها القرآن في قوله تعالى:

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [فصلت: ٢٦]، لأن التشويش عليه يؤثر في الاستماع له، وهو ما يعيق عملية الفهم والتأثر والإقبال على التفكير في ما يطرحه بجدية ومسؤولية.

وسأكتفي بإثبات بعض النماذج من هذه الثورة العارمة المحكمة على الخرافة والسذاجة العقلية، والجمود الفكري، والتقليد البليد، وغياب المقاييس المنهجية للحكم والتقويم، وهو ما أدى إلى شيوع بدع كثيرة في العقيدة والفكر والسلوك والعمل.

---

(١٠) سيد قطب، في ظلال القرآن ٥/ ٣١٢٠.

قال تعالى:

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ [الأعراف: ١٧٩].

وقال سبحانه:

﴿أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الأنبياء: ٦٦، ٦٧].

وقال عز من قائل:

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾﴾ [النمل: ٦٩].

وقال كذلك:

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾ [العنكبوت: ٢٠].

وقال أيضا:

﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [يونس: ١٠١].

وقال عز وجل:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾﴾ [البقرة: ١٧٠].

هكذا يبدو كل شيء في الخطاب القرآني محرِّكًا للذهن، داعيًا إلى إعمال الفكر، رافضًا التسليم بدون حجة ولا برهان من وحي أو منطق أو فطرة..

وهو ما شكّل تحديًا حقيقيًا على موروثات المجتمع الجاهلي، وحكم عليها بالموت، الأمر الذي جعل قيادته تسارع إلى تدارك الموقف قبل إتيان الدعوة على كيانه كله.

- مراجعة المنظومة الاجتماعية للمجتمع

وهو كذلك هدف كلي، من أهداف الدعوة بدأ الاهتمام بإرساء أسسه في الفترة المكية، وتكاملت حلقاته بعد قيام الدولة في المدينة، كما سبقت الإشارة إلى ذلك في الباب الثاني، أثناء حديثنا عن أهداف الدعوة في الفترة المكية.

ونظرا للطابع الإنساني المتميز للدعوة الإسلامية، التي جاءت لتعزيز الكرامة الإنسانية، وحماية الإنسان من كل تعسّف يخدش هذه الكرامة، سواء جاء من الإنسان نفسه أو من غيره من الناس، فقد اصطدمت الدعوة بما كان سائدًا في المجتمع الجاهلي من أعراف وتقاليد وقيم، تهدر الكرامة الإنسانية، كالطبقية التي شطرت المجتمع الى ثلاث طبقات «طبقة السادة من الأغنياء والزعماء، وطبقة الرقيق من العبيد والإماء ومن في حكمهم من الدهماء والعامة، وطبقة الأحلاف من العرب ممن كانوا يعيشون في مكة وليسوا من أهلها»(١١).

هذه الطبقية المقيتة التي حرمت المجتمع من الحرية والمساواة والعدل والأخوة الإنسانية وفتحته أمام أمراض اجتماعية كثيرة، كالاستكبار والتحاسد والاستغلال، والتعظّم بالأنساب والآباء والأجداد، والأولاد والأموال وما ينجم عنه من مظالم تمسّ الأنفس والأعراض والأموال والعلاقات، وتحكم على المجتمع بالتشتّت والضعف وعدم القدرة على الانتظام وتكتيل قواه للخروج من الهامشية التاريخية.

لقد كانت هذه الأمراض تطحن المجتمع الجاهلي وهو ماض في تكريسها كجزء أساسي من نظام حياته، الأمر الذي جعله يثور بعنف وضراوة في وجه الدعوة الإسلامية التي حرصت على مراجعة كل القيم والعلاقات والأنظمة التي تتنافى مع تحقيق الكرامة الإنسانية، وإعادة النظر فيها، بما يضمن الحرية والمساواة والعدالة، ويؤصّل الأخوة الإنسانية في المجتمع.

---

(١١) أمين دويدار، صور من حياة الرسول / ١٣٣.

وقد سجل القرآن والسِّيْرة نماذج عديدة من صور الرفض لما جاءت به الدعوة من قيم إنسانية جديدة، تقر حرية الإنسان، والمساواة بين البشر والعدالة بينهم، وأنه لا فرق بين عربي وأعجمي، وأحمر وأسود، وفقير وغني، وكبير وصغير. . إلاّ بالتقوى والعمل الصالح.

قال تعالى:

﴿وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾﴾ [الزخرف: ٣٠، ٣١]، وهو موقف يدل كما هو واضح على المقاييس السائدة، القائمة على التعظّم بالسن والجاه والنسب والثراء.

وجاء في السِّيرة أن أبا جهل قال في تعليل موقفه العدائي من الدعوة: «تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف، أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تحاذينا على الركب وكنا كفرسي رهان، قالوا: منّا نبي يأتيه الوحي من السماء، فمتى ندرك هذه! والله لا نسمع به أبدًا ولا نصدقه»[١٢].

وهو موقف يدل كذلك على مدى استحكام روح العصبية القبلية الضيّقة في نفوس الناس، وتوجيهها لحياتهم بصورة صمّاء جهولة.

ويضاف إلى هذا «التخشّب» والجمود، وفاؤهم العاطفي البليد للماضي المنحط، حتى وإن أُقنعوا بأنه فاسد كما يدل على ذلك قولهم:

﴿مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ﴾ [سبأ: ٤٣].

ومن خلفيات الموقف العدائي للدعوة كذلك ما سجله القرآن أيضا عن الرؤية الاحتقارية التي كانت تسكن المشركين، إزاء الفئات المستضعفة، التي سبقتهم إلى الإسلام، فحزّ ذلك في نفوسهم، وطلبوا من رسول الله ﷺ أن يبعد عنه هؤلاء الضعفاء من العبيد والأرقاء والفقراء. .

---

(١٢) ابن كثير، السيرة النبوية ١/ ٥٠٦.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾ [الأحقاف: ١١].

كسائر الخيرات التي منّ الله بها علينا دونهم[١٣]، وهو ما جعلهم يقولون مستغربين:

﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ﴾ [الأنعام: ٥٣].

وقد كانت هذه التوجهات الجديدة للدعوة، حافزًا قويًا للمشركين لكي يناهضوها ويناصبوها العداء، لأنهم ظنوا أن ذلك سيسلبهم امتيازات كثيرة، ذهبت بهم إلى حسابات بعيدة، تتعلق بمستقبل المكانة القيادية لقريش إن هم تجاوزوا كل نقاط التضاد والافتراق بينهم وبين الدعوة، وآمنوا، وهو ما سجله القرآن في قوله تعالى:

﴿وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ﴾ [القصص: ٥٧].

هذه الحسابات الأنانية السطحية، ضخّمت في نفوسهم الخوف من انقلاب الأحوال، وانفلات زمام الأمور منهم، فاندفعوا يقاومون الدعوة ويعملون على القضاء عليها دون هوادة وهو ما سنحاول إلقاء بعض الأضواء عليه في المباحث التالية، التي نخصصها للحديث عن التحديات التي واجهتها الدعوة في مرحلتها التأسيسية الثانية، وهي على ثلاثة أنواع:

- تحديات خاصة بالدعوة وقيادتها.
- تحديات خاصة بقاعدة الدعوة.
- تحديات خاصة بقاعدة المجتمع.

٢ ـ التحديات الخاصة بالدعوة وقياداتها

وقد فضلت أن يكون حديثي هنا عن الدعوة والداعية معًا، مع أنه يمكن من الناحية المنهجية إفراد كل منهما بحديث مستقل، وذلك للارتباط الوثيق بينهما إذ غالبًا ما نجد الشبهات أو التحديات تتجه إلى رمز الدعوة ومجسدها

(١٣) القاسمي، محاسن التأويل ١٣/٩.

رسول الله ﷺ، زيادة على أن المشكلات التي واجهت الدعوة كمضمون أو كمحتوى رسالي، لم ترقَ أبدًا إلى مستوى التحدي الذي يهددها، للإعجاز التام الذي كان يتميز به القرآن الكريم في معناه ومبناه، وهو ما اعترف به الكافرون أنفسهم، ووقفوا عاجزين أمامه، كما قال تعالى:

﴿وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلۡهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفۡ مِنۡ أَرۡضِنَآۚ﴾ [القصص: ٥٧]. فهم يعترفون بينهم وبين أنفسهم أنه الحق[١٤]، كما يؤكد ذلك أيضًا قول أحد كبراء العرب وحكمائها الفصحاء الوليد بن المغيرة عقب حوار له مع رسول الله ﷺ أيقن معه أن القرآن ليس كلام بشر، وما هو بالشعر، ولا بالسحر، ولا بالكهانة، ونصح قومه قائلا:

«يا معشر قريش أطيعوني واجعلوها بي. خلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه واعتزلوه، فوالله ليكونَنَّ لقوله الذي سمعت نبأ..»[١٥]، وكما حدث لغيره من عظماء العرب كالطفيل بن عمر الدوسي[١٦] وضمّاد الأزدي[١٧]، حينما وجدا نفسيهما وجهًا لوجه في حوار مع رسول الله عليه الصلاة والسلام فأسلما مكانهما تحت تأثير ما سمعا من الوحي.

لهذا أحببت أن ينصبّ كلامي بالدرجة الأُولى على التحديات التي واجهت الدعوة «كجهد حركي» يستهدف تعريف الناس بحقيقة الإسلام وإحداث تغيير جذري في حياتهم، على طريق التوافق والانسجام مع سنن الله الكونية والتشريعية.

والدعوة كجهد حركي لإنجاز أهداف الإسلام، ارتبطت بأذهان الناس بالرسول ﷺ كقائم بعملية الإنجاز، سواء على صعيد التعريف أو التغيير العملي لأوضاع المجتمع، والدفع بها شيئًا فشيئًا نحو أنماط فكرية وسلوكية وحياتية

---

(١٤) سيد قطب، في ظلال القرآن ٥/ ٢٧٠٣.

(١٥) السيوطي، الخصائص الكبرى ١/ ١١٥.

(١٦) ابن كثير، السيرة النبوية ١/ ٤٥٢.

(١٧) ابن سيد الناس، عيون الأثر ١/ ١٧٢.

جديدة، الأمر الذي جعل عملية المواجهة للدعوة تنصبّ بشكل أساسي على رمزها ومحركها رسول الله ﷺ، قصد النيل منه، وشلّ حركته، ووضع حدّ لدعوته، حماية للمجتمع ومحافظة على استقراره.

وفي ما يلي محاولة لرصد جوانب من صور المواجهة الشاملة، التي تعرضت لها الدعوة وقيادتها في هذه المرحلة:

ـ محاولة النيل من مصداقية الدعوة والداعية

وذلك عن طريق التهوين من أمر الرسول ﷺ وما جاء به من الهدي والحكمة في بداية الأمر، حيث كانت قيادة المعارضة لم تهضم بعد طبيعة الدعوة، ولم تقدر بشكل جيد آثارها المستقبلية على حياة المجتمع الجاهلي، وظنت أنها أمر عابر لا يستحق كثير عناء والزمن كفيل بوضع نهاية له[١٨] كما يوحي بذلك قوله تعالى:

﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾﴾ [الطور: ٣٠]. وقوله سبحانه:

﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ﴿٣﴾﴾ [الكوثر: ٣]. ردًّا على المشركين الذين كانوا ينتظرون موته ونهاية أمره[١٩].

وهو أسلوب ماكر من أساليب التهوين من شأنه عليه الصلاة والسلام، سرعان ما اتسع نطاقه ليشمل أنواعًا أخرى من السخرية والاستهزاء والاتهام والتشويه لتشكيك الناس في أمر هذه الدعوة، وعزلهم عن القائم بها، واستعدائهم عليه.

وقد انصب جهد القوى المضادة على التشكيك في صحة مصادر الدعوة، وتشويه شخصية الرسول ﷺ، كما يتضح ذلك من القرآن نفسه في العديد من الآيات، كقوله تعالى:

---

(١٨) مولانا محمد علي، حياة محمد ورسالته / ٨٤.

(١٩) الشوكاني، فتح القدير ٥/ ٥٠٣.

﴿ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ ﴾ [القلم: ٥١]. وقوله سبحانه:

﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ ﴾ [الفرقان: ٤١].

وقوله عزّ وجلّ:

﴿ وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ ﴾ [الأنبياء: ٣٦].

وقوله سبحانه:

﴿ وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ ﴾ [ص: ٤].

وقوله تعالى:

﴿ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾ ﴾ [الإسراء: ٤٧].

وقوله عز من قائل:

﴿ بَلْ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ ﴾ [الأنبياء: ٥].

وقوله سبحانه:

﴿ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ ﴾ [القلم: ١٥].

وقوله كذلك:

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ ﴾ [الفرقان: ٤، ٥].

فهذه نماذج من الاتهامات التي وجّهت إلى الدعوة وقيادتها، وهي كما نرى تتراوح بين القول بأنه شاعر ومجنون وكذاب ومسحور، أو ما جاء به ما هو إلا أساطير الأولين تملى عليه من هنا وهناك، للإيحاء للرأي العام بالموقف

المطلوب، وهو عدم الالتفات إليه عليه السلام وإلى ما يدعو إليه.

وهنا ينبغي أن نلاحظ أمرًا في غاية الخطورة بالنسبة لخطة العدو في مواجهة الدعوة وقيادتها، وهو وصول قريش من خلال زعمائها بسرعة إلى توحيد الخطة الإعلامية وتنسيقها بمناسبة موسم الحج، حتى يأخذ العرب فكرة واحدة ويصدروا عن موقف واحد في أمر الدعوة وصاحبها.

فقد جاء عن ابن هشام أن نفرًا من زعماء قريش اجتمعوا عند الوليد بن المغيرة أحد دهاتهم وكبرائهم، فقال لهم: «إنه قد حضر هذا الموسم، وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا، فاجمعوا فيه رأيًا واحدًا، ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضًا، ويردّ قولكم بعضه بعضًا..» واتفقوا بعد محاورات طويلة على ما قدمه ابن المغيرة الذي قال:

«إن أقرب القول فيه لأن تقولوا ساحر، جاء بقول هو سحر يفرق بين المرء وأبيه، وبين المرء وأخيه، وبين المرء وزوجه، وبين المرء وعشيرته».

وهو القرار الذي انطلقت قريش تنفذه بخطة محكمة، تمثلت بعض فصولها في لقاء الوافدين على مداخل المدينة وإبلاغهم بالموقف حتى يكونوا على حذر[٢٠].

وفي القرآن الكريم آيات فيها تسجيل لصدى هذه المواجهة في نفس النبي ﷺ، الذي عانى من محاولات التأثير على مصداقية عمله، كما يشير إلى ذلك قوله تعالى على سبيل المثال:

﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣]. وقوله سبحانه:

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [الحجر: ٩٧]، فيك وفي مصدر دعوتك (القرآن) من كلام يموّه الحقائق ويزرع الخوف في النفوس ويعبّئ المجتمع ويدفعه للانتقام بعصبية.

(٢٠) ابن هشام، السيرة النبوية ١/٢٨٨ ـ ٢٨٩.

ـ محاولة إسقاط الحماية عنه عليه السلام

لما رأى مناوئو الدعوة أن محاولات السخرية والاستهزاء والإعراض لم تحقق هدفها، في النيل من مصداقية ما يدعو إليه النبي ﷺ، ولم تفلح في التهوين من أمره، أخذوا يفكرون في الأمر بجدية، وكانت خلاصة ما تمخض عنه تفكرهم هي محاولة توظيف عمه أبي طالب في الضغط عليه، ليتوقف أو تقع بينهما القطيعة وتسقط عنه الحماية، لينفردوا به وحيدًا أعزلاً، ويتمكّنوا من قمعه ووضع نهاية لدعوته.

ومن أجل تحقيق ذلك دخل زعماء قريش في حوار ومفاوضات طويلة مع أبي طالب شخصيًّا، مرت بأربع مراحل:

أولها: مشى فيها وفدٌ من كبار زعماء مكة وعرض الأمر على أبي طالب ورجاه أن يكفّه عنهم، أو أن يُخَلِّي بينه وبينهم، فقال لهم «قولاً رقيقًا وردّهم ردًّا جميلاً فانصرفوا عنه ومضى رسول الله ﷺ يظهر دين الله، ويدعو إليه»[٢١].

وثانيها: جاءت بعد احتدام المواجهة بين رسول الله ﷺ وزعماء قريش، الذين أخذوا يلاحظون ازدياد الإقبال على الدعوة، وتفاقم أوضاع المجتمع بسبب ذلك، فأسرعوا مرة أخرى لا ليحاوروا عمه فقط بل ليهددوه بقوة ويبلغوه «إنّا قد استنهيناك عن ابن أخيك فلم تنهه عنا، وإنّا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا، وتسفيه أحلامنا، وعيب آلهتنا، حتى تكفه عنا أو ننازله وإياك في ذلك حتى يهلك أحد الفريقين».

ووجد أبو طالب نفسه في موقف صعب دفعه إلى مصارحة رسول الله ﷺ فقال له: بعد استعراض الموقف: «فأبقِ عليّ وعلى نفسك ولا تحمّلني من الأمر ما لا أطيق» فظن عليه السلام أنّ عمه قد تأثر وغيّر رأيه فيه، وأنه خاذِلُهُ ومُسَلِّمُه، فردّ عليه ﷺ بقوله:

---

(٢١) المرجع السابق ١/ ٢٨٤.

«يا عمّ: والله لو وضعوا الشمسَ في يميني والقمرَ في يَساري على أن أتركَ هذا الأمرَ حتى يظهِره اللّهُ أو أهلكَ فيه، ما تركتُه»، واستعبر عليه السلام فبكى من شدة التأثر وانصرف(٢٢).

وثالث مرحلة في هذه المحاولات المتلاحقة لرفع الحماية عن رسول الله ﷺ، تمّت بعد تأكّد قريش من استمرار تأييد أبي طالب له، فمشوا إليه مرة أخرى وعرضوا عليه أن يأخذ عمارة بن الوليد أنهد فتيان قريش وأجملهم وأعقلهم ليتخذه ولدًا ويسلّم لهم محمدًا الذي فرَّق جماعة قومه، وأضعف موقفها! ليقتلوه، فقال لهم:

«والله لبأس ما تسومونني به، أتعطونني ابنكم أغذوه لكم وأعطيكم ابني فتقتلونه، هذا والله ما لا يكون أبدًا»(٢٣). وبذلك حقب الأمر واشتد، وحميت الحرب، وتنابذ القوم، واتخذ الموقف مجرى آخر في تصاعد حدة المواجهة وشموليتها.

ورابع مرحلة في المواجهة تمّت في مرض وفاة أبي طالب، حيث عاده وفدٌ من قريش وطلب منه أن يأخذ لهم من ابن أخيه، ويعطيه منهم، ليكف عنهم ويكفوا عنه، فبعث إليه أبو طالب وقال له: «يا ابن أخي هؤلاء أشراف قومك قد اجتمعوا لك ليعطوك ويأخذوا منك».

وبعد أخذ وردّ وتصميم من الجانبين على الثبات على موقفه خاصة رسول الله ﷺ، فاغتاظ الوفد وقال بعضهم لبعض: «والله ما هذا الرجل بمعطيكم شيئًا مما تريدون، فانطلقوا وامضوا على دين آبائكم حتى يحكمَ اللّهُ بينكم وبينه»(٢٤).

ولا ننسى أن نذكر هنا المحاولة المبكرة جدًّا التي جاءت من عمه أبي

---

(٢٢) المرجع السابق ١/ ٢٨٤.

(٢٣) ابن كثير، السيرة النبوية ١/ ٤٧٥.

(٢٤) ابن سيد الناس، عيون الأثر ١/ ١٦٢ ـ ١٦٣.

لهب عقب الجهر بالدعوة مباشرة، حيث نهره وحذّر قومه منه وصاح فيهم: «يا بني عبد المطلب هذه والله السوءة خذوا على يده قبل أن يأخذ على يده غيركم، فإن أسلمتموه حينئذ ذللتم، وإن منعتموه قتلتم»(٢٥).

ـ محاولة الاحتواء له ولدعوته عليه السلام

التحدي الآخر الذي واجه الدعوة وقيادتها هو محاولة احتوائها عن طريق المساومة والإغراء، بعد أن أصبحت الظروف مهيأة لذلك كما تصوّر زعماء مكة.

فقد استقر الرأي لديهم أن الضغوط الكثيرة والكثيفة التي تعرضت لها الدعوة وقيادتها وأتباعها كل هذه المدة، يمكنها أن تؤثر في موقف النبي ﷺ، وتدفعه إلى قبول الهدنة مع قريش، فبدأت سلسلة جديدة من المفاوضات المباشرة مع رسول الله ﷺ انتهت إلى طريق مسدود سينقل الصراع إلى مستويات أخرى أكثر حِدّة وعنفًا.

وأول خَطوة خطَتْها قريش في هذا السياق هو إرسال عتبة بن ربيعة ليعرض على رسول الله ﷺ بعض المطالب المغرية جدًّا والتي لخصها له بقوله:

«يا ابن أخي إن كنتَ إنما تريدُ بما جئتَ به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا، وإن كنتَ تريدُ به شرفًا سوّدناك علينا حتى لا نقطع أمرًا دونك، وإن كنت تريد به ملكًا ملكناك علينا..»، فرد عليه رسول الله عليه الصلاة والسلام بأن قرأ عليه سورة «فصلت» وقال له:

«قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت فأنت وذاك»(٢٦).

وبعد فترة جاءت الخطوة المباشرة الثانية والتي حرصت قريش أن تستجمع لها كل أسباب النجاح، فاجتمع أشرافها من كل قبيلة واستدعوا رسول

---

(٢٥) النجم عمر بن فهد، مرجع سابق ١/ ٢٠٠.
(٢٦) ابن هشام، المرجع السابق ١/ ٣١٣.

الله ﷺ لمحاورته مباشرة وبشكل جماعي، فجاءهم مسرعًا، وبعد استعراضهم للأوضاع التي آل إليها أمرُهم بسبب دعوته، عرضوا عليه المطالب السابقة وأكدوا له التزامهم بالوفاء بها إن هو قبلها أو قبل بعضها.

فرد عليهم بقوة قائلا:

«ما بي ما تقولون، ما جئتُ بما جئتكم به أطلبُ أموالَكم ولا الشرفَ فيكم ولا الملك عليكم، ولكن الله بعثني إليكم رسولاً.. فإن تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردّوه عليّ أصبر لأمر الله حتى يحكمَ الله بيني وبينكم»(٢٧).

ومع كل هذا فإن محاولات الالتفاف على الدعوة واحتوائها ولو شكليًا، لم تتوقّف بل أخذت أبعادًا أخرى، فقد سار كذلك وفد من كبار زعماء قريش إلى رسول الله ﷺ وقالوا له:

«يا محمد هلمّ فلنعبدْ ما تعبدُ، وتعبد ما نعبد، فلنشترك نحن وأنت في الأمر»(٢٨) وهو الموقف الذي نزل فيه قوله تعالى:

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ۝٦﴾ [الكافرون: ١ ـ ٦].

وفي قوله تعالى:

﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ۝٧٣ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ۝٧٤﴾ [الإسراء: ٧٣ ـ ٧٤].

وقوله سبحانه:

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ۝٤﴾ [عبس: ١ ـ ٤]، ما يوحي بقوة الضغوط التي كان يعاني منها رسول

---

(٢٧) البلاذري، أنساب الأشراف ١/ ١٢٣.
(٢٨) القرطبي، المرجع السابق ٢٠/ ٢٢٥.

الله ﷺ وشدّتها، من جراء هذه المحاولات المتكررة والمتنوعة التي كانت تستهدف فتح ثغرات في موقف الدعوة وقيادتها، لتتسلل منها شيئًا فشيئًا إلى مواقع أشد تأثيرًا وخطرًا، وهو ما كان تأييد الله وعصمته لنبيه له بالمرصاد، خاصة في حالات استناد الموقف الاجتهادي لدليل مصلحة مرجوحة واضحة، وغفلة عن مصلحة راجحة[29] تخفيها أساليب المكر وفنون الخداع وتمويه الحقيقة.

ـ محاولة تهوين أمر الدعوة وقيادتها لدى الرأي العام

وقد سلكت إليها قريش أساليب عديدة، منها توجيه الأسئلة التعجيزية، وملاحقة خطواته لتنفير الناس منه، ومحاولة تقديم «بدائل» عما يدعوهم إليه.. كل ذلك من أجل إظهار عجزه عليه السلام والتهوين من أمره وأمر دعوته[30].

وقد سجل القرآن ما يزيد عن عشرين سؤالا تعجيزيًا، وجهتها زعامات قريش للنبي ﷺ قصد إفحامه أمام الرأي العام نكتفي بنموذج منها جاء في قوله تعالى:

﴿وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ﴾ [الإسراء: ٩٠ ـ ٩٣].

وهو إجمال لما جاء مفصلاً في كتب[31] السيرة عن محاولاتهم الكثيرة، التي استعانوا فيها بالخبرة الأجنبية، كما يدل على ذلك ما ذكره ابن كثير من أن قريشًا أوفدت إلى يهود المدينة من يستوثق لها مما يقول رسول الله عليه الصلاة

(٢٩) الطاهر بن عاشور، المرجع السابق ١٥/ ١٧٥.
(٣٠) محمد أبو زهرة، خاتم النبيين ١/ ٣٨٥.
(٣١) ابن هشام، المرجع السابق ١/ ٣١٦. ابن كثير، السيرة النبوية ١/ ٤٧٩.

والسلام، ويستعين بخبرتهم في مقاومته والتصدي له، وهو ما حدث فعلاً، حيث زود اليهود هؤلاء بجملة من الأسئلة وجهت إلى رسول الله ﷺ قَصْدَ إفحامه وإثبات عجزه[٣٢].

وفي السياق نفسه نجد أن النضر بن الحارث أحد كبار مثقفي قريش، المستوعبين لبعض الثقافات الأجنبية المعاصرة وظّف كل خبراته في معاكسة الدعوة والتهوين من أمر صاحبها عليه السلام «فكان إذا جلس رسول الله ﷺ مجلسًا فذكر فيه الله، وحذّر قومه ما أصاب من قبلهم من الأمم من نقمة الله، خلَفَه في مجلسه إذا قام، ثم قال: أنا والله يا معشر قريش أحسن حديثًا منه، فهلمّ إليّ، فأنا أحدّثُكم أحسن من حديثه، ثم يحدثهم عن ملوك فارس ورستم واسبنديار، ثم يقول: بماذا محمد أحسن حديثًا منّي؟»[٣٣].

وللغاية نفسها كان أبو لهب يتبع رسول الله ﷺ حينما يخرج في المواسم للاتصال بقبائل العرب ودعوتها إلى الإسلام ليعقب على كلامه بقوله:

«لا تطيعوه فإنه صابئ كذاب» فيردون على رسول الله ﷺ أقبح الرّد، ويؤذونه، ويقولون: أسرتك أعلم بك حيث لم يتبعوك»[٣٤].

وهي النتيجة التي كانت زعامات قريش تسعى جاهدة للحصول عليها، للضغط على رسول الله عليه الصلاة والسلام، والتأثير على معنوياته ومعنويات أتباعه التي كان لها القرآن الكريم بالمرصاد، فلا يدع رسول الله ﷺ يسترسل وراء بعض ما كان يجول في خاطره وهو يفكر في ما به يدفع هؤلاء عن طريق الدعوة، ويفتح به مغاليق قلوبهم عليها، كما يوحي ذلك قوله تعالى مثلا:

﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾ ﴾ [هود: ١٢].

---

(٣٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم ٤/٣٦٦.

(٣٣) ابن هشام، المرجع السابق ١/٣٢١.

(٣٤) ابن القيم، زاد المعاد. ٣/٤٣. ابن سيد الناس، عيون الأثر ١/١٢٥.

ـ محاولة تصعيد وتائر الاضطهاد لقيادة الدعوة

جاءت هذه الخطوة الخطيرة، عقب تقويم زعماء قريش للموقف، وملاحظتهم لاضطراد نموّ الدعوة، وتخطيها لحدود مكة وقريش عمومًا إلى مناطق بعيدة، فقرّروا تصعيد المواجهة، والانتقال إلى أساليب أكثر فعالية في قمع الدعوة وخنق صوتها وتجميد حركتها، وصلت إلى درجة التصفية الجسدية لقيادتها(٣٥).

وعندما نراجع مسلسل الاضطهاد نجده طافحًا بأنواع الأذى والتعذيب لرسول الله ﷺ، قصد الضغط عليه وحمله على قبول بعض التنازلات التي طُلبت منه.

فقد شُتِمَ عليه السلام وخُنِق، وألقي على وجهه الترابُ، ووُضِعَ الشوكُ في طريقه، وألقيت عليه وهو يصلي سلى جزور، وطرحت رحم شاة ميتة في برمته، وتفل في وجهه الكريم، وأغرى به زعماء قريش دهماءهم وسفهاءهم فاجترأوا عليه بالتكذيب والأذى.

وسأكتفي هنا بإثبات نصّين يبيّنان المدى الذي وصل إليه تصاعد حمأة المواجهة لرسول الله ﷺ والأذى له.

فقد روي أنه استُفِزَّ بشكل مثير إلى درجة حملته على الخروج عن انضباطه النفسي المعهود، وتهديد جَمْع من زعماء القوم كانوا يغمزونه ببعض القول، فقال لهم:

«أتسمعون يا معشر قريش، أما والذي نفسي بيده، لقد جئتُكم بالذبح» فأخذتْهم كلمتُه، حتى أنّ أشدهم عليه قَبلَ ذلك ليهدئه بأحسن ما يجد من القول، وهو يردد: «انصرف يا أبا القاسم فوالله ما كنتَ جهولا»(٣٦).

كما روي كذلك عن بعض أهل العلم كما يقول ابن هشام:

---

(٣٥) ابن هشام، المرجع السابق ١/ ٣١٠، ٣٦٨.
(٣٦) المرجع السابق ١/ ٣٠٩.

«إن أشدّ ما لقي به رسول الله ﷺ من قريش، أنه خرج يومًا فلم يلقه أحد من الناس إلا كذّبه وآذاه، لا حرّ ولا عبد، فرجع رسول الله ﷺ إلى منزله فتدثّر من شدة ما أصابه» (٣٧).

ـ محاولة خنق الدعوة بالحصار الشامل

في مطلع السنة السابعة(٣٨) من البعثة، رأت قريش أن جميع السياسات التي اتبعتها، لم تفلح في وقف زحف الدعوة على حساب مواقع كثيرة في هيكل النظام الجاهلي، وأن زمام الأمر يكاد يفلت منها، خاصة بعد إسلام حمزة وعمر رضي الله عنهما، ومجاهرة المسلمين بالدعوة تبيلغًا وممارسة، وتحويل أعداد كبيرة من أبناء مكة ورجالاتها إلى الحبشة، وثبات رسول الله ﷺ على موقفه إزاء مطالب قريش، ووقوف بني هاشم وبني المطلب مع المسلمين عصبية..

كل هذه المعطيات واضحة لدى قريش وزعاماتها فاندفعت تحت وطأة الإحساس بالإحباط والخوف إلى اتخاذ قرار في غاية الخطورة، يقضي بفرض حصار شامل على المسلمين ومَن وَقَفَ معهم، من عصبياتهم، بحيث لا يصل إليهم شيء من الطعام واللباس، ولا يخرج من عندهم شيء، ولا ينشئون أية علاقات اجتماعية مع غيرهم حتى «يدركوا سفك دم رسول الله ﷺ»(٣٩) أو ينزل عند رغبة قريش.

وقد استغرق هذا الحصار الشامل المحكم ثلاث سنوات، بلغ فيها الجهد بالمسلمين وكل من كان معهم مبلغاً عظيماً، كما تدلّ على ذلك صورُ أكل الأوراق والجلود، وسماع أصوات الصبيان والنساء وهم يتضاغون من الجوع(٤٠).

---

(٣٧) المرجع نفسه ١/ ٣١٠.

(٣٨) د. عماد الدين خليل، دراسة في السيرة / ٨٥.

(٣٩) ابن كثير، السيرة النبوية ٢/ ٤٤.

(٤٠) المباركفوري، الرحيق المختوم / ١٢٦. الغزالي، فقه السيرة / ١٢٤.

هذه باختصار جوانب من صور المواجهة الشاملة بين الدعوة وقيادتها من جهة، والمجتمع الجاهلي وقيادته من جهة أخرى، هذه القيادة التي عملت بشراسة على خنق الدعوة، وشل حركتها، من خلال احتواء قيادتها، والقضاء عليها، وهو ما لم يتحقق رغم ما بذل من جهود على كافة المستويات لأسباب سنقف عليها في مباحث قادمة.

٣ ـ التحديات الخاصة بقاعدة الدعوة

وأعني بقاعدة الدعوة: مجموع المؤمنين بالله ورسوله المنضوين تحت لواء الإسلام المنخلعين عن تقاليد الجاهلية، وأعرافها الفاسدة.

هذه القاعدة الجهادية التي كانت الهدف الأساسي في جميع مراحل الدعوة في الفترة المكية، باعتبارها رأس مال الدعوة، تعرّضت لتحديات كثيرة وخطيرة منذ وقت مبكر من إدراك قريش لأبعاد الدعوة، وانعكاساتها العميقة الشاملة على مستقبل النظام الجاهلي.

فقد توجهت قريش في سياق تصدّيها للدعوة وقيادتها، إلى حرب الأتباع بكل الوسائل، ومحاولة التأثير على موقفهم من رسول الله ﷺ وما جاء به من مفاهيم وقيم ومشاريع جديدة، بغية قطع الطريق عليهم، وإعادة استيعابهم مرة أخرى ضمن النظام الاجتماعي السائد.

وقد مرّت في المبحث السابق صور عديدة عن هذه المحاولات المستميتة، التي تعفينا من الإطالة وتُجَنبنا التكرار، وهو ما يجعلنا نقصر حديثنا هنا على مشكلتين أساسيتين هما:

- ـ مشكلة التورّط في الصراع غير المتكافئ مع القوى المضادة.
- ـ مشكلة تأثير عنف المواجهة وطولها على ثبات الأتباع.

ـ مشكلة التورّط في الصراع غير المتكافئ مع القوى المضادّة

فالمتتبع لتطور مواقف قريش من أتباع الدعوة، يلاحظ مدى شراسة

المواجهة التي قوبلوا بها، وكيف تطورت واتّسعتْ لتطال حتى أهل المنعة والنفوذ، بل وحتى رسول الله ﷺ كما مرّ سابقًا.

لقد كوّن كفار قريش جوًّا من الإرهاب الفكري لا يطاق، أحاطوا به القلة المؤمنة، قوامه السخرية والتهكم والاستهزاء والضحك، كما يشير إلى ذلك القرآن في قوله تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ ﴿٣٢﴾﴾ [المطففين: ٢٩ ـ ٣٢].

وليت الأمر توقّف عند هذا الحد من الحرب النفسية وحرق أعصاب المؤمنين، بل تجاوزه إلى ما هو أخطر وهو التعذيب الجسدي المجنون الذي بلغ حدّ إزهاق الأرواح، كما حدث بالنسبة لياسر وسمية، وإتلاف بعض الحواس والأعضاء كما حدث لزنيرة رضي الله عنها التي كفّ بصرها من جراء التعذيب[(٤١) (٤٢)].

يقول ابن اسحاق:

«ثم إنهم ـ أي كفّار قريش ـ عدوا على من أسلم واتبع رسول الله ﷺ من أصحابه، فوثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين، فجعلوا يحبسونهم ويعذبونهم بالضرب والجوع والعطش، وبرمضاء مكة إذا اشتد الحر»[(٤٣)].

وسئل ابن عباس رضي الله عنهما: أكان المشركون يبلغون من أصحاب رسول الله ﷺ من العذاب ما يعذرون به في ترك دينهم؟ فقال: «نعم والله، إن كانوا ليضربون أحدهم ويجوّعونه ويعطشونه حتى ما يقدر أن يستوى جالسًا من شدة الضرّ الذي نزل به، حتى يعطيهم ما سألوه من الفتنة، حتى يقولوا له:

---

(٤١) ابن هشام، مرجع سابق ١/ ٣٤٢.
(٤٢) ابن كثير، السيرة النبوية ١/ ٤٩٣.
(٤٣) ابن هشام، المرجع السابق ١/ ٣٣٩.

ألات والعزّى إلٰهك من دون الله؟ فيقول: نعم، حتى إن الجعل ليمر بهم فيقولون له: أهذا الجعل إلّهك من دون الله؟ فيقول: نعم، إقتداءً منهم مما يبلغون من جهده»[٤٤].

وكان أبو جهل إذا سمع برجل قد أسلم له شرف ومنعة، أنّبه وأخزاه، وأوعده بالحطّ من قدره، وإن كان تاجرًا قال له: «والله لنكسدنّ تجارتك ولنهلكنّ مالك[٤٥].

في مثل هذه الأجواء المشحونة بالاستفزاز والإهانة كان الخوف من نفاذ صبر بعض المؤمنين، ودخولهم في مواجهة مباشرة مع الكفار، قد تقود الدعوة إلى تورّط في عملية الصراع الدموي، من المشكلات الخطيرة التي كان رسول الله ﷺ يتحسّب لها، لأنه كان يعلم جيدًا أن انفلات زمام الأمر، قد يؤدي إلى ثارات دموية على غرار داحس والغبراء، ترتبط في أذهان الناس وذكرياتهم بالإسلام، فلا تهدأ بعد ذلك أبدًا، ويتحوّل الإسلام من دعوة إلى ثارات[٤٦].

وفي القرآن والسيرة إشارات إلى بعض الحوادث التي كانت تقع بسبب عنف التحدي وحِدّة الاستفزاز، إلى طلب بعض المسلمين من رسول الله عليه الصلاة والسلام الإذن لهم بالانتصار من الذين كانوا يعذّبونهم ويؤذونهم[٤٧].

ومن ذلك مثلا ضَرْب سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه لرجل من كفّار قريش وشجّ رأسه، بسبب مواجهة كلامية وقعت بينهما في وقت مبكر من الدعوة في أحد شعاب مكة[٤٨].

ومنه أيضا قوله تعالى:

﴿ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾

---

(٤٤) المرجع نفسه ١/ ٣٤٢.

(٤٥) المرجع نفسه ١/ ٤٣٢.

(٤٦) سيد قطب، في ظلال القرآن ٢/ ٧١٤.

(٤٧) دروزة، سيرة الرسول ﷺ ١/ ٣٠٩، ٣١٣.

(٤٨) ابن هشام، المرجع السابق ١/ ٢٨٢.

[الأنعام: ١٠٨]، الذي يوضح وجود مسلمين كانوا يسبّون الكفّار ويشتمون آلهتهم[٤٩]، الأمر الذي يساعد على توتر الأعصاب، ويدفع إلى المواجهة، التي كان عليه السلام يعمل بكل قواه على تفاديها في هذه المرحلة من بناء قدرات الدعوة، وتأسيس كيانها.

ـ مشكلة تأثير عنف المواجهة وطول أمدها على ثبات الأتباع

وهي المشكلة الأساسية الثانية التي شكّلت بالفعل تحديًا حقيقيًا بإمكانه تهديد مسيرة الدعوة بشكل مؤثر.

ذلك لأن عنف المواجهة وضراوة الفتنة، وطول أمَد ذلك بدون رؤية تباشير انفراج الأوضاع، من شأنه أن يؤثر سلبيًّا على معنوياتهم، وقد يُدخل على نفوسهم بعض الفتور، وتضْعُف همَمُهم على تحمّل تكاليف الدين، والوفاء بمستلزمات النُّصرة له، حتى يظهره الله على الدين كله.

فالصبر على الفتنة في النفس والمال والأهل والمكانة الاجتماعية.. له حدود يصعب تجاوزها،وقد مرّ آنفًا كيف كان الصحابة رضوان الله عليهم يعذَّبون، وتمارس ضدهم ضغوط عاتية من أقاربهم وممن لهم عليهم نوع وصاية، ومن المحيط الاجتماعي عمومًا الذي كان يلقي بكلكله على كل من كان يجرؤ على الخروج على مقرراته، كما تدل على ذلك هذه الواقعة على سبيل المثال التي أوردها الإمام البخاري عن مسعود بن خراس رضي الله عنه الذي قال:

«بينما نحن نطوف بين الصفا والمروة، إذ أناس كثير، يتبعون فتى شابًّا مثقلاً بيده وعنقه، فقلت ما شأنه؟ قالوا هذا طلحة بن عبيد الله صبأ، وامرأة وراءه تدمدم وتسبّه، قلت من هذه؟ قالوا: الصعبة بنت الحضرمي أُمُّه»[٥٠].

وهو ما نجد له أمثلة عديدة تصور لنا حجم التحديات التي واجهتها قاعدة

(٤٩) دروزة، المرجع السابق ١/ ٣١٠.
(٥٠) البخاري في التاريخ (عن الإصابة لابن الأثير ٣/ ٤١٠).

الدعوة، وعملت على توهين عزيمتها بكل الوسائل المتاحة، التي تلقي عليها قصة مصعب بن عمير مع أمه المزيد من الأضواء، حينما أجاعته وأخرجته من بيته، وحرمته من لباسه، فتخشّف جلده تخشف الحية، بعد أن كان يرفل في نعيم مقيم(٥١).

هذه الضغوط النفسية، والإكراهات المادية، كانت تفعل فعلها في نفوس أتباعه عليه الصلاة والسلام، فكانوا يلتمسون منه الدعاء والحماية، كما روي ذلك عن الخباب رضي الله عنه الذي قال:

«أتيت النبي ﷺ وهو متوسد بردة وهو في ظل الكعبة وقد لقينا من المشركين شدة فقلت ألا تدعو الله؟ . .»(٥٢).

وهو ما نلمس صداه بقوة في القرآن المكّي عمومًا الذي حفلت بعض سوره وآياته بمواقف قلق بعض الأتباع، وضعفهم أمام ضراوة التحديات، مثل قوله تعالى:

﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢﴾ [العنكبوت: ١، ٢]، التي نزلت في بعض المسلمين الذين تضعضعوا أمام المحنة، واستبطأوا نصر الله حتى ركبهم القلق من المستقبل(٥٣).

وقوله تعالى:

﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ﴾ [النحل: ١٠٦]، التي نزلت في نفر كفروا بعد إيمانهم ولم يصمدوا في وجه الضغوط والإغراءات(٥٤)، كما نزلت كذلك في من فتنه الكفّار حتى قاربوهم في بعض ما أرادوا تحت وطأة العذاب فاحتمل الشرع منهم ذلك ما دامت قلوبهم مطمئنة بالإيمان.(٥٥).

(٥١) المباركفوري، الرحيق المختوم / ١٠٢.
(٥٢) البخاري في كتاب: بدء الخلق، باب: ما لقي النبي ﷺ وأصحابه (من فتح الباري ٧/ ١٣٠).
(٥٣) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن ١٣/ ٣٣٣، دروزة، السيرة النبوية ١/ ٢٨٠.
(٥٤) القرطبي، المرجع السابق ١٠/ ١٨٠. ابن عاشور، التحرير والتنوير ١٤/ ٢٩٢.
(٥٥) الجصاص، أحكام القرآن ٥/ ١٣.

والآيات كثيرة لا نريد الاسترسال وراءها، لأن غرضنا هو بيان حجم خطورة التأثير وعنف المواجهة مع القوى المضادة وطول أمدها على ثبات الأتباع. وقد رأينا بعض نتائج هذه المشكلة، التي كانت تهدد الدعوة، لولا حكمة القيادة النبوية التي استطاعت أن تواجهها وتتغلب عليها كما سنرى لاحقًا.

٤ ـ التحديات الخاصة بقاعدة المجتمع

ونقصد بقاعدة المجتمع هنا غالبيته العظمى، من فقراء وعبيد وموآلي وعامة الفئات المتوسطة الحال من أفراد المجتمع وأُسره.

والدعوة بحكم توجهها العالمي، جاءت هداية للناس كافة دون تمييز أو استثناء، وهو ما يجعلها تصطدم مباشرة بالقوى المتحكمة في المجتمع، الحريصة على استقرار أوضاعه، وثبات وجهته، وتدخل معها في مواجهات شاملة غالبًا ما تنجح فيها هذه القوى في المراحل الأولى، بحكم مساعدة الأوضاع لها، ولجوئها إلى نفوذها على الجماهير، واستغلاله في تشويه الدعوة وقيادتها، ووضع حواجز كثيرة بينها وبين الناس.

وقد مرّ معنا كيف تألّب الملأ على الدعوة وقيادتها وأتباعها، وحاول عزلهم عن المجتمع، وتجنيده ضدهم، بدعوى حماية ميراثه ونظامه من هذا الخطر الذي تقف وراءه قوى أجنبية، وأغراض شخصية، وهَوَسٌ نفسي... إلى غير ذلك من المبررات التي سبق الحديث عنها.

فقاعدة المجتمع العريضة كانت محل صراع كبير بين الدعوة وزعامات المجتمع الجاهلي في كل مراحل الدعوة، كل طرف يريد الاستئثار بولائها، وتحريكها في الاتجاه الذي يخدم مصالحه، ويقوّي شوكته، ويوهن قوى خصمه.

وقد كان النبي ﷺ على وعي عميق بذلك، فانتهج مواقفَ وسياساتٍ في الدعوة والمواجهة احتوى بها كل مواقف وسياسات خصمه، ووجهها لخدمة

الأهداف العليا للدعوة بحكمة بالغة، وهو ما سنحاول رؤيته في المبحث التالي.

د ـ منهج مواجهة هذه التحديات

لقد تبين لنا من خلال المبحث السابق الذي استعرضنا فيه جملة التحديات التي واجهت الدعوة في مرحلتها التأسيسية الثانية، كيف أن جهد القوى المضادة انصَبَّ أساسًا حول احتواء الدعوة وإبطال مفعولها في المجتمع، سواء بتحريفها عن أهدافها كلها أو بعضها، أو بالوصول معها إلى صيغة وسطى للتعايش، أو بعزلها عن المجتمع، أو بالتخلّص نهائيًا من قيادتها ووضع حدّ لها.

فكيف واجه النبي ﷺ كقائد لهذه الدعوة هذه التحديات الشاملة؟ وكيف اجتاز هذه العقبات، الكأداء وتغلّب عليها؟

ما هي الخطوات المنهجية المنظمة التي واجه بها هذه المشكلات، وحرك بواسطتها الأحداث نحو تحقيق الأهداف المرحلية للدعوة؟

١ ـ مواجهة التحديات الخاصة بالدعوة وقيادتها

ولما كان غرض الدراسة هو استجلاء ملامح المنهج النبوي في حماية الدعوة والحفاظ على منجزاتها، فإني لا أريد الاهتمام بتفاصيل المواقف والاجراءات العملية الجزئية الكثيرة، بل أركز جهدي على ما هو أصول وكليات وقواعد، ترجع إليها هذه الجزئيات وتصدر عنها.

وفي هذا السياق يمكن تحديد الخطوات المنهجيّة المنظمة التي واجه بها النبي ﷺ التحديات الخاصة بالدعوة وقيادتها، وحرك بواسطتها الأحداث نحو تحقيق الأهداف المرحلية في ما يلي:

ـ الانضباط بثوابت الدعوة وأهدافها

وهو بُعْد أساسي (قاعدي) من أبعاد المنهج النبوي في حماية الدعوة من

التحريف والاحتواء، والمحافظة على منجزاتها من التبديد والهدر، ونعني به الانشداد القوي إلى ثوابت الدعوة العقدية والفكرية والاجتماعية، وعدم التزحزح عنها مهما كانت الضغوط والتحديات، والسير قدمًا نحو تحقيق أهدافها أولاً بأول.

وهو ما تمّ فعلاً، وتحطمت عليه آمال القوى المضادة، في وضع حدّ للدعوة أو الوصول معها إلى صيغة للتعايش.

فالرسول ﷺ كقائد للدعوة، صمد في وجه محاولات الاحتواء المختلفة له ولدعوته، رغم العروض المغرية التي قدمت له، (٥٦) والضغوط(٥٧) الكثيفة التي كان يتعرض لها من عائلته(٥٨)، ومعاناة أتباعه، بل ومعاناته هو نفسه، كما أثبت ذلك القرآن في قوله تعالى:

﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ۝٦ ﴾ [الكهف: ٦]، أي مهلك نفسك في شدة الشفقة والحزن عليهم(٥٩).

ومع كل هذه الضغوط والإغراءات الصريحة والمستكنة، لم تفلح القوى المضادة في زحزحة رسول الله ﷺ عن أهداف دعوته وثوابتها قدر أنملة، بل استطاع عليه السلام عبر هذا الثبات أن يحرك أحداث المواجهة والصراع لصالح الدعوة، بإثباته لقيادات المجتمع القرشي ورأيه العام، أنه صادق في مسعاه، جادّ في أمره الذي سيظهر على ما عداه، كما توقع ذلك عتبة بن ربيعة أحد أركان القيادة القرشية، بعد حوار مع رسول الله عليه الصلاة والسلام، الذي وجّه عقبه نصيحة إلى قريش قائلا:

«.. فوالله ليكونن لقوله الذي سمعتُ منه نبأ عظيم»(٦٠).

---

(٥٦) ابن هشام، المرجع السابق ١/ ٣١٣.
(٥٧) ابن كثير، السيرة النبوية ١/ ٤٧٥.
(٥٨) ابن هشام، المرجع السابق ١/ ٣٤٢.
(٥٩) القرطبي، أحكام القرآن ١٠/ ٣٥٣.
(٦٠) ابن هشام، المرجع السابق ١/ ٣١٤.

- المرونة في التعامل مع معطيات الواقع

وهي بُعْد آخر من الأبعاد الأساسية في المنهج النبوي، ونعني بها القدرة على التكيّف مع معطيات الواقع، بما يضمن حماية الدعوة، والمحافظة على منجزاتها، والسَّير قُدُمًا نحو الأهداف المنشودة، في إطار ثوابت الشرع ومقوماته.

وتظهر لنا مرونة المنهج النبوي في حركته، وأثرها الكبير في حماية الدعوة وقيادتها، من خلال التعامل الواقعي، مع معطيات الواقع، بعيدًا عن السذاجة السياسية المجنحة في سماء المثالية والأحلام والحسابات الوهمية.

ومما يدل على هذه المرونة المنضبطة، استفادته عليه السلام من «المعطى القبلي» الذي كان يؤطر سلوك الناس ومواقفهم، وتوظيفه لحماية الدعوة وقيادتها، كما يدل على ذلك موقف عمه أبي طالب منه.

فالرسول ﷺ كان على وعي بسلطان القبيلة ودورها في حياة المجتمع العربي، لذلك حرص على التكيف مع هذه الأوضاع والاستفادة منها بما يخدم الدعوة، ولا يؤثر على وجهتها وثوابتها، وهو ما نلاحظه بوضوح منذ بداية إعلان الدعوة، حيث بدأ عليه السلام بقومه، آملا في إسلامهم، أو على الأقل ضمان تعاطفهم وحمايتهم، في إطار تقاليد البيئة الاجتماعية وأعرافها المرعيّة، وتمَكَّنَ فعلا من كسب تأييد أغلبيتهم[٦١] ودفعهم للانتصار له، والذوذ عنه، كما يدل على ذلك موقف أبي طالب، وإسلام حمزة رضي الله عنه، وانحياز سائر بني مناف، عدا أبي لهب، ضد قريش في حصارها الشامل للدعوة.

وهذا دون شك من المرونة الحركية المنضبطة، التي كان يتميّز بها المنهج النبوي في الدعوة، فهو عليه السلام لم يرفض خدمات هؤلاء مع استمرار وفائهم لمواريث جاهليتهم، التي جاء الإسلام ليقوّض أركانها، كما لم يرفض خدمات غيرهم، حينما كان يحتاج إليها، بل كان يشكر أصحابها، كما

(٦١) عرجون، مرجع سابق ٢/ ١٦٠.

حدث له مع المطعم بن عدي وغيره في سنوات المقاطعة مثلا، حينما كانوا يقدّمون المساعدات المادية للمحاصرين سرًّا، فكان عليْه السلام يشكر لهم صنيعهم[٦٢].

هذه المرونة في التعامل مع معطيات الواقع، كان لها دور مهم في تخفيف الضغوط عن الدعوة وقيادتها، وهو ما ساعد على توفير حدّ أدنى من الحماية لهما، وضمان بعض شروط تواصل العمل، رغم المحاولات المستميتة لإسقاط الحماية عن قيادة الدعوة، واضطرارها إلى التنازل أو الانفراد بها، والقضاء عليها، وهو ما ألمح إليه رسول الله ﷺ حينما قال:

«ما نالتْ منّي قريشٌ شيئًا حتى ماتَ أبو طالب»[٦٣].

ـ الاستفادة من تناقضات القوى المضادة

وهي مؤشر مهم من مؤشرات الذكاء السياسي الذي يجب أن تتصف به قيادة الحركة، لتخفيف الضغط عن نفسها، وتوفير فرص الثبات والاستمرارية لدعوتها، وإلاّ أصيبت بالجمود والضعف، وسهل على القوى المناوئة لها، التأثير عليها بما قد يعرضها لمخاطر جمّة.

والمتأمل في خطوات المنهج النبوي يرى بوضوح، كيف استطاع عليه السلام أن يؤثر في تماسك القوى المضادة مع مرور الزمن، ويستفيد من تناقضاتها الداخلية لتخفيف وطأة المواجهة على الدعوة وقيادتها، وإضعاف موقف أعدائه، وتقليل فرص نجاحهم.

وقد أعان رسولَ الله ﷺ على استثمار تناقضات القوى المضادة ـ بل والدفع بها إلى التأزّم والتفاقم قبل ذلك ـ انتهاجُه سياسة ضبط النفس، وعدم مجاراة مناوئيه في سياساتهم التهورية التي أدت مع مرور الوقت إلى تباين

---

(٦٢) النجم عمر بن فهد، مرجع سابق ٢٨/١.
(٦٣) ابن هشام، مرجع سابق ٥٨/٢.

المواقف، وتصاعد وتيرة التناقض، خاصة بعد نجاح الدعوة في استقطاب فعاليات مهمة من قيادات المجتمع أمثال حمزة وعمر وأبي بكر . . وغيرهم.

ويمكننا أن نأخذ الحصار الشامل للدعوة كعيِّنة عن نجاح السياسة النبوية في تحريك الأحداث من خلال «الانضباط الحركي» نحو التأزّم والتفجّر على المستوى الداخلي للقوى المضادة، واستثمارها لصالح الدعوة.

فالمرونة المنضبطة التي تميزت بها مواقف الرسول ﷺ في التعامل مع معطيات الواقع ساعدت كثيرًا على انحياز جزء مهم من قوى المجتمع ـ وهم عشيرته ـ إلى صفّه عصبية[٦٤] وهو ما أدى كما سبق أن رأينا إلى أزمة حادة بين قريش من جهة، وبني هاشم وبني عبد المطلب من جهة أخرى، انتهت بما يشبه اليوم في السياسة الدولية إلى قطع العلاقات بصورة كاملة، وفرض حصار محكم على كل من انحاز إلى صف رسول الله ﷺ وأتباعه، للتأثير عليهم واضطرارهم إلى التسليم أو التنازل.

وهو ما وقع عكسُه تمامًا، حيث انهار هذا الحصار بعد ثلاث سنوات، وأسلم على أثره جمعٌ كثير من الرجال والنساء[٦٥].

وهو أثر من آثار السياسة المحكمة لرسول الله ﷺ التي تفيد مجمل الروايات[٦٦]، أنه بعد ظهور بوادر التذمّر، وبداية السعي الجاد إلى إنهاء وضعية الحصار، أخبر عمه أبا طالب أن الله قد سلط الأرضة على الصحيفة فأكلتها، ولم تُبقِ منها إلاّ ذكر الله عزّ وجلّ، فانطلق في عصابة من بني عبد المطلب ليتدخل في الوقت المناسب، لتعزيز موقف الذين سعوا في نقض ميثاق المقاطعة، وهو ما تم فعلا، بعد جدل وملاحاة بين الفريقين، انتهت بفكّ الحصار، وعودة المقاطعين إلى مساكنهم[٦٧].

(٦٤) د. البوطي، مرجع سابق / ١٢١.

(٦٥) النجم، مرجع سابق ١/ ٢٩٥.

(٦٦) ابن سيد الناس، مرجع سابق ١/١٥٨. ابن كثير، السيرة النبوية ٦٨/٢. المباركفوري، الرحيق المختوم / ١٢٧. أبو زهرة، خاتم النبيين ١/ ٤٤٢.

(٦٧) ابن سعد، مرجع سابق ١/ ٢١٠.

وبهذه السياسة المحكمة في استثمار تناقضات القوى المضادة بشكل مباشر أو غير مباشر، استطاع عليه السلام أن يوفر بعض الحماية للدعوة وقيادتها، وأن يخفف من حدة التحديات لهما.

ـ ثبات السيرة وانسجامها مع أطروحات الدعوة

ما أكثر ما تصاب الدعوات والحركات بسبب اضطراب العلاقة بين حياة القائمين بها وما يدعون الناس إليه من قيم ومبادئ وآفاق.

لأن المدعوين سرعان ما يكتشفون البون الشاسع بين الفكرة والواقع، فتهتز ثقتهم في رموز الدعوة أو الحركة، وتجد اعتراضاتُ القوى المضادة لها سبيلاً إلى نفوسهم لتعمّق الهوة بينهم وبين الفكرة.

والعكس صحيح، إذ بقدر ما يتمثل دعاةُ الحركة فكرَها ويجسدونه في حياتهم، ويثبتون عليه، بقدر ما ينجذب الناس إليهم، ويتفاعلون مع دعوتهم، ويكتشفون بسرعة زيف ما يروج ضدها من الأباطيل.

وهو ما حدث فعلا مع الدعوة الإسلامية وقيادتها، عندما حاولت القوى المضادة، إحاطتها بجدار نفسي سميك، يعزلها عن الجماهير، قوامه الخوف والحذر والكره، والتوثب للانتقام وحماية مواريث المجتمع ومصالحه من تهديد الدعوة وقيادتها التي تفرّق بين المرء وزوجه، والأب وابنه، وتطمح إلى الزعامة والملك.. إلى غير ذلك من الإشاعات التي حاصرت بها القوى المناوئة قيام الدعوة كما سبق أن رأينا.

وقد كان من أهم ما ساعد النبي ﷺ على التصدي لهذه الحرب النفسية الكثيفة، التي استهدفت عزل الناس عن الدعوة من جهة، والتأثير على معنويات المسلمين وقيادتهم من جهة أخرى[٦٨]، ثبات سيرته عليه السلام، وانسجامها مع أطروحات الدعوة والآفاق، التي كانت تبشّر الناس بها.

---

(٦٨) د. منصور محمد عويس، الرسول والحرب النفسية / ٧.

فهو عليه السلام، كان مثالاً حيًا لاستقامة السلوك، وسمو الأخلاق، حتى قَبْل النبوة، إلى درجة أنهم كانوا يسمونه بالأمين[٦٩]، وهو ما ازداد رسوخًا وتأكُّدًا بعد النبوة، كما قال تعالى:

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [القلم: ٤] بمعنى «صار امتثال القرآن أمرًا ونهيًا سجية له وخُلقًا تَطَبَّعَه وترك طبعه الجِبِلّي، فمهما أمره القرآن فعله، ومهما نهاه عنه تركه، هذا مع ما جبله الله عليه من الخلق العظيم، من الحياء والكرم، والشجاعة والصفح، والحلم، وكل خلق عظيم»[٧٠].

هذا التمثّل الرائع لمضمون الدعوة، والثبات الراسخ في السيرة، شكل سندًا قويًا له عليه السلام، مكنه من المواجهة الفعالة للحرب النفسية الشرسة التي وجهت ضده.

وهو ما أدركته القوى المضادة، وعجزت عن مواجهته، فلجأت إلى تنفير الناس منه، وإبعادهم عنه، حتى لا يؤثر فيهم بقوة شخصيته الجاذبة التي تجسد أمامهم طموحات الرسالة، وهو يحاورهم في شأنها، ويعرض عليهم بعض جوانبها، ويحلل ما كان من الخلل والخطر في أنظمة حياتهم، ويطرح البدائل الجذرية لها.

ولعل في شهادة النضر بن الحارث أحد أكبر الفعاليات القرشية طموحًا إلى منافسة الرسول ﷺ، ما يؤكد الدور الفعال الذي أداه عامل ثبات السيرة النبوية وانسجامها مع آفاق الدعوة، كثابت أساسي من ثوابت منهجه الدعوي عليه السلام، في مواجهة محاولات النيل من مصداقية الدعوة وقيادتها.

ومما جاء في نصيحة النضر لقريش قوله:

«يا معشر قريش... قد كان محمد فيكم غلامًا حدثًا أرضاكم فيكم، وأصدقكم حديثًا، وأعظمكم أمانةً، حتى إذا رأيتم في صدغيه الشيبَ، وجاءكم

---

(٦٩) القاضي عياض، مرجع سابق ١/ ١٣٤.

(٧٠) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم ٧/ ٨١.

بما جاءكم به، قلتم ساحر، لا والله ما هو بساحر.. وقلتم كاهن، لا والله ما هو بكاهن.. وقلتم شاعر، لا والله ما هو بشاعر.. وقلتم مجنون، لا والله ما هو بمجنون.. يا معشر قريش، فانظروا في شأنكم، فإنه والله لقد نزل بكم أمر عظيم»(٧١).

هكذا كان عليه السلام في نظر مَن عرفه عن كثب، حتى وإن ناصبه العداء عصبية وحسدًا، أما الذين عرفوه عن طريق الإشاعة ضده، فإنهم سرعان ما ينجذبون إليه، ويرتبطون به بمجرد الإقبال على السماع منه، والتعرّف على حقيقته، كما حدث للطفيل بن عمرو الدوسي، الذي بالغت قريش في تحذيره منه عليه السلام، وتشويه صورته عنده، حتى قرر أن لا يسمع منه، ولا يكلمه، وحشا أذنيه بقطن، فرقا من أن يبلغه شيء من قوله.

وأراد الله له غير ذلك، فغيّر موقفه، واتصل به، وسمع منه، وحاوره وتعرف عليه، عن قرب، فاكتشف حقيقته، وانهارت في ذهنه كلُّ تلك الصور القاتمة القبيحة التي رسمتها له الدعاية السوداء، فأسلم وتحوّل إلى داعية كبير في قومه الذين قدِمَ بثمانين بيت مسلم منهم على رسول الله ﷺ بعد الهجرة(٧٢).

فسلوكه عليه السلام ظل ثابتًا راقيًا، يطفح بمعاني الإنسانية والكمال حتى مع أعدائه الذين كان يحترمهم ويناديهم بأحب أسمائهم إليهم، فيقول لعتبة بن ربيعة وقد جاء يتهمه بحب المال والسلطة والجنون: قال يا أبا الوليد اسمع، فلما فرغ من كلامه قال له: أفرغت يا أبا الوليد(٧٣)؟

ويلقى أبا جهل في طريقه فيبادره بلطف وسماحة وحب قائلا: «**يا أبا الحكم، هلمّ إلى الله وإلى الرسول..**»(٧٤).

---

(٧١) ابن هشام، مرجع سابق ١/ ٣٢٠.

(٧٢) ابن كثير، السيرة النبوية ٢/ ٧٢.

(٧٣) ابن هشام، المرجع السابق ٣١٣/١.

(٧٤) ابن كثير، المرجع السابق ٥٠٧/١.

هكذا بكنيته احترامًا له، وإشعاره بأنه عليه السلام لا يحمل لأحد من أعدائه ومبغضيه شيئًا في نفسه، وأن همّه الوحيد هو إشراكهم في الاستفادة من الخير الذي جاءهم به.

بهذا الانسجام الفذّ بين حياته ودعوته، كان عليه السلام يقاوم الإشاعة والحرب النفسية، ويهدم منطق الخصوم، ويجتذب الناس إليه، ويفتح الطريق أمامهم، ليقتربوا من عالم الإسلام، ويكتشفوا حقيقته التي حاولت القوى المناوئة حجبها وتشويهها بكل الوسائل والأساليب.

ـ الحرص على ضمان استمرارية الدعوة

إذا كان الهدف الأكبر للقوى المضادة هو محاصرة الدعوة، ومحاولة إيقاف امتدادها داخل محيطها القرشي وخارجه، فإن هدف قيادة الدعوة الأساسي هو العمل على استمرار انتشار الدعوة بين الناس، لأن ذلك هو صلب مهمة الرسول ذاته التي يجب أن لا يشغله عنها أي شاغل، أو يحجزه عنها أي حاجز مهما كانت أهميته أو خطورته كما قال تعالى:

﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ﴾ [المائدة: ٦٧]. وكما قال كذلك:

﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ ﴾ [الأحزاب: ٤٥، ٤٦].

والمتتبع لخطوات الرسول ﷺ يلاحظ كيف تفانى في عملية تبليغ الإسلام وتعريف الناس به، وبيانه لهم، ودعوتهم إليه، رغم ما لاقاه من متاعب بلغت حدّ الحرص على قتله والتخلّص منه.

فالدعوة إلى الله تبليغًا وتعريفًا وبيانًا وبناءً، كانت شغله الشاغل، وهمّه الأكبر الذي استغرق كل حياته: وقته وجهده وتفكيره وماله وعلاقاته وارتباطاته، كان يدور مع مصلحتها العليا حيث دارت، ويعمل دون هوادة على إنجاز أهدافها، بثبات ووثوق وانتظام.

كل التحديات السابقة التي استهدفت التأثير السلبي على الدعوة وقيادتها، لم تمنع النبي ﷺ من مواصلة جهده الدعوي الذي كان يرى فيه وسيلة فعّالة من وسائل مواجهة التحديات والتخفيف من حدتها.

لأن في استمرارية الدعوة تحقيقًا لاستيعاب طاقات وساحات أخرى جديدة، تفتح جبهات أخرى على القوى المضادة، لتشتّتَ قواها، وتدخلها في مواجهة مباشرة مع فعاليات فردية وجماعية تؤثّر على تماسكها وفعاليتها ومصداقيتها مع مرور الزمن.

وهو أمر في غاية الأهمية بالنسبة لتوفير ضمانات حماية الدعوة والمحافظة على منجزاتها، رغم ما يحدثه من ردود فعل مرحلية عنيفة، تسبب بعض المشاكل للدعوة وقيادتها، والتي سرعان ما يتم تطويقها والتغلب عليها، وتوجيهها لخدمة أهداف الدعوة، كما مرت نماذج عن ذلك في الفقرات السابقة، وكما سيأتي في فقرات أخرى لاحقة.

وفي هذا السياق يمكن فهم لماذا كان النبي ﷺ يحرص على إعادة من يسلم من الوافدين من الجهات الأخرى خارج قريش إلى بيئاتهم لفتحها أمام الدعوة، ومحاصرة القوى المناوئة شيئًا فشيئًا، كما قال عليه السلام على سبيل المثال لعمرو بن عبسة حينما أسلم ورغب أن يجاور الرسول ﷺ: «.. لا ولكن إلحق بقومك فإذا أُخبرت أني قد خرجت فاتبعني»[٧٥]، وهو ما قاله لأبي ذرّ الغفاري وكذا للطفيل بن عمر الدوسي وغيرهم كثير.

كما يمكن فهم البعد الإعلامي للهجرة إلى الحبشة، حيث سرعان ما أثّرت على رأس الدولة نفسه، وأثرت في الجهات المحيطة. كما يشير إلى ذلك قدوم وفدي نجران[٧٦] وهمدان[٧٧] على رسول الله ﷺ واعتناقهما الإسلام لمّا بلغتهم أخبار الدعوة عن طريق الحبشة.

---

(٧٥) ابن كثير، **السيرة النبوية** ١/ ٤٤٣.
(٧٦) ابن حجر، **فتح الباري** ٨/ ٧٦.
(٧٧) ابن سعد، مرجع سابق ١/ ٣٤٠.

لذلك كان عليه السلام لا يسمع بقادم إلى مكة، خاصة إذا كان له اسم وشرف إلا أسرع إليه، وتصدى له فعرض عليه الإسلام، ودعاه إليه، وحاوره في شأنه(٧٨) رغبة في إسلامه أو على الأقل إعطائه صورة حقيقية عن الدعوة وقيادتها، وحمله على التفكير في أمرها.

ولم يكتفِ عليه السلام بانتظار الوافدين بل كان يوافي الموسم كل عام، ويتبع الحجاج في منازلهم، وفي المواسم في عكاظ، ومجنة، وذي المجاز(٧٩) يحاورهم ويدعوهم، ويتعرف عليهم، حتى وهو محاصر مع أصحابه، كما كان لا يفوّت أية فرصة تتاح له دون أن يفتح مع الناس نوافذ للحوار والدعوة، حتى ولو كانوا من ألدّ خصومه، كما يؤكد ذلك مبادأته أبا جهل بالدعوة حينما صادفه مرة في إحدى أزقة مكة، فرد عليه: «.. فوالله لو أنّي أعلم أن ما تقول حقّ لاتبعتُك»(٨٠).

وما يؤكده أيضا موقفه من دعوة وجهها له عقبة بن أبي معيط، فأبى أن يأتيه إلا أن يسلم، ثم أسلم وتراجع تحت ضغط أُبي بن خلف، وهو الذي نزل فيه قوله تعالى:

﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ ﴾ [الفرقان: ٢٧]. كما ذهب إلى ذلك كثير من المفسرين(٨١).

بهذا الحرص على ضمان استمرار الدعوة، وحضورها الفعال المتواصل، على صعيد التجمعات العامة والمناسبات الخاصة، والعلاقات الإنسانية الاعتيادية، استطاع رسول الله ﷺ من خلال:

- الانضباط بثوابت الدعوة وأهدافها،

- والمرونة في التعامل مع معطيات الواقع،

---

(٧٨) ابن كثير، مرجع سابق ٢/ ١٧٢.

(٧٩) ابن قيم، زاد المعاد ٣/ ٤٣.

(٨٠) ابن كثير، السيرة النبوية ١/ ٥٠٧.

(٨١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن ١٣/ ٢٥. ابن الجوزي، زاد المسير ٦/ ٨٥.

- والإستفادة من تناقضات القوى المضادة،

- وثبات السيرة وانسجامها مع أطروحات الدعوة،

أن يواجه التحديات التي تعرضت لها الدعوة وقيادتها، وأن يحتويها، ويوظفها إلى حدّ بعيد في خدمة الأهداف العليا للدعوة.

٢ ـ مواجهة التحديات الخاصة بقاعدة الدعوة

السؤال الذي يواجهنا الآن هو:

كيف واجه النبي ﷺ التحديات الخاصة بقاعدة الدعوة التي تُعَدّ بالنسبة للمستقبل الضمانة الأساسية التي بدونها تظل الدعوة أملاً بعيد المنال؟

ما هي التدابير الوقائية التي اتخذها النبي ﷺ لحماية الرصيد البشري للدعوة من عوامل التأثير السلبي الذاتي والخارجي؟

وكما سبق أن رأينا فإن أخطر مشكلتين واجهتهما قاعدة الدعوة هما:

- مشكلة التورّط في صراع غير متكافئ مع القوى المضادة، والانزلاق - تحت تأثير تصاعد الضغط - نحو العنف كأسلوب لرفع التحدي، وهو ما يعرّض الدعوة ومنجزاتها لمخاطر لا يعلم مداها إلاّ الله، وهو الاختيار الذي عمل رسول الله ﷺ كل ما في وسعه لتجنّبه.

- ومشكلة تأثير عنف المواجهة وطول أمدها على الأتباع، لأن ذلك من شأنه أن يضعف روحهم المعنوية، ويدخل الفتور على أنفسهم، وقد يهدّد حتى ثقتهم بمستقبل مشروعهم.

- مواجهته عليه السلام مشكلة التورط في الصراع غير المتكافئ

إن الرسول ﷺ على الرغم من نبوته وتأييد الله له بالوحي، فإنه كان يتحرك في إطار سُنن الله في خلقه كسائر البشر، وهو ما تأكده حياته الرسالية بصورة فذّة، وقد مرت نماذج منها في المبحث السابق، ونحن هنا بصدد عرض

نماذج أخرى عن حركته الواقعية المنضبطة بسنن التغيير والبناء.

فالرسول ﷺ ضمن هذا المنطق، كان على وعي تام بأن انزلاق الحركة نحو تبنّي أسلوب العنف في مواجهة الضغوط والتحديات معناه تمكين القوى المضادة من استئصال شأفتها، بحكم اختلال ميزان القوى بينهما بشكل شامل.

كما كان على وعي بأن عدم التخطيط المحكم لضبط العلاقة مع المحيط بكل مكوناته ومؤثراته، سيؤدي لا محالة إلى الاصطدام به، والدخول معه مع مرور الوقت في مواجهات دموية قد تجهض الحركة والمشروع معًا.

لهذا انطلق عليه السلام لضبط جملة من التدابير، واتخاذ سلسلة من الاجراءات العملية التي تجنّب الحركة عواقب الانزلاق نحو الصراع العنفي الشامل مع القوى المضادة.

وقد تحرك عليه السلام على محورين كبيرين هما:

- محور إبعاد أتباعه عن جو الصراع.

- محور توطين الحركة على الانضباط النفسي.

إبعاد أتباعه عن أجواء الصراع

ومن الإجراءات العملية التي اتخذها النبي ﷺ في وقت متأخر من المرحلة التأسيسية الأولى للدعوة ـ لإبعاد أتباعه عن جو الصراع والملاحقات المرهقة ـ تعيينه «دار الأرقم» كمقر خاص يلتقي فيه أصحابه ليزودهم بالتوجيهات اللازمة، ويتدارس معهم أمر الدعوة وآثار تفاعلاتها في المجتمع.

وقد استمر هذا المكان يؤدي رسالته في البناء إلى ما بعد إسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه كما تدل على ذلك قصة إسلامه في السّنة السادسة من البعثة(٨٢).

وفي السياق الوقائي نفسه، استفاد عليه السلام من بيوت بعض أتباعه،

---

(٨٢) ابن سيد الناس، مرجع سابق ١/ ١٥٣. المباركفوري، الرحيق المختوم/ ١١٦.

فكانوا يجتمعون فيها سرًّا، لتعلم ما نزل من القرآن[٨٣]، وتلقّي ما استجد من معطيات، بل وإيواء من تعرض للضغوط من والديه، حتى يصيب من فضل طعامهم[٨٤]. كل ذلك في سريّة محكمة، كما يؤكده إسلام أخت عمر وزوجها سعيد بن زيد دون أن يشعر بهما أحد.

قال ابن سيد الناس: «وقد كان رسول الله ﷺ يجمع الرجل والرجلين إذا أسلم، عند الرجل به قوة، فيكونان معه ويصيبان من طعامه»[٨٥].

وعندما توسّعت قاعدة الدعوة، وأخذ انفتاحها على المجتمع بدوره يتوسع، وتأهبت قريش بكل عنجهيتها لترهب المسلمين، وتحملهم بالإكراه على التخلّي عن دينهم، احتاط عليه السلام لعواقب المواجهة، وعرض على أتباعه الهجرة إلى الحبشة في السنة الخامسة من البعثة، في دفعتين كان قوام الأولى ١٢ رجلاً و٤ نسوة بقيادة عثمان بن عفان[٨٦]، والثانية ٨٣ رجلاً و١٩ امرأة بقيادة جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه[٨٧].

وعن مقاصد هذه الهجرة، ذكر الأستاذ عرجون أنها كانت تستهدف: البعد عن مواطن الفتنة في الدين للذين لا يستطيعون ردّ الاعتداء تمسكًا بالصبر، إلى أن تتمكن الدعوةٌ من توطيد أقدامها، والبعد كذلك عن إثارة المعوقات في طريق سير الرسالة، خاصة وأن معظم المؤمنين كانوا شبابًا تملؤهم النخوة والأنفة، الأمر الذي يضاعف من احتمالات التصادم مع قريش[٨٨].

والحقيقة أن هذه الهجرة بهذا العدد الكبير من أبناء وجهاء قريش

---

(٨٣) ابن كثير، السيرة النبوية ٢/ ٣٤.
(٨٤) الطنطاوي، أخبار عمر / ٢٠، شاكر، مرجع سابق / ٥٨.
(٨٥) عيون الأثر ١/ ١٥٢.
(٨٦) المباركفوري، الرحيق المختوم / ١٠٦.
(٨٧) عرجون، مرجع سابق ٢/ ١٠.
(٨٨) المرجع نفسه ٢/ ١٠ ـ ١١.

وبيوتاتها الكبيرة، هو أيضا خطة محكمة استهدفت كذلك إحداث هزة عميقة في المجتمع القرشي، وحمله على مراجعة حساباته ومواقفه من أبنائه الذين التحقوا بالدعوة الجديدة، وهو ما نجد صداه فعلاً في مشهدين على سبيل المثال:

أحدهما: موقف عمر بن الخطاب قبل إسلامه من أسرة قرشية كانت تتأهب للارتحال، فأقبل يسأل صاحبة الدار: إنه الانطلاق يا أم عبد الله!؟

فقالت: صحبكم الله!، وذكرت أم عبد الله ما لاحظته عليه من تأثر فقالت: «ورأيت له رقّة، لم أكن أراها، ثم انصرف وقد أحزنه في ما أرى خروجُنا»[٨٩].

ولعل هذا من العوامل التي دفعته إلى الإسلام بعد ذلك بقليل، كما تؤكده أسباب إسلامه.

وثانيهما: موقف قريش ذاتها عندما هزّها حدث الهجرة، ولاحظت أن جزءًا من خِيرة رجالها هجر أرضه ودياره، وأحست أن الحدث ربما كان له ما بعده، فأرسَلت وفدًا إلى النجاشي لإعادة هؤلاء، وأمن جانبهم[٩٠].

توطين الحركة على الانضباط النفسي

بالإضافة إلى عمله عليه السلام المنظم لإبعاد أتباعه عن أجواء الصراع والمواجهات العنيفة، عمل كذلك في اتجاه توطين نفوس أصحابه على الانضباط النفسي العالي، بكل ما يتضمنه من سيطرة على النفس، وتجلد ومصابرة، وتجَاوُز للذات، وطول نفس، والتزام بتوجيهات القيادة وتطلع واثق نحو المستقبل[٩١].

وهو عمل عميق وشامل يدخل في إطار تغيير ما بأنفس المقبلين على

---

(٨٩) ابن كثير، المرجع السابق ٢/ ٣٣.

(٩٠) ابن الأثير، الكامل في التاريخ ٢/ ٧٩.

(٩١) صبحي عبد الحميد، نظرات في الحرب الحديثة / ١٠٠.

الدعوة، حتى يتهيّأوا للاضطلاع بالتحول الرسالي الذي جاء به الإسلام، وذلك يستلزم تربية نفس العربي على الصبر على ما لا يصبر عليه عادة من الضيم يقع عليه أو على من يلوذون به، وترويضه على ضبط أعصابه فلا يندفع لأول مؤثر ـ كما هي طبيعته ـ وتعويده على النظام، والسير المنتظم، مهما كان مخالفًا لمألوفاته وعاداته[٩٢].

ومن أجل هذا التوطين على الانضباط النفسي العالي، ركّز القرآن بشكل كثيف في الفترة المكية خصوصًا على قضية الصبر والمصابرة فتكلم عنها بصورة مباشرة، وعرض لها نماذج كثيرة في قصص الأنبياء، واتخذ من رسول الله ﷺ نموذجًا للتطبيق العملي، حتى يؤتي التوجيه ثماره بسرعة وعمق، فأكثر من أمره بالصبر والعفو والدفع بالتي هي أحسن، حتى يحكم الله بينه وبين من يناوئونه ويشددون النكير عليه.

ومن أمثلة هذه التوجيهات قوله تعالى:

﴿ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿١٠٩﴾ ﴾ [يونس: ١٠٩].

وقوله سبحانه:

﴿ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾ ﴾ [المزمل: ١٠].

وقوله عز وجل:

﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾ [الروم: ٦٠].

وقوله أيضا:

﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ ﴾ [الأعراف: ١٩٩]. الذي لخّص فيه الأصول الكلية للقواعد الشرعية، والآداب النفسية، والأحكام

---

(٩٢) سيد قطب، في ظلال القرآن ٢/ ٧١٤.

العملية كما قال كثير من العلماء(٩٣).

والمتأمل في حياته الرسالية يلاحظ كيف جسّد عليه السلام هذه التوجيهات في كل مواقفه العامة والخاصة، بحيث كان مثالا فذًّا للانضباط النفسي العالي، الذي كانت تحتاجه الدعوة لكي تُحمى من الإيقاف، ويحافظ على منجزاتها من الهدر والإتلاف.

وهو ما أثّر بعمق في أتباعه، وأحدث في نفوسهم تحولات جذرية على طريق اكتساب أخلاق نفسية واجتماعية جديدة، تؤهلهم لمغالبة الواقع العربي والإنساني المتدهور من حولهم، والدفع به تدريجيًّا إلى التوافق والانسجام مع فطرة الإنسان وفطرة الوجود من حوله.

وسأكتفي هنا بثلاث عيّنات على سبيل المثال تبين لنا كيف كان النبي ﷺ يواجه حالات القلق والتوتّر الحاد لدى أصحابه، من جراء ضغوط المحيط، ويبني نفوس أتباعه على الانضباط النفسي العالي.

الأولى: موقفه من خباب رضي الله عنه الذي جاءه يوما وقد لقي ـ كسائر إخوانه ـ من المشركين شدة شديدة يستنصره ويلتمس منه التدخل لتخفيف المحنة عليهم، فقال له في تأثر وحزم بَدَيَا على وجهه الشريف:

«لقد كان من قبلكم ليمشط أحدهم بأمشاط الحديد ما دون عظمه من لحم وعصب ما يصرفه ذلك عن دينه، ويوضع المنشار على فرق رأس أحدهم فيشق ما يصرفه ذلك عن دينه..»(٩٤).

والثانية: موقفه كذلك من أُسرة آل ياسر وعتاة الشرك يطحنون أجسادها وأرواحها بكل وحشية، وهو عليه السلام لا يجد لهم حيلة لاستنقاذهم مما هم فيه، خاصة عندما يمر بهم فيشكون إليه حالهم على لسان ياسر:

---

(٩٣) ابن العربي، مرجع سابق ٢/٨٢٦. رشيد رضا، تفسير المنار ٩/٥٣٣. القاسمي، محاسن التأويل ٥/ ٣٢٥.

(٩٤) البخاري، كتاب: بدء الخلق، باب: ما لقي رسول الله ﷺ (من فتح الباري ٧/ ١٣٠).

«يا رسول الله، الدهر هكذا؟!»، فيرد عليه السلام:

«صبرًا يا آل ياسر، اللهم اغفر لآل ياسر، وقد فعلت»(٩٥).

والثالث: موقفه من عبد الرحمن بن عوف وأصحاب له جاءوه وقد ضاقوا ذرعًا بما يلقاه المؤمنون من العَنَت، وما بدا لهم أنه من الإهانة والإذلال الذي يخل بكرامة المرء، وعزة المؤمن وقالوا له:

«يا نبي الله، كنا في عزة ونحن مشركون، فلما آمنا صرنا أذلة».

فقال: **«إني أمرت بالعفو، فلا تقاتلوا القوم»**(٩٦).

هكذا كانت التربية النبوية توطن نفوس النواة القاعدية الأولى للدعوة على الانضباط النفسي، الذي يمكّن كل فرد في الحركة من قراءة حساب دقيق ليس لنفسه كفرد ولا لبعض إخوانه فحسب، بل يتجاوز ذلك إلى التقدير الجيد لمصلحة الدعوة أو المشروع، والدوران معها، حيث دارت، لأن العبرة في النهاية هل انتصرت فكرته وتمكن مشروعه أم لا؟ وليس انتصاره هو ونجاته كفرد، وهو ما حرصت التربية النبوية على رفع هؤلاء إلى مستواه، وحققته بالفعل كما تبيّن لنا من خلال الصمود في وجه المحنة العاتية في المبحث السابق.

ومن خلال عمله عليه الصلاة والسلام على إبعاد أتباعه بصورة عملية عن أجواء الصراع والمواجهة العنيفة، وتركيزه على توطينهم على الانضباط النفسي العالي، المفضي بهم إلى الخروج من ذواتهم إلى الدوران مع مصلحة دعوتهم ومشروعهم الحضاري، استطاع أن يواجه مشكلة الخوف من التورط في الصراع غير المتكافئ مع القوى المضادة بنجاح كبير.

مواجهته عليه السلام لمشكلة تأثير عنف المواجهة وطول أمدها على ثبات أتباعه

كيف واجه الرسول ﷺ هذه المشكلة الخطيرة، التي قد تؤثر بقوة على

---

(٩٥) الكندهلوي، حياة الصحابة ١/ ٢٩١.

(٩٦) النسائي، كتاب: الجهاد، باب: وجوب الجهاد ٦/ ٣٠٦.

منجزات جهده المضني، المتمثلة في هذه الطليعة الجهادية التي تمكن من استخلاصها من براثن الجاهلية بجهاد مرير؟

ماذا عمل بالإضافة إلى ما سبق، لكي يضمن ثبات هؤلاء المستخلصين لكي يقضي الله بهم أمرًا كان مفعولاً بعد ذلك؟

وهنا نجد أنه عليه الصلاة والسلام تحرك على ثلاث جبهات أساسية هي:

- جبهة تدعيم تلاحم الجبهة الداخلية.
- جبهة إعطاء الأمل للأتباع.
- جبهة المرونة في مواجهة متاعبهم.

تدعيم الجبهة الداخلية

وسأذكر نماذج من الوسائل والأساليب التي اعتمدها عليه الصلاة والسلام لدعم تلاحم أصحابه، وتضامنهم، بما يخفّف أعباء الصراع والمواجهة بينهم وبين المجتمع الجاهلي الذي يضغط عليهم لإعادة ابتلاعهم مرة أخرى.

وأبدأها بالمؤاخاة بين أصحابه التي شاع في كتب السيرة أنها تمّت في المدينة فقط، مع أنها تمّت أيضًا في مكّة قبل ذلك، كما جاء في مصادر عديدة قديمة ومعاصرة لها وزنها العلمي، حيث قال بن عبد البر كما نقل عنه ذلك ابن حجر: «كانت المؤاخاة مرّتين، مرة بين المهاجرين خاصة وذلك بمكة، ومرة بين المهاجرين والأنصار»(٩٧).

وهو ما ذكره كذلك ابن حبيب في «المحبّر» حيث أكد أن رسول الله ﷺ كان آخى بين أصحابه المهاجرين قبل الهجرة على الحق والمساواة، وذلك في مكة(٩٨).

وأنا أميلُ إلى وجود نوع قويّ جدًّا من التكافل المعنوي والاجتماعي

---

(٩٧) فتح الباري ٧/ ٢١٦.

(٩٨) عن ظافر القاسمي، نظام الحكم في الشريعة والتاريخ الإسلامي ١/ ٢٨.

الذي يرقى إلى مستوى المؤاخاة الحقيقية، وهو ما يعززه ما سبق أن أوردناه من أن رسول الله ﷺ «كان يجمع الرجل والرجلين إذا أسلم عند الرجل به قوة، فيكونان معه يصيبان من طعامه»[٩٩].

ولا أظن أن الأمر مقصور فقط على التكافل المادي، بل يتعداه إلى ما هو أعمق في استراتيجية الدعوة، وهو تذويب الفوارق الطبقية، وكسر الحواجز الاجتماعية التي كانت تحكم النظام القبلي وإرساء حياة إنسانية جديدة قائمة على المساواة والعدل والحرية والأخوّة.

فالقاعدة الجهادية الأولى للدعوة ـ بحكم تنوّع إطارها البشري وتباين انتماءاته الاجتماعية ـ كان لا بد لها من تكافل أخوي كبير متعدد المظاهر والأشكال، لتوفير جوّ من الترابط والتضامن والاطمئنان النفسي، يعوّض ما كان يمنحه جوُّ القبيلة وإطارُها[١٠٠].

وفي هذا السياق يمكن الإشارة بالإضافة إلى ما سبق، إلى تدخلات أبي بكر مثلا بعتق عدد عام من المستضعفين[١٠١] الذين كانوا يرزحون تحت نير التعذيب الجاهلي. كما يمكن الإشارة كذلك إلى زواج النبي ﷺ بسودة بنت زمعة أرملة المهاجر الجليل السكران بن عمرو، الذي وافاه الأجل بالحبشة[١٠٢]، كنوع من التضامن الاجتماعي منه عليه السلام مع أصحابه.

بهذا التكافل بين المسلمين أمكن التغلّب ولو جزئيًا على المؤثرات التي كانت تريد اغتيال ثباتهم وكسر صمودهم، وشلّ فعاليتهم الرسالية في الدعوة إلى الله، والعمل على التمكين لدينه في الأرض.

إعطاء الأمل للأتباع

ليس هناك شيء أخطر على الفرد وعلى الأمة من اليأس وضعف الأمل في

---

(٩٩) ابن سيد الناس، مرجع سابق ١/ ١٥٢. البيهقي، دلائل النبوة ١/ ٤٢٤.
(١٠٠) د. الجابري، مرجع سابق/ ١٠٠.
(١٠١) ابن هشام، مرجع سابق ١/ ٣٤٠.
(١٠٢) المباركفوري، مرجع سابق/ ١٣٣.

المستقبل أو تلاشيه، والعكس صحيح، فلا شيء أقوى لشحذ الهمم، وحفز العزائم على الثبات والمثابرة والدأب، من الأمل يسْكُن الفرد أو الأُمّة.

ولقد حفل القرآن والسُّنة بالمواقف والتوجيهات التي تبثّ الأمل في النفوس، بحيث شكّل هذا البعد وخاصة في قصص القرآن، مقصدًا أساسيًّا من مقاصده، ليعطي للمؤمنين الثقة في المستقبل الدنيوي والأخروي معا، وهو ما شكّل بالفعل عاصمًا قويًّا لهؤلاء في ليل الجاهلية الحالك، وأعانهم على مقاومة المحنة والإغراء.

وسأكتفي هنا بذكر نماذج من مقاومة النبي ﷺ لليأس في نفوس بعض أصحابه، ودأبه في كل مناسبة على إعطائهم الأمل في التمكين في الأرض، والفوز في الجنة ليتحَدّوا عوامل الفتور والتثبيط.

- وأول هذه النماذج: ما سبق ذكره من مواساة الرسول عليه الصلاة والسلام لآل ياسر، عندما كان يقول لهم:

«صبرًا آل ياسر فإنّ موعدكم الجنة»(١٠٣).

- وثاني هذه النماذج: ما ذكرناه كذلك عن خباب وبعض إخوانه الذين شكوا حالهم إلى رسول الله عليه الصلاة والسلام ورجوه أن يستنصر لهم ويدعو لهم، فذكّرهم بما كان يلاقيه مَن مضى من أتباع الأنبياء، ثم قال لهم مبشّرًا ومثبتًا:

«والله ليتمنّ اللّهُ هذا الأمرَ حتى يسيرَ الراكبُ من صنعاءَ إلى حضرموتَ لا يخافُ إلاّ اللّهَ والذئبَ على غنمِه، ولكنّكم تستعجلون»(١٠٤).

- وثالثهما: ما ذكره ابن سيد الناس أن رسول الله ﷺ كان يومًا يطوف مع بعض أصحابه حول الكعبة ونفر من قريش يتحرّش بهم، حتى وثب بعضُهم

---

(١٠٣) الغزالي، فقه السيرة / ١٠٧.

(١٠٤) البخاري، كتاب: بدء الخلق باب: ما لقي ﷺ (من فتح الباري ٧/ ١٣٠).

على بعض يتدافعون بالأيدي، في غضب شديد، وبعد انفراج الموقف وعودته عليه السلام إلى بيته، وقف على السدة وأقبل بوجهه على أصحابه ثم قال:

«أبشروا، فإنّ اللّهَ عزّ وجلّ مظهرٌ دينَه، ومتمٌّ كلمتَه، وناصر نبيَّه، إن هؤلاء الذين ترون مما يذبح الله بأيديكم عاجلا»[١٠٥].

فهو عليه السلام لم يشأ أن ينصرف أصحابه بعد هذا الموقف الاستفزازي البالغ الحدة، بنفسية مهزومة أو قلقة متشائمة، فشحنهم بهذا الأمل الذي عزز ثقتهم في غد قريب، تعلو فيه راية الإسلام ويظهر سلطانه.

المرونة في مواجهة متاعب أصحابه

ونلحظها على سبيل المثال في شكلين مهمين من التدابير الحكيمة، المساعدة على تخفيف الضغوط عن أصحابه قبل الانهيار.

يتمثّل الأول: في مواجهته عليه السلام لمشكلة ضعف بعض أصحابه أمام المحنة، وعدم قدرتهم على الصمود أكثر مما صمدوا ولجوئهم إلى موافقة المشركين في بعض ما أرادوا من سب الرسول ﷺ والكفر بالله، كما حدث لعمار بن ياسر رضي الله عنهما الذي جاء معتذرًا منكسر القلب، فقال له عليه السلام بعد أن اطمأن من شكلية الموقف: **«فإن عادوا فعد»**[١٠٦] مواساة له، وتخفيفًا عليه، ومساعدة له على الثبات.

ويتمثل الثاني: في احتماء بعض أصحابه بجوار بعض وجهاء قريش من الكفار، كما حدث لأبي بكر مع ابن الدغنة، وعثمان بن مظعون مع الوليد بن المغيرة، وغيرهم من المهاجرين العائدين، الذين لم يدخل منهم مكة أحد إلا بجوار أو مستخفيًا[١٠٧].

بهذه الترتيبات في التعامل مع متاعب أتباعه كان عليه السلام يساعدهم

---

(١٠٥) عيون الأثر ١/٩/١٢.
(١٠٦) القرطبي، مرجع سابق ١٠/١٨٠.
(١٠٧) ابن هشام، مرجع سابق ٢/٣.

على الثبات، ويحميهم من الانهيار والاستسلام، وفي ذلك كله حماية لمنجزات الدعوة، وبناء للقاعدة الجهادية، التي ستضطلع بعد حين بمهام التغيير الحضاري في المجتمع والعالم.

٣ ـ مواجهته التحديات الخاصة بقاعدة المجتمع

كيف واجه النبي ﷺ المحاجز النفسي الكثيف، الذي حاولت الزعامة الجاهلية إقامته بين الدعوة والمجتمع، حتى لا يصل التأثير إلى قاعدته العريضة؟

كيف تعامل عليه السلام مع حالة الحصار الذي كانت قيادة المجتمع الجاهلي تفرضه على الجماهير بوسائل وطرق شتى، من أجل تعبئتها ضد الدعوة وقيادتها واتباعها؟

وكما سبق أن رأينا فإن النبي ﷺكان على وعي عميق، بأنّ المجتمع بكل فئاته، هو هدف الدعوة، وأن هناك فئات متنفذة في المجتمع، ستقف بقوة في وجه هذه الدعوة، وستقاومها بشراسة، مستغلة جهل المجتمع وضعفه وارتباطه، الطبيعي بتراثه وثقافته وأنظمته، وستعمل المستحيل للحيلولة بين الدعوة والجماهير.

لذلك وطّن عليه السلام نفسه على طول النفس وضبط الأعصاب، والصبر على ما يلقى من العامة والخاصة، وألزم أتباعه بذلك كما رأينا، ليقينه أن اختراق هذه الحواجز النفسية، لا يتم إلاّ عبر عمل دؤوب مصابر، ينفذ تدريجيًا إلى أعماق النفوس ليهز القناعات المهترئة ويبدد الأوهام، التي طالما أمْلَتْ على الإنسان مواقفه العدائية للدعوة.

وهو ما حدث فعلاً، عندما بدأ أفراد المجتمع يكتشفون حقيقة الدعوة، ويلتحقون بها يومًا بعد يوم، ومسّ ذلك حتى أولئك الذين كانوا يتحملون مسؤولية مناهضة الدعوة ومقاومتها من زعماء قريش، كعمر بن الخطاب مثلاً، والذين كانت لهم مكانة اجتماعية كحمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه.

ومن العوامل المهمة التي ساعدت النبي ﷺ في منافسة زعماء الجاهلية على قاعدة المجتمع، بل واحتواء حتى هذه الزعامة تدريجيًا، اتصالُه المكثف بالناس وعجز قريش عن عزله كما حرصت على ذلك، بل ظل عمله يمتد ويطوّق القوى المضادّة له بشكل مضطرد.

فلم يتعقد عليه السلام من اضطهاد قريش له ومن دعوته لأتباعه، ولم يحقد عليهم، ولم يزهد فيهم، ولم ييأس منهم، بل ظل يواصل الاحتكاك بهم، ويوالي عرض الإسلام عليهم دون كلل أو ملل، ويحاورهم في شأن أوضاعهم الفاسدة، ويطرح لهم البدائل، التي تخرجهم من الظلمات إلى النور.

كان يفعل ذلك مع الأفراد، كما يفعله مع الجماعات، في البيوت، والأسواق، والأزقّة، والأفراح، والأتراح، ومع العبيد والوجهاء والفقراء[١٠٨] لا يستثني أحدًا، أو يضيّع فرصة.

وبهذا تمكن عليه السلام من تبديد مخاوف الناس التي تراكمت من جراء الدعاية المضادة بالاتصال المباشر بهم، وإعطائهم صورة متكاملة عن نفسه ودعوته[١٠٩]، بعيدًا عن الصورة الوهمية المنفرة التي صنعتها الإشاعة.

والعامل الثاني المهم في علاقة النبي ﷺ بقاعدة المجتمع خاصة وقيادتها عامة، هو العمق الإنساني الكبير في شخصيته الرسالية، الذي يمكّنه من اختزان آلامه، واحتباس متاعبه، وتجاوز ذاته، من أجل دعوته ومصلحة غيره من الذين قد يعتقدون أنهم بمواقفهم العدائية تجاهه قد خدموا قضيتهم، وحققوا أهدافهم، كما كان يظن كفّار قريش، ويحسبون أن ذلك ضعف منه عليه السلام، حتى اكتشفوا شيئًا فشيئًا أن ذلك هو سر قوته، وسبب تأثيره العميق في النفوس.

إنه الدفع بالتي هي أحسن، الذي يمتص النوازع العدوانية في الخصم،

---

(١٠٨) الكندهلوي، مرجع سابق ١/ ٦٧ وما بعدها.

(١٠٩) فضل الله، خطوات على طريق الإسلام / ٤٧١.

ويعينه على إبصار الحقيقة، ويستدرجه نحو الدعوة، والذي لا يناله إلا من وطّن نفسه على حب الخير للخلق، وتخلصتْ ذاته من ضعفها، ونَصَرَه الله عليها.

إذا أضفنا إلى هذه العوامل ماضيه المشرق، الذي سبق الحديث عنه في الباب الثاني، أدركنا سر نجاحه عليه السلام في مواجهة التحديات التي كانت تُطرح على مستوى قاعدة المجتمع، وتمكنه من إبطال مفعول الإشاعات الكثيفة التي كانت تستهدف عزله عن المجتمع وتأليبه ضده.

د ـ منجزات الدعوة في هذه المرحلة

بعد سبع سنوات من الجهاد الشاق من أجل تعريف الناس بحقيقة الإسلام، والعمل على توفير الشروط الموضوعية اللازمة لإحداث التغيير الجذري الشامل في حياتهم العقدية والفكرية والاخلاقية والاجتماعية والسياسية، أين وصل النبي ﷺ في تحقيق ذلك؟

ماذا أنجز عليه السلام على مستوى أهداف المرحلة التأسيسية الثانية للدعوة، والمتمثلة في:

- مواصلة استكمال بناء القاعدة الجهادية للدعوة.
- وإنجاز المرحلة الأولى من انفتاح الدعوة على المجتمع؟

وسنبدأ الإجابة عن السؤال الأخير الخاص بنتائج الدعوة في مرحلتها الثانية.

١ ـ منجزات الدعوة على مستوى الأهداف المحورية للمرحلة

تمكّن عليه السلام من مواجهة التحديات الكثيرة التي اعترضت طريقه سواء أكانت:

- على مستوى الدعوة وقيادتها،
- أو على مستوى قاعدة الدعوة الجهادية،

ـ أو قاعدة المجتمع.

واستطاع أن يحقق نتائج مهمة يمكن رصدها في ما يلي:

استطاع عليه الصلاة والسلام أن يواصل وسط تحديات جمّة بناء القاعدة الجهادية للدعوة، سواء من الناحية النوعية أو العددية، إذ لو أخذنا عدد المهاجرين إلى الحبشة فقط، لتبيّن لنا فعلاً كيف ظلت الدعوة تحقق نجاحًا في غاية الأهمية.

فقد ذكر كتّاب السيرة ـ كما مر ـ أن عدد المسلمين الذين هاجروا إلى الحبشة بلغ ٨٣ رجلاً و١٨ إمرأة[١١٠] عدا أبنائهم الذين خرجوا بهم صغارًا أو ولدوا لهم فيها[١١١]. بل وذهب ابن عبد البر بعد التقصي إلى القول: بأن عدد الرجال كان ٩٢ رجلاً معهم ٧ من أبنائهم الصغار[١١٢].

فإذا أضفنا إلى هذا العدد المهم، مَن ظلّ في مكة من المسلمين ومن أسلم من القبائل الأخرى، كغفار ودوس ونجران، وغيرها، أدركنا مدى النجاح الذي أحرزته الدعوة على المستوى العددي.

أما ما حققته على المستوى النوعي وهو الأهم هنا، فهو أمر في غاية الروعة، ذلك لأن النبي عليه الصلاة والسلام، تمكن من تربية جيل نموذجي جديد من الرجال والنساء، له مؤهلات روحية وفكرية وأخلاقية، تجعله فعلا في مستوى رسالي رفيع، بإمكانه التأثير الحاسم في مجريات الأحداث من حوله، وهو ما لاحظناه في صموده في وجه التحديات العاتية التي واجهت الدعوة في هذه الفترة، فلم تنل من إيمانه وإرادته وعزمه وصموده، بل غالبها وانتصر عليها.

لقد تمكنت الدعوة في هذه المرحلة من استيعاب نوعيات ذات مكانة

---

(١١٠) ابن القيم، زاد المعاد ٣/٢٦.

(١١١) ابن كثير، السيرة النبوية ٢/٩.

(١١٢) الدرر في اختصار المغازي والسير / ٥٠ ـ ٥٤.

مرموقة في المجتمع، واستعدادات نفسية وعقلية فذّة، كأبي بكر وعمر وحمزة وعثمان، وأبي ذر، والطفيل بن عمرو. . وغيرهم، وانتشلت كفاءات أخرى، كان نظام الرقّ والطبقية. . يقتل مواهبها، وصاغتها صياغة جديدة، أخرجت منها نماذج بشرية كان لها وزن ضخم في تاريخ الإنسانية بعد إسلامها[١١٣].

ومعنى هذا أن الهدف الأساسي الأول للدعوة في هذه المرحلة، قد تحقق بشكل جيد على المستوى العددي، وبصورة ممتازة على المستوى النوعي، بالإضافة إلى تمثيل هذه الطليعة الجهادية لمساحة جغرافية واجتماعية تكاد تكون شاملة للمجتمع القرشي على الخصوص، كما سنرى لاحقًا.

استطاع عليه السلام أن يحقق بشكل ممتاز، الهدف الثاني في هذه الفترة وهو: إنجاز المرحلة الأُولى من انفتاح الدعوة على المجتمع بصورة شاملة، بعد أن ظلت طيلة الفترة السابقة، تتحرك في مجال محدود وبخطى حذرة.

فقد تمكن عليه السلام من تحقيق انتشار واسع النطاق لصيت الدعوة في مكة، يدل عليه على سبيل المثال اتساع قاعدة الإطار القبلي للمهاجرين إلى الحبشة، وشموله لأغلب الفئات الاجتماعية تقريبًا، حيث عدّد ابن هشام أنسابهم فكانت (١٩) بين قبيلة وعشيرة[١١٤]، عدا الحلفاء الذين ينتمي بعضهم إلى قبائل وعشائر أخرى.

وتجاوز صيت الدعوة قريشًا إلى جهات أُخرى بعيدة، كالحبشة واليمن ودوس وغفار وغيرها[١١٥] وأسلمت فئات مهمة منها كما سبق بيان ذلك، انظمت إلى صفوف العاملين لتوسيع رقعة امتداد الدعوة، واستحكام أمرها في أم القرى ومن حولها، تمهيدًا للفتوحات الكبرى في الأرض.

كما استطاع عليه الصلاة والسلام أن يطرح الدعوة في المجتمع القرشي

---

(١١٣) الندوي، ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين / ١٠٨.
(١١٤) السيرة النبوية ١/ ٣٤٦. د. عماد الدين خليل، دراسة في السيرة / ٨٠.
(١١٥) د. رؤوف شلبي، الدعوة الإسلامية في عهدها المدني / ١٣.

وما حوله، في حياتهم العامة والخاصة[116]، سواء أكانوا معها أو ضدها، فالكل مشغول بها، إما محارب لها، أو مؤمن بها عامل على انتشارها، أو مترقب ينتظر نتائج الصراع، أو متعاطف خائف من الإقدام..

والمتأمل في القرآن المكي، يلاحظ مدى احتدام المواجهة بين الدعوة وقيادتها وقاعدتها الجهادية من جهة، والمجتمع الجاهلي من جهة أخرى، وكيف أثَّرت الدعوة في مجريات الأمور، وشكلت تحديًا حقيقيًا كبيرًا للقيادة الجاهلية، التي عجزت تماما عن الاستمرار في عملية الحوار الشامل الذي كان يديره النبي ﷺ وأتباعه مع المجتمع كله، في سياق نقد أسسه العقدية والفكرية والأخلاقية، ونقض نظامه الاجتماعي والسياسي وتقديم البديل السليم لها.

وقد أشار القرآن في مواطن كثيرة إلى هذا العجز، الذي أخذ يُفقدها - القيادة الجاهلية - توازنها، ويهوي بها في متاهات الانحطاط والتهور، كما يشير إلى ذلك على سبيل المثال قوله تعالى:

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [فصّلت: ٢٦]. أي أكثروا من الضجيج الذي يغمر صوت صاحبه، فلا يفقه منه السامعون شيئًا[117]، وهو ما يزيد الناس بحكم حب الاستطلاع واكتشاف المجهول الممنوع، حرصًا على الإقبال عليه والاهتمام به.

وفي محاولات بعض كبار زعماء قريش، الذين كانوا يتسللون ليلا للاستماع إلى القرآن استخفاءً من بعضهم بعضًا، وخوفًا على العامة[118]، ما يدل فعلاً على مدى عمق وقوة تأثير الدعوة في المجتمع القرشي وما حوله، الأمر الذي يجعلنا نقرر مرة أخرى، أن النبي عليه الصلاة والسلام نجح فعلاً في إنجاز المرحلة الأولى من انفتاح الدعوة على المجتمع.

---

(١١٦) الرازي، التفسير الكبير ٣١/ ١٠١. سيد قطب، في ظلال القرآن ٦/ ٣٨٦٠.

(١١٧) القاسمي، محاسن التأويل ٨/ ٢٦٩. ابن عاشور، التحرير والتنوير ٢٤/ ٢٧٨.

(١١٨) ابن هشام، مرجع سابق ١/ ٣٣٧.

٢ ـ منجزاتها على مستوى الأهداف العامة للمرحلة

عندما ننظر من خلال الأهداف العامة للمرحلة المكية، إلى منجزات الدعوة في المرحلتين التأسيسيتين الأولى والثانية ماذا نجد؟

والجواب على ضوء ما سبق، هو أن الدعوة تسير نحو أهدافها بصعوبة، ولكن بخطى ثابتة، سواء على مستوى حماية محتواها الرسالي من التغيير أو التحريف أو التعطيل، أو على صعيد بناء القاعدة الجهادية والمحافظة عليها، وسط أجواء الصراع المحتدم بينها وبين المجتمع الجاهلي، أو على نطاق تهيئة الرأي العام للالتحاق بها مستقبلا دون حواجز نفسية.

فخلال السنوات العشر المنصرمة، استطاعت الدعوة عبر هذه الأهداف المرحلية الوسيطة، أن تقطع شوطًا مهمًّا على طريق إنجاز الأهداف الاستراتيجية للفترة المكية التي سترتكز عليها مجمل الخطوات التغييرية القادمة عندما تبدأ مرحلة بناء الدولة، وتجسيد نموذج الحياة الإسلامية: العقدي والفكري، والسلوكي، والاجتماعي والسياسي.. في واقع الناس.

فالدعوة بما حققته من خلخلة قوية للنظام الاجتماعي الجاهلي، وتقويض لمرتكزاته العقدية والفكرية، وتفريغ مستمر له من الطاقة البشرية، وإعادة بناء لها بصورة جديدة، مناقضة لجلّ ما هو موروث وقائم ومعاش، أخذت تقترب شيئًا فشيئًا من أهدافها الكبيرة في مكة.

يدل على هذا ـ كما قلنا في نهاية الفصل السابق ـ اتساع نطاق استحكام التصورات العقدية للرسالة، وتواصل انهيار عقيدة الشرك بشكل مضطرد، رغم إصرار القوى المضادة على التظاهر بالاعتصام بمواريث المجتمع.

كما يدل عليه، إتساع دائرة حلول التفكير السنني المنطقي المنهجي، محل التفكير الخرافي، والسكون العقلي والجمود الذي كان المجتمع يرزح تحت وطأته، فجاء القرآن ليحدث ثورة عميقة في نفوس الناس وعقولهم، ويحملهم بكافة الوسائل والطرق التربوية الراقية على التفكير السنني المنظم.

أما على مستوى بناء علاقات اجتماعية جديدة، فقد تمكنت الدعوة كذلك من قطع شوط مهم لإعادة النظر عمليًا في العلاقات الظالمة، بما كان يسود بين المسلمين من أخوة حقيقية، ومساواة انتفت بموجبها مظاهر التفرقة العنصرية والاجتماعية..

الفصل الثالث

تحديات المرحلة التأسيسية الثالثة
ومنهج مواجهتها

أ ـ الإطار الزماني والمكاني للمرحلة

١ ـ الإطار الزماني

٢ ـ الإطار المكاني

ب ـ أهداف الدعوة في هذه المرحلة

١ ـ مواصلة بناء القاعدة الجهادية للدعوة

٢ ـ إنجاز المرحلة الثانية من انفتاح الدعوة على المجتمع

٣ ـ البحث عن موقع جديد للانطلاق في بناء الدولة

ج ـ التحديات التي واجهتها الدعوة في هذه المرحلة

١ ـ التحديات الخاصة بالدعوة وقيادتها

٢ ـ التحديات الخاصة بقاعدة الدعوة

٣ ـ التحديات الخاصة بقاعدة المجتمع

د ـ منهج النبي صلى الله عليه وسلم في مواجهة هذه التحديات

١ ـ مواجهة التحديات الخاصة بالدعوة وقيادتها

٢ ـ مواجهة التحديات الخاصة بقاعدة الدعوة

٣ ـ مواجهة التحديات الخاصة بقاعدة المجتمع

هـ ـ منجزات الدعوة في هذه المرحلة

١ ـ منجزاتها على مستوى الأهداف المحورية للمرحلة

٢ ـ موقع هذه المنجزات من الأهداف الكليّة للمرحلة

أ ـ الإطار الزماني والمكاني للمرحلة

١ ـ الإطار الزماني

ويستغرق تقريبا ثلاث سنوات ابتداءً من وفاة أبي طالب في رجب سنة عشر من النبوّة، وأم المؤمنين خديجة رضي الله عنها في رمضان من نفس السنة، وخروج الرسول ﷺ على إثر ذلك إلى الطائف في شوال لدعوة ثقيف إلى الإسلام[١] إلى بدء هجرته عليه السلام إلى المدينة المنورة في ليلة السابع والعشرين من صفر سنة ١٣ من النبوة[٢].

٢ ـ الإطار المكاني

وقد امتد خارج الدائرة القرشية، ليشمل مناطق أخرى جديدة، تبدأ بالطائف وما بينها وبين مكة، وبالاتصال المكثّف بالقبائل العربية المختلفة في مواسم الحج، التي طيّرت أخباره في الآفاق[٣]، خاصة بعد استجابة النفر

---

(١) المباركفوري، مرجع سابق / ١٣١، ١٣٢، ١٤٢.
(٢) المرجع نفسه / ١٨٣ (انظر الهامش).
(٣) عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب، مختصر سيرة الرسول ﷺ / ١٥٥.

اليثربي وإيفاد مصعب بن عمير إليهم[٤] ليفقههم في الدين، ويبشر به الناس هناك.

ب ـ أهداف الدعوة في هذه المرحلة

بعد النتائج المهمة التي حققتها الدعوة في المرحلتين السابقتين سواء على مستوى:

ـ بناء القاعدة الجهادية للدعوة

ـ أو على مستوى إنجاز المرحلة الأولى من الانفتاح الواسع على المجتمع، لتبليغه هداية الله سبحانه وتعالى، ومحاورته في شأنها وشأن أوضاعه الفاسدة، والدفع به قدمًا نحو الاستجابة المثلى لطموحات الرسالة انطلق عليه الصلاة والسلام في جولة جديدة، تمحورت اهتماماته فيها حول ثلاثة أهداف أساسية:

ـ مواصلة بناء القاعدة الجهادية للدعوة.

ـ إنجاز المرحلة الثانية من انفتاح الدعوة على المجتمع.

ـ البحث عن موقع جديد للانطلاق في بناء الدولة.

١ ـ مواصلة بناء القاعدة الجهادية للدعوة

وليس غريبًا أن يتواصل اهتمام الدعوة ببناء هذه الطليعة الرسالية المجاهدة، بل ويظل في مقدمة الأولويات في كل المراحل، لأن ذلك ينسجم تمامًا مع الرؤية الإسلامية المتطابقة مع سنن الله في خلقه، والتي تقرر صراحة: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ ﴾ [الرعد: ١١].

بمعنى أن عملية التغيير متوقفة على نوعية الإنسان القائم بها، لأنه هو الأساس، وهو ما أكّدته الخبرة الإنسانية على مر التاريخ، حيث اتفق حكماء

(٤) ابن هشام، مرجع سابق ٢/ ٧٦.

العرب والعجم على أن: «المُلك بناء، والجند أساسه، فإذا قَوِيَ الأساس تم البناء، وإذا ضعف الأساس انهارَ البناء»(٥).

وعليه ظل بناء هذه القاعدة الجهادية محور ارتكاز أساسي للدعوة، لاستكمال البناء والمحافظة عليه.

فالإنسان المحرر النفس والفكر، المتصل بالله والكون، عبر ما أودعه الله في الخليقة من قوانين وسنن تحكم حركة الاستخلاف وتوجّه مسيرتها نحو غايتها العليا في الدنيا والآخرة، هو همّ الدعوة الأول، وانشغالها الرئيس.

٢ ـ إنجاز المرحلة الثانية من الانفتاح على المجتمع

كما سبق أن رأينا في الباب الأول عند الحديث عن خاصية التوجه العالمي للرسالة، فإن الرسول ﷺ أخذ يسير متدرجًا في تحقيق المقاصد الإنسانية للدعوة على مستوى عالمي، تماشيًا مع أهدافها الكبرى في الخلق، وإقامة للحجة على الناس حتى تنتفي أعذارهم أمام الله تعالى كما جاء في القرآن الكريم:

﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ﴾ [النساء: ١٦٥].

فالله سبحانه وتعالى ما كان ليسأل الناس ويحاسبهم ويجازيهم قبل أن يقطع تعلاتهم كما قال عز وجل:

﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ ﴾ [الإسراء: ١٥].

فالرسول ﷺ الذي جاء برسالة خاتمة لجميع رسالات السماء ومهيمنة عليها، كان يدرك جيدًا أن من واجبه التبليغ وإقامة الحجة على الناس، فلم يتوانَ لحظة من حياته بعد البعثة ليقوم بمهمة البلاغ والبيان والإعذار، حتى يلقى ربه وليس لأحد عليه حجة، فيؤدي شهادته باطمئنان.

---

(٥) ابن الأزرق، مرجع سابق ١/ ٢٠٣.

هذا جانب أساسي في دعوته عليه السلام، فرض عليه مواصلة الانفتاح على المجتمع لإبلاغه وحي الله سبحانه وتعالى، وتحفيز الناس للإقبال عليه، والاستجابة له، وتحذيرهم من الإعراض عنه، وإدارة الظهر له.

أما الجانب الأساسي الثاني الذي كان يدعوه إلى مواصلة الانفتاح الواسع على المجتمع، فهو البحث في خاماته البشرية على المعادن الإنسانية النفيسة التي من شأنها أن تعزز الدعوة، وترفد مسيرتها بأسباب القوة والمنعة والاستعصاء على التحديات التي تحيط بها من كل جهة، وتتربص الدوائر بمستقبلها.

فهذان البعدان المهمان، هما اللّذان كانا يدفعان النبي ﷺ لتوسيع دائرة الانفتاح بالدعوة على المجتمع بصفة مستمرة، حتى لا يبقى هناك فرد أو فئة في البيئة الواقعة في دائرة الاستطاعة، لا تبلغه الدعوة، ولا تقام عليه الحجة، ولا يستفاد من إمكاناته واستعداداته وظروفه.

فالدعوة في هذه المرحلة ينتظر منها أن تتجاوز إطار البيئة القرشية التي ظل النبي ﷺ مرابطًا بها طيلة عشر سنوات، لا يغادرها إلى غيرها من المناطق الأخرى، وذلك من أجل فتح فرص جديدة أمام الدعوة، لاستيعاب مواقع جديدة، وكسب أنصار آخرين يتقوّى بها مركزها في المجتمع، وتتهيأ لها شيئًا فشيئًا ضمانات النجاح، وتنفتح أمامها آفاق أكبر للانتشار والتمكّن.

٣ ـ البحث عن موقع جديد للانطلاق في بناء الدولة

إن بناء الدولة التي تجسّد أهداف الرسالة في واقع الحياة، وتحمي الدعوة، وتمكنها من أداء مهمتها في التبليغ والبيان وإقامة الحجة على الناس. . كان هدفًا إستراتيجيًا أساسيًا بالنسبة للمرحلة المكّية ليقينه عليه الصلاة والسلام أن **«الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن»**[٦] وليس هناك وازع آخر أقدر على حمل الناس على مفارقة عوائدهم وتقاليدهم وأهوائهم الفاسدة، والانصياع للحق والثبات عليه

---

(٦) ابن الأزرق، مرجع سابق ١/ ٩٢.

غير السلطان أي الدولة، وهو ما قرره ابن خلدون حينما نص في مقدمته على «أن الدعوة الدينية من غير عصبية لا تتم»[٧].

فالسلطان الذي تجسده الدولة كقوة ردع وحماية وإنفاذ للأمور، هو الذي يوفر للدعوة شروط الحركة الحرة الفعالة، ويحافظ على منجزاتها البشرية والمادية، التي بدونها تظل عرضة للاستضعاف والإتلاف والهدر.

ولهذا كان الإعداد لبناء الدولة منذ وقت مبكر من الانطلاق في الدعوة، اهتمامًا رئيسيًا من اهتماماته عليه السلام، ظل طيلة المرحلتين السابقتين يعمل على توفير شروطه الموضوعية، التي سيرتكز عليها في هذه المرحلة لاستكمال باقي الشروط الأُخرى وخاصة ما يتعلق منها بالأرض التي ستقوم عليها الدولة، باعتبارها ركنًا من أركان الدولة حتى على صعيد التعريف القانوني[٨].

فالرسول عليه الصلاة والسلام بعد أن حقق نتائج مهمة على مستوى إعداد القاعدة البشرية اللازمة للانطلاق في بناء الدولة، وهي شرط رئيسي أول، تحرك في المرحلة الاخيرة من الفترة المكية، للبحث عن الموقع الذي يجمع فيه أتباعه، للبدء في التأسيس الفعلي للدولة.

وقد أخطأ من تبنّى ـ لأسباب متعددة ـ فكرة كون الدعوة الإسلامية لم تكن تحمل مشروعًا سياسيًا منذ البداية[٩]، وإنما أخذ هذا المشروع يتبلور بعد الهجرة، حينما رأى رسول الله ﷺ أنه صار وأصحابه في منعة، وأن الجو غدا ملائما للتوجيه السياسي للدعوة[١٠].

ويبدو تهافت هذا التوجّه في النظرة إلى طبيعة الإسلام عامة، وأبعاده السياسية خاصة، في انطلاقه من المرجعية الغربية التي تنظر إلى الدين عمومًا على أنه علاقة شخصية بين الفرد وربّه، لا سلطانَ له على واقع الحياة، والمؤسسة على

(٧) المقدمة ٢/٦٣٨.
(٨) د. محمد يوسف موسى، نظام الحكم في الإسلام/٩.
(٩) الجابري، مرجع سابق/٦١.
(١٠) د. محمد يوسف موسى، المرجع السابق/١٢.

الفصل بين السلطة الروحية والزمنية في الحياة، كما يقرّ ذلك الفكر المسيحي «أعط ما لقيصر لقيصر، وما لله لله»[11] وكما أكده وعمّقه تطورُ الصراع بين الكنيسة وفكر النهضة الأوروبية الحديثة، الذي انتهى في هذا العصر، ليس فقط إلى عزل الدين وتهميشه، بل إلى الثورة عليه، كما تجلّى ذلك في موجة الإلحاد التي اجتاحت الحياة الغربية عن طريق الشيوعية والوجودية..

وهذه المرجعية الغربية التي امتد تأثيرها ـ بحكم هيمنة النموذج الغربي على العالم المعاصر ـ إلى كل شيء في حياتنا، جعلت هذه المواقف والتوجهات تتسرب إلى كثير من «المثقفين» في عالمنا الإسلامي، الذين أصبحوا يرددون أقوال المستشرقين وعلماء الغرب، ويتبنّون أطروحاتهم، ويحكّمونها في النظر إلى الإسلام[12]، الأمر الذي قادهم إلى تبنّي مثل هذه المواقف الخطيرة، والجدّ في إقناع الناس أنه «ليس في القرآن قط، وهو المرجع المعتمد أولاً وأخيرا!، ما يفيد أن الدعوة المحمدية دعوة تحمل مشروعًا سياسيًا معيّنًا»[13].

وهو موقف غير علمي، لأنه يدل على قراءة غير موضوعية للإسلام، وتطور سير الدعوة إليه في عصر النبوة، وإلاّ فإن العديد ممن تشكل كتاباتهم الخلفية المعرفية والمنهجية لهؤلاء، يقرّون في النهاية أن: «الإسلام يعني أكثر من دين، إنه يمثل أيضًا نظريات قانونية وسياسية» كما يقول الدكتور «شاخت» الذي يؤكد كلامه المستشرق الشهير «جب» بقوله: «إن الإسلام مجتمع مستقل، له أسلوبه المعين في الحكم، وله قوانينه وأنظمته الخاصة به»[14].

فبناء الدولة التي تشكّل السند القوي لحماية الدعوة والمحافظة على منجزاتها، كان من أولويات العمل النبوي منذ البداية، وهو ما عبرّ عنه النبي ﷺ

---

(١١) د. القرضاوي، الإسلام والعلمانية وجهًا لوجه / ٥٩.
(١٢) د. محمد البهي، الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي / ٢٢٢.
(١٣) الجابري، مرجع سابق / ٦١.
(١٤) نقلاً عن د. يوسف موسى، مرجع سابق / ١١.

صراحة في مناسبات عديدة، كقوله مثلا لوفد قريش الذي شكاه إلى أبي طالب: **«كلمة واحدة تعطونيها تملكون بها العرب وتدين لكم بها العجم»**[١٥].

وكقوله لخباب وبعض أصحابه الذين التمسوا منه التدخل لرفع المحنة القاسية عليهم، فأجابهم:

«.. والله ليتمنَّ هذا الأمرُ حتى يسيرَ الراكبُ من صنعاءَ إلى حضرموت لا يخافُ إلاّ اللّهَ والذئبَ على غنمِه»[١٦].

وهو ما يؤكده عمه العباس رضي الله عنه في جوابه لعفيف الكندي الذي رأى رسول الله ﷺ وعليًا وخديجة يصلّون فقال: يا عباس: ما هذا الدين؟ فأوضح له الأمر، وقال له: بأن محمدًا يزعم أنه ستفتح عليه كنوز كسرى وقيصر»[١٧].

وهذا في وقت مبكر جدًّا من بداية الدعوة، أي في حدود السّنة الأولى من البعثة وبداية حركة التبليغ الخاص، مما لا يدع أي مجال للتردد في شأن التوجهات السياسية للدعوة الإسلامية، وعمله عليه الصلاة والسلام من أجل بناء الدولة الحامية للدعوة، والمجسِّدة لمشروع الرسالة.

هذه هي أهداف المرحلة التأسيسية الثالثة للدعوة، التي ستنصبّ عليها جلّ اهتمامات الرسول ﷺ وصحابته الكرام.

ج ـ التحديات التي واجهتها الدعوة في هذه المرحلة

في هذا المبحث والذي سيليه سأتبع نفس التقسيم المنهجي الذي اعتمدته في الفصل السابق، وهو محاولة حصر التحديات التي واجهتها الدعوة وقيادتها على حدة، ثم التي واجهتها القاعدة الجهادية، فالتي تعرضت لها قاعدة المجتمع.

---

(١٥) ابن هشام، مرجع سابق ٢/٥٩. ابن سعد، مرجع سابق ١/٢٠٢.
(١٦) البخاري، كتاب: بدء الخلق، باب: ما لقي النبي ﷺ (من فتح الباري ٧/ ١٣٠).
(١٧) النجم، مرجع سابق ١/١٩٢.

١ ـ التحديات الخاصة بالدعوة وقيادتها

سأكرر حديثي هنا على ثلاثة نماذج من التحديات الكبرى للدعوة في هذه المرحلة، حتى لا أقع في التكرار، لأن جُلّ ما سبق ذكره في الفصل السابق بالخصوص ظل قائمًا يؤدي دوره التعويقي بشكل أو بآخر في المرحلتين اللاحقتين.

فالدعوة وقيادتها في هذه المرحلة واجهت تحدي:

ـ فقدان الحماية وتصاعد وتائر المواجهة.

ـ مخاطر استدراج الدعوة للتنازل.

ـ محاولة التصفية الجسدية لقيادة الدعوة.

فقدان الحماية وتصاعد وتائر المواجهة للدعوة

ونقصد بفقدان الحماية هنا، حرمانه عليه الصلاة والسلام من سنده الاجتماعي القوي أبي طالب، الذي كان يوفر له المنعة اللازمة، ويحول بينه وبين اجتراء قريش عليه بالايذاء المباشر، وهو ما صرّح به الرسول ﷺ ذاته فقال:

«ما نالت مني قريش شيئًا أكرهه حتى مات أبو طالب ثم شرعوا»[١٨].

فبموته خلا الجو لقريش للنيل منه عليه السلام والذهاب في ذلك مذاهب منكرة من الجرأة والطيش والسفه والحماقة. . دلت عليها وقائع كثيرة نكتفي بعينات منها على سبيل المثال، نتبين منها حجم الصعوبات التي عانى منها النبي عليه الصلاة والسلام في هذه المرحلة.

قال ابن اسحاق: **«لما هلك أبو طالب نالت قريش من رسول الله ﷺ من الأذى ما لم تطمع به في حياة أبي طالب حتى اعترضه سفيه من سفهاء قريش، فنثر على رأسه التراب، ودخل رسول الله ﷺ بيته والتراب على رأسه، فقامت إحدى**

---

(١٨) ابن كثير، السيرة النبوية ٢/١٤٦.

بناته فجعلت تغسل التراب وهي تبكي، ورسول الله ﷺ يقول لها: «لا تبكي يا بُنية فإن الله مانع أباك»[١٩].

وعن عروة بن الزبير قال: سألت ابن عمرو بن العاص: أخبرني بأشد شيء صنعه المشركون بالنبي ﷺ قال: بينما النبي ﷺ يصلّي في حجر الكعبة، إذ أقبل عقبة بن أبي معيط فوضع ثوبه في عنقه فخنقه خنقًا شديدًا، فأقبل أبو بكر حتى أخذ بمنكبه ودفعه عن النبي ﷺ وقال: أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله»[٢٠].

والشقي نفسه أتى بسلا جزور فقذفه على ظهر النبي ﷺ وهو ساجد[٢١]، والقوم من حوله يضحكون حتى مال بعضهم على بعض من شدة الفرح[٢٢].

ولم يكتفِ هذا الموتور بذلك، بل روي عنه كذلك أنه وطئ رقبته الشريفة وهو ساجد حتى كادت عيناه تبرزان[٢٣].

وكان بعضهم يطرح الفرث والدم على بابه، ويبصق في وجهه الشريف، بل لاحقوه حتى في بيته كما ذكر ذلك ابن إسحاق: «وكان أحدهم يطرحها ـ أي رحم الشاة ـ في برمته إذا نصبت له حتى اتخذ ﷺ حجرًا يستتر به منهم»[٢٤].

ولما تزايدت جرأة قريش على رسول الله ﷺ، وضيّقوا عليه الخناق، حتى لزم بيته لبعض الوقت وأقلّ الخروج[٢٥]، فكّر في كسر جو الجمود الذي تعيشه الدعوة في مكة، فخرج إلى الطائف، التي مكث فيها عشرة أيام يتصل بأهلها ويعرض عليهم أمر نصرته، والانصياع إلى دعوة الحق، فلم يستجيبوا له، وردّوه أقبح الرد، وأغروا به سفهاءهم فآذوه، وطاردوه بالحجارة مسافة طويلة، حتى اختضبت نعلاه بالدماء، وهو ما جعل رسول الله ﷺ يصف هذا الموقف بعد ذلك

---

(١٩) الزعبي، مختصر سيرة ابن هشام /٨٩.
(٢٠) البخاري، في كتاب: بدء الخلق، باب: ما لقي النبي ﷺ (من فتح الباري ٧/ ١٣٣).
(٢١) المرجع السابق، باب ما لقي النبي ﷺ ٧/ ١٣١.
(٢٢ ـ ٢٣) عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب، مختصر سيرة الرسول ﷺ / ١١٣، ١١٤.
(٢٤) ابن كثير، السيرة النبوية ٢/ ١٨٣.
(٢٥) ابن سعد، الطبقات الكبرى ١/ ٢١١. ابن كثير، السيرة النبوية ٢/ ١٤٧.

بأنه من أشد ما لقي في حياته[٢٦].

ويُظهر لنا موقفُه أثناء عودته عليه الصلاة والسلام إلى مكة، درجةَ سوءِ علاقةِ الدعوة وقيادتها بالمجتمع القرشي عمومًا، حيث اضطر عليه السلام إلى الدخول تحت حماية المطعم بن عدي بعد أن رفض غيره ممن طلب ﷺ جوارهم[٢٧].

وهو ما يشير إلى اهتزاز موقف بني هاشم بعد وفاة أبي طالب، واستسلامهم لرغبة التخلي عنه ﷺ، والعجز عن مواصلة حمايته والحدب عليه[٢٨]، الأمر الذي جعل وضعيته في مكة في غاية التعقيد والخطورة، ورشحها للمزيد من التأزم والتفاقم، خاصة وأن القوى المضادة، ازدادت مواجهتها له ولدعوته حدّة وشدّة[٢٩]، مما جعله عليه الصلاة والسلام يخرج أحيانا عن انضباطه النفسي المعهود، ويواجه بعض من يؤذيه، مرة بالدعاء عليهم[٣٠] والأُخرى بالتهديد لهم قائلا: **«أتسمعون يا معشر قريش لقد جئتكم بالذبح»**[٣١].

كل هذه المعطيات تبين لنا مدى دِقّة المرحلة التي كانت تمر بها الدعوة بعد فقدانه عليه الصلاة والسلام للحماية الاجتماعية، التي كانت تؤمنها له عصبيةُ بني هاشم وبني المطلب، وعزم قيادة المجتمع الجاهلي على إحكام خطة عزل الدعوة والقضاء عليها، وتطوير وسائل وأساليب المواجهة لها بشكل فعال، يساعد على الحسم الجذري للموقف.

مخاطر استدراج الدعوة للتنازل

إن أشدّ ما تعانيه الحركات التغييرية في مرحلة نشأتها الأُولى، ويهدد كيانها،

---

(٢٦) مختصر صحيح مسلم، كتاب: الهجرة والمغازي، باب ما لقي ﷺ / ٣١٣.

(٢٧) ابن الأثير، الكامل في التاريخ ٢/ ٩٢. النجم، اتحاف الورى ١/ ٣١٣.

(٢٨) د. عماد الدين خليل، مرجع سابق / ٩٠.

(٢٩) ابن كثير، السيرة النبوية ٢/ ١٥٣.

(٣٠) المرجع نفسه ٢/ ٨٦ ـ ٩٠.

(٣١) ابن هشام، السيرة النبوية ١/ ٣٠٩.

هو عنف المواجهة بينها وبين خصومها، وطول المدة، واختلال ميزان القوى لصالح عدوّها ، حيث تكثر دواعي الميل إلى الهدنة، والبحث عن أجواء الأمن التي تخفف الضغط على الحركة، وتتيح لها الفرصة لأخذ نَفَسها، وإعادة ترتيب خططها، وتعزيز مواقعها.

وهنا يكمن الخطر، إذ ربما يساء تقدير الموقف، تحت إلحاح الضغوط النفسية، وإكراهات الواقع، وتنساق الحركة وراء تنازلات تهدّد المشروع، وتسير به بعيدًا عن روحه ومنطلقاته وأهدافه، إذا لم تتحكم قيادة الحركة في عواطفها وانفعالات أتباعها، ولم تحسن فهم معادلة التكيف مع الواقع في إطار الاعتصام بثوابت المشروع، وعدم الحيد عنها مهما كانت المساومات والتحديات.

والرسول ﷺ وهو يبني هيكل الدعوة الذي ستقوم عليه الدولة الإسلامية الحامية للدعوة وقيادتها وأتباعها، تعرّض كما مرّ آنفًا لضغوط كثيفة، من شأنها أن تعرض دعوته للاستدراج إلى الاستجابة للمساومات والتنازلات التي تهدد مستقبلها.

فأوضاعه كقائد للدعوة، وأوضاع أتباعه كانت في غاية التعقيد والسوء، والواقع يزداد إكفهرارًا من حوله، كما يؤكد ذلك تضرعه الخاشع عقب أحداث الطائف الذي جاء فيه:

«اللهم إليك أشكو ضعفَ قوّتي، وقلّة حيلتي، وهواني على الناس، يا أرحمَ الراحمين، أنت ربّ المستضعفين، وأنت ربّي، إلى مَن تكِلُني، إلى بعيد يتجهّمني، أم إلى عدوّ ملّكْتَه أمري؟ . . .»(٣٢).

وكل هذا من شأنه أن يدفع بقيادة الدعوة إلى التعلق بأية مبادرة قد تخفف جزئيًا من آلام الدعوة مع انطوائها على مخاطر مستقبلية قد تهددها في الصميم.

وفي هذا السياق نشير إلى ثلاثة مواقف كعينات على صور الإغراء التي

(٣٢) ابن هشام، مرجع سابق ٢/ ٦١.

تعرض لها رسول الله ﷺ في هذه المرحلة، وهو في أشد ما يكون إلى النصرة والتأييد والحماية.

الأول: موقف عمه أبي لهب الذي أخذته حمية العصبية فتدخل لحمايته بعد وفاة أبي طالب وتألب قريش عليه ﷺ، حيث قال له: «يا محمد إمضِ إلى ما أردت وكنت صانعًا إذا كان أبو طالب حيًّا فاصنعه، لا واللات لا يوصل إليك حتى أموت».

فساء ذلك قريشًا، ورتبتْ خطةً أنهت بها هذه الحماية بإيقاع الرسول ﷺ في موقف حرج، عندما اضطرت أبا لهب لسؤاله عليه السلام عن مدخل عبد المطلب؟ فقال: مع قومه. هكذا بشكل عام بعيدًا عن المباشرة، وكأنه عليه الصلاة والسلام أدرك خلفيات الموقف، فحاول تجاوزه بما لا يؤثر على الموقف العقدي من جهة، ويحافظ على هذه الحماية من جهة أخرى.

غير أن قريشًا وعتْ ذلك ودفعت أبا لهب إلى التعمق في استكناه موقفه عليه السلام بصراحة، فسأله مباشرة: أيدخل عبدُ المطلب النار؟ فقال عليه الصلاة والسلام: «نعم» فثار عليه وقال: «والله لا برحتُ لك عدوًّا أبدًا»[٣٣].

والثاني: موقف قبيلتي بني عامر بن صعصعة وكِندة، عندما عرض عليهما الدعوة وطلب النصرة والحماية، فقبلتا على شرط أن يكون لهما الأمر بعده إذا أظهره الله على من خالفه.

وهو عَرْض في غاية الإغراء بالنظر إلى وضع الدعوة الحرج، فقال عليه الصلاة والسلام:

«الأمرُ لله يضعُه حيثُ يشاء» فردت الأولى قائلة:

«أنهدف نحورنا للعرب دونك، فإذا أظهرك الله كان لغيرنا! لا حاجة لنا بأمرك».

---

(٣٣) ابن سعد، مرجع سابق ١/ ٣٣١. النجم، مرجع سابق ١/ ٣٠٥.

وقالت الثانية: «لا حاجة لنا في ما جئتنا به»[٣٤].

والثالث: موقف بني شيبان الذين وصفهم أبو بكر لرسول الله ﷺ بقوله: «بأبي أنت وأمي، هؤلاء غرر في قومهم[٣٥]، أي ليس بعد هؤلاء من عز في قومهم[٣٦] وأعجب عليه الصلاة والسلام بمستوى نضج قادتهم الذين حاورهم طويلاً، وقال بشأنهم لعلي وأبي بكر في نهاية المحاورة الرفيعة المستوى:

«أية أخلاق في الجاهلية ما أشرفها، بها يدفع الله بأس بعضهم عن بعض، وبها يتحاجزون فيما بينهم»[٣٧].

لقد عرض هؤلاء عليه أن يمنعوه وينصروه مما يلي العرب فقط، لأنهم كانوا على عهد مع كسرى أن لا يحدثوا حدثًا، ولا يأووا محدثًا، فقال لهم عليه الصلاة والسلام:

«ما أسأتم الرّد، إذ أفصحتُم بالصدق، إنه لا يقومُ بدينِ الله إلاّ مَن حاطه من جميع جوانبه»[٣٨].

فالمتأمل في هذه النماذج من صور الإغراء، يلاحظ مدى خطورة التحديات التي كانت تهدد الدعوة بالانسياق وراء مواقف تستدرجها إلى تنازلات قاصمة، لولا وضوح الأهداف لدى قيادتها، واستقامة منهج الحركة وسيلة وأسلوبًا ومواقف مع طبيعة الرسالة وحقائقها من جهة، وسنن التغيير من جهة أخرى.

محاولة التصفية الجسدية لقيادة الدعوة

بعد فشل محاولات القوى المضادة في وقف امتداد الدعوة على حساب مواريث الجاهلية ومصالح قياداتها، أخذ تفكيرها يتجه نحو وضع نهاية لقيادة

---

(٣٤) ابن كثير، السيرة النبوية ٢/ ١٥٧، ١٥٩.
(٣٥) ابن سيد الناس، مرجع سابق ١/ ١٨٨.
(٣٦) ابن كثير، المرجع السابق ٢/ ١٦٦.
(٣٧) عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب، مرجع سابق / ١٥٢.
(٣٨) ابن كثير، المرجع السابق ٢/ ١٦٨.

هذه الدعوة والاستراحة منها، وإسدال الستار على آخر فصل من فصول هذه المواجهة المتعبة، التي شغلت الناس طويلاً، وخلخلت استقرار المجتمع، ووضعته على حافة الانقلاب رأسًا على عقب.

ففي آخر لقاء تفاوضي مع قيادة الدعوة، تدعمتْ قناعة الزعماء القرشيين، بضرورة التخلّص منه عليه الصلاة والسلام، كحلّ جذري للمأزق الذي آل إليه الأمر، فاقترح أبو جهل على المجتمعين، عقب انصراف رسول الله ﷺ الموافقةَ على اغتياله قائلا:

«يا معشرَ قريش، إن محمدًا قد أبى إلاّ ما ترون من عيب ديننا وشتم آبائنا، وتسفيه أحلامنا، وشتم آلهتنا، وإني أعاهد الله لأجلسن له غدًا بحجر ما أطيق حمله، أو كما قال ـ فإذا سجد في صلاته فضختُ به رأسَه، فأسلموني عند ذلك أو امنعوني، فلتصنعْ بعد ذلك بنو عبد مناف ما بدا لهم».

فوافقوا على اقتراحه قائلين: «والله لا نسلمك أبدًا، فامض لما تريد»[٣٩].

وتطورت الأحداث بسرعة في اتجاه حسم الموقف بعد ذلك، خاصة عندما اكتشفت قريش توطد العلاقة بين الرسول ﷺ وأهل يثرب، الذين بايعوه على احتضانه ونصرته، ولاحظت أن أعدادًا مهمة من أبنائها الذين آمنوا بالدعوة قد بدأوا يلتحقون أفرادًا وجماعات بالمدينة، تاركين فراغًا كبيرًا بمكة، ومحدثين قلقًا متزايدًا في نفوس الزعامات المتنفذة، التي أخذت تحسّ بالخطر الحقيقي الذي يهدد مصالحها السياسية والاقتصادية والعقدية[٤٠].

قال ابن اسحاق:

«فلما رأت قريش أن رسول الله ﷺ قد صار له شيعة وأصحاب من غيرهم بغير بلدهم، ورأوا خروج أصحابه من المهاجرين إليهم، عرفوا أنهم قد نزلوا دارًا، وأصابوا منهم منعة، فحذروا خروج رسول الله ﷺ إليهم، وعرفوا أنه قد

(٣٩) عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب، المرجع السابق / ١١.
(٤٠) المباركفوري، مرجع سابق / ١٧٦.

أجمع لحربهم، فاجتمعوا له في دار الندوة يتشاورون فيها، ما يصنعون في أمر رسول الله ﷺ حين خافوه»[٤١].

ونظرًا لخطورة الموقف، وأهمية القرار الذي كان يجب أن ينبثق من هذا اللقاء، تقاطرت وجوه قريش وزعاماتها الأساسية للمشاركة في تحمّل المسؤولية بل وذُكِرَ أن شخصية مهمة كان لها دور كبير في توجيه الحوار، والخروج بقرار القتل قد حضرت هذا اللقاء باسم شيخ من نجد، قال عنه ابن اسحاق: بأنه إبليس[٤٢].

وبعد استعراض للموقف دارت المناقشة حول إمكانية حبسه في الحديد، وعزله عن الناس حتى يموت، وانتهت إلى عدم جدواها، بخوف قريش من محاولة أصحابه تخليصه من الأسر، والخروج به إلى المدينة.

فتمحورت المناقشة بعد ذلك حول إمكانية نفيه خارج مكة، وإعادة الوئام والانسجام بين الناس بعد زوال الخطر، فرُدّ هذا الرأي من الشبح النجدي الذي قال: لا والله، ما هذا لكم برأي، ألم تروا حسن حديثه، وحلاوة منطقه، وغلبته على قلوب الرجال بما يأتي به، والله لو فعلتم ذلك، ما أمنتم أن يحلّ على حي من العرب، فيغلب عليهم بذلك من قوله وحديثه حتى يتابعوه عليه، ثم يسيروا به إليكم، حتى يطأكم في بلادكم، فيأخذ أمركم من أيديكم، ثم يفعل بكم ما أراد.

فتقدم أبو جهل برأي وافق عليه الجميع وهو:

قَتْله والتخلص منه بصورة جماعية، تفرق دمه بين القبائل، وتعجز أهله وعشيرته عن المطالبة به[٤٣].

وانطلقت قريش في تنفيذ القرار بسرعة، فحاصرت بيته ليلاً للإجهاز عليه، والتخلص منه، ووضع حدّ نهائي لدعوته.

(٤١ ـ ٤٢) ابن هشام، مرجع سابق ٢/ ١٢٤.

(٤٣) المرجع نفسه ٢/ ١٢٦.

هذه باختصار مجمل التحديات الأساسية التي واجهتها الدعوة وقيادتها في المرحلة التأسيسية الثالثة.

٢ ـ التحديات الخاصة بقاعدة الدعوة

سأكتفي بالإشارة إلى مشكلتين أساسيتين هنا، لأن هناك مشكلات سبق الحديث عنها ولا داعي لإعادة الكلام فيها.

وهاتان المشكلتان هما:

ـ مشكلة اشتداد عنف المواجهة لأتباع الدعوة.

ـ ومشكلة تفرّقهم وضعف الصلة بينهم.

مشكلة اشتداد عنف المواجهة لأتباع الدعوة

صعّدت قريش عقب وفاة أبي طالب من جرأتها على رسول الله ﷺ، وشددت الخناق عليه، وكان من أساليب الضغط التي اعتمدتها الاشتداد على أتباعه قصد التأثير على معنوياتهم، وتوهين علاقتهم به وبدعوته عليه الصلاة والسلام، ومضاعفة همومه ومتاعبه، لعله يقبل بعض ما عرضته عليه القوى المضادة من أفكار للالتقاء على أرضية مشتركة، تحافظ بها على ثوابت النظام الجاهلي، وتأمّنه من خطر الانهيار الذي بدأت نذُره تلوح في الافق.

قال المباركفوري: «وكما اشتدت وطأة أهل مكة على النبي ﷺ اشتدت على أصحابه»[٤٤]، يقصد بعد وفاة أبي طالب. ويدل على ذلك خروج أبي بكر رضي الله عنه مهاجرًا إلى الحبشة مع مكانته في قومه، كما يدل على ذلك موقف ابن الدغنة، الذي أرجعه من الطريق وأعطاه جواره، وقال لزعماء قريش: «إن أبا بكر لا يُخرج مثله ولا يَخرج..»[٤٥].

وقد أخذت المواجهة لأتباعه عليه الصلاة والسلام أبعادًا أشد عنفًا وصرامة، بعد انفتاح المجتمع اليثربي على الدعوة، وتأكّد قريش من تجاوبه مع

---

(٤٤) الرحيق المختوم / ١٣٣.

(٤٥) ابن سيد الناس، عيون الأثر ١/ ٢٢١.

رسول الله ﷺ، حيث أخذت تلاحق المسلمين، وتحول بينهم وبين الالتحاق بالمدينة، حتى وصل بها الأمر إلى إعادة بعضهم من هناك وحبسه في الحديد بمكة، كما تدل على ذلك قصة، عياش بن أبي ربيعة، الذي احتال عليه أخواه وأرجعاه إلى مكة، ودخلا به نهارًا موثقًا وهما يقولان للناس: «هكذا فافعلوا بسفهائكم، كما فعلنا بسفيهنا هذا»(٤٦).

وهو أسلوب قصد به تخويف بقية المسلمين بمكة، وإشعارهم أنّ قريشًا بمقدورها أن تلاحقهم وتلحق الأذى بهم أينما كانوا، عندما تعزم على ذلك. خاصة وأن بعض هؤلاء وصلت به فتنتهم إلى حدّ الافتتان، والخروج من الإسلام مكرهًا، مع اطمئنان قلبه بالإيمان(٤٧).

والأحداث التي تبرز متاعب الصحابة الكرام والمحن التي تعرضوا لها في هذه المرحلة كثيرة، كلفت بعضهم الافتداء بماله كله من أجل الهجرة، كما حدث لصهيب رضي الله عنه(٤٨)، وكلفت بعضهم الآخر التفريق بينه وبين أهله وولده، كما حدث لأبي سلمة وزوجته، حينما انتزعت منه عنوة، وتجاذب أهله وأهلها ولده حتى خلعت يده(٤٩)، ولقي آخرون حتفهم في الطريق(٥٠)، كما يشير إلى ذلك القرآن في مثل قوله تعالى:

﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [النساء: ١٠٠].

وعجز الكثيرون عن الهجرة بسبب الخوف والحرمان، واضطر بعضهم إلى الخروج مع الكفار قسرًا يوم بدر، فلقوا مصرعهم(٥١)، كما أشار إلى ذلك قوله تعالى:

---

(٤٦) ابن هشام، مرجع سابق ٢/ ١١٨.
(٤٧) أبو زهرة، خاتم النبيين ١/ ٥٠٧.
(٤٨) ابن عبد البر، سير أعلام النبلاء ٢/ ٢٢.
(٤٩) ابن كثير، السيرة النبوية ٢/ ٢١٥.
(٥٠) القرطبي، مرجع سابق ٥/ ٣٤٩. القاسمي، محاسن التأويل ٣/ ٤٠٧.
(٥١) المرجعان السابقان ٥/ ٣٤٥، ٣/ ٢٩٩.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ ﴾ [النساء: ٩٧، ٩٨].

وتحديات أخرى كثيرة واجهتها قاعدة الدعوة في هذه المرحلة وكان لها صدى عميق في نفس النبي عليه الصلاة والسلام.

مشكلة تفرق قاعدة الدعوة وضعف الصلة بها

إن ضعف صلة القيادة بقاعدتها الجماهيرية أو الجهادية من أخطر ما يهدد المشروع الذي يلتقيان عليه معًا، ويعملان من أجل الدعوة إليه والتمكين له.

خاصة في مراحل تأسّسه الأولى، التي تحتاج إلى رعاية مكثفة للأتباع، لتمكينهم من استيعاب أطروحات المشروع وتمثّلها، والتشبّع بها بشكل عميق يساعدهم على حسن التبليغ ويبعث في نفوسهم روح الاعتزاز والصمود.

والمتتبع لوضعية الدعوة في الفترة المكية عمومًا، يلاحظ مدى تفرّق أتباعه عليه الصلاة والسلام، وتوزعهم على رقعة جغرافية مترامية الأطراف، من الصعوبة بمكان التمكن من ضمان الاتصال الأمثل بهم، وتبليغهم - أولاً بأول - ما كان ينزل من الوحي، لتصحيح الأوضاع الفكريّة والعقدية والاجتماعية والسياسية، وتهيئة الشروط الموضوعية لبناء النموذج الحضاري الإسلامي البديل.

ففي الحبشة عدد مهم، وفي نجران باليمن التحق عدد لا بأس به من النصارى بالدعوة، وكذا في غفار ودوس.. واحتاج الأمر إلى الاتصال بهؤلاء جميعًا وتحصينهم من مخاطر الفتور، ومؤثرات الثقافة الجاهلية، خاصة وأن حادثة خطيرة على سبيل المثال وقعت لأحد مهاجري الحبشة وهو عبد الله بن جحش الذي تَنَصَّر هناك[٥٢].

---

(٥٢) عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب، مرجع سابق / ٩٤.

فتَوَزُّعُ أتباعِه عليه الصلاة والسلام وضعف الصلة بهم طرح عليه مشكلة حقيقية تزداد تفاعلا مع مرور الوقت، خاصة في الفترة المكية المتأخرة، حيث تصاعدت وتائر المواجهة للدعوة، وعمّ الخوف والتحفظ منها مناطق واسعة في شبه جزيرة العرب، كما يؤكد ذلك موقف بعض القبائل التي كان عليه الصلاة والسلام قد عرض نفسه عليها، فلم يقبله أحد منها كما يقول ابن كثير: «وما يأتي أحدًا من تلك القبائل إلاّ قال: قومُ الرجل أعلمُ به، أترون أن رجلاً يصلحنا وقد أفسد قومه فلفظوه»[٥٣]!.

٣ ـ التحديات الخاصة بقاعدة المجتمع

القاعدة الشعبية للمجتمع ـ كما رأينا في الفصل السابق ـ هي محور الصراع بين قيادة الدعوة الإسلامية من جهة، وقيادة المجتمع الجاهلي من جهة أخرى، كل واحدة منهما تسعى جاهدة لاحتوائها والاستفادة منها في إنجاز أهدافها.

ونظرًا لمغايرة أهداف الدعوة، لما عليه المجتمع من أوضاع عقدية وفكرية واجتماعية وسياسية كانت بجانب القوى المضادة مرحليًا، فقد عانت قيادة الدعوة وقاعدتها الجهادية من تحديات جمّة، أعاقت سرعة التأثير في قاعدة المجتمع، وتخفيف حدة ضغطه على المشروع الإسلامي ودُعاته.

وهو ما سنحاول رؤيته من خلال محاولة قريش:

تسميم المجتمع وتعبئته ضد الدعوة

وقد بدأ التحرك في هذا الاتجاه منذ وقت مبكر من المرحلة التأسيسية الثانية للدعوة، وعرف تطورات جادة بعد فشل قريش في إعادة مهاجري الحبشة، وتعزُّز موقفُ الدعوة بإسلام عمر بن الخطاب وحمزة رضي الله عنهما، وجماعة من نصارى نجران، ووفاة أبي طالب..

كل ذلك كان يفعل فعله في ردّ الفعل القرشي، والزعامة الجاهلية عمومًا

---

(٥٣) السيرة النبوية ٢/ ١٥٨.

التي عملت على تطويق الرسول ﷺ، وعزل دعوته عن المجتمع بأساليب مختلفة، كونت حاجزًا نفسيًا كثيفًا بينه وبين المجتمع، كما يؤكد ذلك هذا الموقف الحذر للقبائل العربية التي كانت تتواصى بالحذر منه عليه الصلاة والسلام. قال جابر: «.. حتى إن الرجل ليخرج من اليمن أو من مضر، فيأتيه قومه وذوو رحمه فيقولون: إحذر غلام قريش لا يفتننك»[٥٤].

ومر آنفًا كيف كانت بعض القبائل التي عرض عليها نفسه ترد عليه: «قومك أعلم بك»، ويقول سادتها:

«أترون رجلاً يصلحنا وقد أفسد قومه». وكان عليه السلام بسبب هذا يُنعت بالأصابع من بعيد[٥٥]، سخرية منه، ولفتًا لانتباه الناس إليه، وتخويفًا لهم منه.

وقد كان للزعامة الجاهلية دور أساسي في تعبئة قاعدة المجتمع ضد الدعوة، وحرمانها من الانفتاح على حقائقها، والتأمل في مطالبها، بعيدًا عن ضغوط الملأ.

وسأكتفي هنا بعرض بعض العيّنات عن ذلك، وأبدأها:

- بموقف ثقيف وكيف تدخلت زعاماته لطرد النبي ﷺ، والحيلولة بينه وبين عامة الناس، حينما أخذ يتصل بهم، خوفًا من تأثيره عليهم، وأغروا به سفهاءهم[٥٦].

- عندما دخل عليه الصلاة والسلام في حوار سريع مع عداس أثناء عودته من الطائف، تأثر الرجل فأسلم، فهدده ابنا ربيعة، وحاولا بما لهما من سلطة عليه أن يثنياه عن ذلك[٥٧].

---

(٥٤) المرجع نفسه ٢/ ١٩٤.
(٥٥) ابن القيم، زاد المعاد ٣/ ٤٥.
(٥٦) ابن سعد، مرجع سابق ١/ ٢١٢.
(٥٧) عرجون، مرجع سابق ٢/ ٣٢٢.

ـ وجاء وفد من المدينة يقوده أبو الحيسر، يلتمس الحلف من قريش، فاتصل به عليه الصلاة والسلام وحاور رجاله في أمر دعوته الذي لقي صدى عميقًا في نفس أياس بن معاذ أحد أفراد الوفد، فقال لقومه: «هذا والله خير مما جئتم إليه» فنهره رئيس الوفد وزجره، وضرب وجهه بحفنة من تراب[٥٨].

ـ وذهب ﷺ إلى سوق عكاظ، فوقف على بني عامر ودعاهم إلى اتّباع دعوته، وتقديم النصرة له، فقالوا له: «سنمنعك حتى تبلغ رسالة ربك»، فأتاهم بحيرة بن فراس القشيري وحذرهم من ذلك، وخوفهم عواقبه وأثناهم عنه، وقال لرسول الله ﷺ: «قم فالحق بقومك. فوالله لولا أنك عند قومي لضربت عنقك»[٥٩].

هكذا كانت الزعامات الجاهلية تعمل لتدعيم الحاجز النفسي بين الدعوة وقاعدة المجتمع، تحصينًا لها وتعبئة لقواها وطاقاتها ضد كل ما من شأنه أن يمس استقرار الأوضاع القائمة، التي ليس من مصلحة هذه الزعامة أن تهتز أو تتغير.

د ـ منهج مواجهته صلى الله عليه وسلم لهذه التحديات

رأينا من خلال تتبعنا لتحديات هذه المرحلة، أن المواجهة بين الدعوة وقيادتها من جهة، والقوى المضادة من جهة أخرى قد بلغت درجة خطيرة من السوء، عبرّ عنه موقف قريش الحاسم الذي اتفقت فيه على تصفية قيادة الدعوة والاستراحة منها، بعد فشل كل محاولاتها السابقة.

وفي ما يلي محاولة لتجميع بعض خيوط الخطوات المنهجية المنظمة، التي واجه بها النبي ﷺ هذه التحديات، وحرك بواسطتها الأحداث، نحو تحقيق أهداف المرحلة.

١ ـ مواجهته التحديات الخاصة بالدعوة وقيادتها

الجوانب الخاصة بالتحديات المتعلقة بالدعوة وقيادتها كثيرة، ووسائل

---

(٥٨) الإمام أحمد، المسند ٥/ ٤٢٧.

(٥٩) ابن كثير، مرجع سابق ٢/ ١٦١.

وأساليب وكيفيات مواجهتها متعددة كذلك، يصعب حصرها، في ظل قلة المعلومات الخاصة بالفترة المكية عمومًا، والتزامات البحث المنهجية خصوصًا، لأن غرضي فيه، استكشاف المعالم الكبرى لمنهج النبي ﷺ، في حماية الدعوة والمحافظة على منجزاتها، وليس التأريخ لحياته، وتسجيل دقائق سيرته عليه السلام، فذلك جانب مخدوم بشكل لا بأس به.

وفي هذا السياق، ومن أجل هذه الغاية، سأحاول التركيز على إبراز جوانب أخرى من خلال هذه المرحلة، تضاف إلى ما سبق إبرازه في المرحلتين السابقتين، لاستجلاء ملامح منهج البناء والمواجهة الذي كان وراء نجاحه عليه الصلاة والسلام في حماية دعوته والمحافظة على منجزاتها.

البحث عن سند اجتماعي جديد للدعوة

إن النبي ﷺ كان على يقين من أن كونه مؤيَّدًا بالوحي، ومشمولا بالرعاية الإلّهية، لا يعفوه بتاتًا من التحرك ضمن إطار سنن الله في المطالبة والمغالبة، بل اعتبر ذلك أمرًا أكثر إلحاحًا بالنسبة له، لكونه القدوة النموذجية المثلى للإنسانية في علاقتها بالحياة.

لذلك تحرك عليه الصلاة والسلام بعد وفاة أبي طالب، وافتقار الدعوة إلى سند اجتماعي يحمي قيادتها، للبحث عن هذا السند الذي تمتنع به دعوته من محاولات الصدّ والاستضعاف المختلفة، ليقينه ﷺ أن ذلك شرط أساسي لا بد منه لإنجاز عملية التغيير المنشود.

فالدعوة بدون سند اجتماعي قوي لا تنجح، كما لاحظ ذلك ابن خلدون، لأن كل أمر تحمل عليه الكافة، لا بد له من قوة اجتماعية تعضده وتحميه، ولو تعلق الأمر بالأنبياء المؤيدين بالوحي(٦٠)، لأن سُنّة الله جرت أنه سبحانه ما بعث «نبيًا إلاّ في ثورة من قومه»(٦١).

---

(٦٠) المقدمة، ٢/٦٣٨.

(٦١) الترمذي، عارضة الأحوذي، أبواب التفسير ١١/ ٢٨٣.

ومن هذا المنطلق تحرك رسول الله ﷺ إلى الطائف في السنة العاشرة من البعثة، يدعو أهلها إلى الإسلام ويطلب منهم حمايته ونصرته، لما لهذه المدينة من مكانة وسيادة في بلاد الحجاز بعد مكة، ولما كان يتّسم به أهلها من القوة وحسن البلاء.

فقد أمل عليه الصلاة والسلام في إسلامهم، وحرص أن يبذر فيهم دعوته ولو تأخر إثمارها، وهو ما حدث فعلا، حيث تأخر إسلامهم، ولكنهم عندما أسلموا أبلوا بلاءً حسنًا في سبيل الله، كما يدل على ذلك ثباتهم في محنة الردّة دون كثير من قبائل العرب، فلم «يفروا ولم يرتدوا» كما قال ابن كثير[٦٢].

وبعد ثقيف كثف عليه الصلاة والسلام اتصالاته بالقبائل العربية المختلفة، التي كانت تَفِدُ في مواسم الحج إلى مكة، بحثًا عن سند اجتماعي جديد للدعوة، يمنحها فرصة كسر الطوق الذي ضربته قريش عليه وعلى دعوته، حيث كان عليه السلام يتبع الحاج في منازلهم، ويقف على القبائل قبيلة قبيلة وهو يقول:

«من يأويني؟ من ينصرني؟ حتى أبلغ رسالة ربي وله الجنة»[٦٣].

وفي حواره مع هذه القبائل كان عليه الصلاة والسلام يسأل عن أصول القبائل ومواطنها، وقوتها العددية، وتاريخها، وارتباطاتها، وأخلاقها.. باهتمام كبير، حتى يعرف المجتمع جيدًا، ويقف على مراكز قواه الاجتماعية التي يمكن الاستفادة منها في تعضيد الدعوة ونصرتها.

وأورد هنا نموذجًا عن هذا الاهتمام الذي انتهى به عليه الصلاة والسلام إلى ما كان يريد بإسلام أهل المدينة، واحتضانهم للدعوة، فاتحِين بذلك أمامها آفاقًا جديدة على طريق القوة والتمكين والظهور.

فقد جاء عن العباس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ خرج معه في موسم الحج، فبدأ بكندة فقال لهم: **«ممن القوم؟ قالوا: من أهل اليمن، قال: من أي**

---

(٦٢) البداية والنهاية ٦/ ٣٠٤.

(٦٣) ابن كثير، السيرة النبوية ٢/ ١٩٤.

يمن؟ قالوا: من كندة، قال: من أي كندة؟ قالوا: من بني عمر بن معاوية».

ثم دخل معهم في حوار مباشر حول دعوته، لينصرف عنهم بعد ذلك إلى بكر بن وائل، فقال لهم:

«ممن القوم؟ قالوا: من بكر بن وائل، فقال: من أي بكر بن وائل؟ قالوا: من بني قيس بن ثعلبة، قال: كيف العدد؟ قالوا: كثير مثل الثرى، قال: كيف المنعة؟ قالوا: لا منعة، جاورنا فارسا، فنحن لا نمتنع منهم ولا نجير عليهم»[٦٤].

وقد وفق عليه الصلاة والسلام في موسم السنة الحادية عشرة من النبوة، وهو يوالي اتصالاته الميدانية المكثفة بوفود القبائل العربية، إلى العثور على القوة الاجتماعية التي ستحضن الدعوة وتحميها، وهم أهل المدينة من الأوس والخزرج الذين لقي نفرًا منهم عند عقبة منى، فسألهم كعادته: **من أنتم؟ قالوا: نحن الخزرج، قال: أمن موالي اليهود؟ قالوا: نعم، قال: أفلا تجلسون حتى أكلمكم؟ قالوا: بلى.**

وانطلق معهم في الحوار الذي سرعان ما نفذ إلى نفوسهم فأسلموا، وعادوا إلى قومهم يدعونهم إلى الإسلام، فاستجابوا لأمر الله، حتى ما بقيت دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكر رسول الله ﷺ[٦٥].

وتوالت بعد ذلك لقاءاتهم معه، وتمّت مبايعته في السنة الثانية عشرة على الطاعة والالتزام بما أمر الله به، وبعث معهم مَن يعلمهم الإسلام، ويفقههم فيه، ويدعو الناس إليه.

فلما كانت السنة الثالثة عشرة جاءه عدد كبير ممن أسلموا بدعوة مصعب رضي الله عنه، فبايعوه:

- على السمع والطاعة في النشاط والكسل.

---

(٦٤) المرجع نفسه ٢/ ١٥٠ ـ ١٦٠.
(٦٥) أبو نعيم الأصفهاني، دلائل النبوة ١/ ٢٩٨.

ـ وعلى النفقة في العسر واليسر.

ـ وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ـ وعلى القيام لله لا تأخذهم فيه لومة لائم.

ـ وعلى أن ينصروه إذا قدم إليهم، ويمنعوه مما يمنعون منه أنفسهم وأزواجهم وأبناءهم، ولهم الجنة(٦٦).

وبهذا نجح عليه الصلاة والسلام في ايجاد سند اجتماعي قويّ للدعوة، وموقع جديد ستجمع فيه أتباعها، لتنطلق في جولة جديدة أكثر شمولية وفعالية وتأثيرًا، لتجسيد مشروعها الاجتماعي في واقع نموذجي جديد.

الاستفادة من قوانين المجتمع وأعرافه في حماية قيادة الدعوة

يلاحظ من يدرس السيرة النبوية مدى قدرته عليه الصلاة والسلام على الاستفادة من الفرص التي تتاح له، لتعزيز موقع الدعوة. فقد امتازت مواقفه بالمرونة المنضبطة التي أعانته كثيرا على تأمين مسيرة الدعوة، وحمايتها من مخاطر التطويق والتجميد والإنهاك.

وقد رأينا في المرحلة التأسيسية السابقة، كيف استفاد عليه الصلاة والسلام من تقاليد القبيلة وأعرافها، واحتمى من معاكسات الجاهلية بعمه أبي طالب، واستمر في استثمار بعض قوانين المجتمع وأعرافه لتوفير الحماية لنفسه ولدعوته، من غير أن يقع في مداهنة المشركين، أو يضفي الشرعية على مظاهر الانحراف السائدة في حياتهم.

ومن الأمثلة الحية على هذه الاستفادة طلبه الحماية من المطعم بن عدي بعد عودته عليه الصلاة والسلام من الطائف، وخوفه من تحرشات قريش به، خاصة بعد أن علمت بما جرى له، وما لحق به من متاعب، مع أن الرجل كان مشركًا.

وقال المقريزي: «إن رسول الله ﷺ لما عاد من الطائف، وانتهى إلى حراء،

---

(٦٦) عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب، مرجع سابق / ١٥٥.

بعث رجلاً من خزاعة إلى المطعم بن عدي ليجيره حتى يبلغ رسالة ربه فأجاره»[٦٧].

وفي السياق نفسه يمكن ذكر قبوله عليه الصلاة والسلام لحماية عمه أبي لهب، الذي جاءه عقب وفاة أبي طالب وقال له:

«إمضِ لما أردتَ.. لا واللات والعزى لا يوصل إليك حتى أموت».

وانطلق عليه الصلاة والسلام يستثمر هذا الغطاء الأمني حتى أوقع المشركون بينه وبين أبي لهب، وتعارضت رغبته مع إحدى مقررات الدعوة العقدية فافترقا[٦٨]، وعاد أبو لهب إلى سابق عهده في حرب رسول الله ﷺ وأصحابه.

واستفاد عليه الصلاة والسلام كذلك من خدمات بعض المشركين في حماية نفسه ودعوته، لما لمس منهم الوفاء وشرف الكلمة، كما حدث مع عبد الله بن أريقط[٦٩] الذي استأجره أبو بكر ليدلهما على الطريق الموصل إلى المدينة أثناء الهجرة.

عدم الاستنكاف من الإفادة من خبرة غيره

وكما تظهر عبقرية القيادة في قدرتها على الاستفادة من قوانين المجتمع وأعرافه، لتأمين الطريق لدعوتها، تظهر كذلك في قدرتها على الإفادة من خبرات وتجارب غيرها، لحماية نفسها وتدعيم مسيرة رسالتها.

والرسول ﷺ بلغ الذروة في الاستفادة من تجارب وخبرات غيره من أصحابه وسواهم، حتى وإن كانوا مشركين.

فلم يُصَبْ عليه الصلاة والسلام بأية حساسية تجاه غيره، ولم يستنكف من الاستعانة بما لديهم من خبرة وتجربة إنسانية، تعينه على حماية نفسه والمحافظة على

---

(٦٧) إمتاع الأسماع / ٢٨.
(٦٨) النجم، مرجع سابق ١/ ٣٠٤.
(٦٩) ابن هشام، مرجع سابق ٢/ ١٢٩.

منجزات دعوته، مع علو مقامه بالرعاية الإلهية المباشرة، بل كان شديد الحرص على اكتشاف مواهب الناس، وإعانتهم على ذلك، والأخذ منهم دون عقدة.

ولعل هذا المنحى في منهجه عليه الصلاة والسلام من أهم الأسباب التي أعطت لجهده فعالية خاصة، كان لها وزن كبير في تجنيب الدعوة مخاطر كثيرة، كانت تحيط بها من كل جانب.

ومن أمثلة قدرته عليه الصلاة والسلام على الاستفادة من خبرات غيره، وعدم استنكافه عن ذلك.

- تقديمه عليه الصلاة والسلام أبا بكر في اتصالاته الدعوية الاستكشافية بالقبائل المختلفة، لعلمه رضي الله عنه بأنساب العرب وأحوالهم، ليمهّد له الدخول معهم في الحوار بعد ذلك عن علم بهم وبأوضاعهم.

فعن علي رضي الله عنه قال:

«لما أمر عز وجل نبيه ﷺ أن يعرض نفسه على قبائل العرب، فخرج - وأنا معه وأبو بكر - إلى مِنى حتى دفعنا إلى مجلس من مجالس العرب، فتقدم أبو بكر فسلم، وكان أبو بكر مقدمًا في كل حين، وكان رجلاً نسّابة..»[٧٠].

- ومن ذلك طلبه عليه الصلاة والسلام من عمه العباس قبل إسلامه أن يخرج معه إلى أسواق مكة ليدله على منازل أحياء العرب ليدعوهم، لما كان للعباس من معرفة بهذه القبائل ووجاهة عند رجالها، فأراد عليه الصلاة والسلام أن يستفيد من هذه الخبرة وتلك السمعة، وكان له فعلاً ما أراد، حيث خرج معه ودلّه عليهم[٧١].

- وفي الهجرة إلى المدينة استعان بخبرة مشرك - كما سبقت الإشارة إلى ذلك - على مغالبة المطاردين، ونظر في هذا الاختيار إلى الكفاية[٧٢] والوفاء، ولم يهتم ﷺ كثيرًا بكون الرجل كان مشركًا.

---

(٧٠) أبو نعيم الأصفهاني، مرجع سابق ١/ ٢٨٢.

(٧١) المرجع نفسه ١/ ٣٠١.

(٧٢) الغزالي، فقه السيرة/ ١٧١.

الاستعصاء على المساومة والاستدراج

كما تعرضت قيادة الدعوة لمحاولة المساومة في المرحلة التأسيسية السابقة، تعرضت كذلك في هذه المرحلة لمساومات وضغوط متنوعة، كان بإمكانها أن تؤثر بشكل سلبي خطير على مضمون الرسالة وسَيْرها معًا، لولا وعي رسول الله ﷺ وبُعْد نظره، واستعصاؤه على المساومة.

وقد مرّ في المباحث السابقة عرض نماذج من الإغراءات والمساومات التي تعرّض لها عليه الصلاة والسلام، فرفضها مع أنه كان في أشد الحاجة إلى المساعدة والنصرة والتأييد، لتخفيف الضغط على نفسه وعلى دعوته وأتباعه.

- ومن ذلك موقفه من عمه أبي لهب الذي أراد استغلال وضعية الرسول ﷺ المحرجة بعد وفاة أبي طالب، وتعهّده بأخذ مكانه في ضمان الحماية والنصرة له عليه الصلاة والسلام.

فقد جاء في السيرة أن قريشًا ساءها ذلك، فسعت في فكّ العلاقة بينهما، فقالت لأبي لهب أن محمدًا يزعم أن عبد المطلب في النار، فلم يصدق ظنًّا منه أن الحماية السابقة له عليه الصلاة والسلام من أبي طالب وحمايته هو - أبي لهب - اللاحقة، تمنعه من ذلك، وتدعوه إلى الحرص على بقاء هذه العلاقة والإحجام عن فصمها، كما يدل على ذلك رده على عقبة بن أبي معيط وأبي جهل حينما أتياه فقالا له: أخبرك ابن أخيك أين مدخل أبيك؟ فقال لهما بعد أن سأل رسول الله ﷺ عن ذلك: فقد سألته فقال مع قومه.

لكنهما ألحّا عليه قائلين: يزعم أنه في النار، فعاد يسأل رسول الله عليه الصلاة والسلام: أيدخل عبد المطلب النار؟ فقال ﷺ: «**نعم ومن مات على مثل ما مات عليه عبد المطلب دخل النار**» فثارت ثائرتُه، وطاش صوابُه، وقال متوعدًا: «والله لا برحت لك عدوًّا أبدًا..»[(٧٣)].

وهنا يتجلّى لنا حرص رسول الله ﷺ على صيانة دعوته، وحفظ محتواها من

---

(٧٣) ابن سعد، مرجع سابق ٢١١/١.

أي تأويل أو توجيه يؤثر سلبًا على حقيقتها، مع علمه أنه بهذا الموقف يخسر أضخم حماية وأهمها تحقق له وللمسلمين[٧٤]، في ظروف هم في أمس الحاجة إلى مثلها.

ـ ومن نماذج استعصائه عليه الصلاة والسلام على الإغراء والمساومة، موقفه من قبول بعض القبائل حمايته ونصرته مقابل وراثتهم الأمر من بعده، فرفض عليه الصلاة والسلام ذلك، قائلا لهم:

«الأمرُ إلى الله يضعُهُ حيثُ يشاء»[٧٥] لعلمه أن الاستجابة لهم تعرض الدعوة لمخاطر قاتلة، تنتقل بها من دعوة للعالمين إلى ملك يورث، ووسيلة للاستعلاء على الخلق وخدمة الأهداف والمصالح الخاصة.

ـ وفي الاتجاه نفسه يدخل رفضه عليه الصلاة والسلام قبول بني شيبان بن ثعلبة حمايته في حدود المنطقة العربية، دون ضمان ذلك في ما يلي بلاد الفرس، لأنهم كانوا على عهد أخذه عليهم كسرى، أن لا يحدثوا حدثًا، وأن لا يأووا محدثًا، فقال ﷺ بعد أن شكرهم:

«إنّه لا يقومُ بدينِ اللّهِ إلاّ مَنْ حاطَهُ مِن جميعِ جوانبه»[٧٦].

لأن مثل هذه التحفّظات من شأنها أن تعرّض الدعوة وقيادتها لما يضرهما، خاصة إذا علمنا أن موقع الدعوة بالقرب من فارس يجعلها سهلة المتناول في كل لحظة[٧٧].

هكذا كان عليه الصلاة والسلام شديد الاستعصاء على المساومة والاستدراج، مع حاجة الدعوة إلى كل ما من شأنه أن يخفف عنها وطأة المواجهات الجاهلية، ويفسح لها المجال لكي تتنفس الصعداء، وتقترب من

(٧٤) الغضبان، مرجع سابق ١/١٢٦.
(٧٥) ابن الأثير، مرجع سابق ١/٩٣.
(٧٦) ابن كثير، السيرة النبوية ٢/١٦٨.
(٧٧) الغضبان، مرجع سابق ١/١٥١.

الناس في هدوء وطمأنينة الأمر الذي مكّنه عليه الصلاة والسلام من حماية الدعوة والمحافظة على منجزاتها رغم عنف المواجهة وشدتها وشمولها.

العناية الكبيرة بالتدابير الأمنية

ونقصد بالتدابير الأمنية: الاحتياطات التي كان النبي ﷺ يتخذها لحماية عمله، وضمان شروط وظروف نجاحه.

ولأهمية هذه التدابير الأمنية في حماية الدعوة وقيادتها، والمحافظة على منجزات الجهد المبذول، فقد أولاها عليه الصلاة والسلام عناية كبيرة في هذه المرحلة، بل وفي سائر مراحل الدعوة، بحيث شكّلت فعلا أحد أهم عوامل نجاحه في مواجهة التحديات الكثيفة المتنوعة التي اعترضت سبيله.

ونظرًا لكثافة المادّة المتعلقة بهذا الجانب في هذه المرحلة، حيث لا يخلو موقف من مواقفه العملية من الاحتياط الأمني، فقد صعب عليَّ الانتقاء، ووجدتُ في الهجرة وحدها ما يبهر، بل وما يدهش كبار المخططين والمنظمين.

لذلك سأكتفي بلقطات أبرز بها الدور الحيوي الذي أدّته العناية بالتدابير الأمنية في حماية الدعوة وقيادتها، والمحافظة على منجزات العمل.

ـ وأشير في بداية هذه اللقطات إلى خروجه إلى الطائف، راجلاً مع مولاه زيد، حتى لا يعلم كفار قريش بوجهته[٧٨] فيعملون على معاكسته، وقد أمّل في ثقيف خيرًا[٧٩]، بل حرص بعد فشل مهمته، على عدم شيوع خبره في مكة، فطلب من زعماء ثقيف الثلاثة أن يكتموا ما حدث له معهم[٨٠].

ـ وعندما كان يتصل بالقبائل في مواسم الحج ليدعوهم ويطلب النصرة والحماية له، كان يحرص على أن لا يعلم به أحد، فيفسد عليه عمله، كما كان يفعل معه أبو لهب، حينما يلاحقه ويقول للناس إنه كذّاب. لذلك كان عليه

---

(٧٨) أبو زهرة، مرجع سابق / ٤٥٤.

(٧٩) الندوي، مرجع سابق ١٢٨.

(٨٠) المباركفوري، مرجع سابق / ١٤٢.

الصلاة والسلام كثيرًا ما يخرج في ظلام الليل[81].

ـ وعندما التقى عليه الصلاة والسلام بوفد الأنصار في السنة الثالثة عشرة من النبوة لمبايعته على الحماية والنصرة، إتخذ سلسلة من التدابير الأمنية حتى لا يعلم به أحد، مع أن العدد الذي التقى به كان كبيرًا جدًّا بلغ أفرادُه ثلاثة وسبعين رجلاً وامرأتين[82].

ـ وأول إجراء أمني اتخذه عليه الصلاة والسلام هو ضبط الموعد مكانًا وزمانًا، بدقّة متناهية، فكان المكان «شِعب العقبة» والزمان أوسط أيام التشريق، حيث يكون الناس في زحمة الانشغال بتهيئة أنفسهم للعودة إلى ديارهم. والوقت بداية الثلث الثاني من الليل حين يستسلم الجميع للنوم.

ـ وثاني إجراء هو الكتمان الصارم للأمر، والخروج مثنى وفرادى مستخفين، دون انتظار غائب أو إيقاظ نائم[83].

ـ وثالث إجراء هو حضوره بعد اكتمال العدد، ووضعه عليه الصلاة والسلام حراسة في مداخل الشُعب.

ـ ورابع إجراء هو طلبه عليه الصلاة والسلام من كل متكلم أن يوجز في كلامه، وأن يخفض صوته[84]، حتى لا يطول اللقاء، ولا يشعر به أحد.

ـ وخامس إجراء هو رفضه استعداد بعض الأنصار لمواجهة قريش في نهاية اللقاء بعد تسرب الخبر إليها، حيث قال عليه الصلاة والسلام: «لم نؤمر بذلك، ولكن إرجعوا إلى رحالكم»[85].

اما التدابير التي اتخذها عند الهجرة إلى المدينة فهي من الكثرة والدقة

---

(٨١) المرجع نفسه / ١٥٢.

(٨٢) ابن هشام، مرجع سابق ٢/ ٨٤.

(٨٣) دويدار، مرجع سابق / ٢٢٦. عرجون، مرجع سابق ٢/ ٣٩٥.

(٨٤) ابن كثير، السيرة النبوية ٢/ ٢٠٢. حوى، الأساس في السُنّة ١/ ٣٢٥ ـ ١/ ٣٢٥.

(٨٥) ابن هشام، مرجع سابق ٢/ ٩٠.

بمكان، الأمر الذي يجعلني أقتصر على عينات فقط لتأكيد الدور الحاسم لهذا الجانب في نجاح مسعاه عليه الصلاة والسلام.

ـ وأول احتياط اتخذه عليه الصلاة والسلام هو كتم أسرار مسيرته، فلم يطلع عليها إلاّ مَن لهم صِلة ماسّة بإنجاح العملية، بل نجد حتى هؤلاء المعنيين بالأمر، لم يتوسع في اطلاعهم إلاّ بقدر العمل المنوط بهم[٨٦]، بما في ذلك أبو بكر الذي لم يعلم بموعد الانطلاق إلاّ في آخر لحظة من الاستعداد، عندما ذهب إليه في الهاجرة متقنّعًا، إمعانًا في التمويه والتستر، وقال له عند وصوله: أخرج من عندك[٨٧]، حتى ينفرد به في رسم خطة الخروج.

ـ وثاني احتياط هو اختيار علي لينام في مكانه تضليلاً لمن كلفوا بقتله، ثم خروجه عليه الصلاة والسلام ليلاً بعد أن أوهمهم بأنه ما زال في البيت ليلتحق بمنزل أبي بكر[٨٨].

ـ وثالث احتياط هو اختياره من يدلهما على الطريق من أهل الخبرة، بجغرافية الصحراء، ومن يزودهما بالأخبار أثناء مكوثهما بالغار الذي اتّفقا على الاختباء فيه، ومن يوفر لهما حاجاتهما الغذائية، ومن يعفي على آثار الذاهبين إليهما من أصحاب هذه المهام، وهو عامر بن فهيرة الذي يتبع آثارهم بغنمه ليزيلها[٨٩].

ورابع احتياط هو خروجهما ليلاً من الباب الخلفي لدار أبي بكر رضي الله عنه، واتجاههما جنوبًا في الاتجاه المعاكس لطريق المدينة الرئيسي، إمعانًا في التمويه، وقد روى أنه عليه الصلاة والسلام: كان يمشي على أطراف قدميه كي يخفي أثره حتى حفيت قدماه[٩٠].

---

(٨٦) الغزالي، فقه السيرة / ١٧١.
(٨٧) ابن سيد الناس، مرجع سابق ١/ ٢٢٣.
(٨٨) د. أبو شهبة، السيرة النبوية في ضوء القرآن والسُّنة ١/ ٤٩٧.
(٨٩) د. عماد الدين خليل، مرجع سابق / ١٣٦.
(٩٠) عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب، مرجع سابق / ١٦٧.

هذه لمحات من التدابير الأمنية التي كان النبي ﷺ لا يغفل عنها لحظة، وهو المؤيَّد المنصور، ليقينه أن شأن المؤمن مع الأسباب المعتادة، أن يقوم بها كأنها كل شيء في النجاح، ثم يتوكل بعد ذلك، لأن كل شيء لا قيام له إلاّ بالله(٩١).

الإحاطة بالخريطة النفسية والاجتماعية لبيئة الدعوة

المعرفة بسيكولوجية المجتمع وأوضاعه الاجتماعية والسياسية والاقتصادية.. شرط أساسي للتكيف معه والتأثير فيه، لأنها تمنح الإنسان مفاتيح كثير من مغالقه، فيلجها دون أن يعرضها للتخريب، ودون أن يعرض نفسه لمتاعب لا مبرر لها.

والرسول ﷺ كان على جانب عظيم من المعرفة بالخريطة النفسية والاجتماعية لبيئة الدعوة، بحيث كان عليه الصلاة والسلام يتحرّك إلى المواقع المختلفة في المجتمع عن دراية وعلم، حتى لو تطلّب الأمرُ الاستعانةَ بخبرة الآخرين مسلمين وغيرهم، كما رأينا ذلك في مبحث سابق.

وسأذكر هنا أمثلة تبيّن مدى عمق معرفته عليه الصلاة والسلام بالخريطة النفسيّة والاجتماعيّة، وأثر ذلك في نجاح تحركاته الدعوية، وتجاوز كثير من التحديات التي واجهت الدعوة وقيادتها.

ويمكننا هنا أن نبدأ بتأمّل خروجه عليه الصلاة والسلام إلى الطائف، حيث ذكر كثير من الدارسين للسيرة، أن مِن أسباب توجهه إلى ثقيف في بداية انطلاقه بالدعوة خارج مكة، علمه عليه الصلاة والسلام بمركزها السيادي والتجاري المرموق في الحجاز، إذ تأتي بعد مكة من حيث الأهمية(٩٢)، ثم وجود أخواله هناك، إذ قضى ﷺ فترة مهمة من طفولته عند بني سعد، بالإضافة إلى أنه لم تكن بينهم وبينه عداوة(٩٣).

---

(٩١) الغزالي، مرجع سابق / ١٦٩.
(٩٢) الندوي، مرجع سابق / ١٢٨.
(٩٣) عرجون، مرجع سابق / ٣٢٠. دويدار، مرجع سابق / ٢٠١.

كل هذه المعطيات شجعته ﷺ للتوجه إلى الطائف لدعوة أهلها، وطلب النصرة منهم، وتعميق التعرف على أوضاع المنطقة في إطار خطة الانفتاح على المجتمع التي كان من أهدافها في هذه المرحلة:

«محاولة التعرف على قبائل العرب ورؤسائهم عن كثب، ليأخذ فكرة عنهم وعن عقلياتهم وأوضاعهم»(٩٤)، تفيده في ضبط خطواته المستقبلية بإحكام.

فالمعرفة سلطة وقوة، كان رسول الله عليه الصلاة والسلام على وعي كامل بها، الأمر الذي جعله يحرص مثلا على لقاء مصعب بن عمير قبل اجتماع العقبة الأخيرة، ليطلعه على الصورة الكاملة لوضعية المجتمع المدني وسير الدعوة فيه(٩٥)، حتى يقدّر عليه السلام الموقف المطلوب عن دراية بمعطيات الواقع، ويتصرف بدقة وحكمة، خاصة عندما ينتقل إلى المدينة(٩٦).

- وفي لقائه عليه الصلاة والسلام مع وفد يثرب في موسم السنة الحادية عشرة من النبوة دل سؤاله لهم: من أنتم؟ قالوا: نفر من الخزرج، فقال: من موالي اليهود؟ قالوا: نعم. على مدى معرفته ﷺ بأوضاع الناس في المدينة، حتى قبل تقرير مصعب المفصل عنها بعد ذلك بحوالي ثلاث سنوات.

ولعل إحاطته بأوضاع المدينة هي التي جعلته يركّز عليها، ويبعث مصعبًا لتسريع عملية الإفادة من الاستعدادات النفسية الكبيرة التي وفّرتها حرب بُعاث ومواقف اليهود للدعوة(٩٧).

- وفي حوار الرسول ﷺ مع عداس اكتشف هذا الأخير أنه عليه الصلاة والسلام يعرف بلاده والنبي الذي بعث فيها، فصاح: وما يدريك ما يونس بن متى، والله لقد خرجت من نينوى وما فيها عشرة يعرفون ما متى؟ فقال عليه

---

(٩٤) فضل الله، خطوات على طريق الإسلام / ٤٧١.
(٩٥) المباركفوري، مرجع سابق / ١٦٤.
(٩٦) د. محمد رواس قلعجي، التفسير السياسي للسيرة / ١١٧.
(٩٧) ابن هشام، مرجع سابق ٢/ ٧٠.

السلام: «ذلك أخي كان نبيًا وأنا نبي» فأكبَّ عليه يقبّل رأسه ويديه ورجليه[98].

- وفي إطار اتصال بعض الأنصاريين برسول الله ﷺ استعدادًا للقاء العقبة التاريخي، جاءه رجلان وهو جالس بالحرم المكي مع عمه العباس، فسأله عليه الصلاة والسلام هل تعرف هذين الرجلين؟ فقال: هذا البراء بن معرور سيد قومه، وهذا كعب بن مالك. فقال عليه السلام: «الشاعر؟» فقال العباس: نعم.

ففوجىء كعب بمعرفة رسول الله ﷺ له، وقال معلقًا: فوالله ما أنس قول رسول الله ﷺ: «الشاعر؟»[99].

ودون استطراد في تتبع هذه الأمثلة، التي تدل فعلا على مدى إحاطة النبي عليه الصلاة والسلام بالخريطة النفسية والاجتماعية لبيئة الدعوة، أفرادًا، وقبائلَ، وتاريخًا، وواقعًا، نرى كيف شكلت هذه المعرفة أحد العوامل المهمة في توجيه الخطوات الإجرائية الموفقة للنبي ﷺ وتمكينه من حماية الدعوة وقيادتها، والمحافظة على منجزات عمله.

المبدئية العالية

سبق أن رأينا في الفصل الماضي كيف يؤثّر الموقف السلوكي في مصداقية الفكرة وحاملها، على اعتبار أن الممارسة العملية هي المحك الذي توزن بموجبه الأفكار والرجال، حيث يظهر الصواب وينكشف الخطأ، ويعلو الحق ويزهق الباطل.

فالمبدأ الذى لا يجسده صاحبه في مواقفه الحياتية كافة، لا يمكنه أن يعيش، ويكتب له النجاح، مهما كان مستوى الدعاية له وأسلوبها، والتشويق فيه، وقد أثبتت التجربة التاريخية فشل كثير من الذين نادوا بمبادئ ومُثُل عليا سحرتْ

---

(98) عرجون، مرجع سابق ٢/ ٣٢٢.

(99) ابن كثير، السيرة النبوية ٢/ ١٩٣.

الناس وجذبتهم إليها، فلما رأوا أعمال دعاتها المنافية لأقوالهم انفضوا من حولهم[١٠٠].

والمتتبع لحياة الرسول ﷺ يرى بوضوح أن أبرز سمة في هذه الحياة المتكاملة هي «المبدئية العالية» كما قرر ذلك من توفروا على دراسته وأكدوا أن من «أفضل سيرته وأعلاها أنه بعد أن أُوحي إليه، لم يأمر أتباعه وأصحابه بأمر إلاّ وقد سبقهم إلى العمل به»[١٠١].

فحياته كلها كانت مثالاً للالتزام المبدئي العالي، الذي أعجز القوى المضادة، التي حرصت كثيرًا على تصيّد نواحي للتذبذب والتناقض في مواقفه وأعماله وسيرته، فلم تجد ما تدينه به، فلجأت إلى الإشاعة والأكاذيب، التي لم تصمد طويلا أمام الانسجام الرائع في حياته، بين ما يدعو إليه وما يعمله في خاصة نفسه، وفي علاقاته الواسعة بالمجتمع.

ويكفي في هذا السياق التذكير بموقفه من الودائع التي كانت بحوزته كأمانات، كان المشركون قد وضعوها عنده، فأمر عليًا رضي الله عنه أن يرجعها لأصحابها، بعد أن تألّبت قريش عليه ﷺ، وعزمت على التخلص منه، فخرج مهاجرًا إلى المدينة.

وقد كان بإمكانه عليه الصلاة والسلام أن يأخذ هذه الودائع مقابل الأضرار البالغة التي ألحقتها قريش به وبأتباعه بمصادرة أموالهم وممتلكاتهم، وتجريدهم من كل حقوقهم، وألجأتهم إلى النجاة بأنفسهم بعد أن فرّقت بينهم وبين أهليهم وذويهم.

كما كان بإمكانه عليه الصلاة والسلام أن لا يهتم كثيرًا بهذه الأمور، خاصة وهو في وضع بالغ الخطورة لا يسمح له بالاهتمام بالقضايا الجزئية[١٠٢].

---

(١٠٠) كورتوا، مرجع سابق / ٨٨.
(١٠١) سليمان الندوي، **الرسالة المحمدية** / ١٤١.
(١٠٢) د. عماد الدين خليل، **دراسة في السيرة** / ١٣٥.

كل ذلك كان ممكنًا إلّا أن الرسول ﷺ أعطى أهمية كبيرة لهذه الودائع، تبرئة لذمته، ووفاء بالعهد، ومحافظة على سمعته الطيبة عند الناس(١٠٣)، حتى وإن كانوا من أعدائه المشاركين في إهدار دمه واستباحة حياته.

لقد كان عليه الصلاة والسلام يدرك بعمق أهمية الالتزام المبدئي، وإنه لُبّ دعوته وأصل شروط نجاحها، فعمل على إشعار أعدائه أنه فوق كل ما كانوا يتصورون ويقولون، ليزيد صورة الدعوة وضوحًا في ذاكرتهم الجماعية، التي ظل عليه الصلاة والسلام يبنيها بدون شعور منهم طيلة ثلاثة عشرة سنة، وختمها بهذا الموقف المثير، الذي سيزلزل الكثير من قناعاتهم السابقة، ويدفع بهم إلى مراجعة أنفسهم ولو بعد حين.

هذه باختصار وتركيز جوانب مهمة من مفردات منهجيته عليه الصلاة والسلام في مواجهة التحديات التي جابهت الدعوة وقيادتها في هذه المرحلة الأخيرة من الفترة المكية، بيّنت لنا جوانب من أسرار نجاحه عليه الصلاة والسلام في مهمته، والتي تليها جوانب أخرى في المبحث التالي:

٢ ـ مواجهه التحديات الخاصة بقاعدة الدعوة

كما سبق أن رأينا، فإن قاعدة الدعوة في هذه المرحلة واجهت مشكلتين كبيرتين هما:

ـ اشتداد عنف المواجهة لها من قبل المجتمع الجاهلي الذي استنفر كل قواه لإرغامها على الاستسلام له والعودة إلى أحضانه من جديد.

ـ توزعها في أماكن متفرقة ومتباعدة حرمتها من إمكانية أخذ نصيبها من الرعاية والتكوين اللّازمين، مما يطرح مشكلات كبيرة قد تؤثر على مستقبل الدعوة ومصداقيّتها، لتباين مستويات الاستيعاب والالتزام بشكل عميق.

وهو ما كان عليه الصلاة والسلام يعمل بكل قواه لتداركه وتجاوزه، ونجح

---

(١٠٣) د. عبد الوهاب كحيل، الجوانب الإعلامية في حياة الرسول / ٢١٢.

فيه إلى حدّ بعيد كما يتضح لنا من بعض هذه التدابير التي اتخذها لمعالجة الأمر في سياق خطته المنهجية المحكمة التي شكلت قضية «حماية الدعوة والمحافظة على منجزاتها» عمودها الفقري في الفترة المكية.

ـ مواجهته عليه السلام لمشكلة اشتداد عنف المواجهة لأتباع الدعوة

وقد اتخذت هذه المواجهة مناحي متعددة هذه بعض صورها:

توطين قاعدة الدعوة على تحمّل تبعات البناء

نظرًا لطبيعة الدعوة الإسلامية المناقضة لطبيعة النظام الجاهلي في كثير من منطلقاته ومرتكزاته، فقد كان الصدام بينهما أمرًا لا مفرّ منه، وهو ما حرص رسول الله ﷺ على مصارحة أتباعه به منذ البداية حتى يوطّنوا أنفسهم على تحمل تبعات موقفهم الإيماني عن قناعة، فلا تفاجئهم شراسة المواجهة بينهم وبين القوى المضادة المتفوقة عليهم عددًا وعدة.

ويكفي في هذا السياق تأمل وقائع بيعة العقبة الكبرى للتأكد من حرص الرسول عليه الصلاة والسلام على إدراك الأنصار لتبعات الموقف جيدًا، والإقبال على الدعوة دون تحفّظ، وهو ما وقع فعلاً، حيث تبين من مجريات الحوار الطويل الذي دار بينه عليه الصلاة والسلام وبينهم من جهةٍ، وبينهم وبين العباس ومع بعضهم بعضًا من جهة أخرى، أنهم وعوا جيدًا تبعات التزامهم بإيوائه ونُصرته، كما يؤكد ذلك قولهم: «إنا نأخذه ـ أي رسول الله ـ على مصيبة الأموال وقتل الأشراف»(١٠٤).

هكذا كان الوضوح في المنطلق، لترتبط المواقف بين القاعدة والقمة والمشروع، بالثقة المبنية على الصراحة، فيشعر الناس في دخولهم في الإسلام، أن ذلك ليس نزهة يعيش فيها الإنسان أحلامه في هدوء واسترخاء لذيذ، بل هو الجهاد في أصعب مراحله.. الأمر الذي يجعلهم يثبتون ويصمدون، ويندفعون

(١٠٤) ابن هشام، مرجع سابق ٢/ ٨٩.

لمواجهة التحديات بقوة[١٠٥].

وبهذا التوطين لقاعدة الدعوة على معرفة مشاق الطريق، والاستعداد لتحمل مكابداته دون تحفظ، أمّن ﷺ أتباعه من بعض آثار عنف المواجهة التي كانت تحيط بهم من كل جانب.

طمأنة الأتباع على المستقبل

في مقابل حرصه عليه الصلاة والسلام على توطين أتباعه على تحمل مكابدات الطريق والتجلد لها، عمل على طمأنتهم على المستقبل الواعد في الدنيا والآخرة، ودأب على إشعارهم بأن نصر الله قريب، وأن الأوضاع في طريقها إلى الانفراج والتحوّل لصالح الإسلام. وأعانه على تثبيت هذه القناعة في نفوسهم وما كان يَرِد في القرآن من توجيهات وإيحاءات مؤثرة تؤكد الثقة في وعد الله ورسوله كقوله تعالى على سبيل المثال:

﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾﴾ [الصافات: ١٧١ ـ ١٧٥].

وأمثلة هذا التطمين في حياته عليه الصلاة والسلام كثيرة يمكن الإشارة إلى عينات منها:

كقوله مثلاً لإحدى بناته وقد جاءته تمسح عن وجهه ترابًا ألقاه عليه بعض المشركين وهي تبكي:

«أي بنية لا تبكي فإن الله مانع أباك»[١٠٦].

وقوله لزيد بن حارثة عقب عودتهما من الطائف في ظروف بالغة القسوة جعلته يسأل رسول الله ﷺ حائرًا: «كيف تدخل مكة بعد كلّ ما جرى وبلغ خبره قريشًا التي أخرجتك»؟

---

(١٠٥) نفضل الله، **خطوات على طريق الإسلام** / ٤٩١.

(١٠٦) ابن كثير، **السيرة النبوية** ٢/١٤٦.

«يا زيد إن الله جاعل لما ترى فرجًا ومخرجًا، وإنّ الله ناصر دينه، ومظهر نبيّه»[107].

وقوله عليه الصلاة والسلام للأنصار وقد قبلوا تحمل تبعات الإيمان به، واحتضان دعوته، وقطع حبال كل من يقف في طريقها مهما كلفهم ذلك من تضحيات.. وسألوه ما لنا يا رسول الله إن نحن وفينا بذلك فقال: **«الجنّة»**[108].

وقوله لأبي بكر رضي الله عنه لما وقف الكفار على رأس غار ثور وهما مختبئان فيه، فخاف على رسول الله وعلى الدعوة وأبدى له انزعاجه:

«يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟ لا تحزن إن الله معنا»[109].

هكذا كان عليه الصلاة والسلام يوازن بين دعوة أتباعه إلى التجلّد والصبر، وطمأنتهم بقرب نهاية كابوس الاستضعاف، فيتجدد الأمل في نفوسهم، وتقوى بواعث الثبات لديهم أمام ما كان يصبّ عليهم من المحن في نفوسهم وأهليهم.

تمكينهم من الاستفادة من أعراف المجتمع وتقاليده

وبالإضافة إلى ما سبق من الحرص على توطين قاعدة الدعوة على تحمل تبعات الدعوة بصراحة ووضوح، وطمأنتها على مستقبلها، سمح عليه الصلاة والسلام لأتباعه بالاستفادة من أعراف المجتمع وتقاليده المرعية، التي لا تؤثر بشكل أساسي على ثوابت الدعوة ومرتكزاتها، حماية لأنفسهم، وتخفيفًا للضغوط التي كانت تحيط بهم.

وهو إجراء تمّ الأخذ به والاستفادة منه في المرحلتين السابقتين كذلك، وتواصل العمل به في هذه المرحلة، كوسيلة عملية مهمة، لحماية قاعدة الدعوة

(١٠٧) ابن سعد، مرجع سابق ١/ ٢١٢.
(١٠٨) ابن هشام، مرجع سابق ٢/ ٨٩.
(١٠٩) عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب، مرجع سابق/ ١٦٨.

وتمكينها من أسباب الثبات والاستمرارية في مواصلة بناء هيكل القوة الذاتية للدعوة مع رسول الله ﷺ، الذي ستقوم عليه الدولة بعد قليل.

والمثال الواضع الذي يؤكد إقرار الرسول ﷺ لهذا الإجراء هو قبول أبو بكر رضي الله عنه الدخول تحت حماية ابن الدغنة، بعد أن خرج مهاجرًا فأرجعه من الطريق، وأعطاه جواره وقال له: «.. إن مثلك يا أبا بكر لا يُخرج ولا يَخرج، إنك تكسب المعدومَ، وتصل الرحمَ، وتحمل الكل، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق، فأنا لك جار، فارجع فاعبد ربك ببلدك» وأعلن ذلك على ملأ من قريش فأقرته على ما صنع(١١٠)، ورفعت عليه يدها مدة من الزمن أقام فيها «مسجدًا» في بيته أحدث تأثيرًا ملحوظًا في نساء المشركين وأطفالهم الذين كانوا يتجمعون حوله في تأثر وانبهار، الأمر الذي جعل أولياءهم من زعماء الشرك يتدخلون لرفع الحماية عن أبي بكر(١١١).

محاولة الحدّ من ضغوط القوة المضادة من خلال مكانة أتباعه

ويبدو ذلك جليًا من خلال الواقعة السابقة على سبيل المثال، حيث يقودنا سياق محاولة أبي بكر رضي الله عنه الخروج إلى الحبشة بعد اشتدادِ المواجهة للمسلمين إلى ملاحظة مهمة، وهي أن رسول الله ﷺ أَذِن لأبي بكر في الهجرة للابتعاد عن الأذى من جهة، وللضغط على القوى المضادة من جهة ومحاولة إضعاف وحْدَة موقفها عن طريق المكانة المرموقة التي يحتلها الصدّيق من جهة أخرى. خاصة بعد المحاولات السابقة التي أدت إلى خروج شخصيات مرموقة تنتمي إلى عائلات مهمة، تاركة فراغًا ملحوظًا، ومحدثة ردود فعل كثيرة في المجتمع، سبق أن رأينا جوانب منها في إسلام عمر بن الخطاب، ووفد من نصارى نجران، والطفيل بن عمرو الدوسي، وانفصام وحدة القوى التي كانت وراء حصار المسلمين في شِعب أبي طالب..

---

(١١٠) ابن سيد الناس، مرجع سابق ١/ ٢٢١.
(١١١) الكندهلوي، مرجع سابق ١/ ٢٨٢.

فالرسول عليه الصلاة والسلام كان يعرف جيدًا مكانة أبي بكر، ويدرك نتائج خروجه مهاجرًا بَعْدَ كلّ ما حدث، فسمح له بذلك لعل الحدث يؤثر على فئات في زعامة القوى المضادة، ويحدث ردود أفعال تستفيد منها الدعوة وقيادتها وأتباعها.

وبالنظر إلى نتائج هذا الحدث يلاحظُ فعلاً أن تأثيرًا مهمًا قد حصل، حيث بادر أحد زعماء المشركين ـ ابن الدغنة ـ بإعادة أبي بكر ومنحه حمايته، وإعلان ذلك على مسمع كل الناس، في مكة، بكلام قوي أبرز فيه مكانة الصدِّيق، وأن مثله لا ينبغي أن يُمس أو أن يُستغنى عنه، وهو ما كان له صداه العميق في موقف الزعامة القرشية التي لم تجد بدًّا ـ حفاظًا على تماسك جبهتها ـ من إقرار ابن الدغنة على موقفه هذا، كما يتضح ذلك من قولهم له:

«مُرْ أبا بكر فليعبدْ ربَّه في داره، فيصلِّ فيها، وليقرأ ما شاءَ ولا يؤذنا بذلك، ولا يستعلن به، فإنا نخشى أن يفتن نساءنا وأبناءنا»(١١٢).

هذه نماذج من التدابير التي كان عليه الصلاة والسلام يتخذها لمواجهة مشكلة اشتداد القوى المضادة على قاعدة الدعوة، التي تمكنت بعون الله من الثبات والصمود حتى جاءها نصر الله بالهجرة إلى المدينة.

ـ مواجهته عليه السلام لمشكلة توزّع قاعدة الدعوة وضعف الصلة بها

وقبل الشروع في ذكر بعض التدابير التي اعتمدها رسول الله ﷺ بهذا الصدد أشير إلى أن المعلومات المتعلقة بالصِّلة العملية بينه عليه السلام وبين أتباعه الموزعين في مناطق متباعدة لا نكاد نحس لها أثرًا في كثيرٍ من المصادر التي أرَّخت للسيرة النبوية، وحياة الصحابة عمومًا على كثرتها.

مع أن قضية الصلة بقاعدة الدعوة، تُعد بحقّ مشكلة خطيرة، في ضوء التحديات الكثيفة التي كانت تهدد الوجود الإسلامي الوليد، سواء من جهة ضراوة الضغوط الخارجية، أو من جهة ضعف الاستيعاب والالتزام.

---

(١١٢) المرجع نفسه ١/ ٢٨٢.

فالمعلومات التي تبيّن لنا درجة الصلة النبوية بالمسلمين المتناثرين في جهات كثيرة ونوعيّة هذه الصِّلة غير متوفرة، الأمر الذي يفسح المجال أمام التفكير الافتراضي أو الاستنتاجي الذي لا يخلو من مزالق، كالاعتقاد مثلاً باستغلال مواسم الحج للالتقاء ببعض أصحابه وتزويدهم بالتوجيهات اللازمة، التي تعينهم على مواكبة سير الدعوة فهمًا والتزامًا وعملاً.

ولا شك أن الرسول ﷺ كان على وعي بهذه المشكلة، خاصة بعد أن كثر أتباعه في السنوات الأخيرة من الفترة المكية، حيث ضاعف محاولاته لمواجهة هذه التحديات، كما يدل على ذلك نشاطه الواسع في هذه المرحلة التأسيسية الثالثة، وهو ما سنحاول إبراز جوانب منه.

العمل على تجميع قاعدة الدعوة

بعد تأكده عليه الصلاة والسلام من عدم صلاحية مكة لقيام الدولة الإسلامية الحامية للدعوة، توجّهت اهتماماتُه في هذه المرحلة للبحث عن موقع جديد يصلح كقاعدة تجتمع فيها طاقات الدعوة، وتنطلق منها للتبشير بالمشروع الإسلامي الجديد، والعمل على تجسيد مقولاته في نموذج اجتماعي متميز.

وقد رأينا في مبحث سابق كيف تحرك رسول الله ﷺ للبحث عن سند اجتماعي جديد للدعوة بعد وفاة عمه أبي طالب، حيث كثف لقاءاته بوفود القبائل العربية(١١٣)، وخاصة رؤوس القوم فيها(١١٤) وصبر على إعراض كثير منها حتى وفقه الله تعالى للعثور على هذا السند الاجتماعي المكين، باستجابة الأنصار للدعوة وتعهدهم باحتضانها والذَّود عنها بأموالهم وأنفسهم، وقطع حبال الجاهلية من أجلها(١١٥).

فلما تمّ له عليه الصلاة والسلام تأمين قاعدة جديدة للدعوة بعد جهد

---

(١١٣) أبو نعيم، مرجع سابق ١/ ٢٩٢.
(١١٤) أبو زهرة، مرجع سابق ١/ ٤٨٢.
(١١٥) السهيلي، مرجع سابق ٢/ ٢٠٢.

جهيد، أمر أتباعه بالالتحاق بها سرًا قائلاً لهم: «قد أخبرت بدار هجرتكم وهي يثرب، فمن أراد الخروج فليخرج إليها»[116]، فخرجوا وتخلف هو عليه الصلاة والسلام لتأمين هجرتهم، لأن في وجوده بمكة مع رجل كأبي بكر طمأنة لنفوس زعماء القوى المضادة[117]، فلا تلتفت إلى خروجهم وما يترتب عليه من نتائج خطيرة إلا بعد فوات الأوان، وهو ما حدث فعلاً كما يدل على ذلك الاجتماع الطارئ الذي عقدته قيادة المجتمع القرشي وقررت فيه تصفية رأس الدعوة[118].

ونظرًا لأهمية تجميع القاعدة الدعوية بعد توزع دام فترة طويلة، أخذت الهجرة الطابع الإجباري تقريبًا[119]، لأن مرحلة حاسمة في مسيرة الإسلام ستبدأ بعد قليل، وهي في حاجة إلى استكمال شروط نجاحها، وفي مقدمتها: وحدة التصور والموقف والصف.. الذي حالت دون اكتماله ظروف الشتات التي كان يعيش فيها المسلمون قبل الهجرة.

فالهجرة كما يقول الشيخ الغزالي لم تكن «تخلصًا فقط من الفتنة والاستهزاء، بل كانت تعاونًا على إقامة مجتمع جديد في بلد آمن، وأصبح فرضًا على كل مسلم قادر أن يسهم في بناء هذا الوطن الجديد، وأن يبذل جهده في تحصينه ورفع شأنه..»[120] وكل ذلك يحتاج إلى استيعاب عميق وشامل لأهداف الدعوة وأصولها: فهمًا والتزامًا وممارسة وهو ما تم فعلاً بعد تجمّع قاعدة الدعوة في المدينة.

العناية بدعم تكوين قاعدة الدعوة

بالإضافة إلى حرصه الكبير عليه الصلاة والسلام على العمل على تجميع القاعدة في مكان محدّد يسهّل عليه الإشراف المباشر على الإعداد الرسالي المكين

---

(116) ابن سعد، مرجع سابق ١/٢٢٦.

(117) السمان، **الهجرة بداية التحول والانطلاق** / ٢٠٢.

(118) البلاذري، مرجع سابق ١/٢٥٧.

(119) أبو زهرة، مرجع سابق ١/٥٠٩.

(120) **فقه السيرة** / ١٦٣.

لها، عمل على ضمان حدّ معقول من التكوين لها وهو يتحرك في كل الاتجاهات لتحقيق الهدف الجذري وهو تجميعها.

وفي هذا السياق يمكن الإشارة إلى إسلام ضماد الأزدي الذي اتصل بالنبي ﷺ ليحاوره ويعرض عليه مداواته! فلما حاوره وسمع منه تغيرت نظرته وأعلن إسلامه، وأقام مع رسول الله ﷺ فترة حفظ فيها سورًا كثيرة من القرآن، واستوعب ما تيسر له من حقيقة هذا الدين، وظروف سير الدعوة إليه ثم دعا إلى قومه داعيًا[١٢١].

وعندما بايع الأنصار رسول الله عليه الصلاة والسلام بعث معهم مصعب بن عمير ليفقههم في الدين[١٢٢]، ويحكم صلتهم به فهمًا وممارسةً وجهادًا، حتى لا يظل إسلامهم اسميًا، تختفي خلفه كل مواريث الجاهلية وتطلعاتها، بل يتحول إلى إسلام حقيقي تنتفي معه خرافات الجاهلية وأباطيلها.

وقد حرص عليه الصلاة والسلام أن تظل الصلة بهم قوية سواء عن طريق مبعوثه الخاص، أو عن طريق اتصال الأنصار المتواصل به في مكة للأخذ عنه مباشرة[١٢٣]، بعد فشوّ أمر الإسلام فيهم ودخوله كل بيت في المدينة[١٢٤].

ومن يتأمل وقائع بيعة العقبة الأخيرة، يلاحظ كيف أتت هذه العنايةُ ـ بتكوين أتباع الدعوة ـ ثمارَها بقوة، وارتقت بولائهم إلى المستوى الرسالي الرفيع، الذي جعلهم ينحازون عن وعي وقناعة لله ورسوله ودينه، على حساب علائق القربى التي كانت محور حياتهم قبل ذلك.

العمل على دعم التنظيم السياسي لقاعدة الدعوة

وقد رأينا نماذج «مكيفة» منه في المرحلتين السابقتين في لقاءات دار الأرقم السرية، وحلقات البيوت، وتعيين قيادة لمهاجري الحبشة.. ونرى في هذه

---

(١٢١) أبو نعيم، مرجع سابق ١/ ٢٣٦، النجم، مرجع سابق ١/ ٢٩٧.

(١٢٢) السهيلي، مرجع سابق ٢/ ١٨٥.

(١٢٣) ابن سيد الناس، مرجع سابق ١/ ١٩٨.

(١٢٤) ابن الأثير، مرجع سابق ١/ ٩٨.

المرحلة تنظيمًا أدق للعلاقات بين المسلمين في ما بينهم من جهة، وبينهم وبين الرسول ﷺ كقيادة عليا للدعوة من جهة أخرى، كما يتضح لنا ذلك من إحدى بنود بيعة العقبة، التي أرسى فيها رسول الله ﷺ قواعد مهمة في أصول التنظيم والممارسة السياسية الراقية مثل:

- قاعدة إشراك الجماعة في اختيار أفضلها للقيام بشؤونها، ونأخذه من طلبه عليه الصلاة والسلام من الأنصار تعيين اثني عشر نقيبًا منهم.

- قاعدة تبادل الرأي بحرية وصراحة ومسؤولية، وصولاً إلى القرار الذي ينبغي أن يكون واضحًا ويلتزم به الجميع عن قناعة، وهو ما يتضح لنا من المناقشات التي دارت في اللقاء وتمخضت عن بنود محددة، بايع عليها الأنصارُ الرسولَ ﷺ.
- قاعدة تحديد الصلاحيات وضبط المسؤوليات بدقة ووضوح. كما يدل على ذلك اختيار النقباء وتحميلهم مسؤولية رعاية شؤون الدعوة والمجتمع الإسلامي الوليد، حيث خاطبهم النبي ﷺ قائلاً: «**أنتم على قومكم بما فيهم كفلاء**».
- قاعدة الإشراف والمتابعة لضمان فعالية الإنجاز في العمل، وتلافي التسويف والإهمال. وهو ما نجده في قوله عليه السلام: «**وأنا كفيل على قومي**»[١٢٥] أي عليكم جميعًا.

ومزيدًا من إمعان النظر في هذا البند من المبايعة فقط، يرينا كيف حقق الرسول ﷺ من خلاله، أهم شروط نجاح العمل[١٢٦] وهي: التخطيط والتنظيم والمتابعة التي ضمن بواسطتها تقوية العلاقة بين المسلمين في ما بينهم من جهة، ومعه ﷺ من جهة ثانية، متجاوزًا بذلك مشكلة ضعف الصِّلة بأتباعه ومُهيِّئًا لأسباب تجميع قوى الدعوة للانطلاق في مرحلة جديدة في التبليغ والبناء والمواجهة.

---

(١٢٥) ابن هشام، مرجع سابق ٢/ ٨٨.
(١٢٦) توفيق محمد سبع، أضواء على الهجرة ٣٠٥ ـ ٣٠٧.

٣ ـ مواجهة التحديات الخاصة بقاعدة المجتمع

وقد رأينا في المبحث الخاص بالتحديات التي واجهتها الدعوة من قاعدة المجتمع، أن أخطر هذه التحديات هو: محاولة قيادة القوى المضادّة تسميم المجتمع في وجه الدعوة وقيادتها، وتعبئته ضدها، وتأليبه عليها، بحجّة تهديدها لمواريثه واستقراره.

ونظرًا لنشاط الجهاز الدعائي ضدّ الدعوة، فقد تمكنتْ زعاماتُ المجتمع الجاهلي من التأثير الواسع على الرأي العام وتجنيده لمحاصرة الدعوة، ومحاولة عزلها عن الجماهير كما بيّنا ذلك في موضعه من البحث.

غير أن كل ذلك لم يفت في عزيمة رسول الله ﷺ، بل جعله يزداد تصميمًا على الثبات، وإصرارًا على المضي قدمًا في إبلاغ صوت الدعوة إلى كل مكان قدر على الوصول إليه بنفسه، أو عن طريق أتباعه، بل حتى أعدائه، الذين شكلوا عاملاً مهمًّا في التعريف به وبمشروعه، عندما نبّهوا الناس إليه ودفعوهم دون قصد منهم للاهتمام بأمره.

وفي ما يلي بيان لجوانب من التدابير التي اتخذها عليه الصلاة والسلام لمواجهة تسميم الأجواء وتعبئة الرأي العام ضد الدعوة وقيادتها بغرض تطويق آثار الجهد النبوي وإبطال مفعولها.

ـ الاتصال المكثف بقاعدة المجتمع

وهو أقوى أسلوب اعتمده عليه الصلاة والسلام لمواجهة محاولات تضليل قاعدة المجتمع، حيث يلاحظ المتتبع لحياته، كيف كان عليه الصلاة والسلام يجتهد في الاتصال بالناس، والانفتاح على هموم المجتمع بكل فئاته دون استثناء، وخاصة في المرحلة التأسيسية الثالثة من الدعوة، التي كثّف فيها ﷺ اتصالاته بالقبائل العربيّة، الأمر الذي جعل جل كتّاب السيرة يتحدثون عن ذلك وكأنه لم يبدأ إلا بعد وفاة أبي طالب، مع أن الثابت هو أنّه عليه السلام كان دائم الاتصال بهذه القبائل في مواسم الحج، وركّز على ذلك في هذه المرحلة المتأخرة من العهد

المكي[127] في سياق بحثه عن سند اجتماعي جديد للدعوة كما تم بيان ذلك سابقًا.

فالرسول ﷺ كان حريصًا على الاتصال المباشر المكثّف بالناس، وخاصة وجهاء الأقوام، لدعوتهم بنفسه وإعطائهم صورة حقيقية عن ذاته ودعوته، تصحيحًا للصورة المشوهة التي رسمتها دعاية قريش عنهما في أذهان الناس.

وفي السيرة وقائع كثيرة عن نجاح هذه الخطة في تبديد الكثير من الأوهام، وفتح الطريق إلى الدعوة أمام الناس، أشير على سبيل المثال إلى ثلاث وقائع:

أولها: لقاؤه بضماد الأزدي ـ الذي سبق الحديث عنه في سياق آخر ـ الذي أثرت فيه دعاية قريش فاعتقد أنه عليه السلام يعاني من المسّ، فاتصل به ليعرض عليه معالجته، فإذا به يجد نفسه أمام إنسان في كامل وعيه، يحمل رسالة إلٰهية للناس، فأسلم مكانه وانضوى تحت لواء الدعوة[128].

وثانيها: لقاؤه عليه الصلاة والسلام بأبي بريدة الذي شارك مع سبعين رجلاً من قومه في مطاردة النبي ﷺ أثناء هجرته طمعًا في نيل الجائزة المغرية التي وعدتْ بها قريش كلَّ من أتاها به عليه السلام، فلما قابله في الطريق، وتحدث معه انهارتْ في نفسه صورةُ محمد كما بَنَتْها في ذاكرة المجتمع الدعاية المضادة، ووقف وجهًا لوجه أمام حقيقة محمد النبي فأسلم مع قومه[129].

وثالثها: لقاؤه في طريق الهجرة كذلك براعي غنم، فأعجب به وسأله: من أنت؟ فوالله ما رأيت مثلك، قال عليه السلام: أوتراك تكتم علي حتى أخبرك؟ قال نعم. قال: فإني محمد رسول الله. فقال: أنت الذي تزعم قريش أنك صابئ. قال: إنهم ليقولون ذلك. فأسلم مكانه وأبدى استعداده في متابعته[130].

---

(١٢٧) النجم، مرجع سابق ١/٢٠٨.

(١٢٨) أبو نعيم، مرجع سابق ١/٢٣٦.

(١٢٩) المباركفوري، مرجع سابق / ١٩٠.

(١٣٠) ابن سيد الناس، مرجع سابق ١/ ٢٣١.

فهذه الوقائع وغيرها كثير، تبين لنا كيف ساهمت عملية الاتصال المباشر بالمجتمع في مواجهة محاولات عزل الدعوة وتعبئة الجماهير ضدها.

ـ فتح آفاق الحياة أمام الناس

ومن الأساليب التي استعملها النبي ﷺ لمواجهة التحديات الخاصة بقاعدة المجتمع، أسلوب فتح آفاق الحياة الواعدة أمام الناس، ومحاولة إقناعهم بأنه يحمل إليهم مشروعًا يجد فيه كل فرد من بني البشر ذاته، ويحقق عبره إنسانيته، ويفوز بجنة عرضها السماوات والأرض.

وقد حفل القرآن الكريم بالحديث عن وعود الله سبحانه وتعالى للناس في دنياهم وأُخراهم، إذا هم آمنوا واستقامت حياتهم على سُنن الله في خلقه.

كما حفل في الاتجاه المقابل بالحديث عن وعيده سبحانه للذين تنَكَّبوا صراطه المستقيم، وعاكسوا سننه في الحياة.

وسأورد هنا عينات عن بعض ما كان النبي ﷺ يقوله لمن يتصل بهم ترغيبًا لهم في الإسلام، وتحذيرًا لهم من الإعراض عنه، وأثر ذلك في نفوسهم ومواقفهم.

ـ ومن ذلك مثلاً ما ذكره المباركفوري من أنه عليه الصلاة والسلام «لم يكن يبشرهم بالجنة فحسب، بل يقول لهم بكل صراحة، يا أيها الناس قولوا لا إلٰه إلاّ الله تفلحوا، وتملكوا بها العرب وتدينُ لكم بها العجم، فإذا متُّم كنتم ملوكًا في الجنة»[١٣١].

ـ ومرّ في مباحث سابقة حواره مع ثلاثة من كبار زعماء بني شيبان وحكمائها، الذين تداولوا على الحديث معه في شأن دعوته، فأعجبوا بما عرض عليهم إلى حدّ قول أحدهم:

---

(١٣١) الرحيق المختوم / ١٤٠.

«دعوتَ والله يا أخا قريش إلى مكارمِ الأخلاق، ومحاسنِ الأعمال، ولقد أفك قوم كذبوك، وظاهروا عليك»، ووافقوا على نصرته وحمايته في ما يلي مياه العرب، لعهد كان بينهم وبين كسرى.

فشكرهم عليه السلام على ذلك، واعتذر لهم قائلاً:

«إنَّ دينَ اللّه لن ينصَره إلاّ من حاطَه من جميع جوانبه» وانتهز هذه الفرصة ليبشرهم بمستقبل هذه الدعوة، التي سيكونون من رجالها يوم تهيمن على بلاد الفرس قريبًا فقال لهم:

«أرأيتم إن لم تلبثوا إلاّ قليلاً حتى يورثكم اللّهُ أرضَهم وديارَهم وأموالَهم، ويفرشكم نساءهم، أتسبحون الله وتقدسونه»؟

فقال النعمان أحد القادة الثلاثة: «اللهم لك ذا»[١٣٢].

- ولما لاحقه سراقة بن مالك لقتله والحيلولة بينه وبين هجرته عليه الصلاة والسلام إلى المدينة، وفشل في تحقيق مراده، وقفل راجعًا قال له ﷺ: **«كيف بك يا سراقة إذا سورت بسواري كسرى؟ قال: كسرى بن هرمز؟! قال: نعم»**. فعاد فكان لا يلقاه أحد يريد الطلب، إلا قال له: كفيتم ما ها هنا، ورده[١٣٣].

هكذا كان عليه السلام يفتح آفاقًا جديدة للناس، للانعتاق ممّا هم فيه من ضعف وخوف واضطراب، الأمر الذي جعلهم يفكرون بجدّ في هذه الدعوة ويقبلون عليها ولو بعد حين، بعد أن يتخلصوا من كابوس الدعاية السوداء ضده عليه الصلاة والسلام.

- تحسيس الناس بالعمق الإنساني الكبير في شخصيته عليه الصلاة والسلام

ومن العوامل الأساسية الكبرى التي أعانت النبي ﷺ على مواجهة تحدي تعبئة قاعدة المجتمع ضد دعوته، العمق الإنساني الكبير في شخصيته عليه الصلاة

---

(١٣٢) عرجون، مرجع سابق ٢/ ٢٧٧.

(١٣٣) ابن الأثير، مرجع سابق ١/ ١٠٥.

والسلام، بما يعنيه من حب وشفقة ورحمة وسعة صدر وخوف على الآخرين، وشوق إلى استنقاذهم مما هم فيه من انحدار نحو الهاوية، وصبر على أذاهم..

فالنبي ﷺ كان يؤثر في الناس بهذه الروح الإنسانية التي تفيض حبًّا لهم، وشفقة عليهم، لأنهم يحسّون بذلك وهم يقتربون منه، بل وهم بعيدون عنه يرقبون سلوكه ومواقفه في عسره ويسره، ومنشطه ومكرهه وغضبه ورضاه.

وهو ما سجله القرآن الكريم في أكثر من مناسبة، في مثل قوله تعالى:

﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ ﴾ [الكهف: ٦].

وقوله سبحانه:

﴿ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُن فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾ [النمل: ٧٠].

وقوله تعالى:

﴿ فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [فاطر: ٨].

وفي السيرة النبوية تجسيد عملي لهذه النزعة الإنسانية الرفيعة، المفعمة بمشاعر الحب والفرح والخوف في الوقت نفسه من المصير السلبي للمنحرفين، الذي كان يؤرق النبي ﷺ، ويجعله يعيش في ضيق وتوتر نفسي حادّ، كما تدل على ذلك كلمات:

«باخع نفسك»، و «ضيق»، و «حسرات».

ويكفي هنا التذكير بموقفه الفذ في الطائف، عندما تألّب عليه الغوغاء وطاردوه ونالوا منه بصورة جعلته عليه الصلاة والسلام يعتبر ذلك من أشد ما لحق به من الأذى في حياته، ومع ذلك كان جوابه على ملك الجبال الذي عرض عليه إطباق جبلي مكة عليهم، في غاية الرأفة بهم، والرحمة لهم، والشفقة عليهم، ورجاء الخير منهم، حيث قال:

«بل أرجو أن يخرج اللّهُ من أصلابِهم مَن يعبدُ اللّهَ وحدَه لا يشركُ به شيئًا»[١٣٤].

وفي موقف آخر من مواقف الأذى البالغ، نجده عليه الصلاة والسلام يقول:

«اللهم اغفر لقومي إنهم لا يعلمون»[١٣٥]، ويتحمل منهم بصبر وتجلد كل جهالاتهم ورعوناتهم طمعًا في إسلامهم واستنقاذًا لأنفسهم من الضنك الدنيوي والخسران الأخروي.

بهذا الغنى في المشاعر الإنسانية، كان عليه الصلاة والسلام يواجه هموم الدعوة، ومشكلات المجتمع دون تكلّف أو اصطناع، الأمر الذي يأسر الغير، ويجذبه بقوة إلى فلك الإسلام مهما كان تعنّته وإصراره على عداء الدعوة وقيادتها.

- العناية الخاصة بالعلاقات الإنسانية

ونقصد بالعلاقات الإنسانية: القدرة على الوصول إلى نفوس الناس، وكسب ودّهم، والاستئثار باهتمامهم، من خلال احترام مشاعرهم وتحسيسهم بأنهم موضع احترام وتقدير وعناية.

وقد صدق من لخّص كل ذلك بقوله: «ليست المشكلة الاجتماعية سوى قضية احترام متبادل» أي القدرة على إدارة العلاقات بين الناس بشكل يحفظ كرامة الإنسان، وينمي فيه احترام نفسه وغيره[١٣٦].

والذي يتمعن في حياة النبي ﷺ يجد هذا البعد يشكل عمودها الفقري بحق، كما أكد ذلك القرآن في قوله تعالى:

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤ ﴾ [القلم: ٤]، أي البالغ أشدّ الكمال المحمود في

---

(١٣٤) البخاري، في كتاب: بدء الخلق باب: الملائكة (من فتح الباري ٦/ ٢٤٢).
(١٣٥) عياض، مرجع سابق ١/ ١٠٦.
(١٣٦) كورتوا، مرجع سابق / ٨٣.

طبع الإنسان[137].

فاحترام الآخرين، والحرص على مشاعرهم، ثوابت أصيلة في علاقته بالناس عليه الصلاة والسلام، لعلمه أنه لا شيء يأسر القلوب، ويفتح مغاليق النفوس كالإحسان. وهو ما قرره القرآن في مفرداته التربوية في قوله تعالى على سبيل المثال:

﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ [فصلت: ٣٤].

وهو ما التزم به عليه الصلاة والسلام في علاقته مع الناس، بشكل فذ لا نظير له، نشير هنا إلى صور منه، تلقي الضوء على أثر ذلك في مواجهة الحواجز النفسية السميكة، التي عملت القوى المضادة على بنائها بينه وبين قاعدة المجتمع.

- وقد مر معنا تأثير ذكر رسول الله ﷺ كعب بن مالك باسم: «الشاعر»، فقال: والله ما أنسى قول رسول الله: «الشاعر»[138] لأنه أحسّ بمدى اهتمامه عليه السلام به، وتقديره لمكانته.

- وفي لقاءاته بوفود القبائل العربية كان عليه الصلاة والسلام يتنبه إلى أَدَقّ الأمور التي تُشعر الآخرين بقيمتهم، فيثير انتباههم إليها، كما قال لبني عبد الله في منازلهم وهو يعرض عليهم دعوته: «يا بني عبد الله إن الله أحسن اسم أبيكم»[139].

- وفي طريق الهجرة مرّ على لِصَّين متمردين فحاورهما وسألهما فقالا: نحن المهانان. فقال عليه السلام: «بل أنتما المكرمان»، فأُخذا بلباقته وحسن منطقه، وأعلنا إسلامهما[140].

---

(١٣٧) ابن عاشور، مرجع سابق ٢٩/ ٦٤.
(١٣٨) ابن كثير، السيرة النبوية ٢/ ١٩٣.
(١٣٩) المرجع نفسه ٢/ ١٥٧.
(١٤٠) الكندهلوي، مرجع سابق ١/ ١١٠.

ـ والتقى في مكة بسويد بن الصامت أحد كبار شخصيات المدينة، الملقب بالكامل لجلده وشعره وشرف نسبه، فدعاه عليه السلام إلى الإسلام، فقال سويد: لعل الذي معك مثل الذي معي. فقال له عليه السلام: وما معك؟ قال: مجلة لقمان. فقال عليه الصلاة والسلام: أعرضها علي، فعرضها عليه. وسمعها منه مع علمه عليه السلام أنه لا شيء يعلو إلى مستوى ما جاءه من الوحي.

فلما فرغ سويد قال له عليه السلام بأدب جمّ، واحترام بالغ لمشاعره وثقافته: «**إن هذا الكلامَ حَسَنٌ، والذي معي أفضل من هذا، قرآن أنزله الله عليّ هو هدى ونور**» وأخذ يتلو عليه منه، فتأثّر الرجل وقال: إن هذا القول حسن، ولم يبعد عن الإسلام[(١٤١)].

هكذا كانت علاقته بالناس، قائمة على إظهار الودّ لهم، واحترام مشاعرهم، وتحسيسهم بأنهم موضع تقدير منه، فلا يجدون بدًّا من مبادلته نفس المشاعر والأحاسيس نفسها مما يخلخل تلك الصورة القاتمة، التي استقرت في ذاكرتهم من جراء الحرب النفسية التي قادتها قريش ضده.

وباختصار فإنه عليه الصلاة والسلام من خلال هذه التدابير استطاع على الأقل أن يعطي للناس صورة حقيقية عن نفسه ودعوته، غير الصورة التي أعطاها له أعداؤه، وهو ما يسهل عملية الاقتراب من الدعوة والتمكّن من هضم مقاصدها بسهولة عندما تتاح الفرصة.

هـ ـ منجزات الدعوة في هذه المرحلة

نعرض الآن حصيلة لمنجزات الدعوة في المرحلة التأسيسية الأخيرة في الفترة المكية، بعد عرضنا لأبرز المشكلات التي جابهت الدعوة ومنهج النبي ﷺ في مواجهتها:

---

(١٤١) ابن هشام، مرجع سابق ٦٨/٢.

١ ـ منجزاتها على مستوى الأهداف المحورية للمرحلة

وقد استطاع عليه الصلاة والسلام من خلال جهده المنهجي المنظم، أن يحقق نتائج مهمة، رغم ضراوة التحديات التي كانت تحيط به من كل جانب، وينجز أهداف المرحلة بنجاح كبير.

على مستوى بناء القاعدة الجهادية

تمكن عليه الصلاة والسلام من مواصلة بناء هذه القاعدة، سواء على المستوى النوعي، أو العددي، أو التمثيلي لجلّ فئات المجتمع وبيئاته.

حيث يكفي تأمُّل موقف المهاجرين والأنصار، كيف تجاوب الجميع مع التزامهم الإيماني بشكل فذّ في تاريخ الدعوات، فخرج المهاجرون من حظوظ أنفسهم، وتركوا ديارهم وأموالهم، وأهليهم، وخرجوا إلى وطن لا يعرفونه، ولا يملكون من الدنيا شيئًا، تطاردهم قريش وتستبيح دماءهم[١٤٢].

ومع ذلك كله خرجوا مهاجرين إلى الله ورسوله مُسْتَغْلِين بإيمانهم على كل شيء، وهو ما يدل على المستوى التربوي الرفيع الذي حققه عليه الصلاة والسلام في بناء هذه القاعدة الجهادية المؤمنة الواعية المجاهدة المحتسبة.

والأمر نفسه ينطبق على الأنصار الذين ارتفعوا بوعيهم الإيماني إلى مستوى رسالي رائع، جعلهم يحتضنون الدعوة وقيادتها وأتباعها من جُل بلاد العرب، وهم يدركون جيدًا أن ذلك سيكلفهم تضحيات جسيمة.

ومع ذلك قبلوا وآووا الدعوة ونصروها ووفّوا بعهدهم لها راضين مطمئنين كما قال تعالى مادحًا لهم:

﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ

---

(١٤٢) المباركفوري، مرجع سابق / ١٧٣.

نَفْسِهِۦ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ [الحشر: ٩].

ويكفي إمعان النظر في كلمة «تبوأوا الدار والإيمان»[١٤٣]. التي تعتبر مفتاح القمة التي ارتقوها في علو الهمة، والقيام بالأمر.

لقد تمكن عليه السلام عبر جهاده المصابر، أن يكوّن جماعة قوية «من عمالقة الروحانية الذين لم يتزعزع إيمانهم به لحظة واحدة، والذين نصروه برغم ضروب التعذيب المبرحة، والذين هاجروا بيوتهم وممتلكاتهم، ولكنهم لم يهجروه هو»[١٤٤].

وكما نجح عليه الصلاة والسلام في البناء النوعي للقاعدة الجهادية للدعوة، نجح كذلك في بنائها من الناحية العددية أو الكمية، إذ استطاع في هذه المرحلة أن يستوعب أعدادًا مهمة من الناس، ويلحقهم بقافلة الدعوة، كما يدل على ذلك إسلام الأنصار الذين كانوا يقولون: بأنه لم يبقَ بيتٌ في المدينة لم يدخله الإسلام[١٤٥].

وأوردنا في ما سبق أنه في طريق الهجرة وحدها أسلم أبو بريدة ومعه سبعون رجلاً من قومه[١٤٦].

وامتد هذا النجاح بالإضافة إلى ما سبق، ليشمل ناحية أخرى في غاية الأهمية بالنسبة للدعوة وهي: شمول الملتحقين الجدد بالإسلام، وتمثيلهم لأغلب البيئات والفئات والفعاليات في المجتمع العربي، خاصة بعد إسلام الأنصار.

حيث أصبح الهيكل البشري للدعوة يتكون من قبائل كثيرة، ويضم فئات متعددة ومتنوعة تجمع بين الفقراء والأغنياء، والعبيد والنساء والرجال[١٤٧].

وهو إغناء في غاية الأهمية للدعوة، سيمنحها قوة كبيرة، ويفتح أمامها الطريق تدريجيًا إلى باقي القبائل والفئات الأخرى.

---

(١٤٣) القاسمي، محاسن التأويل ١٦/ ١٠١.
(١٤٤) مولانا محمد علي، مرجع سابق / ١٢٠.
(١٤٥) د. أبو شهبة، السيرة النبوية ١/ ٤٤٣.
(١٤٦) المباركفوري، مرجع سابق / ١٩٠.
(١٤٧) د. رؤوف شلبي، مرجع سابق / ٦٠٥. شاكر، مرجع سابق ١/ ١٣٢.

على مستوى إنجاز المرحلة الثانية من الانفتاح على المجتمع

تمكن عليه الصلاة والسلام في هذه المرحلة من توسيع دائرة نشر أمر الدعوة وإذاعته بين الناس بشكل رائع، جعلها تستحوذ على اهتمامات الرأي العام، كما يدل على ذلك ما روي من أن القبائل العربية كانت تحذر أبناءها عندما يهمّون بالسفر إلى مكة قائلة:

«إحذر غلام قريش لا ينتننك»[148].

وقد كان عليه الصلاة والسلام يرمي من وراء انفتاحه الواسع على المجتمع، بالإضافة إلى إقامة الحجة على الناس بالبلاغ لهم، طرح الفكرة لديهم وجعلهم يفكرون فيها بعمق وجديّة عندما يرجعون إلى بلادهم البعيدة، أو يأخذون في قصّ الأخبار التي صادفتهم، على ذويهم وأصحابهم، حيث يحتل ذكر الرسول ﷺ وأخباره مكانًا واسعًا في أسمارهم.

وفي كل ذلك خدمة كبيرة للدعوة قد تقود كثيرين إلى الإسلام، كما حدث فعلاً لأياس بن معاذ، وسويد بن الصامت، اللذين حكى عنهما بعض ذويهما أنهما ماتا مسلمين.

ولميسرة بن مسروق العبسي الذي كان مع وفد من قومه بمِنى، فسمعوا عن رسول الله ﷺ، وترددوا في قبول دعوته، ثم سألوا يهود فَدَك، فأخبروهم بصفته، فعرفوا أنه هو، فأسلم ميسرة بعد ذلك[149].

وغيرهم كثير ممن فكر في الأمر بعقله بعيدًا عن الضغوط النفسية والاجتماعية، فأسلمَ وجهه لله ربّ العالمين.

إنه عليه الصلاة والسلام من خلال اتصالاته المكثّفة والواسعة بقاعدة المجتمع العريضة، حقق للدعوة انفتاحًا كبيرًا على ما حولها، فعرّفت بنفسها،

---

(١٤٨) ابن كثير، السيرة النبوية ٢/ ١٩٤.

(١٤٩) د. عبد الوهاب كحيل، الجوانب الإعلامية في حياة الرسول ﷺ/ ٢٠١.

وعرفت الكثير عن البيئة المحيطة بها[١٥٠].

وفي ذلك خدمة كبيرة لنجاح عمله عليه الصلاة والسلام، ووقايته من كل ما من شأنه أن يهدده وجوده ومستقبله.

على مستوى إيجاد موقع مناسب لبناء الدولة

في هذه المرحلة تمكن عليه السلام أيضًا من إنجاز هدف حيوي واستراتيجي للدعوة، هو إيجاد موقع مناسب للانطلاق في بناء الدولة، التي تجمع قاعدة الدعوة المشتّتة هنا وهناك، وتوفر لها التكوين الموحّد، والحماية اللازمة. وتتيح الفرصة لقيادتها لتكريس جهودها من أجل تثبيت معالم الإسلام وأركانه[١٥١] في نفوس الأتباع وواقعهم، ومواصلة الانفتاح على البيئة المحيطة لتبليغها رسالة الله سبحانه وتعالى.

وقد كان هذا النجاح في تأسيس وطن للدعوة بعد نضال طويل ومرير، **هو أخطر كسب حققه الرسول ﷺ منذ بدأ جهاده الرسالي بحق**، على حد تعبير الشيخ الغزالي[١٥٢].

لأنه بالهجرة إلى المدينة، وبداية تأسيس الدولة الإسلامية، انتهت مرحلة قديمة في تاريخ الإنسانية، وبدأت مرحلة جديدة سيشهد معها العالم تحولات حضارية عميقة وشاملة[١٥٣]، على طريق إعادة التوازن المفقود للحياة الإنسانية.

وفي القرآن الكريم إشارة واضحة إلى أنه بالهجرة انتهت مرحلة الاستضعاف، وجاءت مرحلة القوة واستحكام أمر الإسلام في الأرض، فقال تعالى:

﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الأنفال: ٢٦].

---

(١٥٠) فضل الله، خطوات على طريق الإسلام / ٤٧١.
(١٥١) د. العلي، الدولة في عهد الرسول ﷺ ١/ ٧٤.
(١٥٢) فقه السيرة / ١٦٣.
(١٥٣) د. محمد مصطفى النجار، دراسات تاريخية للعرب وظهور الإسلام / ٢٨٤.

هكذا استطاع عليه الصلاة والسلام أن يواجه التحديات الكثيفة التي استهدفت الدعوة وقيادتها وجماهير المجتمع بصفة عامة، وأن يحقق أهداف المرحلة بكفاءة، مدعمًا بذلك بناء القاعدة الجهادية للدعوة عدديًا ونوعيًا، وموسعًا لدائرة تبليغها للناس بصورة جعلتها إحدى أهم محاور الاهتمام لديهم، ومحققًا لعامل حيوي يُعَدُّ من شروط نجاحها هو: إيجاد موقع استراتيجي لإقامة الدولة فيه.

٢ ـ منجزاتها على مستوى الأهداف الكليّة للمرحلة المكية

هذه النتائج المهمة التي حققتها الدعوة في مرحلتها التأسيسية الثالثة، ما موقعها من الأهداف العامة للمرحلة المكية عمومًا؟.

بمعنى أين وصلت الدعوة في تحقيق أهداف المرحلة المكية وقد وفّت على نهايتها؟

وبتأمل هذه الإنجازات في ضوء الأهداف الكلية العامة للمرحلة المكية، يتضح لنا أن الدعوة وصلت إلى نتائج مهمة، وحققت مكاسب قاعدية عظيمة، وفّرت الكثير من الشروط الموضوعية للانطلاق في المرحلة الثانية المتعلقة ببناء الدولة الإسلامية، ودعوة الناس للدخول في دين الله كافة.

ما يتعلق ببناء المنظومة العقدية

كهدف أساسي للدعوة الإسلامية عمومًا، وكمحور ارتكاز للفترة المكية خصوصًا، نجد أن خطوات كبيرة وحاسمة قد قطعت، سواء على مستوى تصحيح منظومة الأتباع العقدية وبنائها، أو على مستوى طرح الأوضاع العقدية القائمة للمناقشة والمراجعة الجذرية.

فالأتباع الذين أصبحوا يعدُّون بالمئات، تغيّرت نظرتهم إلى الله والكون والحياة بشكل جذري وعميق، انتقلوا به من عبادة الأوثان بصورة مزرية بالكرامة الإنسانية ـ كما رأينا في الفصل الأول من الباب الثاني ـ إلى عبادة الله وحده،

والعبث بهذه الأصنام والإلقاء بها في الحفر منكسة الرؤوس، بل وقرنها بالكلاب الميتة، والرمي بها في الآبار القذرة[١٥٤]، تحقيرًا لها، وتحسيسًا لأصحابها بأنها لا تضر ولا تنفع.

وانتقلوا من الغفلة عن اليوم الآخر والذهول عن الجزاء، والانكماش في عالم الشهادة، إلى الانفتاح على العالم الآخر، واعتبار الجنة غايتهم من جهادهم وكدحهم في الدنيا، كما يتضح ذلك من مواقف عملية كثيرة، كانت الرغبة في وراثة الجنة والفوز بمرضاة الله تعالى هي الطموح الأعلى.

ويكفي استذكار موقف الأنصار يوم بايعوا رسول الله ﷺ على حمايته ونصرته مقابل الجنة[١٥٥]، وقبلهم كانت الجنة أمل المستضعفين في مكة، تقوي عزائمهم وتدفعهم إلى الثبات، عندما يسمعون رسول الله ﷺ يقول لبعضهم:

«صبرًا يا آل ياسر فإنّ موعدكم الجنة»[١٥٦].

لقد نجحت الدعوة الإسلامية في بناء إنسان جديد بمنظومة عقدية صحيحة، شكلت أساس انطلاق الحضارة الفذة للأمة الإسلامية بعد ذلك.

ما يتعلق ببناء المنظومة الفكرية

كهدف أساسي كذلك للدعوة الإسلامية عمومًا، وكمحور ارتكاز للفترة المكية خصوصًا، تحققت نتائج كبيرة وحاسمة أيضًا، بفضل تحريك القرآن للأذهان، ودفع الناس إلى التفكير والتساؤل، والمناظرة، بل و «الجدل» وإعادة النظر في كثير من «المسلمات» التي طبعت تفكير المجتمع، وقادته إلى كثير من الخرافات في ميادين الاعتقاد والسلوك والعمل، وحكمت عليه بالعطالة والسكونية الحضارية.

لقد ثار الإسلام ثورة عارمة على التقليد والجمود، والاتباعية العمياء

---

(١٥٤) أبو نعيم، مرجع سابق ١/ ٣١٠.
(١٥٥) د. أبو شهبة، السيرة النبوية ١/ ٤٥١.
(١٥٦) ابن القيم، زاد المعاد ٣/ ٢٢.

للعادات والتقاليد والأعراف ووضع حدًا نهائيًا لذلك، وألزم الإنسان أن يبني مواقفه العقدية والفكرية والسلوكية.. على العلم وحده، باعتباره الإمام المتبع وحده في الحياة كما قال تعالى: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ﴾ [الإسراء: ٣٦].

فلا شيء في دائرة الإسلام - حتى الدين نفسه - يخرج عن هذا القانون، الأمر الذي حدا بعلماء العقيدة إلى التأكيد على أنه من شروط صحة إيمان المؤمن، أن يكون قائمًا على دعائم من اليقين العلمي المجرد، لا على شوائب من التقاليد والأتباع(١٥٧).

وهذه التوجهات كان لها أثر مباشر في تفكير المسلمين الأوائل الذين أخذت ملكاتهم الفكرية تُعَبّأ وتوجَّه في سياق منهجي جديد، قائم على «النظرة السننية» الفاحصة للأمور، الرافضة لكل طرح خرافي لا يسنده دليل، من وحي أو سُنّة من سنن الآفاق والأنفس..

وهو المكسب الإنساني الفذّ الذي سيعطي الأمة الإسلامية حضارتها المتميزة، والغرب الحديث حضارته التكنولوجية الرائعة بعد ذلك، حينما يستوي المسلمون على ظهر الميراث الحضاري للإنسانية، ويطوعونه ويُثْرونه ويصبونه في قالب جديد يعبرّ عن روحهم وعبقريتهم الرسالية.

ما يتعلق بإرساء أسس بناء المنظومة الاجتماعية

نجحت الدعوة كذلك في إرساء الأسس المبدئية الثابة لبناء منظومة اجتماعية متوازنة، يتحقق فيها مستوى راق من الكرامة الإنسانية التي تؤهل الإنسان للاضطلاع بمهمة الاستخلاف المنوطة به في عالم الشهادة.

وقد تمحورت حول جملة من الأركان هي: إقرار حرية الإنسان، والمساواة بين البشر، والعدل الاجتماعي الشامل، والمسؤولية الذاتية التي تجعل الإنسان مسؤولاً وحده عن مواقفه وأعماله في الدنيا والآخرة(١٥٨).

---

(١٥٧) د. البوطي، كبرى اليقينيات الكونية / ٣٥.

(١٥٨) العقاد، حقائق الإسلام وأباطيل خصومه / ١٤٠.

وحفل القرآن المكي بالخصوص، بالحديث عن هذه الأصول ولواحقها من الفضائل والآداب التي لا تتغير بتغير الزمان واختلاف المكان، فأكثر من الحث على الثبات على المبدأ، والصبر والتحمّل من أجله، والأمر بالصلاة والصدق والعفاف، وبرّ الوالدين، وصِلَة الرحم، والعدل والإحسان، والتواصي بالحق والخير، والنهي عن الرذائل كالقتل ووأد البنات، والظلم والزنى، وأكل أموال الناس بالباطل(١٥٩).

هذا على مستوى التأسيس النظري، أما على صعيد تجسيد هذه المنظومة في الواقع المعاش، فإنه بالرغم من عدم توفر الأجواء التي تنطلق فيها الدعوة لبناء نموذجها الاجتماعي البديل، إلاّ أنها أخذت فعلاً منذ البداية في بناء المنظومة الاجتماعية تدريجيًا، على أسس ومرتكزات جديدة، توفر للإنسان حريته، وتزيل من أمامه الحواجز الاصطناعية، التي كانت تحول بينه وبين المساواة والعدل وتكافؤ الفرص(١٦٠)، حتى يتحمل مسؤولية كاملة في ما يصدر عنه من مواقف، وما يقوم به من أعمال.

ويكفي أن نشير هنا إلى أن الصورة العملية النموذجية، لمنظومة الحياة الاجتماعية، يمكن استشفاف آفاقها من نموذج «المجتمع الجنيني» الذي أخذت قسماته ترسم على أرض الواقع، مع بداية الهجرة، وانطلاق عملية بناء الحياة الإسلامية.

هناك يظهر بوضوح كيف نجحت الدعوة الإسلامية في المرحلة المكية في إرساء الأسس المبدئية لبناء المنظومة الاجتماعية، والتحقق بها بشكل عملي واسع النطاق، عندما توفرت أجواء الانطلاق في البناء بالمدينة.

الإعداد للانطلاق في بناء الدولة

وهو من الأهداف الاستراتيجية للدعوة في مكة، ظل عليه الصلاة والسلام

---

(١٥٩) د. أبو شهبة، مرجع سابق ٢/ ١٤.

(١٦٠) د. مصطفى عبد الواحد، **المجتمع الإسلامي** / ٢٩٤.

يعمل له، ويوفّر الشروط الموضوعية لإنجازه ثلاثة عشر عامًا، حتى تمّ له ما أراد، وقامت الدولة الإسلامية بالمدينة المنورة.

فكان ذلك من أخطر الإنجازات التي تحققت للدعوة كما سبق تأكيد ذلك، فلا داعي لإعادة الكلام.

ومن كل ما سبق نخلص إلى القول بأن الدعوة الإسلامية قد حقّقتْ عبر المراحل التأسيسية الثلاث أهدافها الاستراتيجية في الفترة المكية بشكل يدعو إلى الإكبار، وبذلك تمّ لها وضع الأساس المتين للتحولات الحضارية اللاحقة التي ستبهر الناس، وتدهش المهتمين بفهم فلسفة التاريخ، واكتشاف قوانينه.

نتائج الدراسة
وآفاق الإفادة منها اليوم

١ ـ نتائجها على مستوى منجزات الدعوة في المرحلة المكية

٢ ـ نتائجها على مستوى موقع هذه المنجزات من الأهداف الاستراتيجية الكبرى للدعوة عمومًا

٣ ـ نتائجها على مستوى المنهج النبوي في حماية الدعوة والمحافظة على منجزاتها

٤ ـ نتائجها على مستوى آفاق الإفادة من المنهج اليوم

الآن وقد انتهينا من محاولة استقصاء مفردات المنهج النبوي في حماية الدعوة والمحافظة على منجزاتها خلال الفترة المكية، حان وقت استخلاف معالم هذا المنهج وتحديد ملامحه الرئيسية، كتتويج لهذه المحاولة المتواضعة، في هذا الموضوع الحيوي الحساس والذي ينبغي أن يولى عناية خاصة ترتقي به إلى مستوى الأهمية التي يشكلها في عملية البناء الحضاري.

فحماية الفكرة أو المشروع من أن تمتد إليه عوامل التحريف أو الاختزال أو التشويه في ذاته ومكوناته القاعدية والتكميلية، والمحافظة على منجزات عملية التفاعل مع الفكرة أو المشروع، في سياق أداء الواجب الاستخلافي، واستثمارها بأقصى فعالية إنتاجية ممكنة.. من مقاصد الإسلام الكبرى، كما سبق بيان ذلك في كثير من المواضع في هذا البحث الذي كرسناه لذلك، واستهدفنا من خلاله إثارة الاهتمام بقضية حماية الفكرة والمحافظة على ما ينبثق عنها من منجزات كمقصد محوري من مقاصد الشريعة من جهة، ومطلب إنساني تمليه طبيعة الحياة وطبيعة الجبلة البشرية من جهة أخرى.

فالجهد الإنساني إذا لم تتم حماية الفكرة الباعثة عليه والموجِّهة له، وإذا لم تتم المحافظة على ما ينجزه، يكون جهدًا ضائعًا يحسب على الفرد والمجتمع لا لهما، لما ضاع فيه من إمكانات وجهود وأوقات يصعب تداركها، وهو الأمر الذي

يجعل مهمة المجتمع أو الأمة صعبة في معترك التدافع الحضاري بين الأمم، بعضها من أجل البقاء، وبعضها الآخر من أجل السيادة والسيطرة.

فنجاح العمل يقاس بمدى تمكنه من المحافظة على محتواه المفاهيمي أو الفكري من جهة، وبمدى تحقيقه للأهداف المرسومة من جهة ثانية، والقدرة على حماية كل هذه المكاسب والمحافظة عليها من جهة ثالثة.

وهو ما نبّه إليه الإسلام، بل وجاء يدعو الناس للعناية الشديدة به، فقال تعالى على سبيل المثال ناعيًا على بعض أتباع المسيح عليه السلام الذين لم يراعوا ما ألزموا به أنفسهم من أعمال عبادية تقربهم إلى الله:

﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ [الحديد: ٢٧]، قال القرطبي: «فينبغي لمن ابتدع خيرًا أن يدوم عليه، ولا يعدل عنه إلى ضده فيدخل في الآية»[١].

وقال تعالى كذلك في شأن من لا يحافظ على حالة الصلاح التي يكون عليها، وينزلق إلى حالة الفساد أو الضعف عمومًا:

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا﴾ [النحل: ٩٢]، لأن الله تعالى ذم من عاد على شيء بالإفساد بعد إحكامه[٢].

وقال عليه الصلاة والسلام لعبد الله بن عمرو بن العاص:

«يا عبدَ الله لا تكن مثلَ فلانٍ كانَ يقومُ من الليل فتركَ القيام»[٣].

قال ابن حجر نقلاً عن ابن العربي وابن حبان: في هذا الحديث استحباب الدوام على ما اعتاده المرء من خير، كما استنبط منه كراهية قطع العبادة وإن لم

---

(١) القرطبي، مرجع سابق ١١٧/ ٢٦٤.

(٢) القاسمي، محاسن التأويل ١٠/ ١٥٣.

(٣) البخاري، باب: ما يكره من ترك قيام الليل. (فتح الباري ٣/ ٢٩).

تكن واجبة [٤]، فكيف إذا تعلّق الأمر بالواجبات التي يتوقف عليها انتظام شؤون الحياة؟

لهذا كان عمله عليه الصلاة والسلام كما وصفته أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: «ديمة»[٥]، وكان أحب الدين إليه ما داوم صاحبه عليه[٦] لأن: «أحبّ الأعمالِ إلى الله أدومها وإنْ قَلّ»[٧] لما توفره الاستمرارية في العمل من مضاعفته وتحسينه، ورفع درجات النفع به.

وقد كان همي الأكبر في هذا البحث هو محاولة بيان كيف أنجز رسول الله ﷺ ذلك في حياته الرسالية بمكة؟

- أي كيف حمى عليه الصلاة والسلام المضمون الرسالي لدعوته من التحريف والاختزال والتشويه من جهة؟

- وكيف تحرك بها في الواقع، وحافظ على منجزات هذه الحركة، رغم التحديات الكثيفة التي أحاطت بها من كل جانب من جهة أخرى؟

كيف ضمن عليه الصلاة والسلام الاستمرارية والتواصل والنماء لدعوته، في محيط تكاملت فعالياته جميعًا لشل حركته وتعويق مسيرته؟

- ومن أجل تحصيل منهجية مركزة لنتائج هذه الدراسة، رأيت أن أعرضها من خلال ثلاثة محاور رئيسية تحددها هذه الأسئلة الأساسية الثلاثة:

- إلى أي مدى نجحت الدعوة الإسلامية في تحقيق أهدافها الاستراتيجية في مكة؟

- ما هو موقع ما أنجزته الدعوة في مكة من الأهداف الاستراتيجية الكبرى للرسالة في عالم الشهادة؟

- إلى أي شيء يعود ما تمّ من منجزات في المرحلة المكية؟

---

(٤) نفس المرجع والجزء والصفحة.

(٥) المنذري، مختصر صحيح مسلم، كتاب الصلاة، باب: أحب الأعمال أدومها /١٠٤.

(٦) صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب: صلاة المسافر، باب: فضيلة العمل الدائم ٢/٤٤٢.

(٧) المرجع نفسه ٢/ ٤٤٠.

١ ـ نتائجها البحث على مستوى منجزات الدعوة في المرحلة المكية

وكما سبق بيان ذلك مفصلاً، فإن النبي ﷺ تمكن من تحقيق الأهداف الاستراتيجية الأربعة للدعوة في المرحلة المكية بنسبة رائعة، إذا ما وضعنا في حسباننا التحديات الكبيرة والشاملة التي واكبت مسيرته منذ بدايتها، وتصاعد وتائرها مع مرور الزمن.

على مستوى بناء المنظومة العقدية

نجحت الدعوة في هدم بنيان الميراث العقدي للمجتمع الجاهلي، بشكل ينبئ بانهياره القريب المحتوم من قواعده، وإقامة بنيان لميراث عقدي جديد ممتد مكانه، يتحرر بموجبه الإنسان من كل سلطان للتقاليد والأعراف والمتواضعات الفاسدة، التي كبّلت إرادته، وخنقت حريته، وحكمت عليه بالخضوع لقوى مخلوقة مثله، هو أفضل عند الله وفي ميزان سُننه من كثير منها كما صرح بذلك القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾ [الإسراء: ٧٠].

لقد تمكن رسول الله ﷺ من بناء جيل رسالي صحيح العقيدة، يمتلك تصورًا سليمًا عن الله والكون والحياة، مكين اليقين بالله واليوم الآخر، ورسالة النبوة والنبوات في الحياة.

وهو إنجاز عظيم للدعوة في هذه الفترة، وطّن لها أقوى عامل من عوامل النجاح، وهو الإحساس بالتحرر مما سوى الله من قوى الكون التي أصبحت في ذهن الإنسان الجديد، قوى مسخّرة له، مطوّعة من أجل خدمته، بعد أن كان مسخرًا لها مطوّعًا لخدمتها، سواء أكانت هذه القوى بشرًا مثله، أو من مكونات الطبيعة من حوله.

هذا ما كان يشعر به الجيل القرآني الأول، بعد أن تحررت نفسه من مقررات المواريث العقدية الباطلة، وأزيلت الغشاوة عن بصيرته، فانفتحت أمامه آفاق الحياة فأبصر الحق الذي أخذت تنعقد عليه نفسه، وتتجدد به حياته على طريق

العبودية الحقّة لله تعالى التي تمكنه من السيادة في الأرض.

ومن يتتبع عن كثب جهاد هذا الجيل في مكة من أجل المحافظة على إيمانه وإسلامه، يرى فعل هذا التحول العقدي في نفسه ومواقفه وحياته عميقًا وحاسمًا، استعلى به على كل الموانع والإكراهات التي كانت تضغط عليه بعنف وضراوة لكي ينسلخ من دينه، ويتراجع عن اختياره الجديد.

فالتحول الداخلي العميق، هو الذي كان وراء صبر الصحابة وصمودهم أمام محن الإيذاء وهو الذي كان وراء هجرة الوطن ومفارقة الأهل والأولاد، وترك الأموال، والخروج عن كثير من حظوظ النفس في سبيل الله.

وسأكتفي هنا بنموذج من هذه المجاهدات الفذّة التي تشير إلى المدى البعيد الذي وصل إليه التحوّل الداخلي في مكة كأثر مباشر للجهد الذي قام به النبي ﷺ على صعيد بناء المنظومة العقدية.

ويتعلق المثال المختار بسعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أحد السابقين الأولين إلى الإسلام، الذي قال يحكي موقفًا عسيرًا من حياته:

كنت برًّا بأُمي، فلما أسلمتُ قالتْ: يا سعد ما هذا الدينُ الذي قد أحدثت؟ لتدعَنَّ دينَك هذا؟ أو لا آكلُ، ولا أشربُ حتى أموت، فتعيرَّ بي، فيقال: يا قاتل أمه، قلت: لا تفعلي يا أُمّه، إني لا أدع ديني هذا لشيء، فمكثتْ يومًا لا تأكلُ ولا تشربُ وليلة، وأصبحت وقد جهدت، فلما رأيت ذلك قلت: يا أُمّه! تعلمين والله لو كان لك مائة نفس، فخرجت نفسًا نفسًا ما تركت ديني، إن شئت فكلي أو لا تأكلي فلمّا رأت ذلك أكلت(٨).

والأمر لا يحتاج إلى مزيد تعليق، لأنه غني الدلالة على مدى نجاح الدعوة في بناء المنظومة العقدية لهذا الجيل، وهو ما يجعلنا نطمئن تمامًا إلى ما أكدناه سابقًا من نجاح النبي ﷺ على هذا الصعيد.

---

(٨) الذهبي، مرجع سابق ١/١٠٩.

نجحت الدعوة كذلك في خلخلة الأوضاع الفكرية السائدة، وأخذت تبني ذهنية جديدة، وفكرًا جديدًا، قائمًا على التفكير المنطقي والنظرة الموضوعية للأشياء، بعيدًا عن الخرافة، والتقليد البليد، والانغماس في التبعية غير المبررة لميراث الآباء، إلى غير ذلك من مظاهر الجمود الفكري، وصور الانحراف عن «التفكير السنني» السليم.

وقد رأينا في مواضع عدة كيف كانت المنظومة الفكرية الجاهلية ـ سواء على المستوى المعرفي أو المنهجي ـ عاجزة تمامًا عن مواجهة المنظومة الفكرية البديلة، التي كانت الدعوة تهيِّئ لها الأرضية، وترسي معالمها في نفوس الذين استجابوا لله ورسوله.

بل غالبًا ما كان ممثلو هذه المنظومة الجاهلية، ينهارون في أول مواجهة جادة لهم لممثلي المنظومة الفكرية الإسلامية، وينتهي المطاف بكثير منهم إلى الإسلام، والانخراط الفعّال في صفوف الدعوة الجديدة، كما حدث على سبيل المثال في إسلام عمر بن الخطاب، والطفيل بن عمرو الدوسي، وضماد الأزدي، وسويد بن الصامت، والنجاشي، وأسيد بن حضير[٩]، وغيرهم من الذين اهتزت قناعاتهم أمام منطق الدعوة، وانشرحت نفوسهم إلى ما دُعوا إليه فأسلموا.

في حين وقع لغيرهم من كبار عتاة الجاهلية وقادتها ما وقع لهم، واستيقنوا بينهم وبين أنفسهم، أن ما هم عليه لا يرقى في صحته ومصداقيته إلى ما جاءت به الدعوة الإسلامية، لكنهم أحجموا عن أخذ الموقف اللازم، وانحازوا للباطل والخرافة، كما حدث للوليد بن المغيرة، وعتبة بن ربيعة، والنضر بن الحارث[١٠].

---

(٩) المباركفوري، مرجع سابق / ١١٠، ١١٦، ١٤٨، ١٦٢.
(١٠) ابن هشام، مرجع سابق ١/ ٢٨٩، ٣١٤، ٣٢١.

وبسبب هذا الضعف في المنظومة الفكرية الجاهلية التي تفوقت عليها المنظومة الفكرية للدعوة الإسلامية، ، لجأ قادة الجاهلية إلى أساليب عزل الناس عن الدعوة، وتعريض أتباعها وقيادتها لشتى ألوان الإيذاء والإرهاب.

وسجل القرآن صراحة في قوله تعالى:

﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [فصلت: ٢٦]، حيث كان المشركون يكثرون من الكلام والضجيج، بالصفير والتصفيق[١١]، حتى يختلط الصوت بهذا اللغو وتتلاشى آثاره، فلا يقبل عليه أحد[١٢].

وكل هذه مؤشرات على مدى نجاح الدعوة الإسلامية في خلخلة المنظومة الفكرية للمجتمع الجاهلي، وكشف جوانب القصور الخطيرة فيها، وبناء منظومة فكرية بديلة قائمة على أساس تحرير فكر الإنسان من الجمود والاتباعية الصنميّة، وتزويده بآليات تفكيرية جديدة أكثر منطقية وموضوعية وفعالية وتطابقًا من سنن الله في خلقه، بإمكانها الأخذ بيده إلى التمييز والوصول إلى الحق والصواب.

على مستوى إرساء بناء منظومة اجتماعية جديدة

تستجيب لطموحات الإنسان الرسالية وواجباته الاستخلافية، نجحت الدعوة كذلك في إرساء أسس جديدة تضمن قيام حياة اجتماعية متوازنة، تساعد على تحقيق الكرامة الإنسانية، وتوفر الظروف الملائمة لتفتح شخصية الإنسان، وتفجير مواهبه وطاقاته وقدراته في ما يعود على المجتمع الإنساني بالخير في عاجله وآجله.

وقد سبق أن بيّنا كيف نجحت الدعوة في تكوين «مجتمع جنيني» جديد، على الأسس المبدئية التي دعت إليها، من حرية ومساواة وعدل ومسؤولية ذاتية.. وأخذت تجسدها في «نموذج مجتمع» جديد بدأت قسماته تتضح للناس مع مرور الوقت، خاصة بعد الهجرة إلى المدينة المنورة.

---

(١١) القرطبي، مرجع سابق ١٥/٣٥٦.
(١٢) القاسمي، محاسن التأويل ١٤/٢٦٨.

على مستوى استكمال شروط الانطلاق في بناء الدولة

نجحت الدعوة كذلك بصورة أكيدة في توفير الشروط الضرورية اللازمة لذلك وفي مقدمتها:

المكان الذي تقوم عليه وهو المدينة المنورة. والإنسان الذي تقوم به ومن أجله، وهم مجموعة المسلمين الذين تناثروا هنا وهناك في مناطق عديدة في بلاد العرب، وحان أوان جمعهم. والقوانين التي تنظم العلاقات، وتوّجه سياسات المجتمع نحو تحقيق الأهداف الرسالية العليا(١٣).

على مستوى تحقيق انفتاح الدعوة على المجتمع

نجح عليه الصلاة والسلام كذلك في إبلاغ صوت الدعوة إلى مناطق شاسعة في بلاد العرب، وإحداث استقطاب كبير حولها(١٤)، جعل منها القضية الأساسية الأولى في المجتمع المكي وما حوله.

وهو الأمر الذي ساهم وسيساهم بفعالية في سرعة انتشار الدعوة، وتمكنها من استيعاب بيئات واسعة، وفعاليات كثيرة، تعطي دفعًا جديدًا للعمل النبوي وتمنحه زخمًا كبيرًا يضاعف من حظوظ نجاحه.

وخلاصة القول هنا هو أن الدعوة نجحت في تحقيق أهدافها الاستراتيجية في المرحلة المكية، رغم كثافة التحديات، وضراوة المواجهة التي دارت بينها وبين القوى المضادة على كل المستويات.

٢ ـ نتائجها على مستوى موقع هذه المنجزات من الأهداف الاستراتيجية الكبرى للدعوة عمومًا

ومن أجل نظرة شمولية متكاملة لعملية التغيير الكبرى، التي جاء الإسلام لينجزها في واقع الناس، رأينا أنه من المنهجي محاولة إدراج الجهد النبوي في

(١٣) د. محمد عبد القادر أبو فارس، النظام السياسي في الإسلام / ١٤٠.
(١٤) د. شلبي، الدعوة الإسلامية في عهدها المكي / ٢٣٢.

المرحلة المكية في سياقه الكلي العام، أو الاستراتيجي، حتى لا تبدو الفترة المكية التي خصصناها للدراسة، مرحلة مستقلة مفصولة عن سياقها العام.

فالهدف الاستراتيجي العام للدعوة الإسلامية كما رأينا في الفصل الأول من الباب الأول، هو تعريف الإنسان بمهمته الوجودية في عالم الشهادة، ألا وهي: الخلافة في الأرض، ودلالته على المفاتيح التي يحقق بها الاستخلاف الأمثل، في إطار طموحه الأخروي الأكبر، وهو وراثة الجنة ونيل رضوان الله تعالى، والشروع في محاولة إنجاز التجربة النموذجية الأولى في هذا المضمار.

ومعنى هذا أن المرحلة المكية في سياق منهجية التغيير النبوي، مرحلة وسيطة أساسية لا بد منها، لتهيئة الشروط الموضوعية الكفيلة بالدخول الأكيد في محاولة إنجاز التجربة النموذجية الأُولى للخلافة الإنسانية، بعد تمام وحي الله لعباده.

ففي هذه المرحلة تم بناء الأرضية الصلبة، التي تقف عليها الدعوة بوثوق وهي تنطلق في استكمال البناء النظري لمشروع الاستخلاف من جهة، ومحاولة تجسيد مقولاته وآفاقه على أرض الواقع من جهة أخرى.

فالبنيان الضخم الذي قام بعد الهجرة، وشد الأنظار إليه بقوة، وانصبت حوله اهتمامات الباحثين والدارسين، على حساب «البنيان التحتي» في بعض الجهود القديمة والحديثة[١٥] مَدِيْن في شموخه وقوته وامتداد آثاره سعة وعمقًا، لهذا «البنيان التحتي» ـ إن صحّ التعبير ـ الذي أنجزتْه الدعوة في الفترة المكية.

فهناك تمّتْ خلخلةُ مواريث النظام الجاهلي العقدية والفكرية والاجتماعية.. وبُنِيَتْ ركائزُ النظام الإسلامي البديل على حسابها، بما أعدته الدعوة من قاعدة جهادية مؤمنة واعية محتسبة، ذابت في الإسلام، واعتزت بخدمته. ورأت في ظهوره وامتداده في الأرض، ظهورًا لها وامتدادًا في التاريخ، كما عبر عن ذلك عمر رضي الله عنه بقوله:

---

(١٥) صالح أحمد الشامي، أضواء على دراسة السيرة/ ٣٩.

«نحن قوم أعزَّنا الله بالإسلام، فمهما ابتغينا العزةَ في غيره أذلّنا الله»[16].

ومن هنا نطمئن إلى القول بأن ما أنجزته الدعوة في مكة، يحتل موقع الأرضية القاعدية بالنسبة للأهداف الاستراتيجية الكبرى للرسالة الإسلامية، بدونها يصير كل جهد بِناءً على غير أساس، لا يمكنه أن يتم، ناهيك عن أن يطمح إلى الصمود والتأثير والتألّق.

فما أنجزته الدعوة في الفترة المكية من مكاسب كبيرة، يعد بحق العمق القاعدي المكين الذي قامت عليه باقي التحوّلات الضخمة في ما بعد، حينما أخذ النموذج الإسلامي البديل، يستكمل بُعْدَه الاجتماعي والحضاري، ويلقي بظلاله على النماذج المعاصرة الأخرى التي أخذت شمسها في الغروب.

هذه بصفة عامة نتائج البحث في ما يتصل بمنجزات الدعوة ومكاسبها الأساسية في الفترة المكية، وبقي الجزء الأهم من هذه النتائج وهو المتعلق بالعوامل والأسباب التي ساعدت على تحقيق هذا النجاح الكبير، في ظروف جدّ قاسية، عانت فيها الدعوة وقيادتها وقاعدتها.. من تحديات خطيرة، وهو ما سنراه في ما يلي:

٣ ـ نتائجها على مستوى المنهج النبوي في حماية الدعوة والمحافظة على منجزاتها

ومن خلال تتبعنا للخطوات المنهجية التي كان عليه الصلاة والسلام يعرض بها الإسلام على الناس، ويواجه بها مشكلات الواقع والدعوة، ويحرك بواسطتها الأحداث لهدم الأسس والمرتكزات الفكرية والعقدية والاجتماعية.. للنموذج الجاهلي، وبناء النموذج الاجتماعي البديل.. تأكد لدينا أن النجاح الكبير الذي حققته الدعوة يعود إلى المنهج الذي اعتمده عليه الصلاة والسلام في عملية الهدم والبناء.

---

(١٦) هيكل، الفاروق عمر / ١٩١.

وهو ما عملنا على استقصاء بعض مفرداته الأساسية في هذه الرسالة، من خلال فصولها الثلاثة الأخيرة، ونحاول الآن استخلاص المعالم الرئيسية الكبرى لهذا المنهج، الذي كان وراء نجاحه عليه الصلاة والسلام في حماية الدعوة.

ـ المبدئية

وهي المعلم الأول من معالم المنهج النبوي الذي كان له دور أساسي في حماية الدعوة والمحافظة على منجزاتها.

ونقصد بالمبدئية هنا: التزام النبي ﷺ في سلوكه ومواقفه وعلاقاته بمقررات الدعوة وثوابتها، وجعلها فصلاً بينه وبين الناس، في الأخذ والعطاء، والموافقة والمخالفة، والولاء والبراء، والإقدام والإحجام.

فثوابت الإسلام، ومصلحه الدعوة إليه، هي الحاكم والموجّه لكل تصرفاته وأعماله، في عسره ويسره، ومنشطه ومكرهه، لا يحيد عنها قيد أنملة، مهما كلّفه ذلك من متاعب وتضحيات جسام.

فالنبي ﷺ في عمله الدعوى، اعتصم بمبادئ الدعوة وثوابتها، وانشدّ إليها انشدادًا محكمًا في كل خطواته، سواء ما اتصل منها بعرض حقائق الإسلام على الناس، أو ما تعلق بمواجهته لمشكلات الواقع والدعوة، أو تحريك الأحداث من حوله، نحو الغايات التي يريدها.

ففي كل ذلك كان عليه الصلاة والسلام يلتزم بصرامة مقرراتِ الشرع وأحكامه، ويتحرّى مصلحة الدعومة إليه، ويدور معها حيث دارت، ولا يبالي، كما قال عليه الصلاة والسلام في دعائه الخاشع، عند عودته من الطائف حزينًا مهمومًا: «إن لم يكن بك غضب عليّ فلا أبالي»[١٧].

وقد مرت في الباب الأخير من هذا المبحث نماذج عديدة لمواقفه المبدئية الصارمة الحازمة التي كان يقطع بها الطريق على محاولات القوى المضادة الاستدراجية التي نبّه إليها القرآن في قوله تعالى:

---

(١٧) ابن هشام، مرجع سابق ٢/ ٦١.

﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ۝٩﴾ [القلم: ٩]. أي لو تلين لهم في دينك بإجابتك أياهم إلى الركون إلى آلهتهم، فيلينون لك في عبادتك إلٰهك[١٨].

وبهذا الالتزام المبدئي الصارم، استطاع عليه الصلاة والسلام أن يحمي الدعوة في مضمونها الرسالي، وأن يحافظ على منجزاتها، وخاصة ما تعلق منها بالقاعدة الجهادية، التي كان يعمل على بنائها ويعلق عليها آمالاً كبيرة، رغم ضراوة التحديات التي كانت تواجهه وتعاكس سيره، وتضغط عليه للتنازل[١٩] ولو عن شيء يسير من مبادئ الدعوة.

ولعل من المفيد جدًا في هذا المقام، معرفة سر هذا الانشداد القوي لثوابت الدعوة، والاعتصام الصارم بمقرراتها الذي شكل بحق الصخرة التي تحطمت عليها آمال ومشاريع القوى المضادة لاستيعاب الدعوة وقيادتها.

وباختصار نقول إن سبب ذلك يكمن ـ والله أعلم ـ في استيعابه عليه الصلاة والسلام العميق لمشروع الدعوة، في أهدافه ومنطلقاته ومضمونه، واقتناعه المكين به وبقدرته على حل مشكلات الإنسانية، والسير بها في طريق تحقيق أمثل مستوى استخلافي في عالم الشهادة، ونيل أرفع المقامات في عالم الخلود، لأنه من صنع حكيم خبير.

هذا الوضوح للمشروع في ذهنه عليه الصلاة والسلام، وهذه الثقة المطلقة في مصداقيته وأحقيته، كما أكد ذلك القرآن في صيغة الأمر[٢٠] في قوله تعالى:

﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٤٣ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ۝٤٤﴾ [الزخرف: ٤٣، ٤٤]. هي التي كانت وراء هذا الانشداد لمقرراته، والاعتصام بثوابته.

أي وراء هذه المبدئية العالية التي شكّلت الثابتة الأساسية الأُولى في منهجه

---

(١٨) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٢٩/ ٢١.
(١٩) الحلبي، السيرة الحلبية ١/ ٣٤٠.
(٢٠) الألوسي، روح المعاني ٢٥/ ٨٤.

التغييري عليه الصلاة والسلام، والعامل الحاسم في حماية الدعوه والمحافظة على منجزاتها.

ـ الواقعية

وهي المعلم الثاني من معالم المنهج النبوي في حماية الدعوة والمحافظة على منجزاتها.

ونعني بها هنا: التعامل الموضوعي مع الواقع الإنساني في أبعاده الفطرية الثابتة، وما يطرأ عليها من أوضاع وملابسات، لتكييفه تدريجيًا مع سنن الله في الآفاق والأنفس والكتاب، وترقيته إلى المستوى الاستخلافي الممكن.

فالدعوة الإسلامية كما رأينا في الباب الأول، دعوة واقعية في ذاتها أي في ما جاءت به من تشريعات حياتية، وفي منهجية تبليغها وتطبيقها[٢١] وهو البعد الذي يعنينا في هذه الدراسة بالدرجة الأولى.

ومن خلال تتبعنا لمراحل الدعوة النبوية المختلفة في المرحلة المكية، ومنهجيته عليه الصلاة والسلام في مواجهة مشكلات الواقع والدعوة، تأكد لنا أن الواقعية بمفهومها السابق، كانت من معالم منهجه عليه السلام في عرض الإسلام على الناس، ومواجهته لأعباء البناء وتحدياته.

حيث كان ﷺ واقعيًا في كل خطواته، لا يهمل الواقع الإنساني، ولا يتعالى عليه، ولا يسقطه من حساباته، اتكالاً على كونه نبيًا مؤيَّدًا بالوحي، ومسددًا به، بل كان شديد العناية بمعرفته، والإحاطة بأوضاعه وملابساته التي كثيرًا ما كيّف على ضوئها خطواته ومواقفه الإجرائية للإفادة منها في تحريك الأحداث بإيجابية نحو تحقيق مقاصد الدعوة وأهدافها.

وقد بلغ بروز هذا الجانب في منهج عمله درجة كبيرة[٢٢] تجعل الإنسان

---

(٢١) د. عبد المجيد النجار، الإسلام والواقع الإنساني. بحث نشر ضمن كتاب: الدين والمجتمع /٩٥.

(٢٢) د. البوطي، فقه السيرة/ ١٨٥.

يحسّ وكأن رسول الله ﷺ لا يقيم وزنًا إلا للأخذ بالأسباب في مواجهة تحديات الواقع والدعوة، من جراء ما كان يحرص على توفير الضمانات اللازمة والممكنة لنجاح عمله[٢٣].

فالمرونة في التعامل مع الواقع الإنساني، خاصية أساسية في المنهجية النبوية، حيث كان عليه الصلاة والسلام، يبدأ في تغيير واقع الناس أفرادًا وجماعات، من النقطة التي هم فيها فعلاً، ولا يغفل واقعهم وملابساته، بل يتحرك بهم في حدود الطاقة البشرية، وفي حدود الواقع المعاش في شتى البيئات والمستويات[٢٤] ليرتقي بهم شيئًا فشيئًا، نحو مستويات رفيعة من الإيمان والالتزام والعطاء.

ولقد كان لهذا البعد في المنهج النبوي أهمية كبيرة، إلى جانب البعد السابق، في حماية الدعوة والمحافظة على منجزاتها خلال الفترة المكية، بما تمكن عليه الصلاة والسلام - من خلالهما - من توفيره من شروط وضمانات أساسية كَفَلَ بعضُها جانبَ الصرامة والصمود في وجه الضغوط والإغراءات التي كانت تستهدف التأثير في مضمون الرسالة ذاته، وكفل بعضها الآخر جانب المرونة في الاستفادة من معطيات الواقع وملابساته، لتخفيف الضغوط عن الدعوة وتعزيز مواقعها شيئًا فشيئًا.

ومن المهم الحيوي هنا، أن نلاحظ أنه من العوامل الأساسية التي مكّنت النبي ﷺ من التحقق عمليًا بهذه الواقعية الحركية التي كان لها شأن كبير في حماية الدعوة والمحافظة على منجزاتها: إحاطته العميقة والشاملة عليه الصلاة والسلام بالخريطة النفسية والاجتماعية.. لبيئة الدعوة، وخبرته بالنفس الإنسانية، مما أعانه على التقدير الجيد للموقف في كل خطوة يخطوها لتقويض ركائز المجتمع الجاهلي، وبناء المجتمع الإسلامي البديل.

---

(٢٣) الغزالي، فقه السيرة / ١٦٨.

(٢٤) سيد قطب، هذا الدين / ٨.

ـ الفعالية

وهي المعلم الثالث من معالم المنهج النبوي في حماية الدعوة والمحافظة على منجزاتها.

ونقصد بها هنا: القدرة على الاستفادة القصوى من الظروف والإمكانات المتاحة، لإثارة الاهتمام بالدعوة، ومواجهة المشكلات التي يثيرها الواقع في وجهها بكفاءة[٢٥].

فالجهد النبوي تميز بنزعته العملية الشديدة، وإيجابيته الكبيرة، بكل ما يعنيه ذلك ويتضمنه من: روح المبادرة، والدأب ومتابعة العمل، والنظام والانضباط، وقوة الإرادة، والجدية، والطموح، والحماس، والرغبة في النجاح، والمصابرة والمجالدة، والثبات، والمرونة..

وفي الفصول الأخيرة من البحث، صور كثيرة عن هذه الروح العملية الفذة والإيجابية الكبيرة، في نشر الدعوة وإثارة اهتمام المجتمع بها، والقدرة على مواجهة مشكلاتها العديدة التي كان الواقع الجاهلي يفرزها ضدّها، في سياق التدافع الشديد بينهما.

حيث ظهر لنا جليًّا كيف تمكّن عليه الصلاة والسلام من استيعاب أتباعه تربية وتنظيمًا وتيسيرًا ورعاية، والاستفادة القصوى من كل إمكاناتهم الفكرية والمادية، وظروفهم الاجتماعية في خدمة أهداف الدعوة[٢٦]، وتهيئة الشروط اللازمة لحماية مكتسباتها المحققة.

كما تبين لنا كذلك كيف استطاع عليه الصلاة والسلام أن يوظف إمكانات وظروف البيئة الجاهلية نفسها، في خدمة أهداف الدعوة، وحماية منجزاتها بكفاءة

---

(٢٥) مالك بن نبي، تأملات /١٢٥. الدكتوران دسوقي وسفر، ثغرة في الطريق المسدود /٩٥. المرجع في مصطلحات العلوم الاجتماعية /١٥٣. جودت سعيد، الإنسان حين يكون كلا وحين يكون عدلاً /٩.

(٢٦) سعيد حوى، الرسول ﷺ ١/٢٠٣، ٢١٣.

عالية، أعجزت القوى المضادة بكل إمكاناتها عن تطويق الدعوة واستيعابها، وشل حركتها، الأمر الذي جعلها ـ أي القوى المضادة ـ تعيش في ارتباك متواصل قادها إلى مواقف كانت عونًا كبيرًا للدعوة في استحكام أمرها، وإثارة اهتمام المجتمع بها، وانفتاح الآفاق أمامها.

وقد أعانه ﷺ على هذه الاستفادة القصوى من الظروف والإمكانات المتاحة في بيئة الدعوة عمومًا، وضوحُ أهداف دعوته، واقتناعه الراسخ بأنه يحمل خيرًا كثيرًا للإنسانية، لا بد أن يقدمه لها، ومرونته الكبيرة في التعامل مع الواقع الإنساني، وإحساسه العميق بالمسؤولية الملقاة على عاتقه في تغييره، ومعرفته المكينة بالمجتمع وقواه المختلفة، وعدم استنكافه من الاستفادة من خبرات غيره من أتباعه ومن تجاربهم، بل ومن المشركين أنفسهم.

كل هذه العوامل طبعت حياته عليه الصلاة والسلام بجدية كبيرة، ومنحته القدرة على الاستيعاب الجيد للموقف، والتقدير الدقيق لاحتياجاته الإجرائية على مستوى كفاءة الوسائل والأساليب(٢٧)، الأمر الذي أعطى لجهده فعالية كبيرة، ساهمت بقسط وافر في حماية الدعوة والمحافظة على منجزاتها، وفسحت لها المجال للامتداد على حساب الواقع الجاهلي.

ـ الاستمرارية

وهي المعلم الرابع من معالم المنهج النبوي في حماية الدعوة والمحافظة على منجزاتها.

ونقصد بها هنا: الاندفاع المنهجي المتواصل نحو الهدف، بغير كلل ولا ملل، مهما طال أمد التحديات، واشتدت وطأتها على الدعوة وشمل ساحاتها جميعًا.

وقد تأكد لنا من خلال تتبع تطورات أحداث الحركة النبوية في المراحل التأسيسية الثلاث في الفترة المكية، أن ثباته ﷺ على الدعوة، وصموده في وجه

---

(٢٧) جان بيريه، الذكاء والقيم المعنوية في الحرب / ٥.

التحديات التي كانت تكتنف وجودها، واندفاعه المتواصل بها نحو غاياتها المرسومة، شكّل أحدَ أهم أسباب النجاح في حماية الدعوة والمحافظة على منجزاتها.

ومع أن القوى المضادة كان هدفها المحوري هو إعاقة هذه الدعوة عن التواصل والاستمرارية، وبذلت من أجل ذلك جهودًا مضنية ومنهكة، تحطمت كلها على صخرة الصمود النبوي، وإصراره على الاستمرار في السير نحو أهدافه بكل جدية وفعالية وطموح.

حيث كانت هذه القوى تفاجأ كل مرة تظن فيها أن جهدها سيؤتي ثماره في إيقاف الدعوة، أو تحريفها عن مسارها، أو تجميد حركتها، بأنها كانت واهمة، وأن ما أقدمَتْ عليه قد خدم خصمها بشكل كبير.

وتعود هذه الاستمرارية في الجهد النبوي، إلى الالتزام المبدئي الصارم في حركته عليه الصلاة والسلام، وإلى واقعيته في مواجهة أعباء البناء وتحديات الواقع، وإلى الفعالية الكبيرة التي اتسم بها عمله، وانطبعت بها حياته، وإلى حسن استعانته بالله تعالى وتوكله عليه كما سيأتي لاحقًا.

ـ استراتيجية الإحسان

وهي المعلم الخامس من معالم المنهج النبوي في حماية الدعوة والمحافظة على منجزاتها.

ونعني بها هنا: اتسام علاقته ﷺ بغيره من الناس بالروحية الأخلاقية العالية التي تهيمن عليها مشاعر الرأفة والشفقة والحب والرحمة والصفح والتجاوز.. من أجل انتشالهم من أوحال الضلال، واستنقاذ حياتهم من تبعيّة خطيرة في آجلهم وعاجلهم.

فالرسول ﷺ في عمله الدعوي كان شديد الحرص على استنقاذ الناس مما هم فيه من انحراف وضلال وحياة ضنكة، كما يشير إلى ذلك القرآن في مثل قوله تعالى:

﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ ﴾ [الكهف: ٦].

وقوله عز وجل:

﴿ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [فاطر: ٨].

فقد كان عليه السلام يتألم من حركة الإنسان خارج مدار المشروعية، يتحسر من ذلك، لأنه سَيْرٌ في الاتجاه المناقض لسنن الله في الآفاق والأنفس والكتاب، لا يجني منه صاحبه إلا الخسران. وهو ما جعله عليه الصلاة والسلام يعملُ كل ما في وسعه من أجل تجنيب الإنسان هذا المصير، والانتقال به إلى وضعية التناغم والانسجام مع فطرته وفطرة الحياة من حوله، رغم ما كان يلقاه من الإعراض والأذى والعَنَت، كما سبق بيان ذلك مفصلاً.

فمع ما لحقه عليه الصلاة والسلام من المتاعب الكثيرة، وما قاساه على أيدي الملأ من قريش وغيرها، لم ينقم عليهم، ولم تتغير نفسه، بل ظلّ قلبه طافحًا بمشاعر الشفقة عليهم، والرأفة بهم، ورجاء الخير لهم، وازداد انفتاحًا عليهم، وعملاً على إيصال دفء الدعوة إلى نفوسهم وعقولهم.

لقد كان لهذه الاستراتيجية دور كبير جدًّا في منهج حماية الدعوة والمحافظة على منجزاتها خلال الفترة المكية بالخصوص، لأنها ساهمت بفعالية في تجنيب الدعوة متاهات الانزلاق نحو المواجهات المحمومة التي تغيّب الفكرة وتغطّي عليها، وتبرّر مواقف القوى المضادة من جهة، كما عملت على تعرية هذه الأخيرة، وعززت مكانة النبي ﷺ، وأعانت على مراجعة مواقفها وقناعتها باستمرار من جهة أخرى.

وقد أعانه عليه الصلاة والسلام على التزام استراتيجية الإحسان في علاقاته بالآخرين، سواء أكانوا من أتباعه أو من أعدائه أو من غيرهما، العمقُ الإنساني البعيد الغور في شخصيته الفذة التي تربَّتْ على عين الله تعالى كما سبق بيان ذلك، فجاءت رحمة للعالمين كما قال سبحانه وتعالى بحق:

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

ـ الاستعانة

وهي المعلم السادس من معالم المنهج النبوي في حماية الدعوة والمحافظة على منجزاتها.

ونعني بها هنا: طلب المعونة من الله سبحانه وتعالى على تيسير إتمام العمل بعد استفراغ القوة في الاستقلال به، والعجز عن ذلك، أو الخوف من عدم النجاح فيه(٢٨).

ومن خلال تتبعنا لخطوات النبي ﷺ في عرض الإسلام على الناس، ومواجهة مشكلات الواقع والدعوة، وتحريك الأحداث نحو هدم أسس المجتمع الجاهلي ومرتكزاته، وبناء المجتمع الإسلامي البديل مكانه، تبين لنا أن التوكّل على الله، والاستعانة به، بعد استفراغ الوِسْع والطاقة في الأخذ بالأسباب(٢٩)، كانت من أبرز مميزات منهجه، وأقوى مؤيدات النجاح في عمله.

فهو عليه الصلاة والسلام رغم أنه مؤيَّد بالوحي، كان يتحرك ضمن سنن الله في خلقه، فيأخذ بالأسباب، ويتحرى العمل بها، فإذا ما استفرغ وسعه في استجماعها وانطلق في الإنجاز، التجأ إلى الله وفوّض الأمر له، وتجرّد من الحول والقوة، وطلب منه الحفظ والتأييد والتوفيق، ليقينه أن النتائج محاطة باحتمالات فشل كثيرة(٣٠) لا يعين على تلافيها إلاّ الله سبحانه وتعالى.

هكذا كان دأبه عليه الصلاة والسلام في عمله كله، ما دَقَّ منه وما جَلَّ.

ـ انضباط صارم بثوابت الشرع ومقرراته.

ـ مرونة حركية في التعامل مع معطيات الواقع الإنساني ومتغيراته.

ـ فعالية كبيرة في الإنجاز ومواجهة التحديات.

---

(٢٨) رشيد رضا، تفسير المنار ١/ ٦٠. ابن عاشور، التحرير والتنوير ١/ ١٨٤.
(٢٩) القاسمي، محاسن التأويل ٤/ ٢٧٩. ابن عاشور، التحرير والتنوير ٤/ ١٥١.
(٣٠) الميداني، العقيدة الإسلامية / ٨٠٠.

- اندفاع متواصل نحو الأهداف، دون كلل أو ملل أو توانٍ.

- توكل على الله، واستعانة به، واعتماد عليه بعد ذلك، لأن الأمر كله - في نهاية المطاف - بيده وحده ليفعل ما يشاء وما يريد[٣١]، لا معقب لحكمه.

وباستيفاء جهده عليه الصلاة والسلام لهذه الشروط، وارتكازه على هذه الأسس المكينة التي تجعله متناغمًا مع سنن الله في خلقه، ومنسجمًا معها في منطلقاته وغاياته، وحركته، استجمع عليه السلام أسباب النجاح في حماية الدعوة من التحريف والتشويه والاختزال، والمحافظة على منجزاتها، والاستفادة منها في السير المحكم، نحو تحقيق الأهداف الاستراتيجية الكبرى للإسلام في عالم الشهادة، وإدراك غاياته البعيدة في عالم الآخرة.

- نتائجها على مستوى آفاق الإفادة من المنهج اليوم

في ختام هذه النتائج، نود أن نشير إلى أن هذه الدراسة، وإن كانت قد انصبت كلية على التجربة النبوية في حماية الدعوة والمحافظة على منجزاتها، فإنها استهدفت كذلك من جهة أخرى المساهمة في ترشيد واقع العمل الإسلامي، وإنارة آفاق المستقبل أمامه، في ما يتعلق بهذه القضية الحيوية بالخصوص.

خاصة وأن الواقع التاريخي الحديث والمعاصر للعمل الإسلامي مليء بتجارب دعوية ورسالية عجز كثير منها[٣٢] عن حماية محتواه الرسالي من جهة، وأخفق في المحافظة على منجزاته من جهة أخرى، مما أدى إلى تأثير عميق على المحاولات المستميتة التي تبذلها الأُمة من أجل النهوض الحضاري، ومبارحة دائرة التخلف والتبعية.

وفي سياق هذه الآفاق المستقبلية للدراسة وانطلاقًا من حقيقة كون النبي ﷺ هو القدوة البشرية المعصومة[٣٣] في:

---

(٣١) سيد قطب، في ظلال القرآن ١/٥٠٣.

(٣٢) المودودي، موجز تاريخ تجديد الدين وإحيائه / ١١١. مالك بن نبي، في مهب المعركة / ١١٤. جودت سعيد، حتى يغيروا ما بأنفسهم / ٩.

(٣٣) د. عبد الغني عبد الخالق، حجيّة السُّنة / ٥٠٨.

- فهمه لحقيقة الرسالة، واستيعاب مقاصدها في الخلق.

- جهاده من أجل تعريف الناس بذلك، وإبلاغهم هدايات الله سبحانه وتعالى.

- عمله لتغيير أوضاعهم المناقضة لذلك، وبناء نموذج حياتي بديل منسجم مع سنن الله في الآفاق والأنفس، يمثّل «الإطار المرجعي الوحيد المعصوم» الذي يجب على الأُمة الاقتداء به، واستلهامه في مناهج سعيها[٣٤] الدؤوب لمطابقة نفسها مع الرسالة، وسنن الآفاق والأنفس.

انطلاقًا من هذه «المكانة المرجعية الخاصة» للنبي ﷺ التي تفرض على المسلمين ردَّ كلّ شيء إليها كما قال تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ﴾ [النساء: ٥٩].

وقال كذلك:

﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمٗا ٦٥﴾ [النساء: ٦٥].

وتأسيسًا على ما تمّ الوصول إليه في هذه الدراسة بشأن منهج النبي ﷺ في حماية الدعوة والمحافظة على منجزاتها خلال الفترة المكية، نرى أن العمل الإسلامي اليوم، لكي يتحقق عمليًا بصفة «إسلامي»، ويتمكن من حماية مضمونه الرسالي، والمحافظة على منجزات جهاده، والاستفادة منها في الدفع بأوضاع الأمة إلى المزيد من التحسن، والاقتراب من الأهداف الاستراتيجية للرسالة، عليه أن يستلهم المنهج النبوي في آفاقه «السننية» الكبرى، وخطواته

---

(٣٤) على ضوء التفاصيل المتعلقة بمراتب الاقتداء والاستلهام، كما بينها العلماء في حديثهم عن الجوانب التشريعية وغير التشريعية في سُنّته عليه الصلاة والسلام، أمثال: ابن قتيبة، مختلف الحديث/ ١٩٦. القرافي، الفروق ١/ ٢٠٥. رشيد رضا، تفسير المنار ٩/ ٣١٧. شلتوت، الإسلام عقيدة وشريعة/ ٤٢٧. ابن عاشور، مقاصد الشريعة/ ٣٠.

الكلية الثابتة التي تمثّل نتائج هذه الدراسة أهم مفاصله الأساسية ـ بحسب رأينا ـ.

وبغير هذا الاستلهام لخطوات المنهج النبوي في الفهم والدعوة والبناء والمواجهة، تظل جهود الأمة مشتتة ضائعة لا تعرف طريقها إلى غاياتها، وهو ما نبّه إليه الإمام مالك رضي الله عنه بمقولته الشهيرة:

«لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها»(٣٥).

أي أن نهوض مجتمع المسلمين اليوم، لا يمكن أن يتم إلا من خلال الظروف والشروط العامة التي تمّ فيها ميلاد المجتمع القدوة الأول، تحت رعاية الوحي وتسديده المباشر(٣٦)، فجاء «نموذجًا فذًا» في التطابق مع أهداف الرسالة ومقاصدها في الخلق من جهة، والتناغم مع سنن الله في الآفاق والأنفس من جهة أخرى، وهو ما يؤهله لاحتلال موقع «المرجعية والقدوة» بجدارة على مرّ التاريخ.

فالعمل الإسلامي على هذا الأساس، في حاجة إلى المزيد من الاقتراب البصير في مناهج عمله، من المنهج النبوي، والسعي الدؤوب للتحقّق عمليًا وبصورة تدريجية بالثوابت الأساسية الكبرى لهذا المنهج المتمثلة في:

ـ المبدئية والانشداد التام لثوابت الرسالة ومقرراتها على الصعيد العقدي والفكري والاجتماعي والسياسي..

ـ الواقعية في النظرة إلى الأوضاع الإنسانية القائمة، وفي التعامل معها تبريرًا وتغييرًا، لتكييفها تدريجيًا مع سنن الآفاق والأنفس والكتاب.

ـ الفعالية في الاستفادة من الظروف والإمكانات المتاحة، وتوظيفها بشكل جيد، ودقيق في التأثير السريع والعميق على مجريات الأحداث داخليًا وخارجيًا.

---

(٣٥) مالك بن نبي، ميلاد مجتمع / ٦٩.

(٣٦) عمر عبيد حسنة، مجلة الأمة ع: ٥١، ص: ٥.

ـ الاستمرارية في الاندفاع بهمة وانتظام نحو الهدف مهما كانت التحديات.

ـ اعتماد استراتيجية الإحسان في العلاقة بالآخرين كأصل في التعامل معهم، وعدم التهاون فيه، أو العدول عنه إلاّ في الحالات الاستثنائية الخاصة.

ـ الاستعانة بالله تعالى والتوكّل عليه، وتفويض الأمر له، والتضرع إليه بالدعاء للتكفل بالأمر بعد استفراغ الوسع في الأخذ بالأسباب، بدءً من الفهم ومرورًا بالتخطيط وانتهاء بالإنجاز.

فهذه هي الضمانات الأساسية التي تتيح للعمل الإسلامي حركة أصيلة قوية، يتجاوز بها العجز الملاحظ في مجال حماية المحتوى الرسالي لمشاريع البناء، والمحافظة على منجزاتها البشرية والمادية والمعنوية.

وهو ما يطرح أسئلة جوهرية ستتحكّم الإجابة عليها ـ في نظرنا ـ في الآفاق المستقبلية للعمل الإسلامي وبالتالي في مستقبل الأمة إلى حدّ بعيد.

وهذه الأسئلة المفصلية التي يجب أن تتحول إلى مشاريع مستقبلية، ذات أولوية قصوى تجنّد لها الكفايات الكبرى في الأمة، هي على سبيل المثال:

ـ كيف يتحقق العمل الإسلامي بهذه المبدئية العالية التي تُعد شرطًا قاعديًا لحماية المضمون الرسالي للعمل، والمحافظة على منجزاته؟.

كيف تصل الأمة إلى ذلك؟.

وقبله لماذا يضعف ـ أو يغيب أحيانًا ـ البعدُ المبدئي في العمل؟ وما آثار ذلك على مردوديته ومصداقيته؟.

ـ وكيف يتحقق هذا الجهد بالواقعية في النظرة إلى الأمور، وفي وضع مشاريع البناء والمواجهة، وفي إنفاذ هذه المشاريع؟.

وقبل ذلك، لماذا يتسم جزء كبير من الجهد الإسلامي بالمثالية وعدم الواقعية في تصور الأمور ومواجهتها؟ وما آثار ذلك على مردوديته ومصداقيته؟.

ـ وكيف يتحقق الجهد الإسلامي بالفعالية اللازمة في الاستفادة القصوى من الظروف والإمكانات المتاحة؟.

وما أسباب العطالة واللافعالية التي تلاحظ في جزء كبير من العمل الإسلامي؟ وما أثر ذلك على مردوديته ومصداقيته؟.

ـ وكيف يضمن هذا العمل لنفسه الاستمرارية وتواصل الاندفاع المنتظم نحو الأهداف المرسومة مهما كانت العوائق والمثبطات؟.

وكيف يتجاوز ظاهرة «الاستئنافية» التي أضرت به كثيرًا، وعرَّضتْ مصداقيته لاهتزاز كبير؟.

ـ وكيف يرتقي العمل الإسلامي إلى مستوى التوازن المطلوب في الأخذ بالأسباب والتوكل، والإعداد والاستعانة؟ باعتبار ذلك مؤشّرًا حقيقيًّا على سلامة الفهم من جهة، وشرطًا أساسيًّا لصحة العمل وفعاليته من جهة أخرى.

وفي الأخير، نستغفر الله ونتوب إليه مما قد يكون بدر منا من خطأ أو تقصير، ونحمده على ما وفقنا إليه من صواب.

فهرس المصادر والمراجع

أولاً: القرآن و كتب التفسير

١ ـ الألوسي، شهاب الدين محمود (١٢٧٠ هـ). روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، إدارة الطباعة المنيرية، د.ت

٢ ـ البغوي، أبو محمد الحسين بن مسعود الفراء (ت ٥١٦ هـ). تفسير البغوي المسمى معالم التنزيل، بتحقيق خالد عبد الرحمن، ط ١، دار المعرفة ـ بيروت ـ، ١٤٠٦ هـ ١٩٨٦ م

٣ ـ الجصاص، أبو بكر أحمد الرازي. أحكام القرآن، دار الصحف ـ القاهرة ـ، ١٤٠٥ هـ ١٩٨٥ م

٤ ـ ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي (ت ٥٩٧ هـ). زاد المسير في علم التفسير، ط ٣، المكتب الإسلامي ـ بيروت ـ، ١٤٠٤ هـ ١٩٨٤ م

٥ ـ حوى، سعيد (ت ١٩٨٨ م). الأساس في التفسير، ط ١، دار السلام للطباعة والنشر ـ القاهرة ـ، ١٤٠٥ هـ ١٩٨٥ م

٦ ـ دروزة، محمد عزة. القرآن المجيد، ط ١، المكتبة العصرية ـ بيروت ـ، د. ت

٧ ـ الرازي، الفخر. التفسير الكبير، ط ٣، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت ـ، ١٣٩٩ هـ ١٩٧٩ م

٨ ـ رضا، محمد رشيد. تفسير القرآن الحكيم الشهير بتفسير المنار، ط ٢، دار المعرفة للطباعة والنشر ـ بيروت ـ، بدون تاريخ

٩ ـ السيوطي، عبد الرحمن جلال الدين. الدّر المنثور في تفسير المأثور، ط ١، دار الفكر ـ بيروت ـ، ١٤٠٣ هـ ١٩٨٣ م

١٠ ـ الشوكاني، محمد بن علي (ت ١٢٥٠ هـ). **فتح القدير الجامع بين الرواية والدراية من علم التفسير**، ط ٢، مكتبة ومطبعة البابي الحلبي ـ القاهرة ـ، ١٤٠٣ هـ ١٩٨٣ م
١١ ـ الطباطبائي، محمد حسين. **الميزان في تفسير القرآن**، قم المقدسة ـ إيران ـ، د.ت
١٢ ـ الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠ هـ). **جامع البيان عن تأويل آي القرآن**، ط ٢، مطبعة مصطفى الحلبي ـ القاهرة ـ، ١٣٧٣ هـ ١٩٥٤ م
١٣ ـ الطبري، عماد الدين بن محمد المعروف بالكيا الهراسي (ت ٥٠٤ هـ). **أحكام القرآن**، ط ٢، دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ، ١٤٠٥ هـ ١٩٨٥ م
١٤ ـ ابن عاشور، محمد الطاهر. **تفسير التحرير والتنوير**، ط ١، الدار التونسية للنشر ـ تونس ـ، ١٩٨٤ م
١٥ ـ ابن العربي، أبو بكر (ت ٥٤٣ هـ). **أحكام القرآن**، دار المعرفة للطباعة والنشر ـ بيروت ـ، بدون تاريخ.
١٦ ـ فضل الله، محمد حسين. **من وحي القرآن**، ط ١، دار الزهراء ـ بيروت ـ، ١٣٩٤ هـ ١٩٧٤ م
١٧ ـ القاسمي، محمد جمال الدين (ت ١٩١٤ م). **محاسن التأويل**، ط ٢، دار الفكر ـ بيروت ـ، ١٣٩٨ هـ ١٩٧٨ م
١٨ ـ قطب، سيد (ت ١٩٦٥ م). **في ظلال القرآن**، دار الشروق ـ بيروت ـ، ١٣٩٤ هـ ١٩٧٤ م
١٩ ـــــــ مشاهد القيامة في القرآن، دار الشروق ـ بيروت ـ، د. ت
٢٠ ـ القرطبي، أبو عبد الله. **الجامع لأحكام القرآن**، ط ١، الكتاب العربي للطباعة والنشر ـ بيروت ـ، ١٣٨٧ هـ ١٩٦٧ م
٢١ ـ ابن القيم، شمس الدّين أبو عبد الله محمد (ت: ٧٥١). **التفسير القيم ـ تحقيق محمد حامد الفقي** ـ، ط ١، دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ، ١٣٨٩ هـ ١٩٧٨ م
٢٢ ـ ابن كثير، عماد الدين أبي الفدا إسماعيل (٧٤٤ هـ). **تفسير القرآن العظيم**، ط ٢، دار الفكر ـ بيروت ـ، ١٣٨٩ هـ ١٩٧٠ م

ثانياً: كتب السُّنّة

١ ـ ابن حنبل، أحمد. **المسند**، ط ٢، المكتب الإسلامي ـ بيروت ـ دار الفكر، ١٣٩٨ هـ ١٩٨١ م
٢ - عبد الخالق، عبد الغني. **حجية السُّنة**، ط ١، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، واشنطن، ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م

٣ ـ ابن العربي، المالكي (ت ٥٤٣). **عارضة الأحوذي بشرح صحيح الترمذي**. ط ١، دار العلم للجميع ـ بيروت ـ، د. ت

٤ ـ العسقلاني، أبو الفضل شهاب الدين أحمد بن علي بن حجر. **فتح الباري بشرح صحيح البخاري**، ط ٢، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت ـ، ١٤٠٢ هـ

٥ ـ القزويني، الحافظ بن عبد الله محمد بن يزيد (ت ٢٧٥). **سنن ابن ماجة** تحقيق **محمد فؤاد عبد الباقي**، دار الفكر ـ بيروت ـ، دون تاريخ.

٦ ـ مالك، ابن أنس. **الموطأ**، ط ١٠، دار النفائس ـ بيروت ـ، ١٤٠٧ هـ ١٩٨٧ م

٧ ـ المنذري، زكي الدين عبد العظيم. **مختصر صحيح مسلم**، تحقيق: **محمد ناصر الدين الألباني**، ط ٥، المكتب الإسلامي ـ بيروت ـ ١٤٠٥ هـ ١٩٨٥ م

٨ ـ النسائي، أحمد بن شعيب (ت ٣٠٣ هـ). **سنن النسائي**، ط ١، دار المعرفة ـ بيروت ـ، ١٤١١ هـ ١٩٩١ م

٩ ـ النووي، يحي بن شرف. **صحيح مسلم بشرح النووي**، ط ١، مطابع دار الشعب ـ القاهرة ـ، بدون تاريخ.

ثالثاً: كتب العقيدة

١ ـ د. الأشقر، سليمان. **الرسل والرسالات**، ط ٢، مكتبة الفلاح ـ الكويت ـ، ١٤٠٣ هـ ١٩٨٣ م

٢ ـ د. الأشقر، سليمان. **العقيدة في الله**، ط ٥، مكتبة الفلاح ـ الكويت ـ، ١٩٨٤ م

٣ ـ د. البوطي، محمد سعيد رمضان. **كبرى اليقينيات الكونية**، ط ٥، دار الفكر ـ بيروت ـ، ١٩٨٧ م

٤ ـ ابن تيمية، أحمد. **العبودية**، دار لقمان للنشر والتوزيع ـ تونس ـ، بدون تاريخ.

٥ ـ د. الدسوقي، طه. **نظرية النبوة في الإسلام**، ط ١، دار الهدى ـ القاهرة ـ، ١٤٠١ هـ ١٩٨١ م

٦ ـ الطحاوي، أبو جعفر أحمد بن سلامة. **أصول العقيدة الطحاوية مع منتخبات من شرح الأذرعي**، دار الشهاب ـ باتنة ـ، بدون تاريخ.

٧ ـ عبود، عبد الغني. **اليوم الآخر والإنسان المعاصر**، ط ١، دار الفكر العربي ـ القاهرة ـ، ١٩٧٨ م

٨ ـ الميداني، عبد الرحمن حسن حينكة. **العقيدة الإسلامية**، ط ٥، دار القلم ـ دمشق ـ، ١٤٠٨ هـ ١٩٨٨ م

٩ ـ الميلي، مبارك محمد. **رسالة الشرك ومظاهره**، ط ٣، دار البعث ـ قسنطينة ـ، ١٤٠٣ هـ ١٩٨٢ م

١٠ ـ ياسين، محمد نقيم. الإيمان، ط ١، دار الفلاح ـ الكويت ـ، ١٤٠٣ هـ ١٩٨٣ م

رابعاً: كتب السِّيرة والتراجم

١ ـ الأصفهاني، أحمد بن عبد الله أبو نعيم. **دلائل النبوة**، ط ٢، دار النفائس ـ بيروت ـ، ١٤٠٦ هـ ١٩٨٦ م

٢ ـ البوطي، محمد سعيد رمضان. **فقه السيرة**، ط ٨، دار الفكر للطباعة والنشر ـ القاهرة ـ، ١٣٨٩ هـ ١٩٧٠ م

٣ ـ البيهقي، أبو بكر محمد بن الحسن بن علي. **دلائل النبوة**، تحقيق: عبد الرحمن عثمان، ط ١، مطابع دار النصر ـ القاهرة ـ، ١٣٨٩ هـ ١٩٧٣ م

٤ ـ ابن الجوزي: أبو الفرج عبد الرحمن ابن علي (ت ٥٩٧). **صفة الصفوة**. تحقيق محمد فاخوري، ط ٣، دار المعرفة ـ بيروت ـ، ١٤٠٦ هـ ١٩٨٥ م

٥ ـ الحربي، علي بن جابر. **منهج الدعوة النبوية في المرحلة المكية**، ط ١، الزهراء للإعلام العربي، ١٤٠٦ هـ ١٩٨٦ م

٦ ــــــــــ **الأساس في السُّنة وفقهها**، ط ١، دار الإسلام للطباعة والنشر ـ بيروت ـ، ١٤٠٩ هـ ١٩٨٩ م

٧ ـ حوى، سعيد. **الرسول (ص)**، ط ٤، دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ، ١٣٩٩ هـ ١٩٧٧ م

٨ ـ دروزة، محمد عزة. **سيرة الرّسول (ص)**، ط ٢، مطبعة عيسى الحلبي، ١٣٨٤ هـ ١٩٦٥ م

٩ ـ دويدار، أمين. **صور من حياة الرّسول (ص)**، ط ٥، دار المعارف ـ القاهرة ـ، ١٩٨٣ م

١٠ ـ أبو زهرة، محمد. **خاتم النبيين**، ط ١، دار الفكر العربي ـ بيروت ـ، ١٤٠٣ هـ ١٩٨٣ م

١١ ــــــــــ **مالك**، ط ١، دار الفكر العربي ـ القاهرة ـ، ١٩٧٨ م

١٢ ـ سبع، محمد توفيق. **أضواء على الهجرة**، ط ١، الهيئة، العامة لشؤون المطابع الأميرية ـ القاهرة ـ، ١٣٩٣ هـ ١٩٧٣ م

١٣ ـ ابن سعد، محمد (ت ٢٣٠ هـ). **الطبقات الكبرى**، دار صادر ـ بيروت ـ، بدون تاريخ

١٤ ـ السمان، محمد عبد الله. **الهجرة بداية مراحل التحويل والانطلاق**، ط ١، الشركة المصرية للطباعة ـ القاهرة ـ، ١٣٩٢ هـ ١٩٧٢ م

١٥ ـ ابن سيد الناس. **عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسِّيَر**، دار الآفاق الجديدة ـ القاهرة ـ، ١٤٠٢ هـ ١٩٨٢ م

١٦ ـ السهيلي، أبو القاسم عبد الرحمن. **الروض الآنف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام**، ط ١، مطبوعات مكتبة نجم شقرون ـ القاهرة ـ، بدون تاريخ.

١٧ ـ السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن (ت ٩١١). **كفاية الطالب اللبيب في خصائص الحبيب** المعروف بـ: **الخصائص الكبرى**، ط ١، دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ، بدون تاريخ

١٨ ـ شاكر، محمود. **التاريخ الإسلامي قبل البعثة والسيرة**، ط ٤، المكتب الإسلامي ـ بيروت ـ، ١٤٠٥ هـ ١٩٨٦ م

١٩ ـ الشامي، صالح أحمد. **أضواء على دراسة السيرة**، ط ١، المكتب الإسلامي ـ بيروت ـ، ١٤١١ هـ ١٩٩٠ م

٢٠ ـ شلبي. أحمد. **موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية**، ط ١٢، مكتبة النهضة المصرية ـ القاهرة ـ، ١٩٨٧ م

٢١ ـ أبو شهبة، محمد. **السيرة النبوية في ضوء الكتاب والسّنة**، ط ٥، دار القلم ـ بيروت ـ، ١٤٠٨ هـ ١٩٨٨ م

٢٢ ـ الصعيدي، عبد المتعال، **السياسة الإسلامية في عهد النبوة**، ط ٢، دار الفكر ـ القاهرة ـ، بدون تاريخ.

٢٣ ـ ابن عبد البرّ. **الدرر في اختصار المغازي والسيَّر**، ط ١، دار التحرير للطباعة والنشر ـ القاهرة ـ، ١٣٨٦ هـ ١٩٦٦ م

٢٤ ـ ابن عبد الوهاب، عبد الله بن محمد. **مختصر سيرة الرسول (ص)**، ط ١، دار الفكر ـ بيروت ـ، ب. ت

٢٥ ـ عرجون، محمد الصادق. **محمد رسول الله (ص)**، ط ١، دار الشهاب للطباعة والنشر ـ باتنة ـ، بدون تاريخ

٢٦ ـ العقاد، عباس محمود (ت ١٩٦٤). **عبقرية محمد**، دار الكتب الحديثة ـ القاهرة ـ، ١٣٨٥ هـ ١٩٦٦ م

٢٧ ــــــــــــــــ **مطلع النور**، دار الهلال ـ القاهرة ـ، ١٩٥٥

٢٨ ـ د. العلي، صالح أحمد. **الدولة في عهد الرّسول (ص)**، ط ١، مطبعة المجمع العلمي العراقي ـ بغداد ـ، ١٩٨٨ م

٢٩ ـ عياض، أبو الفضل اليحصبي (ت ٥٤٤). **الشفا بتعريف حقوق المصطفى**، دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ، بدون تاريخ

٣٠ ـ الغزالي، محمد. **فقه السيرة**، ط ١، دار الشهاب للطباعة والنشر ـ باتنة ـ، ١٤٠٨ هـ ١٩٨٨ م

٣١ ـ قلعجي، محمد رواس. **التفسير السياسي للسيرة**، ط ١، دار السلام ـ بيروت ـ، د. ت

٣٢ ـــــــــــــ **دراسة تحليلية لشخصية الرّسول (ص)**، ط ١، دار النفائس ـ بيروت ـ، ١٤٠٨ هـ ـ ١٩٨٨ م

٣٣ ـ ابن قيم الجوزية، شمس الدين أبو عبيد الله. **زاد المعاد في هدى خير العباد**. تحقيق: شعيب الأرنؤوط وأخوه عبد القادر، ط ١، مؤسسة الرسالة ـ بيروت ـ، ١٤٠٢ هـ ـ ١٩٨٢ م

٣٤ ـ ابن كثير، عماد الدين أبو الفدا إسماعيل (ت ٧٧٤). **السيرة النبوية**، تحقيق: د. مصطفى عبد الواحد، ط ٢، عيسى الحلبي ـ القاهرة ـ، ١٣٨٩ هـ ـ ١٩٧٣ م

كحيل، عبد الوهاب. **الجوانب الإعلامية في حياة الرسول، مرحلة الإعداد والممارسة في مكة**، دار الهداية للطباعة والنشر والتوزيع ـ القاهرة ـ، ١٩٨٧ م

٣٦ ـــــــــــــ **الحرب النفسية ضد الإسلام في عهد الرّسول في مكة**، عالم الكتب ـ القاهرة ـ، ١٩٣٦ هـ ـ ١٩٨٦ م

٣٧ ـ الماوردي: أبو الحسن علي بن محمد. **أعلام النبوة**، بدون مكان للطبع، د. ت

٣٨ ـ المباركفوري، صفي الرحمن. **الرحيق المختوم**، ط ١، مؤسسة الطباعة ـ جدة ـ، ١٤٠٠ هـ ـ ١٩٨٠ م

٣٩ ـ مرزوق، عبد الصبور. **السيرة النبوية في القرآن الكريم**، ط ١، مكتبة رحاب ـ الجزائر ـ، ١٩٨٧ م

٤٠ ـ المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي. **إمتاع الأسماع بما للرّسول من الأتباع والأخوال والخفرات والمتاع**، تحقيق: محمود شاكر، ط ١، القاهرة، ١٩٤١ م.

٤١ ـ مولانا محمد علي. **حياة محمّد ورسالته**، ط ٤، دار العلم للملايين ـ بيروت ـ، ١٩٧٩ م

٤٢ ـ مونتغمري: وات. **محمد في مكة**. ترجمة: شعبان بركات، ط ١، المكتبة العصرية ـ بيروت ـ، ١٩٥٢ م

٤٣ ـ مؤنس، حسين. **دراسات في السيرة النبوية**، الزهراء للإعلام العربي ـ القاهرة ـ، ١٤٠٥ هـ ـ ١٩٨٥ م

٤٤ ـ الندوي، أبو الحسن علي الحسيني. **السيرة النبوية**، ط ٢، دار الشروق ـ القاهرة ـ، ١٤٠٣ هـ ـ ١٩٨٣ م

٤٥ ـ الندوي، سليمان. **الرسالة المحمدية**، ط ٢، دار السعودية للنشر والتوزيع، ١٤٠٤ هـ ـ ١٩٨٤ م

٤٦ ـ ابن هشام، أبو عبد الله محمد. **السيرة النبوية**، ط ١، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت ـ، بدون تاريخ.

٤٧ ـ هيكل، محمد حسين. **حياة محمد (ص)**، ط ١٦، دار المعارف، د. ت.

خامساً: كتب التاريخ

١ ـ ابن الأثير، عز الدين أبو الحسن بن أبي الكرم محمد. **الكامل في التاريخ**، ط ٢، دار العلم للملايين ـ بيروت ـ، ١٩٨٧ م

٢ ـ الألوسي، محمد شكري. **بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب**، مطابع المجموعة الإعلامية ـ جدة ـ، ١٤٠٩ هـ ـ ١٩٨٩ م

٣ ـ الحموي، ياقوت عبد الله. **معجم البلدان**، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت ـ، د. ت

٤ ـ ابن خلدون، عبد الرحمن. **المقدمة**، تحقيق: عبد الواحد وافي، ط ٢، مطبعة لجنة البيان العربي ـ القاهرة ـ، ١٩٦٦ م

٥ ـ خليل، عماد الدين. **التفسير الإسلامي للتاريخ**، ط ٢، دار الغلم للملايين ـ بيروت ـ، ١٩٧٨ م

٦ ـ الدوري، عبد العزيز. **مقدمة في تاريخ صدر الإسلام**

٧ ـ الرفاعي، أنور. **الإسلام في حضارته ونظمه**، ط ٢، دار الفكر ـ دمشق ـ ١٩٨٢ م

٨ ـ الطبري، أو جعفر محمد بن جرير. **تاريخ الأمم والملوك**، دار الفكر ـ بيروت ـ، ١٣٩٩ هـ ـ ١٩٧٩ م

٩ ـ طلس، أسعد. **تاريخ العرب**، ط ٢، دار الأندلس للطباعة والنشر ـ بيروت ـ، ١٣٩٩ هـ ـ ١٩٧٩ م

١٠ ـ العلي، أحمد صالح. **محاضرات في تاريخ العرب**، ط ١، مطبعة الإرشاد ـ بغداد ـ، ١٩٦١ م

١١ ـ قطب، محمد. **حول التفسير الإسلامي للتاريخ**، ط ٢، مطابع المجموعة الإعلامية ـ جدة ـ، ١٩٨١ م

١٢ ـ كحالة، عمر رضا. **العرب من هم؟ وما قيل فيهم؟**، ط ١، مؤسسة الرسالة ـ بيروت ـ، ١٩٧٩ م

١٣ ـ المودودي، أبو الأعلى. **موجز تاريخ تجديد الدين وإحيائه**، ط ١، مؤسسة الرسالة ـ بيروت ـ، ١٣٧٥ هـ ـ ١٩٧٥ م

١٤ ـ النجاري، محمد مصطفى. **دراسات تاريخية للعرب وظهور الإسلام**، ط ١، شركة الطباعة الفنية المتحدة، بدون تاريخ.

١٥ ـ النجم، عمر بن فهد (ت ٨٨٥). **إتحاف الورى بأخبار أم القرى**، تحقيق: فهيم محمد شلتوت، ط ٢، دار الأندلس للطباعة والنشر ـ بيروت ـ، ١٣٩٩ هـ ١٩٨٧ م.

سادساً: كتب فقه الدعوة

١ ـ الحربي، علي بن جابر. **منهج الدعوة النبوية في المرحلة المكية**، ط ١، الزهراء للإعلام العربي ـ القاهرة ـ، ١٤٠٦ هـ ـ ١٩٨٦ م

٢ ـ د. الديلمي، عبد الوهاب بن لطف. **معالم الدعوة في قصص القرآن**، ط ١، دار المجتمع ـ جدة ـ ١٤٠٦ هـ ـ ١٩٨٦ م

٣ ـ الراشد، محمد أحمد. **العوائق**، ط ٣، مؤسسة الرسالة ـ بيروت ـ، ١٣٩٨ هـ ١٩٧٨ م

٤ ـ ــــــــــــــ **المنطلق**، مؤسسة الرسالة ـ بيروت ـ، ١٣٩٦ هـ ـ ١٩٧٧ م

٥ ـ د. شلبي، رؤوف. **الدعوة الإسلامية في عهدها المكي: منهاجها وغاياتها**، ط ٣، دار القلم ـ بيروت ـ، ١٤٠٢ هـ ـ ١٩٨٢ م

٦ ـ الغزالي، محمد. **دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين**، دار القلم ـ دمشق ـ، ١٤٠٧ هـ ـ ١٩٨٧ م

٧ ـ د. غلوش، أحمد محمد. **الدعوة الإسلامية: أصولها ووسائلها**، ط ٢، دار الكتاب المصري ـ القاهرة ـ، ١٤٠٧ هـ ـ ١٩٨٧ م

٨ ـ فضل الله، محمد حسين. **خطوات على طريق الإسلام**، ط ٢، دار التعارف ـ بيروت ـ، ١٣٩٩ هـ ـ ١٩٧٩ م

٩ ـ محفوظ، علي. **هداية المرشدين**، ط ٩، دار الاعتصام ـ القاهرة ـ، ١٩٧٩ م

١٠ ـ د. همام، محمد سعيد. **قواعد الدعوة إلى الله**، ط ١، دار الشهاب ـ باتنة ـ، ١٩٨٣ م

١١ ـ يكن، فتحي. **الاستيعاب في حياة الدعوة والداعية**، ط ١، مؤسسة الرسالة ـ بيروت ـ، ١٩٨٣ م

١٢ ــــــــــــــ **المتساقطون على طريق الدعوة**، ط ١، مؤسسة الرسالة ـ بيروت ـ، ١٤٠٤ هـ ـ ١٩٨٤ م

سابعاً: كتب الدراسات العامة

١ ـ الأفغاني، سعيد. **الإسلام والمرأة**، ط ٣، دار الفكر ـ دمشق ـ، ١٣٨٩ هـ ١٩٧٠ م

٢ ـ البهي، محمد. **الدين والحضارة الإنسانية**، ط ١، مكتبة الشركة الجزائرية ـ الجزائر ـ، د. ت١٣ ـ أرنولد، توماس. **الدعوة إلى الإسلام**، ترجمة: حسن إبراهيم وآخرون، ط ٣، مكتبة النهضة ـ القاهرة ـ، ١٩٧١ م

٣ ـ بيريه، جان. **الذكاء والقيم المعنوية في الحرب**، تعريب: المقدم الهيثم الأيوبي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ـ بيروت ـ، ١٩٨٦ م

٤ - ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم (ت ٧٢٨ هـ). **اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم**، دار المعرفة - بيروت -، د. ت

٥ ———— **مجموع الفتاوي**، مكتبة المعارف - الرباط -، - المغرب -، د. ت

٦ - الجابري، محمد عابد. **العقل السياسي العربي محدداته وتجلياته**، ط ١، دار النشر المغربية - الدار البيضاء -، ١٩٩٠ م.

٧ - جودت سعيد. **إقرأ وربك الأكرم**، ط ١، دار الفكر - دمشق -، ١٤٠٨ هـ ١٩٨٨ م

٨ ———— **الإنسان حين يكون كلا وحين يكون عدلاً**، المطبعة العربية - غرداية -، ١٩٩٠ م

٩ ———— **حتى يغيروا ما بأنفسهم**، ط ٤، المطبعة العربية - غرداية -، ١٣٩٨ هـ ١٩٨٧ م

١٠ ———— **العمل قدرة وإرادة**، دار الفكر - دمشق -، ١٩٨٣ م

١١ - ابن الجوزي، عبد الرحمن. **تلبيس إبليس**، دار الكتب العلمية - بيروت -، د. ت

١٢ - حسن، سيد دسوقي. **مقدمات في البعث الحضاري**، ط ١، دار آفاق الغد - القاهرة -، ١٤٠١ هـ ١٩٨١ م

١٣ - حسن، سيد دسوقي و محمد محمود سفر. **ثغرة في الطريق المسدود**، ط ١، دار آفاق الغد - القاهرة -، ١٤٠١ هـ ١٩٨٢ م

١٤ - حطب، زهير. **تطور بنى الأسرة العربية**، ط ١، معهد الإنماء العربي - بيروت -، ١٩٧٩ م

١٥ - الخطيب، عبد الكريم. **التعريف بالإسلام في مواجهة العصر الحديث وتحدياته**، ط ١، مطبعة الجنوب - مدينة تونس -، ١٤٠٠ هـ ١٩٨٠ م

١٦ - خلاف، عبد الوهاب. **السياسة الشرعية أو نظام الدولة الإسلامية**، دار الأنصار - القاهرة -، ١٣٩٧ هـ ١٩٧٧ م

١٧ - د. الخميسي، سيد سلامة. **التربية وتحديث الإنسان العربي**، ط ١، عالم الكتب - القاهرة -، ١٩٨٢ م.

١٨ - د. الدريني، فتحي. **خصائص التشريع الإسلامي**، مؤسسة الرسالة - بيروت -، ١٩٨٣ م

١٩ - د. دسوقي، فاروق أحمد. **استخلاف الإنسان في الأرض**، ط ١، دار الدعوة - الإسكندرية -، ١٣٨٩ هـ ١٩٧٠ م

٢٠ - سبع، توفيق محمد. **قيم حضارية في القرآن الكريم**، ط ١، الشركة المصرية للطباعة - القاهرة -، ١٣٩٢ هـ ١٩٧٢ م

٢١ - شلتوت، محمد. **الإسلام عقيدة وشريعة**، دار الشروق - القاهرة -، ١٩٧٨ م

٢٢ - صبحي، عبد الحميد. **نظرات في الحرب الحديثة**، المكتبة العصرية - بيروت -، ١٩٧٩ م

٢٣ - ابن عاشور، محمد الطاهر. **مقاصد الشريعة الإسلامية**، ط ١، الشركة التونسية للتوزيع، ١٩٧٨ م

٢٤ -عبد الواحد، مصطفى. **المجتمع الإسلامي في ضوء الكتاب والسُّنة**، ط ٢، دار الجيل - بيروت -، ١٣٩٤ هـ ١٩٧٤ م

٢٥ - العجمي، أبو اليزيد. **الأخلاق بين العقل والنقل**، ط ١، دار الثقافة العربية - القاهرة -، ١٤٠٩ هـ ١٩٨٩ م

٢٦ - العقاد، عباس محمود. **التفكير فريضة إسلامية**، ط ١، المكتبة العصرية - بيروت -، بدون تاريخ.

٢٧ ———— **حقائق الإسلام وأباطيل خصومه**، ط ١، دار القلم - القاهرة -، ١٣٨٢ هـ ١٩٦٢ م

٢٨ - علي، سيد أمير. **روح الإسلام**، ط ٦، دار العلم للملايين - بيروت -، ١٩٨٠ م

٢٩ - عمر محمد زيان. **البحث العلمي منهاجه وتقنياته**، ط ٤، دار الشروق - جدة -، ١٩٨٣ م

٣٠ - الغزالي، أبو حامد. **إحياء علوم الدين**، ط ١، دار الفكر - بيروت -، ١٤٠٠ هـ ١٩٨٠ م

٣١ - القاسمي، ظافر. **نظام الحكم في الشريعة والتاريخ الإسلامي**، ط ٣، دار النفائس - بيروت -، ١٤٠٠ هـ ١٩٨٠ م

٣٢ - القرافي، شهاب الدين أبي العباس. **الفروق**، ط ١، دار المعرفة - بيروت -، د. ت

٣٣ - القرضاوي، يوسف. **الإسلام والعلمانية وجهاً لوجه**، ط ١، دار الصحوة - القاهرة -، ١٤٠٨ هـ ١٩٨٧ م

٣٤ ———— **الخصائص العامة للإسلام**، ط ٣، مؤسسة الرسالة - بيروت -، ١٤٠٥ هـ ١٩٨٥ م

٣٥ ———— **شريعة الإسلام**، ط ٢، المكتب الإسلامي - بيروت -، ١٩٨٧ م

٣٦ - قطب، سيد. **الإسلام والسلام العالمي**، ط ٧، دار الشروق - بيروت -، ١٣٩٨ هـ ١٩٧٨ م

٣٧ ـ قطب، سيد. خصائص التصور، دار الشروق ـ بيروت ـ، د. ت

٣٨ ـــــــــ العدالة الاجتماعية في الإسلام، ط ٨، دار الشروق ـ بيروت ـ، ١٤٠٢ هـ ـ ١٩٨٢ م

٣٩ ـــــــــ معالم في الطريق، دار الشروق ـ بيروت ـ، د. ت

٤٠ مقومات التصور الإسلامي، ط ٤، دار الشروق ـ بيروت ـ، ١٤٠٨ هـ ـ ١٩٨٨ م

٤١ ـــــــــ نحو مجتمع إسلامي، دار الشروق ـ بيروت ـ، د. ت.

٤٢ ـــــــــ هذا الدين، دار الشروق ـ بيروت ـ، د. ت

٤٣ ـ قطب، محمد. دراسات قرآنية، ط ٣، دار الشروق ـ بيروت ـ، ١٤٠٢ هـ ـ ١٩٨٢ م

٤٤ ـــــــــ مفاهيم ينبغي أن تصحح، ط ٥، دار الشروق ـ بيروت ـ، ١٤٠٨ هـ ـ ١٩٨٩ م

٤٥ ـ كاريل، الكسيس. الإنسان ذلك المجهول، ترجمة: عادل شفيق، ط ١، الدار القومية للطباعة والنشر ـ القاهرة ـ، ١٩٦٤ م

٤٦ ـ الكلبي، محمد السائب. كتاب الأصنام، المطبعة الأميرية ـ القاهرة ـ، ١٣٨٢ هـ.

٤٧ ـ كورتوا، جون. لمحات في فن القيادة، تعريب: المقدم الهيثم الأيوبي، ط ٢، المؤسسة العربية للطباعة والنشر ـ بيروت ـ، ١٤٠٠ هـ ـ ١٩٨٠ م

٤٨ ـ المبارك، محمد. الإسلام والفكر العلمي، دار الفكر ـ بيروت ـ، ١٣٩٨ هـ ـ ١٩٨٧ م

٤٩ ـ ملتقى قيروان. الدين والمجتمع، الدار التونسية، ١٩٧٨ م

٥٠ ـ موسى، محمد يوسف. نظام الحكم في الإسلام، ط ٢، دار المعرفة ـ القاهرة ـ، ١٩٤٦ م

٥١ ـ الميداني، عبد الرحمن حسين جنكة. أسس الحضارة الإسلامية ووسائلها، ط ٢، دار القلم ـ دمشق ـ، ١٤٠٠ هـ ـ ١٩٨٠ م

٥٢ ـ ابن نبي، مالك. بين الرشاد والتيه، ط ١، دار الفكر ـ دمشق ـ، ١٤٠٦ هـ ـ ١٩٨٦ م

٥٣ ـــــــــ (ت ١٩٦٣ م). تأملات، ط ٢، دار الفكر ـ دمشق ـ، ١٤٠١ هـ ـ ١٩٨١ م

٥٤ ـــــــــ شروط النهضة، ط ٣، دار الفكر، ١٩٦٩ م

٥٥ ـــــــــ في مهب المعركة، ط ١، دار الفكر ـ دمشق ـ، ١٤٠١ هـ ـ ١٩٨١م

٥٦ ـ ابن نبي، مالك. **مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي**، ط ١، دار الحكمة ـ تونس ـ، ١٤٠٥ هـ ١٩٨٥ م
٥٧ ـــــــــــ **مشكلة الثقافة**، ط ٢، دار الفكر ـ دمشق ـ، ١٣٩١ هـ
٥٨ ـــــــــــ **ميلاد مجتمع**، ط ٢، دار الفكر ـ دمشق ـ، ١٩٧٤ م
٥٩ ـ النجار، عبد المجيد. **العقل والسلوك في البنية الإسلامية**،
٦٠ ـ الندوي، أبو الحسن. **ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين**، ط ٨، دار الكتاب العربي ـ بيروت ـ، ١٤٠٤ هـ ١٩٨٤ م

ثامناً: كتب المعاجم

الأصفهاني، الراغب. **معجم مفردات ألفاظ القرآن**، تحقيق: نديم مرعشلي، دار الكتاب العربي ـ بيروت ـ، ١٩٧٢ م
أنيس، إبراهيم وآخرون. **المعجم الوسيط**، ط ٢، ـ القاهرة ـ، د. ت
٣ ـ الرازي، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر. **مختار الصحاح**، ترتيب: محمود خاطر، دار المعارف ـ بيروت ـ، د. ت
٤ ـ الزاوي، الطاهر أحمد. **ترتيب القاموس المحيط**، ط ٣، دار الفكر، ١٩٥٩ م
٥ ـ الزمخشري، جار الله أبي القاسم محمود (ت ٥٣٨). **أساس البلاغة**، بدون مكان للطبع، ١٣٩٩ هـ ١٩٧٩ م
٦ ـ عبد الباقي، محمد فؤاد. **المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم**، ط ٢، دار الفكر ـ بيروت ـ، ١٤٠١ هـ ١٩٨١ م
٧ ـ ابن فارس، أبو الحسين أحمد بن زكريا. **معجم مقاييس اللغة**، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الفكر، ١٣٩٩ هـ ١٩٧٩ م
٨ ـ ابن منظور. **لسان العرب**، تحقيق: عبد الله علي الكبير وآخرون، ط ٣، دار المعارف
٩ ـ مجمع اللغة العربية القاهرة. **المعجم الفلسفي**، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، ١٤٠٣ هـ ١٩٨٣ م

تاسعاً: قائمة استدراكية

١ ـ الأصفهاني، الراغب. **الذريعة إلى مكارم الشريعة**، ط ١، دار الوفاء ـ القاهرة ـ، ١٤٠٥ هـ ١٩٨٥ م

٢ ـ ألكسيس كاريل. **تأملات في سلوك الإنسان**، الدار القومية للطباعة والنشر ـ القاهرة ـ، ١٩٦٥ م
٣ ـ ابن باديس، عبد الحميد. تفسير ابن باديس، إعداد: د. توفيق محمد شاهين ومحمد الصالح رمضان، ط ٣، دار الفكر ـ بيروت ـ، ١٣٩٩ هـ ١٩٧٩ م
٤ ـ البهي، محمد. **الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار**، ط ١، دار الفكر ـ بيروت ـ، ١٩٧٦ م
٥ ـ الحلبي، علي برهان. **السيرة الحلبية**، دار المعرفة ـ بيروت ـ، ١٤٠٠ هـ
٦ ـ خليل، عماد الدين. **مدخل إلى موقف القرآن من العلم**، ط ١، مؤسسة الرسالة ـ بيروت ـ، ١٤٠٣ هـ ١٩٨٣ م
٧ ــــــــــــ **آفاق قرآنية**، ط ١، دار العلم للملايين ـ بيروت ـ، ١٩٧٩ م
٨ ـ الذهبي، محمد بن أحمد. **سير أعلام النبلاء**، مؤسسة الرسالة ـ بيروت.
٩ ـ الزحيلي، وهبة. **نظرية الضرورة الشرعية**، ط ٤، مؤسسة الرسالة ـ بيروت ـ، ١٤٠٥ هـ ١٩٨٥ م
١٠ ـ الصدر، محمد باقر. **خلافة الإنسان وشهادة الأنبياء**، دار المنتظر ـ بيروت ـ، د. ت
١١ ـ الطالبي، عمار. ابن باديس: **حياته وآثاره**، ط ١، دار اليقظة العربية ـ بيروت ـ، ١٩٦٨ م
١٢ ـ العسقلاني، أحمد بن حجر. **الإصابة في تمييز الصحابة**، دار نهضة مصر ـ القاهرة ـ، ١٣٨٣ هـ
١٣ ـ أبو فارس، محمد عبد القادر. **النظام السياسي في الإسلام**،
١٤ ـ محمد علي محمد وآخرون. **المرجع في العلوم الاجتماعية**، دار المعرفة الجامعية ـ القاهرة ـ، ١٩٨٥ م
١٥ ـ يكن، فتحي. **التربية الوقائية في الإسلام**، ط ١، مؤسسة الرسالة ـ بيروت ـ، ١٤٠٩ هـ ١٩٨٩ م

عاشراً: الدوريات

١ ـ **الأمة «القطرية»** مقال: لعمر عبيد حسنة. العدد: ٥١. ص: ٥ بعنوان «قبسات من موقع القدوة».
٢ ـ **المسلم المعاصر**. مقال للدكتور محمد أنس الزرقا. العدد: ١٦ بعنوان: «صياغة إسلامية لدالة المصلحة الاجتماعية».

الفهارس العامة

فهرس الآيات القرآنية الكريمة

سورة البقرة

سورة آل عمران

سورة النساء

سورة المائدة

سورة الأنعام

سورة الأعراف

سورة الأنفال

سورة التوبة

سورة يونس

سورة هود

سورة يوسف

سورة الرعد

سورة إبراهيم

سورة الحجر

سورة النّحل

سورة الإسراء

سورة الكهف

سورة مريم

سورة طه

سورة الأنبياء

سورة الحج

سورة المؤمنون

سورة النّور

سورة الفرقان

سورة الشعراء

سورة النمل

سورة القصص

سورة العنكبوت

سورة الرّوم

سورة لقمان

سورة السّجدة

سورة الأحزاب

سورة سبأ

سورة فاطر

سورة يَس

سورة الصافات

سورة ص

سورة الزمر

سورة فصّلت

سورة الشورى

سورة الزخرف

سورة الجاثية

سورة الأحقاف

سورة محمّد

سورة الفتح

سورة الحجرات

سورة ق

سورة الذاريات

سورة الطّور

سورة النجم

سورة الحديد

سورة المجادلة

سورة الحشر

سورة الصف

سورة الجمعة

سورة الطلاق

سورة التحريم

سورة الملك

سورة القلم

سورة المزمّل

سورة المدّثر

سورة الجن

سورة الإنسان

سورة عبس

سورة التكوير

سورة المطفّفين

سورة الغاشية

سورة الضحى

سورة الشرح

سورة العلق

سورة البيّنة

سورة الزلزلة

سورة قريش

سورة الكوثر

سورة الكافرون

سورة الإخلاص

سورة الفاتحة

فهرس الأحاديث النبوية الشريفة

- أ -

– ب –

- م -

- ن -

- هـ -

- و -

- ي -

فهرس الأعلام

- غ -

- ف -

- ق -

- ك -

- ل -

- م -

- ن -

- هـ -

- و -

- ي -

فهرس الأماكن

فهرس القبائل

فهرس الشعوب

إصدارات المعهد العالمي للفكر الإسلامي

أولاً – سلسلة إسلامية المعرفة

- **إسلامية المعرفة**: المبادئ وخطة العمل، الطبعة الثانية، (١٤١٣هـ/١٩٩٢م).
- **الوجيز في إسلامية المعرفة**: المبادئ العامة وخطة العمل مع أوراق عمل بعض مؤتمرات الفكر الإسلامي، (١٤٠٧هـ/١٩٨٧م). أعيد طبعه في المغرب والأردن والجزائر.
- **نحو نظام نقدي عادل**، للدكتور محمد عمر شابرا، ترجمه عن الإنجليزية سيد محمد سكر، وراجعه الدكتور رفيق المصري، الكتاب الحائز على جائزة الملك فيصل العالمية لعام (١٤١٠هـ/١٩٩٠م)، الطبعة الثالثة (منقحة ومزيدة)، (١٤١٢هـ/١٩٩٢م).
- **نحو علم الإنسان الإسلامي**، للدكتور أكبر صلاح الدين أحمد، ترجمه عن الإنجليزية الدكتور عبد الغني خلف الله، (١٤١٠هـ/١٩٩٠م).
- **منظمة المؤتمر الإسلامي**، للدكتور عبد الله الأحسن، ترجمه عن الإنجليزية الدكتور عبد العزيز الفائز، الرياض، (١٤١٠هـ/١٩٩١م).
- **تراثنا الفكري في ميزان الشرع والعقل**، للشيخ محمد الغزالي، الطبعة الثانية، (منقحة ومزيدة) (١٤١٢هـ/١٩٩١م).
- **مدخل إلى إسلامية المعرفة: مع مخطط لإسلامية علم التاريخ**، للدكتور عماد الدين خليل، الطبعة الثالثة (منقحة ومزيدة) (١٤١٤هـ/١٩٩٤م).
- **إصلاح الفكر الإسلامي**، للدكتور طه جابر العلواني، الطبعة الثالثة، (١٤١٣هـ/١٩٩٢م).
- **إسهام الفكر الإسلامي في الاقتصاد المعاصر**، أبحاث الندوة المشتركة بين مركز صالح عبد الله كامل للأبحاث والدراسات/بجامعة الأزهر والمعهد العالمي للفكر الإسلامي، (١٤١٢هـ/١٩٩٢م).
- **ابن تيمية وإسلامية المعرفة**، للدكتور طه جابر العلواني، الطبعة الثانية، (١٤١٥هـ/١٩٩٥م).
- **الإسلام والتحدي الاقتصادي** ، للدكتور محمد عمر شابرا (١٤١٦هـ/١٩٩٥م)

ثانيًا – سلسلة إسلامية الثقافة

- **دليل مكتبة الأسرة المسلمة**، خطة وإشراف الدكتور عبد الحميد أبو سليمان، الطبعة الثانية (منقحة ومزيدة) (١٤١٢هـ/١٩٩٢م).
- **الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف**، للدكتور يوسف القرضاوي (بإذن من رئاسة المحاكم الشرعية بقطر)، (١٤٠٨هـ/١٩٨٨م).

ثالثًا – سلسلة قضايا الفكر الإسلامي

- **حجية السنة**، للشيخ عبد الغني عبد الخالق، الطبعة الثالثة، (١٤١٥هـ/١٩٩٥م).
- **أدب الاختلاف في الإسلام**، للدكتور طه جابر العلواني، الطبعة الخامسة (منقحة ومزيدة (١٤١٣هـ/١٩٩٢م).

- **الإسلام والتنمية الاجتماعية**، للدكتور محسن عبد الحميد، الطبعة الثانية، (١٤١٢هـ/١٩٩٢م).
- **كيف نتعامل مع السنة النبوية: معالم وضوابط**، للدكتور يوسف القرضاوي، الطبعة الخامسة، (١٤١٣هـ/١٩٩٢م).
- **كيف نتعامل مع القرآن**: مدارسة مع الشيخ محمد الغزالي أجراها الأستاذ عمر عبيد حسنة، الطبعة الثالثة، (١٤١٣هـ/١٩٩٣م).
- **مراجعات في الفكر والدعوة والحركة**، للأستاذ عمر عبيد حسنة، الطبعة الثانية، (١٤١٣هـ/١٩٩٢م).
- **حول تشكيل العقل المسلم**، للدكتور عماد الدين خليل، الطبعة الخامسة، (١٤١٣هـ/١٩٩٢م).
- **مشكلتان وقراءة فيهما** للأستاذ طارق البشري والدكتور طه جابر العلواني، الطبعة الثالثة، (١٤١٣هـ/١٩٩٣م).
- **حقوق المواطنة: حقوق غير المسلم في المجتمع الإسلامي**، للأستاذ راشد الغنوشي، الطبعة الثالثة، منقحة (١٤١٣هـ/١٩٩٣م).

رابعًا – سلسلة المنهجية الإسلامية

- **أزمة العقل المسلم**، للدكتور عبد الحميد أبو سليمان، الطبعة الثالثة، (١٤١٣هـ/١٩٩٣م).
- **المنهجية الإسلامية والعلوم السلوكية والتربوية**: أعمال المؤتمر العالمي الرابع للفكر الإسلامي، الجزء الأول: **المعرفة والمنهجية**، (١٤١١هـ/١٩٩٠م).
  - الجزء الثاني: **منهجية العلوم الإسلامية**، (١٤١٣هـ/١٩٩٢م).
  - الجزء الثالث: **منهجية العلوم التربوية والنفسية**، (١٤١٣هـ/١٩٩٢م).
  - **مجلد الأعمال الكاملة** (١٤١٥هـ/١٩٩٥م).
- **معالم المنهج الإسلامي**، للدكتور محمد عمارة، الطبعة الثانية، (١٤١٢هـ/١٩٩١م).
- **في المنهج الإسلامي: البحث الأصلي مع المناقشات والتعقيبات**، الدكتور محمد عمارة، (١٤١١هـ/١٩٩١م).
- **خلافة الإنسان بين الوحي والعقل**، للدكتور عبد المجيد النجار، الطبعة الثانية، (١٤١٣هـ/١٩٩٣م).
- **المسلمون وكتابة التاريخ: دراسة في التأصيل الإسلامي لعلم التاريخ**، للدكتور عبد العليم عبدالرحمن خضر، الطبعة الثانية، (١٤١٥هـ/١٩٩٤م).
- **في مصادر التراث السياسي الإسلامي: دراسة في إشكالية التعميم قبل الاستقراء والتأصيل** للأستاذ نصر محمد عارف، (١٤١٤هـ/١٩٩٣م).
- **أعمال مؤتمر علوم الشريعة في الجامعات** (١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م)

خامسًا – سلسلة أبحاث علمية

- **أصول الفقه الإسلامي: منهج بحث ومعرفة**، للدكتور طه جابر العلواني، الطبعة الثانية (منقحة) (١٤١٥هـ/١٩٩٥م).

- التفكر من المشاهدة إلى الشهود: دراسة نفسية إسلامية، للدكتور مالك بدري، الطبعة الثالثة، (منقحة)، (١٤١٣هـ/١٩٩٣م).
- العلم والأيمان: مدخل إلى نظرية المعرفة في الإسلام، للدكتور إبراهيم أحمد عمر، الطبعة الثانية (منقحة)، (١٤١٣هـ/١٩٩٢م).
- فلسفة التنمية: رؤية إسلامية، للدكتور إبراهيم أحمد عمر، الطبعة الثانية (منقحة) (١٤١٣هـ/١٩٩٢م).
- روح الحضارة الإسلامية، للشيخ محمد الفاضل بن عاشور، ضبطها وقدم لها عمر عبيد حسنة، الطبعة الثانية، (١٤١٤هـ/١٩٩٣م).
- دور حرية الرأي في الوحدة الفكرية بين المسلمين، للدكتور عبد المجيد النجار، (١٤١٣هـ/١٩٩٢م).

سادسًا – سلسلة المحاضرات

- الأزمة الفكرية المعاصرة: تشخيص ومقترحات علاج، للدكتور طه جابر العلواني، الطبعة الثانية، (١٤١٣هـ/١٩٩٢م).

سابعًا – سلسلة رسائل إسلامية المعرفة

- خواطر في الأزمة الفكرية والمأزق الحضاري للأمة الإسلامية، للدكتور طه جابر العلواني، (١٤٠٩هـ/١٩٨٩م).
- نظام الإسلام العقائدي في العصر الحديث، للأستاذ محمد المبارك، (١٤٠٩هـ/١٩٨٩م).
- الأسس الإسلامية للعلم، للدكتور محمد معين صديقي، (١٤٠٩هـ/١٩٨٩م).
- قضية المنهجية في الفكر الإسلامي، للدكتور عبد الحميد أبو سليمان، (١٤٠٩هـ/١٩٨٩م).
- صياغة العلوم صياغة إسلامية، للدكتور إسماعيل الفاروقي، (١٤٠٩هـ/١٩٨٩م).
- أزمة العليم المعاصر وحلولها الإسلامية، للدكتور زغلول راغب النجار، (١٤١٠هـ/١٩٩٠م).

ثامنًا – سلسلة الرسائل الجامعية

- نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي، للأستاذ أحمد الريسوني، (١٤١٢١هـ/١٩٩٠م)، الطبعة الثالثة، (١٤١٣هـ/١٩٩٢م).
- الخطاب العربي المعاصر: قراءة نقدية في مفاهيم النهضة والتقدم والحداثة للأستاذ فادي إسماعيل، الطبعة الثالثة، (١٤١٣هـ/١٩٩٢م).
- منهج البحث الاجتماعي بين لوضعية والمعيارية، للأستاذ محمد محمد إمزيان، (١٤١٢هـ/١٩٩١م).
- المقاصد العامة للشريعة: للدكتور يوسف العالم، الطبعة الثانية، (١٤١٥هـ/١٩٩٤م).
- نظريات التنمية السياسية المعاصرة: دراسة نقدية مقارنة في ضوء المنظور الحضاري الإسلامي، للأستاذ نصر محمد عارف، الطبعة الثالثة، (١٤١٤هـ/١٩٩٣م).

- **القرآن والنظر العقلي**، للدكتورة فاطمة إسماعيل، الطبعة الثانية، (١٤١٥هـ/١٩٩٥م).
- **مصادر المعرفة في الفكر الديني والفلسفي**، للدكتور عبد الرحمن زيد الزنيدي، (١٤١٢هـ/١٩٩٢م).
- **نظرية المعرفة بين القرآن والفلسفة**، للدكتور راجح الكردي، (١٤١٢هـ/١٩٩٢م).
- **الزكاة: الأسس الشرعية والدور الإنمائي والتوزيعي**، للدكتورة نعمت عبد اللطيف مشهور،(١٤١٣هـ/١٩٩٣م).
- **فلسفة الحضارة عند مالك بن نبي: دراسة إسلامية في ضوء الواقع المعاصر**، للدكتور سليمان الخطيب، (١٤١٣هـ/١٩٩٣م).
- **الأمثال في القرآن الكريم**، للدكتور محمد جابر الفياض، الطبعة الثالثة (١٤١٥هـ/١٩٩٤م).
- **الأمثال في الحديث الشريف**، للدكتور محمد جابر الفياض، (١٤١٤هـ/١٩٩٤م).
- **تكامل المنهج المعرفي عند ابن تيمية**، للأستاذ إبراهيم العقيلي، (١٤١٥هـ/١٩٩٤م).
- **نظرية المقاصد عند الإمام محمد الطاهر بن عاشور**، للأستاذ إسماعيل الحسني(١٤١٦هـ/١٩٩٥م)
- **الأبعاد السياسية لمفهوم الحاكمية : رؤية معرفية**، للأستاذ هشام جعفر (١٤١٦هـ/١٩٩٥م).
- **فلسلفة المشروع الحضاري بين الإحياء الإسلامي والتحديث الغربي .. (في جزأين)** للدكتور أحمد محمد جاد عبد الرزاق (١٤١٦هـ/١٩٩٥م).
- **المرأة والعمل السياسي: رؤية إسلامية** للأستاذة هبة رؤوف عزت (١٤١٦هـ/١٩٩٥م).

تاسعًا – سلسلة المعاجم والأدلة والكشافات

- **الكشاف الاقتصادي لآيات القرآن الكريم**، للأستاذ محي الدين عطية، الطبعة الثانية، (١٤١٥هـ/١٩٩٤م).
- **الكشاف الموضوعي لأحاديث صحيح البخاري**، للأستاذ محي الدين عطية، الطبعة الثانية، (١٤١٥هـ/١٩٩٤م).
- **الفكر التربوي الإسلامي**، للأستاذ محي الدين عطية، الطبعة الثالثة (منقحة ومزيدة) (١٤١٥هـ/١٩٩٤م).
- **قائمة مختارة: حول المعرفة والفكر والمنهج والثقافة والحضارة**، للأستاذ محي الدين عطية، (١٤١٣هـ/١٩٩٢م).
- **معجم المصطلحات الاقتصادية في لغة الفقهاء**، للدكتور نزيه حماد، الطبعة الثالثة (منقحة ومزيدة) (١٤١٥هـ/١٩٩٥م).
- **دليل الباحثين إلى التربية الإسلامية في الأردن**، للدكتور عبد الرحمن صالح عبد الله، (١٤١٤هـ/١٩٩٣م).
- **دليل مستخلصات الرسائل الجامعية في التربية الإسلامية بالجامعات المصرية والسعودية**، للدكتور عبد ارحمن النقيب، (١٤١٤هـ/١٩٩٣م).

- الدليل التصنيفي لموسوعة الحديث النبوي الشريف ورجاله، إشراف الدكتور همام عبد الرحيم سعيد، (١٤١٤هـ/١٩٩٤م).

عاشرًا – سلسلة تيسير التراث

- كتاب العلم، للإمام النَّسائي، دراسة وتحقيق الدكتور فاروق حمادة. الطبعة الثانية، (١٤١٥هـ/١٩٩٤م).

حادي عشر – سلسلة حركات الإصلاح ومناهج التغيير

- هكذا ظهر جيل صلاح الدين .. وهكذا عادت القدس، للدكتور ماجد عرسان الكيلاني، الطبعة الثانية (منقحة ومزيدة)، (١٤١٥هـ/١٩٩٤م).
- تجربة الإصلاح في حركة المهدي بن تومرت: الحركة الموحدية بالمغرب أوائل القرن السادس الهجري، للدكتور عبد المجيد النجار، الطبعة الثانية (منقحة ومزيدة)، (١٤١٥هـ/١٩٩٥م).

ثاني عشر – سلسلة المفاهيم والمصطلحات

- الحضارة – الثقافة – المدنية "دراسة لسيرة المصطلح ودلالة المفهوم" للأستاذ نصر محمد عارف، الطبعة الثانية، (١٤١٥هـ/١٩٩٤م).

ثالث عشر – سلسلة التنمية البشرية

- دليل التدريب القيادي للدكتور هشام الطالب (١٤١٥هـ/١٩٩٥م).

الموزعون المعتمدون لإصدارات المعهد

المملكة العربية السعودية: الدار العالمية للكتاب الإسلامي ص. ب. 55195 الرياض 11534
هاتف: (966-1) 465-0818 فاكس: (966-1) 463-3489

المملكة الأردنية الهاشمية: المعهد العالمي للفكر الإسلامي ص. ب. 9489 – عمان
هاتف: (962-6) 639-992 فاكس: (962-6) 611-420

لبنان: المكتب العربي المتحد ص. ب. 135788 بيروت.
هاتف: (961-1) 807-779 (961-1) 860-184 فاكس: C/O (212) 478-1491

المغرب: دار الأمان للنشر والتوزيع، 4 زنقة المامونية الرباط
هاتف: (212-7) 723-276 فاكس: (212-7) 200-055

مصر: دار النشر للجامعات المصرية، 16 شارع عدلي/القاهرة ص.ب. -1347 القاهرة 11511
هاتف: (20-2) 391-2209 فاكس: (20-2) 393-1434

الإمارات العربية المتحدة: مكتبة القراءة للجميع ص.ب. 11032، دبي (سوق الحرية المركزي الجديد)
هاتف: (971-4) 663-901 فاكس: (971-4) 690-084

شمال أمريكا:

– أمانة للنشر
AMANA PUBLICATIONS
10710 Tucker Street Suite B, Beltsville, MD 20705-2223
Tel. (301) 595-5777-(800) 660-1777 Fax: (301) 595-5888

– السعداوي للنشر
SA'DAWI PUBLICATIONS
P.O.Box 4059, Alexandria, VA 22303 USA
Tel: (703) 751-4800. Fax: (703) 571-4833

– خدمات الكتاب الإسلامي
ISLAMEC BOOK SERVICE
2622 East Main Street, Plainfield, IN 46168 USA
Tel: (317) 839-8150 Fax: (317) 839-2511

بريطانيا:

– المؤسسة الإسلامية
THE ISLAMIC FOUNDATION
Markfield Da'wah Center, Rutby Lane Markfield, Leicester LE6 ORN, U.K.
Tel: (44-530) 244-944/45 Fax: (44-530) 244-946

– خدمات الإعلام الإسلامي
MUSLIM INFORMATION CENTRE
223 Seven Sisters Rd. London N4 2DA, U.K.
Tel: (44-71) 272-5170 Fax: (44-71) 272-3214

فرنسا: مكتبة السلام
LIBRAIRE ESSALAM
135 Bd. de Menilmontant. 75011 Paris
Tel: (33-1) 43 38 19 56 Fax: (33-1) 43 57 44 31

بلجيكا: سيكومبكس
SECOMPEX. Bd. Mourice Lemonnier; 152
1000 Bruxelles Tel: (32-2) 512-4473 Fax (32-2) 512-8710

هولندا: رشاد للتصدير
RACHAD EXPORT, Le Van Swinden Str. 108 11
1093 Ck Amsterdam Tel: (31-20) 693-3735 Fax (31-20) 693-8827

الهند:
GENUINE PUBLICATIONS & MEDIA (Pvt.) Ltd
P. O. Box 2725 Jamia Nager New Delhi 100025 India
Tel: (91-11) 630-989 Fax: (91-11) 684-1104

المعهد العالمي للفكر الإسلامي

المعهد العالمي للفكر الإسلامي مؤسسة فكرية إسلامية ثقافية مستقلة أنشئت وسجلت في الولايات المتحدة الأمريكية في مطلع القرن الخامس عشر الهجري (١٤٠١هـ - ١٩٨١م) لتعمل على:

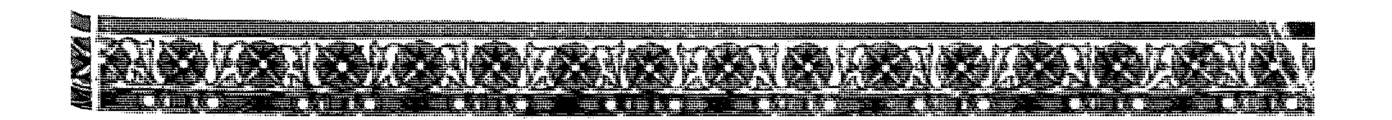
- توفير الرؤية الإسلامية الشاملة، في تأصيل قضايا الإسلام الكلية وتوضيحها، وربط الجزئيات والفروع بالكليات والمقاصد والغايات الإسلامية العامة.
- استعادة الهوية الفكرية والثقافية والحضارية للأمة الإسلامية، من خلال جهود إسلامية العلوم الإنسانية والاجتماعية، ومعالجة قضايا الفكر الإسلامي.
- إصلاح مناهج الفكر الإسلامي المعاصر، لتمكين الأمة من استئناف حياتها الإسلامية ودورها في توجيه مسيرة الحضارة الإنسانيّة وترشيدها وربطها بقيم الإسلام وغاياته.

ويستعين المعهد لتحقيق أهدافه بوسائل عديدة منها:

- عقد المؤتمرات والندوات العلميّة والفكريّة المتخصصة.
- دعم جهود العلماء والباحثين في الجامعات ومراكز البحث العلمي ونشر الإنتاج العلمي المتميز.
- توجيه الدراسات العلميّة والأكاديمية لخدمة قضايا الفكر والمعرفة.

وللمعهد عدد من المكاتب والفروع في كثير من العواصم العربية والإسلامية وغيرها يمارس من خلالها أنشطته المختلفة، كما أن له اتفاقات للتعاون العلمي المشترك مع عدد من الجامعات العربية الإسلامية والغربيّة وغيرها في مختلف أنحاء العالم.

The International Institute of Islamic Thought
555 Grove Street (P.O. Box 669)
Herndon, VA 22070-4705 U.S.A
Tel: (703) 471-1133
Fax: (703) 471-3922
Telex: 901153 IIIT WASH



هذا الكتاب

هو أطروحة جامعيَّة تتناول استراتيجيَّة عمل الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في المرحلة المكيَّة، وذلك بتحليل الأهداف والوسائل، اعتمادًا على روايات منتقاة من كتب السيرة النبويَّة المطهرة، قديمها وحديثها.

والكتاب متفاعل مع العصر، مستوعب لمنجزات الفكر الإسلامي المعاصر في تحديد الأهداف، ورسم المسارات، وتعليل الأحداث، وتحليل الخطط، وقد أسقط من المصطلحات الحديثة على المرحلة المكيَّة ما جعل خطابه معاصرًا، ولغته محببة للقارئ، محملة بالاستعمالات الجديدة المقبولة.

لقد حقق الكتاب هدفه في بيان أهمية المنهج ودوره في نجاح العمل، وفي بيان ما يستلزمه ذلك من ضرورة الاستيعاب الواعي العميق والشامل للرسالة، مع الإحاطة التامة بالواقع المراد تغييره، وفي بيان معالم المنهج النبوي في حماية الدعوة والمحافظة على منجزاتها خلال الفترة المكيَّة، والوقوف على الأسباب الكامنة وراء هذا النجاح التاريخي العظيم، والدلالة على وجه التحقق بالاقتداء والتأسي الأمثل برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، في مجال الدعوة الإسلاميَّة، وفي غيره من مجالات الحياة.

